

المقدمة: الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام، وشرح صدورنا لتلاوة القرآن وفهمه، وأعد لمن صدقه في ذلك الدرجات العُلا في الجنان.

أحمدُه على نِعَمِهِ التي لا تُنْقَطِع، وآلائه التي لا تُنْقِضِي.

سُبْحَانَهُ؛ ما يفتح للناس من رحمةٍ فلا تُمَسِّكُ لها.

وَأُصَلِّيَ وَأُسَلِّمُ عَلَى الرَّحْمَةِ الْمَهْدَاةِ، سيدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، البشيرِ النذيرِ، الذي اصْطَفَاهُ رَبُّنَا مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، وجَعَلَهُ رَسُولًا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، صَلَوَاتُ رَبِّي عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ حَمَلَةِ الشَّرْعِ وَمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَقُدُوتِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ، وَبَعْدُ:

فَهَذَا تَفْسِيرٌ لِسُورَةِ الْأَعْرَافِ، فَصَدْتُ مِنْهُ تَقْرِيبَ عِبَارَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي مَعَانِي الْآيَاتِ وَأَحْكَامِهَا مِنْ عُمُومِ النَّاسِ، لَا سِيَّما أَنَّ عَدَدًا مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ فِيهَا لُغَةٌ عَالِيَةٌ وَصَعْبَةٌ عَلَى أَهْلِ الزَّمَانِ، فَكَانَتْ طَرِيقَةُ التَّصْنِيفِ قَائِمَةً عَلَى انْتِقَاءِ الْعِبَارَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْأَفْهَامِ، وَالِاهْتِمَامِ بَبَيَانِ الْمَعْنَى بِأَكْثَرِ مِنْ مُفْرَدَةٍ وَعِبَارَةٍ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ يَنْتَفِعُ بِهِ كَذَلِكَ صِنْفٌ مِنَ طَلِبَةِ الْعِلْمِ وَالِدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مِمَّنْ تَصَدَّرَ لِمَجَالِسِ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ فِي مُخْتَلَفِ مَوْسَمَاتِهِ وَمَوَاطِنِهِ.

وَتَقْتَصِرُ فِكْرَتُهُ عَلَى تَقْدِيمِ آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَيْئَةِ مَوَاعِظَ، تَنْفَعُ قَارِئَهَا وَحَافِظَهَا، عَنْ طَرِيقِ تَوْضِيحِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا وَبَيَانِ السِّيَاقِ الَّذِي جَاءَتْ فِيهِ، وَذِكْرِ سَبَبِ نَزُولِهَا إِنْ وُجِدَ، ثُمَّ مُحَاوَلَةِ رِبْطِهَا بِالْوَاقِعِ الَّذِي نَعِيشُهُ دُونَ تَكْلُفٍ أَوْ إِسْهَابٍ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَسْمِيئُهُ وَوَسَمْتُهُ بِ (التَّفْسِيرُ الْوَعْظِيُّ)، مُسْتَمِدًّا ذَلِكَ مِنْ عَدَدٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّتِي بَيَّنَتْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَذَكَرَ فِيهِ مَا ذَكَرَ، لِيَكُونَ مَوْعِظَةً لِلنَّاسِ وَتَذَكُّرًا لِعَالَمِهِمْ يَهْتَدُونَ، وَذَلِكَ كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: " فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ " [البقرة: 66]، وَقَوْلِهِ: " هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ " [آل عمران: 138]، وَقَوْلِهِ: " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُوثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ " [هود: 120]، وَقَوْلِهِ: " طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَى " [طه: 1-3]، وَقَوْلِهِ: " وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ " [النور: 34]، وَقَوْلِهِ: " كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ

(11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (12) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ " [عبس: 11-16]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مُوعِظَةٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الشَّهَوَاتِ وَالذُّنُوبِ، يَمُنُّ غَفَلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ تَسْتَقِمَّ جَوَارِحُهُمْ، وَجَدَ أَنَّ وَصُولَ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ لَهُمْ مِفْتَاحٌ مِنْ مِفَاتِيحِ هِدَايَتِهِمْ وَرَجُوعِهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْهُدَى، ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُحِبُّ اللَّهَ تَعَالَى وَيُحِبُّ سَمَاعَ كَلَامِهِ، وَعِنْدَهُ شَعْفٌ وَشَوْقٌ عَجِيبٌ لِلْعِيشِ مَعَ مَعَانِي الْآيَاتِ وَظِلَالِهَا، بِأَسْلُوبٍ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْهُ وَمِنْ فَوَائِدِهِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الْخَوْصِ فِي هَذَا الْعِلْمِ، فَلِئِذَا لَا أَعْلَمُ وَاعْظًا لِلنَّفْسِ أَجْوَدَ وَأَقْرَبَ وَأَحْلَى مِنْ كَلَامِ اللَّهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

بَلْ نَجِدُ فِي بَيَانِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَهِدَايَاتِهِ لِلْعَالَمِينَ مِفْتَاحًا عَظِيمًا مِنْ مِفَاتِيحِ الثَّبَاتِ حَتَّى الْمَمَاتِ، فَإِنَّ الدَّعَاةَ إِلَى اللَّهِ وَالْقَابِضِينَ عَلَى دِينِهِمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى مَا يَعِينُهُمْ فِي زَمَنِ قَلٍّ فِيهِ النَّاصِرُ وَالْمَعِينُ، وَكَثُرَ فِيهِ السَّقُوطُ وَعَزَّ الثَّبَاتُ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّبَهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ، وَهُوَ مَا يَجِدُونَهُ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا تَكَادُ تَمُرُّ بَأَيَّةٍ مِنْهُ إِلَّا وَتَجِدُ غَذَاءً لِلرُّوحِ، وَبِلَسْمًا لِلشِّفَاءِ، وَهَدَايَةً وَنُورًا.

وَالْمُوعِظَةُ هِيَ الْإِرْشَادُ وَالنَّصِيحَةُ الَّتِي يَكُونُ فِيهِ التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِييبُ، وَفِيهِ جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَدَفْعُ الْمَضَارِّ، وَفِيهِ سَعْيٌ لِإِحْيَاءِ الْقَلْبِ وَتَذَكُّرُ صَاحِبِهِ، وَالْحَرَصُ عَلَى هِدَايَتِهِ وَاسْتِقَامَةِ أَمْرِهِ، وَهِيَ غَايَةُ مِنْ غَايَاتِ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَطَرِيقٌ مِنْ طَرِيقِ دَعْوَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَذَا الصَّالِحِينَ كَمَا أَمَرَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " [النحل: 125].

وَلَكُمْ أَنْ تَنْظُرُوا فِي آيَاتِ كِتَابِ رَبِّنَا كَمْ حَوَتْ مِنْ ذِكْرِ لِلْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالْجَحِيمِ، وَلَكُمْ أَنْ تَسْتَحْضِرُوا وَغُظُنَا بِحَقِيقَةِ الدُّنْيَا وَأَنَّ الْمَوْتَ خَاتِمَةُ أَمْرِنَا، وَلَكُمْ أَنْ تَتَأَمَّلُوا قِصَصَ الْقُرْآنِ الَّتِي تُرَبِّي فِيْنَا الْكَثِيرَ وَتُبَصِّرُنَا بِحَقِيقَةِ الطَّرِيقِ، فَضْلًا عَنِ الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي طَفَحَتْ نِصُوصُ الشَّرِيعَةِ بِهَمَّا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

وَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ، وَذَكَرْتُ الْأَحَادِيثَ الْخَادِمَةَ لِفَهْمِ الْآيَةِ، وَأَخَذْتُ الْمَوْعِظَةَ مِنْهَا، وَالْمُرُورَ عَلَى مُجْمَلِ أَقْوَالِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالْفَقْهِ إِنْ لَزِمَ.

وكان من منهجي في ذكر الأحاديث ألا أذكر حديثاً إلا راجعاً كلام أهل التخصص فيه تصحيحاً وتضعيفاً، ثم حرصت على ذكر الصحيح منها غالباً، مُشيراً إلى الأحاديث التي حصل فيها خلاف أو كانت ضعيفة، حال ذكرها.

وَجُلُّ هذا التفسير قائم على مراجع ثابتة لا أخرج عنها إلا إذا احتجْتُ، وهي: كتاب (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) للإمام أبي جعفر الطبري، وكتاب (تفسير القرآن العظيم) للإمام ابن كثير، وتفسير (المنار) للشيخ محمد رشيد رضا، وتفسير (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وتفسير (التحرير والتنوير) للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وتفسير (أضواء البيان) للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، رحمهم الله جميعاً.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن فكرة التفسير الوعظي ليست بدعاً من القول، فإن استنباط المواعظ وذكرها دأب غالب المفسرين في تفسيرهم، وهو جزء من التفسير الموضوعي للمتخصصين في هذا الشأن. فاللهم ربنا سدّد وتقبل، ويسر الأمر، وارزقنا بركة القرآن، واجعله لنا نوراً وشفيعاً في الدنيا والآخرة.

سورة الأعراف

سورة الأعراف سورة عظيمة من سور القرآن، وكل القرآن عظيم، وهي سورة مكية، وظاهر كلام أهل العلم أنها نزلت دفعة واحدة، وقد سُميت بهذا الاسم لأنه جاء فيها ذكر الأعراف في قول الله تعالى: " وَيَبَيِّنُهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًا بِسِيمَاهُمْ " [الأعراف: 46]، والأعراف سور بين الجنة والنار يبقى عليه صنف من العالمين لا يدخل الجنة مع الداخلين ولا يدخل النار مع الداخلين، وسيأتي بيانه وكلام أهل العلم فيه عند تفسير الآية.

وقد قرأ صلى الله عليه وسلم سورة الأعراف كاملة في صلاة المغرب على ركعتين، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري وأبو داود وغيرهما، واللفظ لأبي داود، عن مروان بن الحكم، قال: قال لي زيد بن

ثابت: " ما لك تقرأ في المغرب بقصار المَفَصَّل ¹ وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بطُولِ الطَّوْلَيْنِ، قال: قلت: ما طُولُ الطَّوْلَيْنِ؟ قال: الأعراف، والأخرى الأنعام".

وأخرج النسائي في سننه عن عائشة رضي الله عنها، " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فَرَقَهَا في ركعتين".

وتطويله صلى الله عليه وسلم الصلاة هنا في الناس لم يكن غالب حاله، ولكنه يفعلها أحياناً تربية للناس وتعويداً لهم على معالي الأمور، فإن الثابت عنه صلى الله عليه وسلم في غالب إمامته للناس في الصلوات المكتوبة أنه كان يخفف بالقدر المناسب، بل كان يأمر بذلك لئلا يشق على الناس، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا صلى أحدكم للناس فَلْيُخَفِّفْ، فإنه منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطوّل ما شاء".

والمأمل في السورة يجد أن فيها إعلاءً من شأن القرآن الكريم، ويجد أنها تقصد إلى غرس التوحيد الخالص لله جل وعلا في النفوس، عن طريق النهي عن اتخاذ الشركاء، وإنذار المشركين من سوء عاقبتهم إذا ماتوا على ذلك، وعن طريق بيان عدد من أدلة عظمة الله ووحدانيته، وعن طريق ذكّر حال كثير من الرسل والأنبياء مع أقوامهم، وذكر ما حلّ بمن كذّب منهم وصد عن سبيل الله، وقد أفاضت السورة في ذلك، وخاصة في قصة موسى عليه السلام مع قومه والتي استغرقت مساحة واسعة من السورة، بل ربما عُدَّ السياق القرآني هنا في الحديث عن قصة نبي الله موسى هو الأكمل والأطول والأكثر تعرّضاً لتفاصيل أُجملت في سور أخرى.

وتجدون في السورة حكاية لقصة أول الخلق، ووصفاً لتلك العداوة التي أعلنها الشيطان للإنسان، وما ذاك إلا ليَحْذَرَ من حبائل هذا الشيطان ويتقيها، وليتخذ عدوّاً كما قال ربنا: " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمُ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ " [فاطر: 6].

وفي السورة إثبات للبعث والحساب، وما ينتظرنا من أهوال فيهما حتى يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار.

¹ وتبدأ من سورة الضحى إلى آخر القرآن، وبعضهم قال: من سورة البينة.

بسم الله الرحمن الرحيم

- { المص }

الحروف المقطعة التي في أوائل السور مما استأثر الله معانيها ودلالاتها بعلمه، وهذا مروى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم.

والعلماء على أنَّ هذه الحروف لها معنى، ولكنا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا، وَقُلْنَا: " آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا " [آل عمران: 7]؛ لأنه لم يَصِحَّ فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء.

ومن أهل العلم من قال: إنما ذُكِرَتْ هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن؛ ووجه ذلك أن القرآن تَرَكَّبَ من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطب الناس بها، وقد أنزله الله تعالى على أهل العربية والفصاحة والبلاغة، وتحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سُورٍ أو بسورة واحدة، ولكنهم عجزوا عن ذلك ولا زالوا عاجزين، فكان في ذكر هذه الحروف في أوائل السورة إشارةً إلى عَظَمَةِ كلام الله وإعجازه، وأنه ليس من كلام البشر، فكأن الله تعالى أراد أن يقول بافتتاح كثير من السور بالحروف المقطعة: هذه نفس حروفكم أيها العرب، فلماذا تعجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بسورة منه؟!

ولهذا كان من غريب حال قريش أنها لم تعترض على هذه الحروف المقطعة يوم سمعتها وعلمت بها، مع أنها كانت تتربص بالقرآن وبالمؤمنين أيما تربص، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أنها لم تر فيها ما هو غريب عن لغة العرب، وأن هذه الحروف لها وقَّعها الذي لا يخفى في نفوسهم وعقولهم.

ولهذا نجد أن غالب السور التي افْتُتِحَتْ بالحروف المقطعة قد جاء فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة.

ومن أمثلة مجيء الانتصار للقرآن وبيان عظمته بعد الحروف المقطعة قولُ الله تَعَالَى: " الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ " [البقرة: 1-2]، وقولُ الله سبحانه: " الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ " [آل عمران: 1-3]، وقولُ الله: " الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " [إبراهيم: 1]، وقوله سبحانه: " حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " [فصلت: 1-3]، وكذا أوائل سورة الأعراف التي نشرحها، وكذا أوائل سورة (ص) وسورة (ق)، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ مِنْ حِكْمَتِهَا بَيَانُ وَقُوعِ التَّحْدِي بِهَا.

- { كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }

أنزل الله القرآن إليك يا رسول الله، واصطفاك من بين الناس لتبلغه للعالمين، وذلك كما أنزل صحف إبراهيم، وكما أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، عليهم جميعاً صلوات ربي وسلامه، أنزل الله عليك القرآن فلا تتحرج منه، أي: لا يكن في صدرك أيُّ استثقال لتكليفك بتبليغه، ولا أدنى شكٍّ في أنه الحق المبين، وإن تعرّضت لأنواع الأذى، فإنه من المعلوم لديكم أنه من تصدى لتبليغ هذا القرآن ونشره في العالمين، فإنه لا بد أن يُدافع ويُمنع، ولا بد أن يحرص أعداء هذا القرآن على الطعن فيه والإعراض عنه، وصد الناس عن الاستماع إليه وفهمه، ولا بد أن يسعوا في إيقاع الأذية بحملته ومحبيه والمطالبين بتحكيمة، وهو ما حصل مع رسولنا صلى الله عليه وسلم مع قومه حتى خاطبه الله تعالى وقال له: " وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ " [الحجر: 97-99]، وقال سبحانه: " وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ " [النحل: 127-128].

يا حملة الدين وحُرَّاس العقيدة، ويا حملة كلام الله من بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم: ارفعوا رؤوسكم بالقرآن، واعلموا أنه طريقكم إلى سعادة الدنيا والآخرة وعزِّهما، ولا تتحرجوا من قراءته على الناس وإخبارهم بما فيه من عقيدة وأحكام وأخلاق، وكونوا منشرحي الصدر به، واصدعوا بأوامره ونواهيه، واصبروا على تبليغه كما صبر من قبلكم من أنبياء الله ورسله، وإن كذبكم أقوامكم وعاندوكم، وإن تعرضتم لبطشهم وعدوانهم.

يا أهل الإيمان، انظروا في حال من يحملون كلامًا من كلام أهل الدنيا ويعظمونه ويجهلون في نشره وتعليمه للناس، من كلام الملوك وأهل التخصص في فنون شتى، انظروا إليهم كيف يستبشرون به ويحرصون أن يكون شعارًا في المجالس ومواطن الاجتماع مع أنه من كلام البشر، فكيف بنا مع كلام رب البشر جل جلاله، كلامه الذي أنزله علينا لتحيا به قلوبنا وتسعد، ولترتقي في أعلى الدرجات والمراتب، كلامه الذي لا يأتيه الباطل ولا النقص ولا الخلل، ولا يعتريه ما يعتري كلامنا، فإلهم عمّر قلوبنا به، وارزقنا فهمه، وسددنا لنقوم بحقه في العالمين.

{ لِنُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } واعلم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أنزله عليك لتندر به، أي: لتخوف به أهل الكفر مما ينتظرهم إذا عاندوا وبقوا مصرين على جحودهم وإنكارهم، فأنذرهم به وأسمعهم ما فيه لعلمهم يهتدون، ولا تُبال بتكذيبهم. قال الله تعالى: " فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزَلَ عَلَيْهِ كَتَرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ " [هود: 12].

والإنذار هو التعليم والتذكير المقترن بالتخويف والتهديد، والتخويف هنا إنما هو من عذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة، وهذا أسلوب تربوي مؤثر لا يستغني عنه داعية أو معلم أو والد إذا تم استخدامه على أحسن حال، والأصل أن يجمع بينه وبين الترغيب والتشويق وبث الأمل، والجمع بينهما منهج قرآني عظيم يعلمه كل من أجال نظره في هذا الكتاب المحكم المبارك.

واعلم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أنزل إليك القرآن ذِكْرًا لأهل الإيمان، وأهل الإيمان هم الذين يخشون ربهم وينتفعون من التذكرة على خير حال، وهم المستعدون للاهتداء به، فالقرآن يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويرشدكم إلى ما يُرضي الله عنهم، ويعينهم في طريق عبوديتهم وطاعتهم، ويبقى أنيسًا لهم في ليلهم ونهارهم. قال الله تعالى: " وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ " [الذاريات: 55]، وقال سبحانه: " فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ " [ق: 45].

القرآن يصرف أهل الإيمان عن المعاصي، فإذا وقعوا فيها عن جهالة فزعوا إليه لتشفى قلوبهم، وعاشوا مع هداياته العظيمة حتى ترجع قلوبهم إلى سابق عهدها من الإيمان والتقوى.

انظروا كيف يربط الله تعالى على قلب نبيه صلى الله عليه وسلم، وكيف يُنزل السكينة عليه والطمأنينة، وهذه أمور لا يستغني عنها كل من اصطفاه الله لحمل الرسالة، ليس فقط من الرسل والأنبياء، وإنما من المصلحين والدعاة في كل الأزمان، وكأن الآية تقول لنا: اطمئنوا بما معكم من الهدى والنور، واحفظوا هذا القرآن وبلغوه، واملؤوا قلوبكم باليقين والثقة والتوكل، واسألوا الله الثبات حتى الممات.

- { اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } -

هذا خطاب لكل الناس يقول لهم: لقد جاءكم هذا النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن والسنة، وبلغكم هذا الدين كما أمره الله، وبذل من أساليب دعوتكم العَجَب العُجَاب، وصبر على أنواع من الأذى من أجلكم، فاتبعوا ما جاءكم به، واستقيموا خيراً لكم.

صحيح أن الآية جاءت في معرض خصومة أهل الشرك وإقامة الحجة عليهم، ودعوتهم للحق والصراط المستقيم، وجاءت في معرض ما أمر الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم من مخاطبة قومه، ولكن أهل الإيمان يدركون أنهم مشمولون بهذا الخطاب لحاجتهم إليه في مواجهة الشبهات والشهوات، ولأنهم يعلمون أنهم في طريق سيرهم إلى الله وثباتهم لا يستغنون عن الموعظة، ولا يتعالون عن التذكرة.

يا أهل الشرك: اتبعوا هذا القرآن تهتدوا، وتأملوا ما فيه من دلائل ومعجزات، واتركوا ما أنتم عليه من اعتقاد، وآمنوا بخالقكم ومدبر أموركم إلهًا واحدًا لا شريك له.

ويا أهل الإيمان: اتبعوا الأمر والنهي في هذا القرآن، واجعلوه حَكَمًا في حياتكم وحاكماً ومهيمنًا، واحذروا من تحكيم غيره من شرائع أهل الأرض التي قامت على غير منهج الله.

ثم اجعلوه هاديًا لكم إذا عرضت لكم شهوة أو شبهة، فإذا اقترب منك المال الحرام، أو فعل الزنا، أو شرب الخمر، أو ظلم الغير، أو مجالسة أهل الفسق والفجور، فافزع إلى كتاب الله يربط على قلبك ويصرفك عما يسوؤك، وإذا أراد أحدهم أن يُلِيسَ عليك دينك، ويدخل إلى قلبك ما يفسده، ويحتال عليك ليصرفك عن طريق طاعتك ودعوتك، فاتبع ما أنزل إليك من ربك، واطلب الثبات من آيات الله المحكمات، يطمئن قلبك، ويهنأ عيشك.

{ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } ولا تخرجوا عما جاءكم به من الهدى فتكونوا ممن خسر ديناه وآخرته، ولا تتولوا غيره من أصنام البشر والحجر فتضلوا، ولا تتبعوا أهواءكم وما كان عليه آباؤكم، ولا ترضوا بغيره سبحانه حافظاً وناصرًا ومعينًا، ولا ترضوا بغير شريعته شرعة ومنهاجًا. قال الله تعالى: " أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " [الشورى: 9].

كان أهل الجاهلية يعتقدون أن الله موجود، وأنه الخالق والرازق والمحيي والمميت، ولكنهم اتخذوا الأصنام واسطة بينهم وبين الله، وجعلوها شريكة لله فيما ينفع ويضر، وتقربوا إليها بأنواع من القربات ما أنزل الله بها من سلطان، حتى كانت عظمتها في قلوبهم كعظمة الله أو أكثر، ولذلك نهاهم عن اتخاذ الواسطة بينهم وبينه، كما حصل النهي لأهل الكتاب في طاعتهم لأخبارهم ورهبانهم يوم أحلوا الحرام وحرموا الحلال، ويوم جعل النصارى الآلهة ثلاثًا.

{ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } إخبار من الله عن غالب حال الناس، فإنهم يرون آلاء الله ودلائل عظمته وقدرته ووحدانيته، وتأتيهم الرسل بالمعجزات وتدعوهم إلى التوحيد، وتذكرهم بما ينتظرهم بعد موتهم من بعث وحساب وجنة أو نار، وكذا ينادي عليهم الدعاة إلى الله والعلماء والقابضون على دينهم أن أفيقوا وتوبوا إلى ربكم وأسلموا، ولكن أكثرهم لا ينتفع من هذه الذكرى بشيء، ولا يحاسب نفسه فيرجع إلى الحق، ولا ينتهي عما هو عليه ولكن يعاند ويمضي في طريق الكفر والصد عن سبيل الله. قال الله تعالى: " وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " [الأنعام: 116]، وقال سبحانه: " وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ " [يوسف: 103].

- { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ }

أرسل الله تعالى أنبياءه ورسله إلى كثير من القرى، فآمن بعضها وكفر كثير منها، وخالفوا الرسل وكذبوهم، وهُمُوا بقتل رسلهم أو طردهم أو تعذيبهم وإيذائهم، وظهرت معالم اليأس من هدايتهم، فأخزاهم الله وأنزل

بهم بأسه وانتقامه وعذابه، وأهلك قراهم بمن فيها وأفناهم واستأصلهم. قال الله تعالى: "فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُخْرٌ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ" [الحج: 45]، وقال سبحانه: "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ" [القصص: 58].

هنا إخبار من الله تعالى لمن نزلت فيهم الرسالة بما حلَّ بمن قبلهم ليرجعوا عن سوء صنيعهم، يخبرهم ويذكر لهم عقوبة الدنيا لمن ظلم نفسه بالشرك والكفر، وسيأتي ذكر عقوبة الآخرة قريباً، كلُّ ذلك ليرتكوا توبيخهم غير الله، وليستيقظوا من سكرتهم قبل فوات الأوان.

{ فَجَاءَهَا بِأُسْنًا بَيَّاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } نزل بها عذاب الله الشديد القوي { بَيَّاتًا } أي: ليلاً، { أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } من القيلولة، وهي نومة نصف النهار أو الاستراحة فيه وإن لم يكن نوم، وتكون القيلولة عند الزوال وقت الظهر، وما قاربه من قبل أو من بعد. قال الله تعالى: "أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" [الأعراف: 97-99].

والمقصود من ذكر هذين الوقتين تخويف أهل مكة فيهما مع أنهما محل للراحة والسكون، وذلك للتغصص عليهم فيهما، ولئلا يأمنوا، ولئلا يخذعوا أنفسهم بما زعموه من قوة وثروة وعِزَّة، وليبقوا على خوف لا يدرون متى يحل بهم العذاب.

والعاقل ينتفع من الآية ويعلم أن هذه الدنيا كلها كدر وبلاء، وفيها من المشقة ما الله به عليم، فلا ينبغي أن يأمنها الواحد منا، ولا يغتر بالرخاء إذا وجدته، وليسأل الله دوماً من فضله، وليلزم بابه، وليرضَ به رازقاً ومنعمًا، وليحرص على دوام الإنابة والتوبة والاستغفار.

- { فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } لما رأى الأقسام السابقون عذاب الله قد نزل بهم وأحاط، ولما أيقن الذين كفروا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن أولياءهم لا يغنون عنهم

شيئاً، استحضروا ظلمهم لأنفسهم بالشرك وكبائر الذنوب، واعترفوا بإعراضهم عن الآيات وبصمّ آذانهم عن الوعيد والوعد، وارتفعت أصواتهم بالإقرار والتسليم، وكان اعترافهم هذا بمثابة توبة لله، واستغاثة به ودعاء له ليرفع عنهم العذاب، وأتى لهم ذلك وقد جاءتهم الذِّكْرَى ! فأىُّ حسرة وندامة هذه ! وأيُّ خسران ينتظرهم !

قال الله تعالى: " وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحْسُوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ " [الأنبياء: 11-15].

واعلموا أن الله تعالى لا يُهلك قوماً حتى يبعث إليهم من يقيم الحجة عليهم، ويعظهم ويذكرهم، ويدعوهم إلى التوحيد والعبادة، كما دل على ذلك قول الله تعالى: "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا" [الإسراء: 15]، وكما دل على ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أبي البَحْتَرِيِّ الطَّائِي، قال: أخبرني من سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ". أي: لا يهلكهم الله حتى تَبْلُغهم الرسالة والهداية فلا يستجيبون، وحتى يختاروا الكفر والإصرار على الذنوب معتردين عنها بأعذار لا تُقبل منهم، ولكن تُردُّ عليهم وقد غلب شرُّهم.

أقول كما قال أهل العلم: إن اعتذار كثير من الناس عن ذنوبهم في الدنيا لا ينفعهم شيئاً ما لم يُتَّبَعوا ذلك بترك الحرام وتوبة نصوح يَصْدُقون الله فيها، ولا هو ينفعهم كذلك إذا أقبلوا على الله للحساب، ولعلنا نجد صنفاً من الناس لا يصلي ولا يصوم، ونجد صنفاً من بناتنا لا تلتزم باللباس الشرعي، ونجد صنفاً يعتدي على أموال الناس ويأكلها بالحرام، ويعتدي على حقوق الناس ويتجرأ عليها، معتردين عن ذلك بأعذار واهية مردودة عليهم غير نافعة لهم، فليحذروا وليتنبهوا.

وأقول كذلك كما قال أهل العلم: لا بُدَّ أن تحذر الأمة من غلبة الظلم فيها، وانتشار الحرام والمجاهرة به بين أبنائها، فإن انتشار الزنا والربا والكذب والغش والسرقة، وإن انتشار السحر وشرب الخمر وقذف المحصنات، وإن الإعراض عن الوحي حكماً وحاكمًا، كل هذا فيه تعريض لأن ينزل بنا بأس الله، وفيه مدعاة لفساد الأمة وضعفها وذلتها وتسلط أعداء الله عليها، وحينها لا ينفعنا أن نقول: إنا كنا ظالمين، فلنتدارك ما فاتنا. قال الله تعالى: " ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ

الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " [الروم: 41]، وقال سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " [الرعد: 11].

- { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ }

يسأل الله تعالى الأمم يوم القيامة عن رسلهم وما أجابوهم به، يسألهم: هل بلغتكم رسلكم ما أرسلت به من أمر ونهي، وعقيدة وعبادة، وأخلاق وصلاح قلب، وماذا كان ردكم؟
ويسأل ربنا كذلك الرسل عن أدائهم للأمانة التي حملها إياهم، وعن حال أقوامهم.

وهذا السؤال للرسل وأقوامهم سؤال تقريع وتوبيخ لأهل الكفر، وإقامة للحجة عليهم، وليس سؤال استفهام واستعلام، وهذا السؤال يدل على عظم تلك اللحظات التي لا ينفع فيها إلا الإيمان والعمل الصالح، وهذا السؤال يبين للمشركين عذاب الآخرة وأحوال القيامة التي تنتظرهم إذا أقاموا على الشرك، كما بينت الآيات السابقة لهم عذاب الدنيا لمن فعل ذلك. قال الله تعالى: " وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ " [القصص: 65]، وقال سبحانه: " يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ " [المائدة: 109].

أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا " قَالَ: عَدَلًا " لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا " [البقرة: 143].

- { فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلِمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ }

سيخبر الله تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وما عملوا، من قليل أو كثير، أو صغير أو كبير، أو جليل أو حقير، أو علم عنه الناس أو لم يعلموا، أو نسوه أو تذكروه، سيخبرهم سبحانه بكل ما كان منهم،

وسيجدون ذلك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فإن الله تعالى شهيد عليهم عالم بهم، يسمع ما يقولون ويصبر ما يعملون، لا يغيب عنه شيء، وقد أحصى أعمالهم وأحاط بها، سبحانه. قال الله تعالى: " {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام: 59].

ما أشدها من آية على من عقل معناها، وعلى من استحضر ذنوبه العظيمة التي لا زال مُصرّاً عليها، وفاعلاً لها دون ندم أو عزم على التوبة. قال الله تعالى: " يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " [المجادلة: 6].

- { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } -

أخبرت الآية السابقة أن الله تعالى سيقص عليهم أعمالهم، أي: سيخبرهم بها ويجدونها في صحائفهم، ثم جاءت الآية هنا لتبين لهم أن الله تعالى لن يظلمهم شيئاً عملوه من خير أو شر، وأنه سيجازي كلًّا بعمله، إلا ما يتفضل به من رفعة درجات أو مغفرة زلات بسبب سلامة قلب أو شفاعة أو محض إكرام منه سبحانه لمن مات على التوحيد والعمل الصالح.

إن ميزان الآخرة ليس كميزان الدنيا الذي يعتريه ما يعتريه من الخلل والزلل وحطوط النفس والخطأ، بل هو ميزان حق وصدق وعدل، وليس للظلم فيه مكان. قال الله تعالى: " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ " [الأنبياء: 47].

ولقائل أن يقول: وما الذي يوزن في الميزان يوم القيامة، الأعمال أم الصحف ؟

والجواب أنها أقوال عند أهل العلم، أختار منها قول جمع من أهل العلم بأن الذي يوزن في الميزان غدًا بين يدي الرب العظيم هو العبد نفسه، وكذا صحيفته، وكذا أعماله، وإليكم أدلة ذلك:

أما وزن العبد نفسه، فيدل عليه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح

بعوضة. وقال: اقرؤوا إن شئتم: { فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } [الكهف: 105]"، والحديث الذي أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبو يعلى، عن أم موسى، قالت: سمعت علياً رضي الله عنه، يقول: أَمَرَ النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود فصعد على شجرة، أمره أن يأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله بن مسعود حين صعد الشجرة، فضحكوا من خُوشة ساقه²، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما تضحكون ؟ لَرَجُلٍ عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أُخْد "

وأما وزن صحف الأعمال والكتاب الذي كُتِب فيه ما كان يعمل به من خير أو شر، فيدل عليه حديث البطاقة الذي أخرجه أحمد وابن ماجه، " والذي يُؤْتَى فيه برجل على رؤوس الخلائق، ويُنشر له تسعة وتسعون سِجِلًّا من الذنوب، كل سجل مدَّ البصر، ثم يقول الله عز وجل: هل تُنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: أَظْلَمْتُكَ كَتَبْتِي الحافظون ؟ فيقول: لا، ثم يقول: ألك عذر، ألك حسنة ؟ فُبْهت الرجل، فيقول: لا، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنات، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فُتُخْرِجْ له بطاقةً فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، قال: فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول: إنك لا تُظلم، فتُوضع السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كِفَّة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة "

وأما ما يدل على وزن العمل نفسه، فكما في الأحاديث التي أخبرت أن سورة البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما فرقان من طير صواف، والحديث الذي يدل على أن القرآن يأتي يوم القيامة لصاحبه على هيئة رجل، والحديث الذي يدل على أن العمل الصالح يأتي لصاحبه في القبر على هيئة رجل حسن اللون وطيب الريح، والحديث الذي أخرجه أحمد وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما من شيء أثقل في الميزان من خُلُق حسن "

ما أجملها من لحظات يوم يأخذ العبد صحيفته بيمينه، ويوزن هو وعمله، ويكون من الفالحين الناجين من النار، ما أجملها يوم يقول الله له على رؤوس الأشهاد: سترت ذنوبك عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم.

² أي: دِقَّة ساقه ونحافتها.

ما أجملها يوم تثقل موازين الأعمال، وثقلها علامة على أنها قُبلت، وأن صاحبها جاء بالتوحيد وكمال الإخلاص والمتابعة لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم على أتم وجه وأحسنه، قد رجحت كفة حسناته على سيئاته.

سيكرم الله تعالى من ثقلت موازينه بالعيشة الراضية، واللجنة العالية، والسعادة التي ليس فيها ولا بعدها شقاء يُذكر، وهو الفلاح المقصود بالآية هنا. قال الله تعالى: " فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ " [القارعة: 6-7].

- { وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ } -

أما الذين خفت موازينهم وموازن صحفهم وأعمالهم فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم من حيث ظنوا نفعها، وتفصيل ذلك أنهم لما كانوا في الدنيا يأبون الإيمان ويرضون بالكفر والفسق والمعاصي، كانوا يظنون أنهم بذلك يسعدون، وأن حياتهم في الدنيا ستكون هنيئة رضية، وأنهم لن يُبعثوا، أو لن يُعذبوا فيما لو بُعثوا، وهذا ظنهم الذي ظنوه أرداهم في النار وأصبحوا من الخاسرين. قال الله تعالى: " وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ " [فصلت: 23].

لم يُنصفوا أنفسهم بالإيمان والتوحيد، فخسروا خسارة حقيقية ليس بعدها ربح ولا نجاة، إنها خسارة رحمة الله وجنته، وإهلاك أنفسهم وإلقاؤها في نار جهنم بعد أن آثروا الدنيا على الآخرة، وبعد أن آثروا الجاه والمكانة والرياسة على الإيمان والهدى، وبعد أن كانوا من الظالمين الذين عدلوا مع الله أصنامهم وجعلوا له شركاء، فلم يبق لهم رأس مال يكون سبباً لانتفاعهم بأي عمل صالح يقدمونه، هؤلاء: جاؤوا بالكفر والشرك الذي أبطل أعمالهم فلم تُقبل. قال الله تعالى: " أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَزَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ " [هود: 21-22]، وقال سبحانه: " وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ " [القارعة: 8-11].

- { وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } -

يُمَتِّنُ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ لِيَذْكُرَهُمْ بِحَقِّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَأَمَّلُوا فِي الْأَرْضِ كَيْفَ جَعَلَهَا قَرَارًا لَا تَهْتَزُّ وَلَا تَضْطَرِبُ بِأَهْلِهَا، وَكَيْفَ جَعَلَ فِيهَا جِبَالًا تُثَبِّتُهَا، وَأَنْهَارًا وَبَحَارًا لِيَحْيَا أَهْلُهَا وَيَتِمَكَّنُوا مِنْهَا، وَكَيْفَ بَسَطَهَا لَهُمْ لِيَعْمُرُوهَا بِأَنْوَاعِ الْبِنَاءِ، ثُمَّ تَمَّتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِمْ بِتَمَكُّنِهِمْ مِنَ التَّصَرُّفِ بِمَخْلُوقَاتِهَا بِمَا أَوْدَعَهُ سُبْحَانَهُ فِيهِمْ مِنْ قُوَّةِ الْعَقْلِ وَالتَّفَكُّيرِ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَاشٍ، أَي: مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا لِلرِّزْقِ، وَأَبَاحَ لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ التَّجَارَاتِ وَطَرَائِقِ كَسْبِ الْمَالِ مَا تَطْيِبُ بِهِ حَيَاتَهُمْ، وَخَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَلْوَانًا مِنَ اللِّبَاسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ وَالنَّبَاتِ لِيَسْعُدُوا فِيهَا وَتَكُونَ عَيْشَتُهُمْ طَيِّبَةً مَبَارَكَةً. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (28) وَزَيَّنَّاوْنَهَا وَنَحْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ " [عبس: 24-32].

ثُمَّ فِي خَتَامِ الْآيَةِ يُخْبِرُ اللَّهُ عَنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ، وَغَفْلَتِهِ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ، كَمَا قَالَ رَبُّنَا: " وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ " [إبراهيم: 34]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: " وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ " [سبأ: 13].

وَكَانَ الْآيَةُ تَنَادِي عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ، وَتَوْبِيخِهِمْ وَقَوْلُهُمْ: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ بَسَطَ الْأَرْضَ لَكُمْ، وَمَكَّنَكُمْ مِنْ جِبَالِهَا وَسَهُولِهَا؟ وَهَلْ تَجِدُونَ مِنْ مَعْبُودَاتِكُمْ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؟ فَلِمَاذَا تَعْدِلُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرِهِ وَتَتَّخِذُونَ لَهُ شُرَكَاءَ؟!

وَكَأَنَّمَا تَنَادِي عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ كَذَلِكَ، وَقَوْلُهُمْ: طَبِيتُمْ يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَأَحْسَنْتُمْ فِي طَاعَتِكُمْ وَإِقْبَالِكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَكُنْتُمْ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَامَ الشُّكْرِ يَوْمَ صَرَفْتُمْ نِعْمَهُ إِلَيْهِ، وَجَعَلْتُمْ آلاءَهُ عَلَيْكُمْ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ، وَأَغْلَقْتُمْ أَبْوَابَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ، وَاسْتَعْمَلْتُمْ أَبْصَارَكُمْ وَأَسْمَاعَكُمْ وَأَلْسِنَتَكُمْ فِيمَا يَرْضِيهِ عَنْكُمْ فَكُنْتُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ الْفَائِزِينَ.

- { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ }

هنا مسألتان لا يستغني أحد من الناس عن فهمهما والانتفاع منهما في طريق السير إلى الله جل وعلا:

الأولى: عظمة الله تعالى في خلق آدم وذريته، وكيف أنه خلقه من عدم، ثم قال له كن فكان، ثم كيف صَوَّره وجعل له السمع والبصر واللسان وكلَّ هذه الأعضاء، وجعل فيه القلب والكبد والرئتين والأمعاء، وغير ذلك مما لا يملك الواحد منا أمامه إلا أن يُدْعن للخالق، ويُقرَّ له بكمال العظمة، وإلا أن ينطلق اللسان بالتوحيد، وينطلق القلب بالتسليم، وتنطلق الجوارح في مرضاة الرب وطلب جنته.

تتكلم الآية هنا عن خلق الإنسان الأول، وهو نبي الله آدم عليه السلام الذي خلقه الله بيديه من غير أب وأم، وصَوَّره وكَوَّن جسمه من تراب، وهذا التراب أصابه ماء فكان طيناً لازباً ذا لزوجة يلزق ويلصق، ثم صار حمأً مسنوناً، أي: طيناً تكدَّر وتغيرت رائحته، ومسنوناً، أي: مصبوغاً، ثم ييس هذا الطين فصار صلصالاً، أي: طيناً يابساً لم تُصَبَّه النار، فإذا نَقَرْتَهُ سَمِعْتَ له صلصلة من ييسه، ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشراً سوياً قادراً على القيام بعمارة الكون، وخوض تجربة الحياة.

أما ذرية آدم فقد خلقهم الله من ذكر وأنثى، وجعل التقاء نطفة الرجل بنطفة المرأة سبباً تَخْلُقُ الجنين في رحم الأم، ثم صَوَّرَهُم في الأرحام كيف يشاء، صَوَّرَ أعينهم وآذانهم ولحمهم، وصور أعصابهم وعروقهم ومشاعرهم وجميع أبدانهم، ثم نفخ فيهم الروح، ثم أخرجهم من بطون أمهاتهم لعمارة الكون ودوام الذرية والخلق، فتعالى الله عما يُشْرِكُونَ.

الثانية: قصة تكريم الله تعالى للإنسان، وقصة العداوة التي ظهرت بين إبليس وبين آدم وذريته من بدء الخلق، وهي القصة التي تحمل تحذيراً لأهل الإيمان من اتباع خطوات الشيطان والاستجابة لوسوسته وتضليله، وتبين لهم أنه عدوهم الأكبر الذي أبقى أن يسجد لأبيهم آدم عليه السلام يوم أمره الله بذلك، ويوم ظهر حسده لآدم وذريته، ويوم ظهر كبره وغروره، وظهرت نوازع السوء التي كانت كامنة فيه، والتي ما كانت لتظهر لولا أنه أُمر ونُهي.

وهي القصة التي تقرأ وراءها كيف كانت هذه العداوة سبباً في ضلال من ضل من أهل الكفر والنفاق والفسق والفجور، حيث أغواهم الشيطان وزين لهم سوء عملهم فأطاعوه.

وهي القصة التي تقرأ فيها شرف أبينا آدم عليه السلام وذريته، وكيف أن الله اصطفاه لأمر عظيم، وحمله وذريته أمانة جليلة، لا تليق إلا بهم، ولا يقوم بها إلا من اصْطَفِي.

قال الله تعالى: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ " [الحجر: 28-31].

خلق الله الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار، ولكنه كان معهم عابداً ومطيعاً، واستمر في عدادهم لأنه لم يؤمر بشيء يخالف هواه ويُظهر أسوأ ما فيه، فلما خلق الله تعالى آدم، وعلمه الأسماء كلها، وظهر فضل آدم عليه بالعلم، أمر الله الملائكة جميعاً بالسجود له فأطاعت، واستكبر إبليس وأبى وتمرد وعصى. وهذا أمر ينفعنا في حياتنا وتعاملنا مع الناس، فلا نتعجل في الحكم على من حولنا حتى نراه في الحوادث والمضائق والبلاءات كيف يكون، فمعادن الناس إنما تظهر مع الشدة والمواقف الصعبة.

صحيح أن إبليس ليس من الملائكة، وأنه أبو الجن كما سيأتي بيانه قريباً، ولكنه دخل في الخطاب معهم لأنه كان مُتَشَبِّهًا بهم في الطاعة، وكان متأسياً بأفعالهم، وكان مشاركاً لهم بأعمالهم الظاهرة، وكان معهم في السماء يتعبد.

سبحان الله، كيف جعل هذه القصة مبدأ قيام الحياة على هذه الأرض وعمارتها، وجعل فيها من الفوائد والعبر الكثير، وما ذاك إلا ليرتقي الإنسان في فكره وسلوكه، وليعلم الغاية من خلقه ومن يحول بينه وبين تحقيق هذه الغاية، وليتعلم أن التعرض للبلاء والحوادث يكشف عما في النفوس من خير أو شر.

وقبل أن أتم الحديث عن قصة بدء الخلق في السورة هنا، إليكم معالم مهمة في علاقة الإنس بالجن على وجه العموم، وعلاقته بالشياطين منهم على وجه الخصوص، وهذه المعالم جاءت بها الأدلة الشرعية الصحيحة، والتي لن أستطرد بذكرها خشية الإطالة، فأقول مستعيناً بالله:

1- بدأ العداء بين الإنسان والشيطان منذ خلق الله آدم عليه السلام وأمر إبليس بالسجود له، وتوعد الشيطان بني آدم بأن يُضِلَّهُمْ يوم طُرد من الجنة.

2- إبليس هو أبو الجن، وهو الشيطان الأكبر الذي اتخذ عرشاً على الماء يُسَيِّر جنوده وأعوانه منه، وله قرنان، وهو قبيح الصورة، وكذا الشياطين جميعاً.

ولفظه (الشيطان) مأخوذة في اللغة من الفعل (شَطَنَ)، أي: بُعدَ، فهو مُبْعَدٌ من ملكوت السماء،
وَمُبْعَدٌ من رحمة الله.

وهو رجيم، أي: مرجوم بشُهب السماء، وباللعن وبالطرد.

3- أخبرنا الله تعالى أن الجن مخلوق قبل الإنس، وأنه مخلوق من مارج من نار، أي: من اللهب الذي
يعلو النار، ويكون في طرفها، والمارج هو المختلط، يعني: يختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر،
ويكون من تحته اللهب ومن فوقه الدخان. قال الله تعالى: " وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ "
[الحجر: 27]، وقال سبحانه: " وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ " [الرحمن: 15].

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خُلِقَتِ الملائكة
من نور، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلِقَ آدمُ مما وُصف لكم ".

4- قال أهل العلم: أصل خلق الجن من نار، ولكنه توالد بعد ذلك واختلف، كما أن أصل خلق
الإنس من طين، ولكنهم توالدوا واختلفوا.

5- أخبرتنا الأدلة الشرعية كذلك أن الجن مكلفون، وأن لهم عقلاً وإدراكاً، وقد لقيهم نبينا عليه الصلاة
والسلام ودعاهم إلى الله.

6- اعلّموا أن الإنس لا يرى الجن على حقيقته، بخلاف الجن الذي يرى الإنس، وأن الجن منهم المؤمن
ومنهم الكافر، ومنهم المطيع ومنهم العاصي، وهم على مراتب في صلاحهم وفسادهم.

واعلموا كذلك أن الجن أصناف: منهم ريح طيارة في الهواء، ومنهم من يسكن ويرحل، ومنهم من
يتشكل على هيئة الإنسان أو الحيوان.

7- والجن سريع الحركة والتنقل، ويصعد إلى السماء ليسترق السمع، ويجري من الإنسان مجرى الدم،
ويوسوس له.

8- والجن يأكلون ويشربون ويضحكون، ويتزاوجون ويتكاثرون، وينامون ويموتون، ويأكلون من اللحوم
التي يجعلها الله على العظم بعد انتهاء الإنسان منها.

9- كل إنسان له قرين من الجن يلزمه ولا يفارقه، ويعينه على الشر، كما أن له قريناً من الملائكة يلزمه ولا يفارقه، ويعينه على الخير.

- { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ }

ينتقل الحوار إلى إبليس بعد أن كان أمراً للملائكة بالسجود، ويسأله الله تعالى سؤال توبيخ له على صنيعة، وسؤال إظهار لمقصده أمام الملائكة. قال الله تعالى: " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ " [ص: 75].

قال الله لإبليس وهو أعلم بحاله: ما الذي صدك وكفك عن السجود لآدم وقد أمرتك؟ وما الذي اضطررك للعصيان الذي لم يصدر منك من قبل؟ وما الذي أحوجك وألزمك لتعريض نفسك لسخط من خلقك وسواك وأكرمك؟

{ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } هنا مواعظ وفوائد تنفع من تأملها كثيراً، إليكم شيئاً منها:

1- ظهر كثير إبليس هنا، والكبر هو أول ذنب عُصي الله به كما قال غير واحد من أهل العلم، وهو داء عظيم أهلك كثيراً من الخلق، ولا زال.

قدح إبليس في حكمة الخالق، واعترض على ما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهُ واستكبر، واستخفَّ بأمر الله وزعم أنه أفضل من آدم لأنه خُلِقَ من نار بخلاف آدم الذي خُلِقَ من طين، والنار أشرف من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول، على حَدِّ زَعْمِهِ؟!

اعتذر إبليس بعذر أقبح من معصيته، لأن عُذْرَهُ هَذَا فِيهِ اسْتِدْرَاكٌ عَلَى الْخَالِقِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ الْبَصِيرِ، وفيه ظهورٌ لأمراض أخفاها من قبل، وفيه إصرار على المعصية في حق ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة.

تأملوا في طريقة تفكيره كيف خالف فيها الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكيف غفل عن ظهور فضل آدم بالعلم والفهم، وكيف نظر إلى مادة الخلق ولم ينظر إلى التشريف العظيم الذي ناله آدم، فقد خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه وأمر بالسجود له.

2- حسد إبليس آدم، وهذا الحسد ظاهر في كلامه، والظاهر أن الحسد بدأ معه منذ أخبر الله الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، فأدرك اللعين أن هذا الاصطفاء للخلافة في الأرض يدل على خيرية لن تكون له، ثم جاء الأمر بالسجود فاستثاره زيادة وزيادة.

ومعلوم لديكم أن الحاسد هو من يتمنى زوال النعمة عن غيره ولحق الشَّرَّ به، وقد لا يتوقف أمره عند التمني، بل يعمل على إيقاع الضرر بالمحسود، والافتراء عليه وإيذائه، وهو ما سنراه في تمام القصة. الحسد له أسبابه التي لا تخفى عليكم، منها: العداوة للغير وشدة الكُره له، وكذلك الشعور بأنه الأفضل والأجدر بالنعمة، ومنها حب التسلط والثناء ورغبته بأن لا يكونا إلا له، وغير ذلك.

والحاسد يتطلع دومًا إلى إنعام الله تعالى على الآخرين، ويراقب تفاصيل حياتهم، ويدبر التفكير في زوال هذه النعمة عنهم وإن لم يحصل عليها، ومنهم من يريد لها لنفسه لا لغيره.

ومن عجائب الحسد أن الحاسد يكره راحة غيره وسعادته، مع أنه لا ضرر عليه بذلك، ولكنه قبْح النفس وسوء ما تضمّره وتخبّئه.

والحسد فيه سوء أدب مع الله تعالى، فكأنه لم يرضَ بقسمة الله له في الدنيا، وكأنه يعترض على حكم الله فيه وله، وكأنه يزدرى نعمة الله عليه ويعتقد أنها لا تليق به. أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ».

والحسد هو الذي صرف اليهود عن الإيمان بنبينا صلى الله عليه وسلم، فقد امتنعوا من الإيمان مع علمهم بصدقه حسدًا له على ما رزقه الله من النبوة، وحسدًا للعرب الذين جعل الله خاتمة النبوة فيهم ولم يجعلها في بني إسرائيل، كما قال الله تعالى عنهم: " وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا

حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْقُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " [البقرة: 109].

والحسد هو الذي جعل الأخ يقتل أخاه ويفتح على البشرية باب شرٍّ، كما في قصة ولدي آدم عليه السلام في سورة المائدة، وهو الذي دفع إخوة يوسف عليه السلام للتفكير بقتله ثم رميه في الجُبِّ. ولذلك جاء التحذير منه في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي بسند حسن غير واحد من أهل العلم، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم ".

3- القياس فيه تحريك للعقل، ولكنه إذا عارض كلام الله وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم فسد وسقطت قيمته، ولذلك كان من خيبة إبليس هنا في هذا المشهد أنه قاس قياسًا فاسدًا، فجعل العنصر ومادة الخلق مناطًا التفضيل عنده وسببه، فلأنه خلُق من نار كان أفضل، وهذا تفكير مريض عقيم مردود عليه، ولعل صنفًا من الناس يتشبه به يوم يظن أنه أفضل من جميع الناس لأنه أكثر جمالًا أو أكثر مالًا أو جاهًا، أو أعلى منصبًا.

والصحيح أن التفاضل يقوم على سلامة القلب من أمراض الشرك والكبر والحسد وغيرها، وأن تقوى الله تعالى وطاعته هما الأصل والفصل في التمايز بين الخلق المكلفين.

ثم إنه من قارن بين الطين وبين النار وجد أن الطين أفضل من النار؛ لأنه من تراب مخلوط بماء، ويجد من يتعامل معه أن فيه الرزانة والحلم والأناة والتثبت والتروي، وأنه محل أنواع النبات والأشجار والنمو والزيادة والبركات، وأن جميع الأحياء تحيا على خيراته مباشرة أو بالواسطة، بخلاف النار التي من شأنها الإحراق، وفيها الحفّة والطيش والاضطراب والسرعة والهلاك والدمار.

وقد يجد من قارن بينهما من وجه آخر أن النار تفضل التراب بأنها قوية في تسلطها على الأجسام التي تلاقيها، وأنها تضيء، وأنها زكية لا تلصق بها الأقدار، والتراب لا يشاركها في ذلك.

ولعلي أستذكر في هذا المقام أصنافاً من الناس يعترضون على الخالق وعلى شريعته، ويأتون بأقيسة ظاهرها أنها عقلية، يريدون بها أن يترك الناس دينهم، وأن يهدموا عقائدهم، وأن يعيشوا حياة أهل الكفر التي لا ترى الدار الآخرة حاضرة في شيء، وما أقيستهم هذه إلا علامة على اتباعهم للهوى، وعلى حماقتهم وجهلهم، وبُغضهم للدين وأهله.

المؤمن إذا سمع نداء الله له ونداء نبيه صلى الله عليه وسلم قال سمعنا وأطعنا، وسارع إلى الامتثال، وعلم أن الله تعالى له الحجة البالغة على خلقه، فإذا خفيت عنه حكمة الله في شيء سأل أهل العلم، ثم سلّم أمره إلى من ظهر علمه، وظهرت حكمته وعظمته في كل ما أمر ونهى وقدر.

- { قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } -

إهبط منها، أي: من الجنة، والهبوط هو النزول من الأعلى إلى الأسفل، والانحدار من مكان إلى ما تحته، والسقوط من منزلة إلى ما دونها، والخطاب هنا لإبليس رئيس الشياطين وكبيرهم، وقد أخرجه الله من الجنة ومن ملكوته الذي في السماء يوم خرج عن الطاعة وعصى وتعاضم وتكبر، وأهبطه إلى الأرض صاغراً، أي: ذليلاً حقيراً.

هذه معصية واحدة أفسدت عليه وعلى من يعاونه من ذريته حياتهم، وجعلتهم في الضلال والغواية والخسران الذي ليس بعده خسران، فكيف بمن يُلحق المعصية بالمعصية، وينكبُّ على الفواحش والمنكرات والكبائر، ولا يتحرك قلبه من أجل الله.

طُرد إبليس من الجنة، وانحطَّ من مرتبته العالية إلى أسفل سافلين، ولحقته اللعنة حتى أيس من الدخول في رحمة الله وأبلس، ولذلك سُمي إبليس بهذا الاسم، وقد ذكرت الآية سبب طرده من الملكوت الأعلى، وهو أنه تكبر على أمر الله، وتكبر على سيدنا آدم عليه السلام، تكبر عليهم في مكان طاهر فاضل مُعظم مُقدس لا يدخله المتكبرون، ولا يُغتفر فيه العصيان والتمرد.

ما أعظمها من جريمة يوم يتكبر المخلوق على الخالق، ويمتنع عن إفراده بالتوحيد، ويمتنع عن طاعته والاستجابة لأوامره والصلاة له والدعاء، ويمتنع عن الإقرار بفضله وإنعامه، يظن أنه يرفع شأنه بذلك بين

الناس، وأنه يعيش حياة الحرية المطلقة التي ليس فيها قيود، وأنه يطلق العنان لعقله ليحقق ذاته، ونسي المسكين أنه عبدٌ لشهواته ونزواته، وأن إلهه هواه، وأنه لن يفلح وربي إلا بالإقبال على العظيم الكريم، وأنه لن يطمئن قلبه إلا بخالقه، وليحذر؛ فقد أخرج أحمد والترمذي وغيرهما بسند حسن، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالُ الذَّرِّ³، فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سَجَنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُؤْلَسَ، فَتَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ، غُصَارَةٌ أَهْلُ النَّارِ".

بل قال الله تعالى: " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ " [الأعراف: 146].

- { قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ }

سأل إبليس ربنا أن يحييه إلى يوم القيامة، وأن يمهل به إلى يوم يُبعث آدم وذريته، وأن يؤخره ويؤجله ولا يميته لعله يظفر منهم بما يريد وينتقم لنفسه، ولعله عرف أن هذه الدنيا ستكون، وعرف أن بعدها يوم حساب وعقاب، عرف ذلك من إعلام الله له، أو من إخبار الملائكة.

- { قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ }

أخبره الله تعالى بأنَّ سؤاله مجابٌ، وأنه سيُنظره ويُقيمه ويؤخره إلى يوم الدين، أي: إلى النفخة الأولى التي يُصعق فيها من في السماوات ومن في الأرض، ليتحقق مراد الله تعالى من الخلق، وتظهر حكمته ومشيتته وإرادته فيهم، سبحانه. قال الله تعالى: " فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ " [الحجر: 37-38].

³ وهو النمل الصغير.

ولقائل أن يقول: وهل جميع ذرية إبليس تبقى على قيد الحياة ولا يموتون، أم هو أمر خاص بالشیطان الأكبر لعنه الله ؟

والجواب أن الله تعالى إنما أمهل إبليس، بخلاف ذريته التي تموت كما يموت الإنس، وقد دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: " أعوذ بعزتك، الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون " .

- { قَالَ فِيمَا أَعُوذَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ }

لما استوثق إبليس من بقائه زمناً طويلاً ممتداً إلى يوم القيامة، ولما تأكد من إمهاله وإنظاره، أطلق عبارات تدل على مُضيئه في المعاندة والتمرد، وتدل على حجم العداوة الكامنة في صدره لآدم وذريته، وكانت أول هذه العبارات أنه سيقعد لنا على طريق الاستقامة والحقِّ والنجاة ليُصدِّدنا عنه ويُبْعِدنا عن هداة.

يقول: يا رب، كما أضللتني وكتبْتَ لي الشقاء والخسران العظيم بسبب آدم؛ لأُمنَعَنَّ عبادك الذين خلقتهم وكلَّفْتهم من طاعتك، ولأُحولَنَّ بينهم وبين مرادك فيهم من التوحيد والعبادة.

ولقائل أن يقول: وكيف عرف إبليس أن آدم سيهبط إلى الأرض وستكون له ذرية، فتعهَّد بأن يضلَّهم وأن يزيِّنَ لهم ويغوِيَهُم، كما في قول الله تعالى: " قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ " [الحجر: 39-40] ؟

والجواب أنَّ ذلك كان بإعلام الله تعالى للملائكة لما أخبرهم بأنه سيجعل في الأرض خليفة، فعلم إبليس أن آدم صائر إليها بعد حين، وأنه سيهبط من الجنة ولن يبقى فيها.

واعلموا يرحمكم الله أن صراط الله المستقيم هو الإسلام وشرائعه، وهو امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وقعود الشيطان عليه ليصدنا عنه له أشكال وأحوال، وله طرائق وحيل، أذكر شيئاً منها هنا:

1- أخرج أحمد والنسائي وغيرهما، عن سَرةَ بنِ أبي فاكِهٍ رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الشيطان قعد لابن آدم بِأَطْرَفِهِ، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتُسلم وتَدْر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ فعصاه، فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتَدْر أرضك

وسمائك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطَّوَل ؟ فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جُهدُ النفس والمال، فُتُقَاتَلُ فُتُقْتَلُ، فُتُنَكَّحُ المرأةُ، ويُقَسَّمُ المالُ ؟ فعصاه فجاهد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو قُتِلَ كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، وإن غَرِقَ كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصَّتُهُ دَابَّةٌ كان حقًا على الله أن يدخله الجنة".

والمقصود أن الشيطان يقعد لابن آدم ويوسوس له في كل طريق يريد أن يطيع الله فيه ويستجيب لأمره، فقعد له في طريق الإسلام وأراد منعه منه، فعصاه وأسلم وآمن، فإذا أراد هذا المسلم أن يهاجر من أجل دين الله جاءه ليمنعه، وخَوَّفَه بأنه إذا فعل ذلك كان كالفرس في الطَّوَل، والطَّوَل هو القيد الذي يُربط به الفرس، فكأنه يقول له: إنك إذا هاجرت ستكون كالفرس المقيد لا تعرف أحدًا ولا تخالط إلا القليل من الناس.

ثم إذا أراد الجهاد خَوَّفَه من القتل وذهاب الزوجة والولد والمال، وفي كل ذلك نرى العبد المؤمن يخالفه ويمضي في نصرته دينه وإعلاء كلمته، وقد وعد النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث من آمن وهاجر وجاهد بأن يكون من أهل الجنة، وإن كان موته بأيِّ سبب من الأسباب.

وقيسوا على ذلك كل طريقٍ للخير نريد أن نُقدم عليه ونسارع فيه، وانظروا كيف يقعد لنا فيه، ويوسوس لنا ليمنعنا منه، وكيف يخوفنا دومًا من ضر البشر ونقصان الرزق.

2- اجتهد بعض أهل العلم في بيان تدرج الشيطان مع الإنسان في الإضلال والغواية، وذكروا أنه يبدأ مع العبد المسلم المؤمن في دعوته للكفر والإلحاد، فإن أبى سعى في إيقاعه في كبائر الذنوب، فإن عجز الشيطان عن ذلك حاول أن يحول بينه وبين التوبة من الصغائر، فإن عجز انتقل إلى أبواب الطاعات يلبسها عليه ويفسدها، ويشغله عنها، وقد يجُرُّه إلى الابتداع فيها ويضله، وقد يشغله بالمباحات حتى يأنس إليها على حساب الواجبات.

3- يحرص الشيطان على إيذاء الإنسان في بدنه وبيته، فيؤذيه حين ولادته ويحضر، وله تسلط في الاستحاضة التي تحصل مع المرأة، وهو يجري من الإنسان مجرى الدم، وقد يتخبط أحدهم بالمس، وقد يدخل إذا فتح فمه حين التثاؤب، وقد يصيبه بالطاعون.

4- يحضر الشيطان عند الطعام والشراب ليشارك، وكذا في المسكن، وكذا عند الجماع، ويحضر النائم عند أول نومه، وفي حلمه، ويدخل بين الصفوف في الصلاة.

5- ومن أسلحة الشيطان: الوعد بالفقر، والتحريض بين المسلمين عمومًا، وبين الزوجين خصوصًا.

6- يستشرف الشيطان المرأة إذا خرجت من بيتها، فيحرص على إغوائها والإغواء بها، ويضع رايته في الأسواق، وتنتشر الشياطين أول الليل عند الغروب وتعرض للصبيان بالأذية.

7- يورد الشيطان أولياءه المهالك، ويزين لهم الباطل، ويعدّهم ويُمَيِّبهم، ويُسْقِطهم ثم يتخلى عنهم، ومن عجيب عدائه أنه يتخبط المسلم عند الموت، ويحضره عند نزح الروح ليموت على الضلال.

8- للشيطان وأعوانه أولياء من الإنس، ينتفع كل منهم من الآخر، وقد يصل الإنسان إلى عون الشياطين على الشر عن طريق أقوال وأفعال شركية يرضاها الشيطان، كما يقع للسرقة والدجالين والمشعوذين، وكثير من أديعاء الرقية الشرعية وليسوا من أهلها في شيء.

ولولا خشية الإطالة لذكرت لكم أدلة ما مضى دليلاً دليلاً، مع بيان المعاني والألفاظ التي فيها.

وسياقي في الآية التي بعدها بيان ضعف هذا العدو، وبيان قوة المؤمن في رد كيده وإرجاعه بالخسران والبوار والدمار.

- { ثُمَّ لَا تَنتَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ }

هذه عبارة أخرى، يتوعد فيها آدم وذريته بأن يأتيهم من كل مكان يستطيعه حتى تخور قوى مدافعهم، وأن يحاصروهم حتى يقعوا في شركه وحباله، وأن يهاجمهم بشتى الوسائل حتى يطيعوه.

أعلن إبليس بهذه العبارات المتتابعة الحرب على آدم وذريته، تأملوا:

{ ثُمَّ لَا تَنتَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ } أي: سأوسوس لهم من قبل وجوههم. ومن أهل العلم من حمل وعيده هنا على الدار الآخرة، والمقصود: أنه سياقي لبني آدم ليُشَكِّكهم فيما يكون بين أيديهم وما ينتظرهم إذا ماتوا، أي: في آخرتهم، ويخبرهم أنه لا قبر ولا بعث ولا جنة ولا نار.

{ وَمِنْ خَلْفِهِمْ } أي: سأوسوس لهم من قبل ظهورهم. ومن أهل العلم من حمل وعيده هنا على الدنيا، أي: سيحبب الدنيا لنا ويرغبنا فيها حتى نتعلق بمُتَعَهَا ولذائدها وننسى آخرتنا.

{ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ } أي: أوسوس لهم من جهة اليمين. ومن أهل العلم من قال: إن المقصود هنا أنه سيفتن الناس عن طريق بثِّ الشبهات في الدين، وتلبيس عبادتهم وطاعتهم عليهم، وسأمنعهم من الحسنات ما استطعت.

{ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ } أي: أوسوس لهم من جهة الشمال. ومن أهل العلم من قال: سأحبب لهم المعاصي من الزنا وشرب الخمر وأكل المال بالباطل وعقوق الوالدين، وغير ذلك من أنواع الذنوب.

والمقصود من الآية أنه سيغلق جميع طرق الخير والحق علينا، ويفتح لنا أبواب الشر والباطل كلها.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أن الآية هنا فيها معنى جميل، وهو أن إبليس عليه لعنة الله تعهد بالوسوسة والإضلال من جميع الجهات إلا من جهة الفوقية، قال أهل العلم: وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يستطيع أن يحول بيننا وبين رحمة ربنا إذا رجعنا إليه وتبنا.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يحرص في أكثر من دعاء وذكر لله، على أن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظه من جميع هذه الجهات، وألا يجعل للشيطان سلطاناً عليه، وأن يعطيه نوراً يجعله من أصحاب البصيرة في مكائد هذا العدو ومصائده.

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: " اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً ".

وعند مسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء إذا خرج إلى الصلاة.

{ وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } يتوعد الشيطان بني آدم بأن لا يفلت من حباله إلا القليل، يقول: سأحول بينهم وبين شكرهم للمُنعم وإفراده بالتوحيد والعبودية، وسأحول كذلك بينهم وبين شكرهم

للنعم، وهذا معناه أنه سيسعى في أن ننسى نعم الله علينا، ويسعى في أن نستعملها فيما حرم الله، ويسعى في أن تغفل ألسنتنا وقلوبنا عن ذكر الله وحمد وشكره.

ولقائل أن يقول: وكيف ينجو المؤمن من حيله؟ وكيف يقبض على دينه أمام هذا العدو الذي ليس له هم ولا همة إلا التربص بنا؟ وكيف يثبت على دينه أمام كل هذا الوعيد؟

والجواب أن المؤمن يحمل قلباً متصلاً بالله العظيم، ويعلم أن الشيطان مع كل هذا الوعيد الذي أطلقه يخنس من ذكر الله، وأنه يفر من البيوت التي تحصنت بالقرآن والطاعة، وأنه لا يتسلط على من لزم العبودية، وأنه أضعف مما نتصور ونتخيل، وإليك بعض الفوائد في ذلك:

1- جاءت البشرى لكم يا أهل الإيمان، وأخبركم من بيده النفع والضر أن الشيطان لا يتمكن منكم، وأنه ليس له سلطان عليكم، وأنكم لستم من جنده. قال الله تعالى: " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا " [الإسراء: 65]، وقال سبحانه: " وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ " [سبأ: 20-21].

2- اعلّموا أن الشيطان يخاف من بعض عباد الله ويهرب منهم، واعلموا أن المؤمن يقهر شيطانه ويذله بقوة توحيده وعمله الصالح، وأن الشياطين تفتر من المتقين كما فترت من عمر رضي الله عنه، وتفتر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة، كما دلت على ذلك الأدلة الصحيحة. قال الله تعالى: " إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا " [النساء: 76].

3- بين أهل العلم أن تحصين أنفسنا من الشيطان إنما يكون بالتزام الكتاب والسنة، وقوة العلم، ولزوم القرآن، ولزوم الجماعة، ودوام التوبة والاستغفار.

ويكون كذلك بالاستعاذة منهم، وقراءة المعوذتين، وآية الكرسي، وخاتمة سورة البقرة، والدعاء.

4- دلت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم على أننا نحفظ أنفسنا منه بقول: " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " مائة مرة، وكذلك بالوضوء عند الغضب.

ومن أسباب حفظ أنفسنا منه: الإمساك عن فضول النظر والطعام والشراب، والإمساك عن فضول مخالطة الناس.

5- جاءت الأدلة الشرعية ببيان عجز الشياطين عن فتح باب أغلق وذكر اسم الله عليه، وكذا مع السقاء والإناء إذا عُطِيَ وذكر اسم الله عليه، وبينت كذلك أن قول بسم الله على الطعام يمنع حضور شياطين الجن ومشاركتهم، وكذا الحال عند دخول البيت وعند الجماع.

6- مردة الشياطين تُصَفد في رمضان، والشيطان يُصَغَّر يوم عرفة ويندحر ويكون أحقر ما يكون.

والشيطان يلزم القاضي الجائر، ويفر عند سماع الأذان، ويعتزل عند قراءة السجدة من القرآن. أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمِرْتُ بالسجود فأبيت فلي النار ".

- { قَالَ اخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } -

جاء التأكيد على طرد إبليس من الملكوت الأعلى ومن الجنة بعد كلامه الذي أعلن فيه عناده وإصراره على الخروج عن طاعة الله.

نزلت بإبليس نقمة الله وعذابه، وأبعدته الله عن موطن التكريم والرفعة والمكانة العلية، وهذا الإبعاد والنفي والإخراج جاءت معه الدلالة والإهانة والصغار والاحتقار، فقد أخرجه الله منها { مَذْذُومًا مَدْحُورًا }، ومذؤومًا من الذم والعيب، يعني: خرج منها مَمْقُوتًا معيبًا بعيب كبير سيعيش ضرره في الدنيا والآخرة.

وخرج منها مدحورًا، أي: مُبْعَدًا عن الجنة مطرودًا منها، ولن يرجع إليها بحال. دلَّ على ذلك قول الله تعالى عن إبليس ومن أطاعه من الإنس فمات على الكفر: " كَمْثِلِ الشَّيْطَانَ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ " [الحشر: 16-17].

{ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } هذا تهديد ووعد لكل من اتبع خطوات الشيطان وأطاعه فيما أمر ونهى، ولكل من شاقَّ الله ورسوله وأبى وعصى حتى مات على ذلك، ولكل من وقع في مصائد الشيطان وحباله ولم يتحصن بالعلم والذكر والطاعة، ولكل من كانت هِمَّتُه وَهَمُّهُ في الدنيا وغفل عن الآخرة. قال الله تعالى: " قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ " [ص: 84-85]، وقال سبحانه: " قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا " [الإسراء: 63].

والآية تدل على أن كفرة الجن وشیاطينهم سيُعذبون في النار كما هو حال الإنس، وأن التكليف في الدنيا كان لهم جميعاً، فمن أطاع نجى، ومن عصى خسر.

أقول كما قال أهل العلم: رحم الله امرأً أغلق أبواب الشرور على نفسه ولم يتبع خطوات الشيطان، وأكرم الله عبداً متنعمًا بتوحيد الله وإفراده بالتعظيم والقصد، وجزى الله خيراً كل من غض بصره عن المحارم، وأغلق سمعه عما يُسخط الربَّ، وأمسك لسانه عن الخوض في الفُحش والكذب وأعراض الناس، واتقى الله فلم يأكل إلا حلالاً، ولم يطعم عياله إلا حلالاً، وتسلح بالقرآن والدعاء والجهاد والدعوة إلى الله وصحبة الصالحين حتى يئس الشيطان منه ولم يظفر بشيء. قال الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ " [الأعراف: 201].

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن المؤمن ليُنْضِي شياطينه، كما يُنْضِي أحدكم بعيه في السفر ". أي: إن المؤمن يخالف شيطانه ويصْغَرُه ويغلبه، حتى يتعبه ويرهقه كما يرهق المسافر بعيه، وكذا يكون شيطانه تحت قهره وتصرفه كما هو الحال مع الدابة، وكما قال أهل العلم: من أعز سلطان الله أعزَّه الله، وسلَّطَه على عدوه.

ولا يفوتني أن أذكّر السائرين في طريقهم إلى الله أن باب التوبة يبقى مفتوحاً لنا، وأن إهلاك الشيطان إذا انتصر علينا بذنب أو معصية يكون بالاستغفار والتوبة الصادقة والإقبال على الله، وأسوق إليكم بُشْرَى جاءت في حديث أخرجه أحمد بإسناد حسن، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرَّبُّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني ".

- { وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }

أخرج الله إبليس من الجنة وأنزله منها، وتمت نعمته على آدم عليه السلام وعلى زوجه حواء عليها السلام بأن أسكنهما جنته التي فيها من ألوان النعيم ما تعلمون، وأباح لهما أن يسكنا حيث أَرادَا، وأن يأكلا من جميع ثمرها أَكُلَا طَيِّبًا هَنِيئًا واسعًا رَغَدًا، ما عدا شجرة واحدة نُهاهما عن الأكل منها اختبارًا لهما وامتحانًا وتكليفًا، وهذا النهي قد يكون لشجرة بعينها، وقد يكون لجنس ثمرة في الجنة كالعنب أو التين أو غيرهما.

وهذه الجنة التي دخلها آدم وزوجه عليهما السلام هي الجنة التي في السماء، وهي جنة الخلد التي وعد الله المؤمنين والمصدقين برسله، والتي نسأل الله تعالى أن يرُدَّنَا إليها في أعلى درجاتها.

وهذه الآية فيها أصل عظيم من أصول التعامل مع الذنوب والمعاصي، وهو تحريمها وتحريم القرب منها، وإغلاق الطرق الموصلة إليها، ولذلك قال الله هنا في الآية " ولا تقربا " ولم يقل: ولا تأكلا، وبينهما فرق معلوم لكل من تدبَّره وتأمله، ومن هنا نفهم لماذا جاء قول الله تعالى في الزنا : " وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا " [الإسراء: 32]، ولماذا حرِّمت الشريعة في الخمر عشرة أصناف تشمل من شربها ومن باعها ومن اشتراها، وتشمل حاملها والمحمولة إليه وغيرهم، ولماذا لعنت الشريعة أكل الربا وموكله وكتابه وشاهدَيْه ولم تقتصر على من أكل الربا أو شرب الخمر، وما ذاك إلا لأن سد الذرائع الموصلة إلى الحرام نافعٌ جِدُّ نافع، ومعينٌ جِدُّ معين.

وفي هذا التكليف الذي حصل بالنهي عن الأكل من الشجرة تهيئةً للتكليف بمجاهدة النفس وكفِّها عما تشتهي، وهو الذي سيكون لآدم وذريته بعد نزولهم إلى الأرض، فمن أطاع ربح، ومن عصى كان من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وغضبه، وبفعلها لما يستحق العقوبة والحرمان.

- { فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ }

بدأت معركة الشيطان مع الإنسان في الإغواء والتزيين وبث الأمنيات والوعود الزائفة، وبدأت معركته في المكر والخديعة والوسوسة، وبدأ حسده لآدم عليه السلام يظهر أكثر وأكثر، فسعى في إخراجهما من النعيم الذي امتن الله به عليهما، وعمل على إيقاعهما في المعصية لعلهما بتؤذيها وتفضي بهما إلى سوء الحال، وبدأ يغريهما بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها، وزعم أن الله تعالى نهاهما عن هذه الشجرة لأن فيها نفعا عظيما لهما، وأن هذا النفع يتحقق بأحد احتمالين: الأول: أن يُصْبِحَا من جنس الملائكة الذين عصمهم الله ورفع قدرهم عنده، والثاني: أن يخلدا ولا يموتا. قال الله تعالى: " فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى " [طه: 120].

امتثل آدم وزوجه أول الأمر إلى النهي عن الأكل من الشجرة ولم يقتربا منها، وبقيتا على ذلك حتى مكر إبليس بهما ولهما ووسوس، والوسوسة كلام خفي يجده الواحد منا في نفسه، ويكون من الشيطان في الشر والخواطر الرديئة والفاصلة.

وسوس إبليس لهما لعلهما بأكلهما لو أكلا منها فستظهر عوراتهما، ولعله علم ذلك بإعلام الله له، أو بتفكير منه، أو بعلم سابق، وظهور العورات بابٌ سيلج الشيطان منه كثيرا إلى بني آدم، ولذلك كان حريصا عليه أشد الحرص، وسيأتي في السياق القرآني قريبا تأكيد على هذا المعنى وتوجيه رباني عظيم فيه.

وقد ذكر أهل العلم مسألة وأجابوا عنها، وهي: كيف وسوس إبليس إلى آدم، مع أن آدم في الجنة وإبليس مطرود منها ومُنْع من دخولها ؟

والجواب: أنه مُنْع من دخول الجنة مُكْرَمًا، فأما على وجه الردع والإهانة فلا يَمْتَنِعُ. وقال بعضهم: قد تكون الوسوسة لهما وهو خارج باب الجنة. وقال بعضهم: يُحْتَمَلُ أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء.

ولقائل أن يقول: هل السوء هنا هي العورة الفاحشة ؟ والجواب نعم، وظهورها على بدن آدم وحواء سيوقعهما في حرج شديد ويسوءهما، وذلك بمقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها من حب الستر وكراهة العري.

- { وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ }

قاسمهما، أي: حلف لهما بالله أنه ناصح أمين صادق في كلامه، وأنه كان قبلهما في هذا المكان ويعرف أسرارهما وما فيه من خير عظيم.

ويظهر أن آدم عصى إبليس أول الأمر ولم يستجب له، وأنه تردد بعد ذلك في طاعته، فزَيَّن له عن طريق إغرائه بالملائكية والخلود، وجعل يحلف بالله لهما ليطمئنا إليه أكثر وأكثر.

- { فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ }

فدلاهما بغرور: تدلية الشيء إرساله وإنزاله من الأعلى إلى الأسفل، والشيطان عليه لعنة الله دلى أبانا وأمنا من الجنة إلى الأرض، أي: نزلا بسبب أكلهما من الشجرة وطاعتهما له من الجنة إلى الأرض، ونزلا من المكانة العلوية إلى المكانة التي فيها الغم والهم والبلاء.

ثم انظروا إلى التعبير القرآني الذي قرن التدلية بالغرور، يعني: أنزلهما لأنه غرَّهما بزخرف القول، وانطلت حيلته عليهما وخدعهما، وجرَّأهما على أن يفعلوا ذلك، وطمَّعهما فيما لا نفع فيه، وغلبت الشهوة العقل.

قلت: ويا ليت الأمر توقف عند خداعه لأبينا وأمنا، ولكنه خداع ممتد إلى أيامنا، ونراه كيف يضحك على كثير منا ويخدعه، وكيف يزين له سوء عمله، وكيف يُحَسِّن له القبيح، ويمنعه من البر والطاعة.

أكل آدم وزوجه عليهما السلام من الشجرة طلبًا لبلوغ درجة الملائكة وطلبًا للخلود، ورأى كلُّ منهما شؤم معصيته بمجرد أن ذاقا الشجرة وبدأ في الأكل منها، وانكشفت عوراتهما المغلظة، وظهرت وبدت بعد أن كانت مخفية لا يستطيع كل منهما رؤية عورته ولا عورة صاحبه، فخرجلا وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة، أي: انطلقا يقطفان من أوراق الشجر في الجنة، ويطلبان الستر ويغطيان ما انكشف منهما.

قال أهل العلم: ومعلوم لديكم أنه لم يسبق إليهما أمر إلهي بوجوب ستر العورة، ولكنهما فعلا ذلك بما أودعه الله تعالى فيهما من فطرة الحياء والستر، فكان سَتَرُ العورة عن الناس فطرةً فطرَ الله الناس عليها قبل أن تأتي النصوص الشرعية في ديننا وتأمر بسترها، ولذلك كم يعجب صاحب الفطرة السليمة من تساهل البعض من أهل زماننا في كشف العورات، والذي لا يكون إلا بتغيير فطرة الله في العالمين كما غيروا فطرة التوحيد والإسلام فيهم.

قلت: ولعل سيدنا آدم فهم أن العري مذموم في الشرع، وذلك من خطاب الله تعالى له يوم أسكنه في الجنة، يوم وعده بأنه لن يجوع فيها ولن يعرى، والعري ضد اللبس والستر، ولذلك فزع إلى تمام الستر بعد أن ظهر له ما كان مخفياً، وهو ما أشار إليه قول الله تعالى: " فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى " [طه: 117-118].

وقال أهل العلم: كان سترهما للعورة أول مظهر من مظاهر الحضارة التي جعلها الله في عقل الإنسان، والتي لا بد من دوام الاعتناء بها بحسب فقهها في شرع الله حتى نرتقي بهذا الجنس البشري ونحقق مراد الله فيه.

سبحان الله: كل شجر الجنة مباح لآدم وزوجه عليهما السلام إلا هذه، فأقبلا عليها وضعفاً أمامها، فكان ما كان، وكان حكاية القرآن لما حصل مع أبينا وأمنا تنفعنا في التعامل مع ما حرم الله علينا، فلا ينبغي أن نذهب إلى الحرام ونظن أن الراحة فيه ونترك الحلال وما أكثره، فمثلاً: أباح الله لنا أن نشرب ألواناً كثيرة من الشراب مما يصعب حصره، وحرّم الخمر، فترى صنفاً من الناس لا يلتفت إلى كثرة المباحات ويذهب إلى الحرام.

ومن ذلك أن الله تعالى أباح أنواعاً كثيرة من التجارة ومن أسباب تحصيل المال، وترى كثيراً من الناس تغفل عن ذلك وتذهب إلى الربا وإلى الغش والخداع في البيع والشراء، وقيسوا على ذلك.

وقد ذكر أهل العلم هنا في تفاصيل قصة إغواء إبليس لآدم وحواء، أن إبليس وسوس أولاً لأمنا حواء عليها السلام، وأنه لا زال بها حتى زينت لأبينا آدم عليه السلام، وأشارت عليه بالأكل من الشجرة

فأكل، وقد استدلو على ذلك بما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَزِ اللحم ⁴، ولولا حواء لم تَخُنْ أنثى زوجها ".

والخيانة المذكورة في الحديث هنا ليست خيانة الأعراض والفرش والوقوع في الفاحشة، ولكنها محمولة على أن أُمَّنَا حواء عليها السلام كانت أحد أسباب أكل آدم من الشجرة، فمن أهل العلم من قال: إنها أكلت أولاً ثم شجعت آدم على الأكل، فلما رآها أكلت أكل.

ومنهم من قال: إنها حسنت له الأكل من الشجرة فاجتمع على آدم وسوسة الشيطان وتحسين زوجه. ومنهم من قال: بل إن آدم هو الذي أكل أولاً ثم أكلت حواء لأنها تبع له، والمرأة تابع لزوجها وتحتمي به وتقلده، والخيانة التي وقعت منها هي أنها رآته يأكل ولم تنكر عليه ولم تنصحه، بل سكنت، ومعلوم لديكم أن كل من رأى أحاً له يفعل الخطأ ولم ينكر عليه فقد خان.

ومقصود الحديث أن المرأة فطرت على تزيين ما تشتهييه للرجل، وأن الرجل لا ينبغي له أن يُفِرط في لوم النساء على ما يقع منهن من نحو ذلك، فإنَّ هذا طبعهن كما وقع من أُمَّهِنَّ عليها السلام، وحفظ الله نساءنا ورجالنا.

أما بخصوص اللحم المذكور في الحديث، فمعناه عند كثير من أهل العلم أن بني إسرائيل لما أنزل الله عليهم السلوى في التيه، ونهاهم عن ادخار لحمها، خالفوا وادخروا واعتدوا، ففضى الله منذ ذلك الوقت بسرعة الفساد إلى اللحم بسبب ما اقترفوه، وهكذا شؤم المعاصي، وإلى الله المشتكى.

{وَنَادَاهُمَا رُبُّهُمَا أَلَمْ أَهْكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ}

ناداهما ربهما جل وعلا، وعاتبهما على أكلهما من الشجرة، وقد بين لهما حقيقة عدوهما الأكبر وهو الشيطان، قال لهما: لماذا عصيتما أمري وأطعتما الشيطان؟ وكيف ترضيان بقَسَمِهِ وهو من تكبَّر على أمر الخالق واعتدى، وهو العدوُّ الظاهر الواضح البينُّ الذي لا تخفى عداوته عليكم؟

⁴ أي: لم يفسد ولم يمت.

ناداهما بعد أن انتهيا من تغطية سوءاتهما، وبعد أن علما ضرَّ المعصية ومفاسدها، وما ذاك إلا ليكون النداء أبلغ وأكثر تأثيراً في نفوسهما.

ولعلي أذكر حال صنف من الناس علم نداء الله له باجتناب الزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك، ولكنه يتجرأ على هذه المحارم ويظن أن أمرها هيِّن، فإذا رأى عظم شؤمها وأثرها على قلبه وحياته، فضلاً عما ينتظره في آخرته، نراه يدرك حكمة الله وعظمته فيما أمر ونهى، ويعلم تمام العلم أن الله تعالى ما ناه إلا لیسعد، وأن الشقاء كلَّ الشقاء في مخالفة أمر الله ونهيه.

- { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } -

أجاب سيدنا آدم وأما حواء عليهما السلام ربنا جل وعلا لما عاتبهما، وقالوا: يا رب، اقترفنا ذنباً عظيماً بمخالفة أمرك وطاعة عدوك، وظلمنا أنفسنا بتعريضها لغضبك وسخطك، وقد عرفنا ضعفنا وعجزنا، وإننا نرجو رحمتك، ونطلب جِلمك وسترِكَ للذنب ومغفرتك، ونعلم تمام العلم أنه إذا لم يدركنا عفوك، وإذا لم تقبلنا لنكونن ممن خسر نفسه خسراً عظيماً.

وهذه الكلمات التي قالها آدم وحواء عليهما السلام طالبين رضا الله، هي كلمات تلقاها آدم عليه السلام من ربه ليتوب عليه، كما ذهب كثير من أهل العلم في تفسير قول الله تعالى: " فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " [البقرة: 37].

تأملوا: عصى آدم فندِمَ على معصيته وأقبل وتاب وأتاب وسأل الله الغفران، فأعطاه الله سؤاله وأكرمه وأعد له جنته، وعصى إبليس فلم يندم ولم يسأل الله أن يتوب عليه، ولكنه سأل أن يُنظره إلى يوم القيامة، فأعطاه الله ما سأل، وأخزاه وجعل النار داره ومستقره.

قلت: وهذا حال أهل الطاعة من أهل الإيمان والتقوى الذين يعظمون ربحهم حق التعظيم، وهذا حال أهل الغفلة من أهل الكفر وأهل النفاق الذين ابتعدوا عن الدين، وازدادوا عن الله بُعداً.

المؤمن يعصي، ولكنه أواب رجَّاع إلى التواب الرحيم، إلى مَنْ رحمته وسعت كل شيء، والمؤمن لا يهناً إذا اقترف الذنب، وتراه يطرق كل باب ليتوب الكريم عليه ويتقبَّله، مستشعراً أن ذنبه هذا أعظم ذنب، وتراه

ينطرح بين يدي خالقه ولا يرفع رأسه من سجوده ودعائه حتى يرضى الله عنه. أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: قل: " اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمي، إنك أنت الغفور الرحيم ".

أما أهل الكفر والنفاق فلا تتحرك قلوبهم مع المعصية، ولا يرون الذنب إلا كذباب جاء على وجوههم فأبعدوه، ولا يتمنى الواحد منهم إلا أن يطول عمره ليشبع من لذائد الدنيا المحرمة. أخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: " إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا ⁵ ".

ولقد جاءت البشرى في أكثر من آية بأن الله تعالى قبل توبة نبيه آدم عليه السلام، وغفر له واجتباها وهده، كما في الآية التي مرت معنا من سورة البقرة، وكما في قول الله تعالى: " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى " [طه: 122].

ولم تذكر سورة الأعراف ذلك لأن غاية ذكر قصة آدم وإبليس هنا التركيز على العداوة التي أبطنها إبليس وأظهرها لآدم وذريته، والتركيز على طرائقه في الوسوسة والصد عن الدين، وهو ما استطردت الآيات في بيانه.

قلت: وهكذا العبد كلما طرق باب التوبة وجد الرحمت تنزل، ووجد لطف الله يحيط به من كل مكان ويحفظه، ووجد طمأنينة الطاعة ترجع إلى القلب ليهنأ من جديد.

الله يغفر لعباده إذا أحسوا بعظم معصيتهم لخالقهم، وتحركت قلوبهم بالخير وحصل الندم فيها، ثم وجد الواحد منهم نفسه مقبلاً على الله تعالى عابداً مستغفراً مستقيماً معاهداً له على الثبات حتى الممات. وتذكروا أن رحمته ومغفرته سبحانه تكون لكل من ألح على الله بالدعاء والإنابة، وأنه أكرم من أن يردّ عبده إذا رجع إليه، وأن توفيقه للتائبين في حياتهم معلوم ومعهود، فضلاً عما ينتظرهم في آخرتهم، وأن العبد إذا استعان بالله في توبته أعانه الله على كراهة الذنب واجتناب أسبابه ومقدماته، وأعانه على الثبات أمامه وتركه، وسدّده ويسر له طرائق الخير، وهذا من تمام كرمه وجميل لطفه وسعة رحمته.

⁵ أي: حرك يده فوق أنفه، علامة على التجرؤ على الله وعدم خشيته.

- { قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ }

قال الله تعالى لآدم وحواء عليهم السلام بعد أن تابا وأنابا، وقال الله تعالى لإبليس عليه لعنة الله بعد أن أظهر كفره وأصرَّ عليه: اهبطوا جميعًا من الجنة إلى الأرض، والتي ستكون مسرحًا للعداوة بينكم، وميدانًا للتكليف والابتلاء إلى أن يفصل الله بين العباد.

هبط آدم وزوجه من الجنة، ولم يبقيا في نعيمها ورغد العيش فيها، ونزلا إلى دار الدنيا ليبدأ كل منهما رحلته مع البلاء، بل ولتبدأ رحلة ذريتهما جميعًا مع الفرح والحزن، ومع الصحة والمرض، والجوع والشبع، والسعادة والشقاء، والإسلام والكفر، والإيمان والنفاق.

تأملوا؛ خطيئة واحدة حُرِّمَ بسببها أبونا آدم عليه السلام من خير كثير، فَمَاذَا نقول للمُكِبِّ على المعاصي، المَصِيرِ عليها، المجاهر بها.

إنَّ المؤمنَ يرى ذنوبه كأنَّه جالسٌ تحت أصل جبل يوشك هذا الجبلُ أن يقعَ عليه من خوفه ووجله واستحضاره عظمة الرَّبِّ، فجاهدوا أنفسكم وشيطانكم الذي كان سببًا فيما جرى، واستعينوا بالله وأصدقوه في توبتكم، ولا تقنطوا من رَحْمَةِ الله؛ فَإِنَّ الموعدَ دارُنَا الأولى الجنَّة.

ولعلنا في مجالسنا، نسمع من يستدرك على أبينا آدم عليه السلام، ويقول: لو أنه لم يأكل من الشجرة لكننا في الجنة الآن نتنعم بها، ولنحن مما نحن فيه من كَدَر الدنيا وضيقها، ولاستراح الخلق جميعًا من كل ما حصل وجرى. قلت:

1- أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " حاجَّ موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجتَ الناس من الجنة بذنبك وأشقيتَهم، قال: قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلوطني على أمر كتبَه الله عليَّ قبل أن يخلقني، أو قدَّره عليَّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى ".

معنى الحديث أنه وقع لوم من سيدنا موسى لأبينا وسيدنا آدم على أكله من الشجرة لما التقى به، فدافع سيدنا آدم عن نفسه بأن هذا الأمر كتبه الله عليه وقدَّره، وأن الله تاب عليه منه، فكان الواجب علينا أن

نرضى بما قدره الله علينا وننشغل بما أَرادَه منا، فكانت حجة آدم أقوى من حجة موسى فغلبه، عليهما صلاة ربي وسلامه.

بطريقة أخرى: لا يجوز للعبد قبل فعله للمعصية أن يحتجَّ بالقدر ويقول: سأفعل الحرام لأن الله تعالى كتبه عليّ، فهذا احتجاجٌ باطلٌ لا ينفع العبدَ بشيء، ولكن العبد إذا وقع في معصية فزع إلى خالقه يستغفره ويرجو رحمته، فإذا رأى شؤم معصيته حاضراً، ورأى مصيبة تحاصره بسبب ذنبه فليصبر، وليستعن بالله، وليستحضر أن الله تعالى كتب ذلك عليه كما حصل مع أبينا آدم، ولذلك قال أهل العلم: القدرُ يُحتجُّ به في المصائب لا في الذنوب والمعائب.

2- ثم إن ما حصل مع أبينا آدم يدل على غريزة موجودة في الإنسان، وهي غريزة حُبِّه للتجربة واستكشاف المجهول، وكما يقولون: كل ممنوع مرغوب، وقد عرف إبليس ذلك في الإنسان فنفخ في هذه الغريزة وأذكاها.

أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لما صَوَّرَ الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يُطِيفُ به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خَلْقًا لا يتمالك ".

ولا زال إبليس يطوف بآدم ويوسوس له حتى نسي عهد ربه وعصى، ولذلك قال الله تعالى: " وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا " [طه: 115]، أي: ولم نجد له صبراً عن شهوة الخلد والملك وعن الأكل من الشجرة، ولم يحفظ ما أمرناه به وما عهدناه إليه، كما جاء بيان هذا العهد في الآية في قول الله تعالى: " فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى " [طه: 117].

ونسيان آدم هنا في الآية كان نسيان تضييع وترك لأمر الله، وليس هو النسيان الذي يعني عدم التذكر، فتأملوا.

3- أراد الله سبحانه وتعالى للخلق خيراً، علمه من علمه وجهله من جهله، وقد استطرد ابن القيم في أولى صفحات كتابه (مفتاح دار السعادة) في بيان الحكيم العظيمة من إهباط آدم من الجنة، وأطال النفس وذكر كلاماً عجباً في ذلك، ولعلي آخذ شيئاً يسيراً من كلامه فأختصره إليكم بتصرف، وأقول:

أراد الله تعالى أن يُذيق آدم وذريته من نَصَب الدُّنْيَا وغمومها وهمومها مَا يجعلهم يُدركون به عظم نعيم الجنة، ولو أنهم تربوا فيها لما عرفوا قدرها حقًا.

ثم إن الله تعالى أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختبارهم، وليست الجنة دار تكليف، وإنما هي دار جزاء.

ثم إن الله تعالى أراد أن يتخذ من عباده أنبياء ورسلاً، وأولياء وشهداء، يُجِبُّهُمْ وَيُجِيبُونَهُ، فأنزلهم إلى الدنيا وجعل لهم أعداء، فلمَّا آثروه وبذلوا نُفُوسَهُمْ وأموالهم فِي مرضاته ومحابِّه نالوا من محبته ورضوانه والقرب مِنْهُ ما لم يكونوا ليحصلوا عليه بدون هذا البلاء.

وكذلك فإن الله تعالى له الأسماء الحسنى، وقد اقتضت حكمته أن ينزل آدم وذريته دارًا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه، فيغفر فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء، ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء، ويُعْزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، وينتقم مِّنْ يشاء، ويعطي ويمنع، ويبسط ويقبض.

والله عز وجل هو الملك، وقد أنزل عباده دارًا تجري عليهم فيها أحكام الملك من أمر ونهي، وثواب وعقاب، وإهانة وإكرام.

ثم إن إنزالهم إلى الدنيا حَقَّقَ فيهم معنى الإيمان بالغيب، وهو الإيمان النافع، بخلاف ما لو بقوا في الجنة فإيمانهم ثمة يكون إيمان مشاهدة، ولكننا آمنا بكل ما أخبرنا به من أمر الدار الآخرة لنرجع إلى منازلنا الأولى على أحسن حال.

{ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ } وقال الله لهم: سيكون مستقركم في الأرض تعيشون عليها، وتستمتعون بما خلَقَ فيها من أرزاق ولذائذ ومرغوبات، وستبقون كذلك إلى حين، أي: إلى آجال معلومة وأعمار مُقَدَّرَة، وهذه الأعمار تنتهي بموتكم، ثم بقيام الساعة عليكم.

وقد أخبرت الآيات في سورة البقرة وطه، أن الله تعالى سيهديهم وذرياتهم بعد إنزالهم ويرشدهم إلى الصراط المستقيم، وأنه سيُنزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل، فمن اتَّبَعَ الهدى وآمن وعمل صالحًا فَلَا خَوْفٌ عليهم فيما يستقبلونه من أمرٍ الآخرة، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما فاتهم من أمرِ الدُّنْيَا من مالٍ وعيالٍ، بخلاف من كذب وأعرض وجحد وعاند. قال الله تعالى: " قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي

هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " [البقرة: 38-39]، وقال سبحانه: " قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكِ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكِ الْيَوْمَ تُنْسَى " [طه: 123-126].

- { قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }

وقال الله لهم: ستحيون في هذه الأرض وستمضي أعماركم فيها، ثم إذا حضرت الوفاة أحدكم كان دفنه كذلك فيها، ثم إذا نفخ في الصور كان بعثكم وخروجكم منها إلى أرض المحشر التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين ليجازي كلاً بعمله. قال الله تعالى: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى" [طه: 55].

سنحيا في هذه الأرض على ظهرها، وسندفن في بطنها ما بقيت الدنيا، فكانت لنا دار ممرٍ إلى الآخرة، وكانت لنا بيتاً نحيا فيه حياتين قبل أن نخرج منه، حياة ما قبل الموت وحياة البرزخ. قال الله تعالى: " أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا " [المرسلات: 25-26]، ثم تبدأ رحلتنا إلى مستقرنا ومنتهى أمرنا، فنسأله أن يكون الفردوس الأعلى.

- { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }

هنا نوعان من اللباس لا يستغني عنهما من أراد النجاة والفلاح والنجاح، هنا نوعان من اللباس أمر الله بهما بني آدم جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، في جميع العصور والأزمان ماضيها وحاضرها ومستقبلها، هنا نوعان من اللباس لا ينفع واحد منهما دون الآخر:

الأول: لباس الظاهر، وهو اللباس الذي يستر العورات والسوءات، وهو اللباس الذي امتن الله تعالى به هنا على بني آدم، وبَيَّن لهم أنه أنزله عليهم، وخلقه لهم وأوجده، وعلمهم صناعته غزلًا ونسجًا وخياطة.

وغاية وجود هذا اللباس أن يوارِي سوءاتنا، أي: يغطيها من نظر الغير.

والمقصود بالسوءة كل ما يسوؤنا إظهاره، ومنها العورة المغلظة عند الرجل وعند المرأة، ولعل الآية محمولة عليها كما دل عليه السياق، ومن السوءة ما حرم الشرع إظهاره على الرجل وعلى المرأة بأدلة أخرى، مما سيأتي بيانه في تفسير الآية.

وقد ذكرت الآية الريش في معرض حديثها عن اللباس الظاهر، والريش يدل على لباس الرفاهية والتنعيم، وهو ما يستعمله الإنسان في تزيين لباسه وتجميله في المجالس والمجامع والمساجد، فضلًا عن استعماله في الوقاية من الحر والبرد، فضلًا عن استعماله في ستر العورة وتغطيتها، فيكون تقدير الآية: خلقنا لكم لباسًا يستركم، وريشًا تزينون به وتستعملونه فيما ينفعكم.

ولا تظنوا أن نفع اللباس الشرعي يقتصر فقط على الدار الآخرة، وعلى تحقيق مرضاة الله والفوز بجنته والنجاة من سخطه وغضبه، وإن كانت هذه هي الغاية العظمى والمقصد الأول، ولكنه نفعٌ يبدأ من الدنيا، ويسعد به أهل الدنيا، وهو أمر ظاهر في حفظ المرأة من ضعاف النفوس والمتربصين بها، ويظهر كذلك في حفظ الرجل من الفتنة التي تعصف بقلبه وتقربه من الحرام والمعصية، بل ويظهر في حفظ المجتمع من انتشار الفواحش والجرائم، وحفظه من شؤم الذنوب ونزول عذاب الله به.

وأقول: وهذا حال كلِّ ما أمر الله به ونهى عنه، فَإِنَّ التَّعَبُّدَ لِلَّهِ غَايَتُهُ الْعَظْمَى، وَإِنْ تَحْقِيقُ رِضَا اللَّهِ هُوَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْلَأَ الْقَلْبَ فِي الطَّاعَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مَنَافِعَ وَفَوَائِدَ نَعِيشُهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، تَجْعَلُ الْحَيَاةَ أَسْعَدَ وَأَسْهَلَ وَأَكْثَرَ بَرَكَهً، وَتَعِينُ عَلَى إِغْلَاقِ أَبْوَابِ الشُّرُورِ، وَكَذَا تَعِينُ عَلَى تَقْوِيمِ الْمَعْجُوزِ.

الثاني: لباس التقوى، وهو اللباس الذي يحميك من نار جهنم ومن ضنك الدنيا، وهو اللباس الذي يقوم على أن يتقي العبد خالقه ويخشاه ويستحي منه، وأن يجعل بينه وبين الشهوات والذنوب سدًّا وحاجزًا أمام الناس وفي الخلوات.

وانظروا وتأملوا في تلكم الخيرية التي اقترنت هنا بلباس التقوى، والتي تفهم منها التحريض على لزوم تفقد القلب وإصلاح حاله، فالقرآن يخبرنا بأن التزام العبد بظاهر الأعمال لا يكفي للظفر بجنة الله ورضوانه، بل يلزم أن يطلع الله منا على صدق في قلوبنا لننال أجر لباس الظاهر، ويلزم أن نُجمل بواطننا بحُبِّ الخير للناس، وصفاء المقاصد والنوايا تُجاههم، فالمرأة التي أطاعت ربها باللباس الشرعي يلزمها أن تحرص على مراقبة الله في أقوالها وأعمالها، والرجل الذي أطلق لحيته ولبس لباس أهل الطاعة وستر عورته يلزمه أن يُصلح قلبه ويعتني بما فيه.

وقد رأينا في زماننا من يجمع بين اللباسين ممن اصطفاه الله وأكرمه وربط على قلبه حتى كتب له الثبات في وجه كل الشبهات والشهوات، ورأينا كذلك من تحمل بزيينة الظاهر دون الباطن، أو زعم أنه مُتَجَمِّل بزيينة الباطن ولكن ظاهره ليس كما يحب الله، وكلاهما على خطر عظيم فلينتبهوا.

ولعلي أقف هنا مع عدد من المواعظ التي لا نستغني عنها في معرض الحديث عن لباس الظاهر والباطن، وهذه المواعظ التي اخترتها لكم تجمع بين الفقه وبين الإرشاد، فتأملوا:

1- أمر الله تعالى باللباس الشرعي في نصوص كثيرة، وقد أجمعت الأمة عليه في تاريخها، ولا يُعرف في الأمة من دعا إلى كشف العورات وإلى التبرج والسفور إلا في زماننا المعاصر، والذي تأثر فيه كثير من المسلمين والمسلمات بدعوات المرجفين والمنافقين وأصحاب القلوب المريضة، والذين نادوا بنزع الحجاب، ونادوا بالثورة على الدين وعلى أوامر رب العالمين، تحت شعارات الحرية والمساواة والحضارة والتطور.

نحن لا نتكلم عن أقوام عصى الواحد فيهم ربه وأقر بمعصيته وعاهد الله على أن يتوب، ولكننا نتكلم عن أقوام لا يرون المنكر منكراً، ولا يعدُّون التبرج جريمة وكبيرة من كبائر الدين، وهذا من أعظم ما ابتلينا به.

قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا " [الأحزاب: 59]، وقال سبحانه: " وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا

يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [النور: 31].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا ". والبخت هي الإبل، والمقصود أن هذا الصنف من النساء يعمل على إطالة الشعر وتضخيم الرأس بما يضعُّه حتى يصبح كسنام الإبل.

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة، أكتفي منها بما ذكرت.

2- صنفٌ من بناتنا ونسائنا نجد في قلوبهن إيمانًا بالله وحبًّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونجد محافظة على تلاوة القرآن والصلاة، ولكن اللباس الشرعي غير حاضر في حياتهن، ومثلهن نقول: بوركنت قلوبكن بما تحملن، ولتقبل على ستر العورات وحفظ أمر الله فيها، فإن الدنيا زائلة وإن الآخرة مقبلة، وإن السعيد من لزم، وإن الشقي من حُرِم.

3- صنف من أبناء المسلمين وبناتهم تظهر عليهم معالم الطاعة والالتزام، من اللباس الشرعي وغض البصر وعدم الاختلاط ونحو ذلك، ولكن الواحد منهم يأتي بمساوئ الأخلاق في جلساته وكلامه، كالكذب والغيبة ونقل الكلام بين الناس للتحريش بينهم، والتساهل في أكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك، ومثلهم نقول: بورك ما يظهر منكم من طاعة الله في الظاهر، وتذكروا قول الله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، وجاهدوا أنفسكم في اجتناب هذه الرذائل، فإنها تجلب سخط الرب وتستوجب نقمته وعذابه، واحفظوا ألسنتكم عن الزلات فإن اللسان من أعظم أسباب دخول أهل النار إلى النار.

4- اتفق الفقهاء على أنه يجب على المرأة أن تلبس من الملابس ما يغطي جميع عورتها، والعورة عند الحنفية والمالكية جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين، بخلاف الشافعية والحنابلة الذين ذهبوا إلى وجوب تغطية الوجه والكفين.

ولباس المرأة الذي يَصِفُ جسمها ويحجِّم بدنها ليس لباسًا شرعيًّا وإن كان يغطيها، وكذا اللباس الذي يكون رقيقًا ويشف عن العورة، فيعلم لون الجلد.

5- وستر العورة ليس أمرًا خاصًا بالنساء كما يظن البعض، بل هو أمر له أحكامه التي تتعلق بالرجل، فلا يجوز للرجل كشف فخذه ولا ما تحت سرتة، ولا يجوز له لباس ما يشف عن العورة، ولا ما يحجمها ويبين معالمها.

6- قارنوا بين صناعة الملابس في القديم وصناعتها في زماننا الذي نعيش، والذي ترون فيه تقدّمًا واسعًا في جميع تفاصيل اللباس وصناعته وتسويقه، وهذا يدعونا لمزيد شكر الله على نعمه وكرمه، ويدعونا للحدّ من تقليد أهل الكفر في وضع شعاراتهم على الملابس كالصليب والنجمة السداسية وشعارات الماسونية وعبدة الشيطان، ويدعونا للحدّ من نشرهم للفاحشة عن طريق دور عرض الأزياء التي يختلط فيها الرجل بالنساء مُظهرين سوءاتهم، ومُعْتَرِين بانحطاطهم وقربهم من الحياة البهائية، بل ويدعونا للحدّ من تسليع المرأة والتجارة بها، وجعلها وسيلة إغراء للشراء والبيع، والمصيبة أنهم يفعلون ذلك تحت شعارات حرّيتها وتمكينها وإعزازها !

وقد استقر في فطر الناس وأفهامهم أن كاشف عورته المغلظة أمام الغير إما أنه ذليل مهين، وإما أنه فاقد عقله مجنون، وإما أنه سفيه يتاجر بعرضه وعفته من أجل ثمن بخس دراهم معدودة.

{ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ } أَطْلِقُوا عقولكم يا بني آدم في آيات الله الشرعية مما أمر ونهى، وانظروا في آلاء الله ونعمه كاللباس والزينة وغيرها لتعلموا أن خالقكم عظيم عليم حكيم لطيف رحيم، ولتعلموا أنه أراد بكم خيرًا، ولعلكم تتعظون وتذكرون وتقبلون على طاعته كما يحب لا كما تشتهون، ولعلكم تستحضرون عظيم قدرة الله تعالى وانفراذه بالخلق والتقدير والتدبير فتخضعون له وحده، سبحانه.

- { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ }

نداء ثانٍ من الله تعالى لبني آدم لعله يكون أكثر تأثيراً وتنبيهاً، نداءٌ يحمل تحذيراً شديداً من فتنة الشيطان الذي أوقع أبانا آدم وأمنا حواء في حباله حتى أخرجهم من ملكوت السماء ونعيم الجنة إلى دار التعب والعناء، وحتى تسبب في ظهور عورائهما بعد أن كانت مستورة مخفية.

يا بني آدم: إن بينكم وبين الشيطان عداوةً قديمةً موروثَةً بدأت مع أصلكم، فلا يستدرجنكم ليقعكم فيما فيه هلاككم، ولا يوقعنكم في فتنة كشف العورات والتجروء على الحرمات، ولا تجعلوه يتمكن منكم فيما يريد. قال الله تعالى: " أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا " [الكهف: 50].

إن همة الشيطان في كشف العورات وفي تزيين إظهار السوءات عظيمةٌ وكبيرةٌ، وهو ما نرى أثره في واقعنا المؤلّم الذي تسابق فيه الكثير في الفحش والتفحش، والذي تساهل فيه الكثير في اللباس وشروطه وأحكامه، والذي صار العري فيه تجارة رابحة لكثير من أبناء الجيل وبناته على وسائل التواصل الاجتماعي، بل صار طريقة حياة عندهم، وقد يُخْرِج أحدهم أمه وزوجته وأخته وبنته على حال يسخط الرب جل وعلا، بل قد يخرج هو بلباس تظهر فيه الخنوة والتشبه بأهل الكفر والنساء.

إن ذكر اللباس وستر العورة مع قصة بداية الخلق يحمل دلالة عظيمة على أنه من الفطرة الإنسانية كما أشرنا من قبل، وفيه تبكيت لأهل الجاهلية الذين جعلوا العري عبادة وطاعة ملازمة للطواف بالكعبة في بعض الأحوال، وفيه دعوة لهم بأن يتقوا الله في أنفسهم وأتباعهم، ويهتدوا بهدي الوحي.

{ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ } إخبار من الله تعالى عن اختلاف بيننا وبين الجن فيما يتعلق برؤية كلٍّ من الجنسين للآخر، فالجن أعطاهم الله القدرة على رؤية بني آدم وليس العكس، والشياطين من الجن فلا يراهم البشر ولا يرون كبيرهم إبليس على صورتهم الحقيقية، بخلافه هو وجنوده. وهذا الإخبار جاء في معرض التحذير من فتنته، ومعلوم لديكم أن الضرر يكون أشد خطورة إذا جاء من لا نراه مع علمنا بوجوده، وهو ما يدعوننا لمزيد حذر منه بتحسين أنفسنا وتقوية إيماننا وتحصيل العلم النافع.

والمقصود بقول الله تعالى { إِنَّهُ يَرَاكُمْ } إبليس، وقبيله هم ذريته من الجن، مسلمهم وكافرهم، صغيرهم وكبيرهم، فهؤلاء جميعاً يرون الإنس، ولكن التحذير هنا إنما هو من الشياطين الذين هم أنصار إبليس في الباطل وفي إضلال العالمين.

وفي مسألة رؤية الجن للإنس وعكسها، أذكر ما يلي:

1- إن امتناع رؤية الإنسان للجن إنما تكون على حقيقته، بخلاف ما لو تشكّل، فقد يرى الإنس الجنّ إذا كان على هيئة إنسان أو حيوان.

ومما يدل على ذلك القصة التي أخرجها البخاري، والتي تمثّل فيها الشيطان لأبي هريرة رضي الله عنه على هيئة رجل، وذلك لما جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس مال الزكاة، فقد جاءه الشيطان ثلاث ليال متتابعات ليسرق، وكان يمسكه أبو هريرة دون أن يعرف أنه شيطان، ويهّم برفعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الشيطان كان يستجديه ويخزّنه حتى يتركه، ثم علّم الشيطان أبا هريرة آية الكرسي ليمنعه من السرقة والرجوع إليه، فلما سأله صلى الله عليه وسلم عما حصل وأخبره الخبر، قال عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة: "صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان".

ومن أدلة تشكّله على هيئة حيوان ما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن بالمدينة نفرًا من الجن قد أسلموا، فمن رأى شيئًا من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثًا، فإن بدا له بعدُ فليقتله فإنه شيطان ». والعوامر هي الحيات والثعابين التي تكون في البيوت، فهذه لا تُقتل حتى تُستأذن بالخروج وتُنذر ثلاثًا لأنها قد تكون جنًّا مسلمًا، فإن لم تخرج فنقتلها لأنها تكون حينئذ حية حقيقية أو تكون شيطانًا تشكّل بها.

وكذلك ما أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الكلب الأسود شيطان ". أي: أنه قد يتشكل على هيئته على تفسير عدد من أهل العلم.

2- أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن عفريتًا ⁶ من الجن تفلّت البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من

⁶ هو المتمرد العاتي، والقوي النافذ مع خُبث ودهاء.

سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلُّكم، فذكرت دعوة أخى سليمان: " رب اغفر لي وهب لي مُلكًا لا يُنبغي لأحدٍ من بعدي " [ص: 35]. فردته خاسئًا ⁷ .

وفى هذا الحديث فائدة تدل على ضعف الشيطان مع قوة الإيمان، وفائدة أخرى تدل على شدة حرصه في أن يصرف المصلي عن صلاته وخشوعه.

والشاهد من استحضار الحديث هنا هو رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم لهذا العفريت، فهل رآه على حقيقته أم على صورة جسميَّة محسوسة تشكَّل فيها ؟ والقولان موجودان عند أهل العلم، فإن كان رآه حقيقة فهذا يدل على وقوعه للأنبياء فقط استثناء من القاعدة كما قال الإمام الشافعي.

ومن أهل العلم من قال: بل يقع لغير الأنبياء من أصحاب الكرامات وغيرهم، ويكون معنى الآية هنا محمولًا على غالب أحوال بني آدم.

ومن أهل العلم من قال: يمكن أن يكون معنى الآية أننا لا نراهم حال رؤيتهم لنا ومراقبتنا، وهذا لا ينفي أنه قد يراهم بعض الناس على حقيقتهم في أوقات أخرى.

أما إذا كان صلى الله عليه وسلم رآه على غير حقيقته فيكون منسجمًا تمامًا مع ظاهر الآية وكلام جمهور أهل العلم في تفسير الآية.

وأنته هنا إلى أن هذه المسائل كلها من علم الغيب، ولا يجوز الخوض فيها إلا في ضوء ما ورد فيها من النصوص الصحيحة الصريحة.

{ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } يحمل ختام الآية بشرى لأهل الإيمان، بأن الولاية بينهم وبين الشياطين منقطعة، فلا الشياطين يحبون المؤمنين ولا المؤمنون يحبونهم، ويحمل تحذيرًا كذلك لهم من التشبه بمن لا يؤمن بالله وباليوم الآخر، ممن اتخذ الشياطين أولياء من دون المؤمنين.

⁷ أي: طردته صاغراً ذليلاً.

ويحمل ختام الآية كذلك وعيدًا للذين كفروا بالله واليوم الآخر، وهذا الوعيد يتمثل بقربهم من الشيطان وقرب الشيطان منهم، حتى أصبحت العلاقة بينهم قائمة على الولاية، أي: المناصرة والمحبة والتشبه، والائتمار بأمرهم وطاعتهم في الكفر.

ولا تغرنكم هذه الولاية بينهم، فإنها قائمة على منافع عاجلة لا تدوم، وقائمة على استمتاع بينهم بالباطل والفجور، وقائمة على الفسق والجرائم والكفر والشرور، ولذلك كانت ولايتهم منقطعة غير ممتدة، وكانوا يوم القيامة لبعضهم أعداء، وكان تبرؤ بعضهم من بعض هو ما ننتظر أن نراه غدًا في أرض المحشر وفي النار.

قال الله تعالى: " وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ " [العنكبوت: 25]، وقال سبحانه: " وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " [إبراهيم: 22].

- { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }

تصف سورة الأعراف المكية حال أهل الشرك في افتراءهم على الله وعلى شريعته، وتبين أثرًا من آثار ولايتهم للشياطين وطاعتهم لها، فقد كان العرب منهم ممن ليسوا من قريش يطوفون بالبيت وهم عراة، ويعتدرون عن ذلك بأنهم لا يطوفون بثياب عصوا الله فيها، ويزعمون أن الله تعالى أذن لهم به، وأن آباءهم الذين سبقوهم كانوا يفعلون ذلك.

ومما ذكره أهل التاريخ والتفسير عن ابتداعهم في الدين، أن القادمين لزيارة البيت والطواف لا يطوفون إلا بثياب من ثياب قريش، أو بثياب جديدة لا تكون ملبوسة من قبل، فمن لم يحصل على واحد منهما طاف عريانًا، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة وتستتر على عورتها المغلظة.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن عروة أنه قال: "كان الناس يطوفون في الجاهلية عُراً إلا الخمس، والخمس قريش وما ولدت، وكانت الخمس يحتسبون⁸ على الناس، يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها، فمن لم يعطه الخمس طاف بالبيت عُرياً" الحديث.

وصف الله تعالى طوافهم وهم عرا بأنه فاحشة، ويُن كذبهم وتليبهم على الناس، وأبطل مقولتهم وافتراءهم، وذكر جوابهم على من أنكر عليهم فعلتهم القبيحة هذه.

والفاحشة من الفحش، ويغلب إطلاقها على الأفعال التي يكون قبحها شديداً، وتنفر منها الفطر السليمة، ويستحيي فاعلها من الناس ويتستر، كالبعاء والزنا وواد البنات والسرقه وشرب الخمر وغير ذلك.

يعتذر أهل الكفر عن فاحشتهم هذه بعذرَيْن اثنين، أولهما: أنهم ورثوا ذلك من آبائهم ومن المستحيل أن يكون آبائهم على ضلال، فإنهم لا يفعلون إلا ما ورثوه عن قبلهم من الأمم.

والاستدلال على صواب الفعل بأنه من إرث الآباء لم يكن جديداً في أهل الكفر يوم قاله أهل الشرك في مكة، ولكنه عذرٌ يتكرر عند الأمم التي جاءت من قبل، وكلامٌ يستعطفون به أتباعهم ومقلديهم، كما بين ذلك القرآن وأكّده. قال الله تعالى: "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ" [الزخرف: 23].

قلت: ما أصعبها يوم ينشأ الواحد منهم على تقليد أبيه وأهله وهم مقيمون على الشرك والباطل، وما أصعبها يوم يغلق بصره وسمعه عن هذا الدين، ولعلنا نجد من أبناء المسلمين ممن عصى الله تعالى ولا زال، يذكر أن أباه وأمه راضيان عن قبيح فعله، وأنهما يريدان منه ذلك ولا يعترضان، وأنه يتبعهما ولن يغير، وهذا من الباطل الذي لا يقبل الله صاحبه وما يعتذر به، وهذا من تلبس إبليس على الناس.

وكان الآية تحمل نداء خفياً إلى أولئك الذين يتركون صلاتهم لأن آبائهم لم يأمرهم أو يُعلمهم، وإلى التي لم تلتزم باللباس الشرعي لأن بيئتها غير ملتزمة، وإلى من اتخذوا الأخدان والعشيقَات لأن آبائهم وأمهاً هم هكذا فعلوا من قبلهم، إليهم جميعاً أقول: إن هذا الدين دين مبادئ وليس دين تقاليد، والعقل من التفت إلى آخرته وصدق الله في إقباله عليه، ثم جعل هواه تبعاً لما جاء به الشرع وأمر به الله، وإن

⁸ أي: يعطون الناس الثياب حسبة الله تعالى وتبرعاً منهم.

خالف ما نشأ عليه وترعرع فيه. قال الله تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ " [البقرة: 170].

أما العذر الثاني الذي اعتذروا به عن فاحشتهم هذه، فهو قولهم: إن الله هو من أمرهم بها، بمعنى: أن تشريعهم للقادمين من خارج مكة بنزع اللباس، هو من الدين ومن تمام العبودية، ولم يأت آباؤهم بهذا الفعل من تلقاء أنفسهم، ولكنهم كانوا يتبعون الله بذلك ويتقربون إليه.

اعلموا أن من أخطر ما يحصل مع من يفعل المعاصي، أن الواحد منهم يقترب الفحشاء والمنكرات ثم يُلبس فعله هذا ثوب العبادة والتقرب إلى الله.

وللتذكير، هذا حال صنف من أبناء جلدتنا ممن يتشبهون بهم، ويعتدون على حرمة الله زاعمين أن الله أباح لهم ذلك، ومعتقدين أن نيتهم الطيبة ستصلح عملهم الفاسد، بل ويضعون فاحشتهم ومعصيتهم في قالب الطاعة، كمن يتعامل بالربا ليطعم الفقراء والمساكين، وكمن يكلم امرأة أجنبية عنه ويخلو بها ويبدل لها من الكلام المعسول وغيره لتلبس الحجاب بزعمه.

{ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ } قل لهم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن معاذيركم فاسدة ومردودة عليكم ولن تنفعكم شيئاً، وإن الذي ورثتموه عن آبائكم ليس صحيحاً، وإن الله لم يأمر بما تفعلونه، فكشف العورات هذا من الفواحش التي تُسخط الله تعالى ولا ترضيه، والله لا يأمر بها.

قل لهم: ما هذا الدين الذي يقوم على كشف العورات في الطواف حول البيت؟! وكيف تزعمون أن الله أمركم به وما هو إلا من أمر الشيطان؟! قال الله تعالى: " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " [البقرة: 268].

{ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ختاماً للآية يدل على أنهم نسبوا باطلهم هذا إلى الدين جهلاً وعدواناً، وأنهم لا يفقهون ما يقولون ولا ما يفعلون.

انظروا كيف يردد صنف من الناس في أيامنا كلام أهل الشرك قديمًا، ويقدمونه بثوب آخر، ويقولون فيه: إن الله جميل يحب الجمال ولذلك نتبرج ونكشف ما نكشف من أبداننا، فنحن نحب أن نكون جميلين كما أمر الله، أو يقول بعضهم سخريّة وسفاهة بأن هذا من باب التحديث بنعم الله وإظهارها، ولو تأمل هؤلاء ما يقولون لأدركوا إلى أي درجة غميت أبصارهم، وإلى أي حدّ استحوذ عليهم الشيطان، فما الصلة بين اللباس الفاحش المثير للغرائز وبين الجمال الذي أراده الله ورضيه، فلا جمال في حقيقة أمرنا إلا فيما أمر الله به، ولا تحديث بنعمة الله إلا فيما أباح ربي وشرع.

- { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } -

أخبرهم يا محمد صلى الله عليه وسلم بما أمرهم به الله بدلًا من خرصهم وظنونهم وأوهامهم، وأخبروا أيها المؤمنون كل الناس، قولوا لهم: إن الله أمر بالقسط، والقسط هو العدل وإعطاء كل ذي حق حقه، فحق الله أن نوحده ولا نشرك به شيئًا، وحق الوالدين أن نطيعهما، وحق القرابة أن نصلها، وحق الجار ألا نؤذيه، وحق المسلمين أن يصل إليهم كل ما أمكن من أنواع الخير والمعروف، وحق غير المسلمين أن ندعوهم ونحسن للمسلم منهم، وحق العورة أن نستترها ونطيع أمر الله فيها لا أمر الشيطان.

{ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ } أي: أمر ربي بالقسط فأقسطوا، واستقيموا في طاعتكم لله، وحافظوا عليها وأدوها كما أمركم نبي الله ولا تبتدعوا، وأقيموا وجوهكم عند بيت الله المحرم متذللين خاضعين منيبين.

ومعلوم لديكم أن المسجد الذي كان موجودًا عند أهل مكة هو المسجد الحرام، وهو الكعبة التي كانوا يعظمونها على طريقتهم، ولكن طريقتهم لا تقوم على الوحي والهدى، ولذلك أمرهم الله أن يقيموا وجوههم عندها، أي: أن يقبلوا على الله إقبالًا كاملاً كما أمر وأرشد، وأن يأتوا بالطاعة كاملة في أركانها وشروطها وواجباتها، وأن تكون صلاتهم ركوعًا وسجودًا وتعظيمًا لله، لا مكاء وتصدية، لا تصفيًا وتصفيرًا.

ولا تظنوا أن إقامة الوجوه مطلوبة فقط عند المساجد، أو أنها مطلوبة من أهل الشرك الذين خاطبتهم الآية، بل هي مطلوبة منا جميعاً، ومطلوبة عند كل عبادة أمر بها.

{وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} وأخلصوا دينكم له وحده، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له، وإلا ما كان على هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

اجعلوا دعاءكم خالصاً لله، وتوجهوا بصلاتكم لله، لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام.

لا تخطوا في نياتكم، ولا تظنوا أن غير الله ينفعكم أو يضركم. قال الله تعالى: " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ " [البينة: 5].

{ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } لأهل العلم طريقتان في تفسير ختام الآية هنا:

الأولى: أن الله تعالى خلقنا في هذه الدنيا وأحياناً، ثم إن الموت سيأتي كل واحد منا وسنغادر هذه الحياة، ثم إن الله تعالى سيعيدنا أحياء يوم القيامة للحساب والعقاب أو الثواب، فيكون المعنى: كما بدأكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً سيعيدكم يوم القيامة بعد أن مئتم وصرتم رفاتاً وعظاماً. قال الله تعالى: " وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ " [الروم: 27].

وأشار إلى هذا المعنى كذلك وأكَّده الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " إنكم محشورون حُفَاءَ غُرَاءَ غُرْلًا⁹، ثم قرأ: " كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ " [الأنبياء: 104].

الثانية: أن ختام الآية هنا يشير إلى علم الله تعالى الذي سبق في العالمين قبل أن يخلقهم، ويشير إلى مقادير الخلق التي قدرها سبحانه وتعالى في العالمين، فالله سبحانه وتعالى لما بدأ خلق الناس كان قد قدر

⁹ أي: غير محتونين.

سبحانه قبل ذلك مَنْ منهم يكون من أهل الجنة وَمَنْ يكون من أهل النار، ثم إن الله خلقهم في هذه الدنيا وأوجدهم وكلفهم وابتلاهم، ثم إنهم سائرون إلى ما كتبه عليهم وقدره، فكما بدأهم بعودون، فريق مهتدون وفريق ضالون، وكما سبق لهم في علم الله من سعادة أو شقاوة، فإنهم يصيرون إليه. قال الله تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" [التغابن: 2].

وهذا المعنى يؤيده السياق القرآني كما في الآية التي بعدها، والتي دلت على أن المسلم يُبعث مسلماً ويكون مع أهل الإسلام في الجنة، وأن الكافر يُبعث كافراً ويكون مع أهل الكفر في النار.

وانتبهوا هنا إلى أن علم الله تعالى ليس كعلمنا، فقد يبدو لنا الواحد من الناس من أهل الخير وعمل الصالحات ولكن خاتمته إلى سوء، كما حصل مع إبليس لما كان من أهل الطاعة ثم انتكس وكفر.

وقد يبدو الواحد لنا من أهل السوء ثم يُختتم له بخير ويكون عند الله من المقبولين، كما حصل لسحرة فرعون الذين آمنوا وسجدوا وصبروا على أذية فرعون وجنوده.

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحداكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحداكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحداكم يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها".

وأخرج البخاري عن سهل رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن العبد يعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم".

وقد أشار غير واحد من العلماء إلى أنه لا تعارض بين المعنيين، وأن كلاهما تحمله الآية، خاصة أنها جاءت في معرض تهديد أهل الشرك بما ينتظرون من جزاء شركهم، وأن الواجب عليهم أن يفيقوا من سكرتهم قبل فوات الأوان.

- { فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ }

يا أيها الناس: ستعودون كما بدأكم خالقكم، فريقٌ هداهم الله وشرح صدورهم لما يحب ويرضى، وثبتهم على الدين الصحيح حتى ماتوا، وفريقٌ أضلهم الله وصرفهم عن الهدى، وبغض إليهم الدين والإيمان حتى ماتوا على ذلك.

قلت: وهذه عقيدة القضاء والقدر التي لا ينفع مؤمناً إيمانه بدونها. أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة، فأخذ شيئاً فجعل يَنْكُتُ به الأرض، فقال: " ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار ومقعده من الجنة". قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: " اعملوا فكلٌ مُيسَّر لما خُلِقَ له، أمّا من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: " فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى " [الليل: 5-10].

ولا يفوتنا أن نستحضر هنا نعمة الله علينا، أن جعلنا مسلمين، واصطفانا لهذا الدين، ولا يسعنا إلا أن ندعوه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يثبتنا على الطريق، ويزيدنا من فضله ونوره وهدايته وعونه، فإنه مولانا وناصرنا، ونعم المولى ونعم النصير.

واعلموا أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، لا يُقبل إيمان عبد بدونه، ومن ثمراته: تحصيل لذة الإيمان، وحصول الطمأنينة، والصبر، والقوة.

واعلموا أن القدر خير شره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره من الله تبارك وتعالى، ولا يكون إلا بإرادته ومشئته وتقديره وتدبيره، وهو حكيم في قدره وشرعه.

ومن جميل اعتقادنا أن نقول: أحاط علم الله بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، والله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ونقول: خلق الله الخلق وأفعاله، وجعل سبحانه للعبد قدرة وإرادة ومشئته، وقدرته لا تخرج عن علم الله وإرادته وقدرته ومشئته.

ونقول في عقيدتنا: الله سبحانه وتعالى أعطى عباده العقل وكلّفهم، وأرشدهم إلى ما يحبه ويرضاه، وإلى ما يكرهه ويُسْخِطه، والله لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الشر والفساد، ولذلك نهي عنها. قال الله تعالى: " إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ " [الزمر: 7].

ونقول في عقيدتنا: الله سبحانه لم يجبر أحداً على معصية، ولا اضطره إلى ترك طاعة، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية كالأكل والشرب والصلاة، وبين الحركة الاضطرارية كالعرشة وغيرها، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

ونقول: الله يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، والله سبحانه لا يُسأل عما يفعل، وهو فعّال لما يشاء.

{إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}

هؤلاء أهل الضلال الذين أعمى الله قلوبهم عن الحق بما كسبت أيديهم، والذين كانوا من أهل الخلود في النار لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء، أي: طابت نفوسهم بطاعة الشياطين وأحبوهم، وسارعوا في الاستجابة لهم فيما زينوه من الشرك والكفر، واتخذوهم نصراء وظهراء.

والمصيبة العظمى أن هؤلاء أبوا ولاية الله لهم، ولم يرتضوا بأن يكون ناصرهم ومعينهم هو الله، ولم يتوكلوا عليه ولا جعلوا يقينهم به، ولم يدخلوا في الإسلام مع أن أدلته لم تترك في الحق شبهة ولا لبساً، واستمروا في عنادهم فكانت خسارتهم عظيمة.

والمصيبة الأخرى كذلك أنهم يحسبون أنهم مهتدون، فهم يخترعون ديناً لأنفسهم، ويفترون على الله الكذب، ويعادون الرسل ويسعون في قتلهم، ثم يزعمون أن الله أمرهم بهذا، وأنهم على الحق لأنهم ورثوا ذلك من آبائهم، ظنوا الحق باطلاً والباطل حقاً. قال الله تعالى: " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا " [الكهف: 103-104].

- { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }
يتجدد الخطاب لبني آدم في مسألة تنفعهم في دنياهم وآخرتهم، وتجعلهم يقفون بين يدي الله تعالى في صلاتهم وهم على الحال الذي يرضيه عنهم، وتجعلهم يقدرون للطاعة قدرها ولا يتخذونها هزواً ولعباً. وقد تقدم معنا الكلام عن طواف العرب حول الكعبة وهم عراة، وقد جاء في الآثار أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا قريشاً وأحلافهم، وكان الواجب على من جاء ليطوف من غير قريش وأحلافها أن يشتري أو يستعير من ثياب قريش، وإلا طاف عرياناً، فإن طاف في ثياب نفسه التي جاء بها فإنه يتخلص منها ويلقيها بعد طوافه ويحرمها على نفسه.

وفي بعض الآثار عن الصحابة أن الرجال كانوا يطوفون بالنهار، والنساء بالليل إذا كانوا عراة. يا أيها الناس: لا تطوفوا بالبيت وأنتم عراة، وخذوا زينتكم بستر العورات، والبسوا ثياباً تليق بقدر الكعبة وقدر من تعبدونه.

أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: « كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُرْيَانَةٌ فتقول: من يعبرني تطوفاً¹⁰ ؟ تجعله على فَرْجِهَا وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية: { خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } «.

¹⁰ أي: ثوباً تلبسه.

وقد كان من أول ما اعتنى به صلى الله عليه وسلم لما أصبحت السيادة للمسلمين على مكة والكعبة، أن نهي القادمين إليها من الطواف عراة، وقد أمر بذلك أبا بكر لما حج بالمسلمين قبل حجة النبي صلى الله عليه وسلم، فطلب أبو بكر رضي الله عنه من أبي هريرة أن يعينه في إخبار الناس ونشر الأمر فيهم. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، " أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أَمَرَهُ النبي صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع، يوم النحر في رهط يؤذن في الناس ¹¹، أن لا يَحْجَرَ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان "

وتأملوا كيف جاء النداء في الآية لجميع بني آدم، وهذا يُشعرُك بأن هذا الأمر ليس خاصًا بهذه الأمة، بل هو عام في جميع الأمم من قبل.

وصحيح أنه أمر رباني عظيم جاء في معرض الحديث عن أهل الشرك، ولكن الخطاب فيه جاء عامًا، وكأنه يحمل خطابًا يعني الكثير لأهل الإسلام الذين يلتقون في مساجدهم خمس مرات يوميًا، يقول لهم:

يا أهل الإسلام والصلاة، تزينوا بلباسكم وأنتم مقبلون على المساجد، واعلموا أن أهل العلم أرشدوا واستحبوا للعباد إذا وقف بين يدي ربه للصلاة أن يلبس ثيابًا تليق بهذا المقام الرفيع الذي يناجي فيه ملك الملوك وجبار السماوات والأرض، والذي يكون أقرب ما يكون لاستجابة الدعوات ومغفرة الذنوب والخطيئات، وهذا المقام ينتظره المؤمن ويشتاق إليه ليرتاح من عناء الدنيا وتعبها، ويتخلص من شواغلها وصوارفها.

إن تمام الاستعداد لهذا اللقاء بلباس لائق بحسب حال المرء وقدرته علامة على خير عظيم يحمله القلب، وإشارة إلى اصطفاء من الله وتوفيق، وأمانة على النفس مطمئنة التي ذقت حلاوة ما تفعل. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ».

ولفظه الزينة هنا تدل على أن ستر العورة التي أمر الله بها هو الزينة، وهو الجمال، وتدل كذلك على ضرورة أن يكون اللباس في الصلاة حسنًا وطاهرًا من النجاسة وما هو مستقذر.

¹¹ أي بعث أبا هريرة ومعه رهط ومجموعة من الصحابة ينادون في الناس ويخبرونهم.

وقد أجمع أهل العلم أن ستر العورة شرط لصحة الصلاة، واستدلوا بصيغة الأمر في هذه الآية، وجعلوا الصلاة هي المقصودة من ذكر المساجد هنا؛ فإنها المقصد الأعظم من إقامة المساجد، فيكون معنى الآية: استروا عوراتكم أيها المسلمون عند كل صلاة، فرضاً كانت أو نفلاً، في المساجد كانت أو في غيرها. واتفق أهل العلم على أن المرأة تستر في الصلاة جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين، وجمهورهم وأكثرهم على وجوب تغطية القدمين خلافاً للأحناف، وينبغي أن يكون اللباس فضفاضاً لا يحجم العورة ولا يصف معالمها، فإذا صلت المرأة في بنطال لا يشف مثلاً فإن صلاتها صحيحة ولكنها ليست من كمال الأدب والزينة بين يدي الله جل وعلا، وهذا بخلاف ما لو كان اللباس يشف عما تحته ويُظهر لون البشرة فإن الصلاة فيه لا تصح. أخرج أحمد وأبو داود وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا تُقبل صلاة حائض إلا بخمار ¹² ".

ومن الأحكام التي تخص زينة المرأة في صلاتها أنه يجوز لها الصلاة بلباس فيه زينة، ولها أن تصلي وقد وضعت العطر أو زينة الوجه، كل ذلك ما دامت تصلي في بيتها أو بدون حضور رجال أجنب، مع مراعاة أنها وضعت مساحيق الوجه بعد الوضوء أو قبله إذا كان مما لا يحول دون وصول الماء إلى الوجه. وأما الرجل فإن عورته في الصلاة ما بين السرة والركبة، ولكن الأحاديث أمرته بأن يجعل على كتفيه شيئاً ويغطي بدنه فإن هذا أكمل وأقرب لتعظيم شعيرة الصلاة التي هي ركن الإسلام.

ويقال للرجل كذلك ولمن نسعد بوجودهم في مساجد المسلمين وفي صلوات الجماعة: ينتشر في زماننا أنواع من اللباس الضيق جداً، واللباس الذي يحوي شعارات لأهل الكفر وأهل الفسق كالصليب والنجمة السداسية وشعار الماسونية، والعلامات التجارية الخاصة بالخمور وغيرها، وقد يكون عليه أسماء وصور لمشاهير أهل الكفر في عالم الرياضة والرقص والغناء وغير ذلك، وهذا كله مما يتنافى مع كمال الخشية والتعظيم، بل يحمل دلالة على الوهن والضعف والغفلة مما أصابنا وأحاط بنا.

ولا أقول ذلك يأساً واستسلاماً، فإنهما بعيدان والحمد لله، ولكني أقوله وصفاً للواقع المؤلم الذي يتطلب منا أن نتدبر أمرنا قبل فوات الأوان، ويتطلب منا أن نعني بظواهرنا كما نعني ببواطننا، فإن شعائر هذا الدين تتعرض لهجمة مسعورة من أكابر مجرمي هذا الزمان.

¹² أي: صلاة من بلغت سن الحيض وصارت مكلفة، وليس المقصود حال حبضها فإن الحائض لا صلاة عليها. والخمار يعني غطاء الرأس الذي يستر شعرها ورقبتها.

ولو علم شباب المسلمين وبناتهم شدّة حذر ساداتهم وأسلافهم من مشابهة الكفار في الظاهر لما تساهلوا في ذلك أبداً، فهم يدركون تماماً أن المشابهة في الظاهر لها أثر على القلب والفكر والباطن. أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: " لا يُشَبِّه الرَّيُّ الرَّيَّ حَتَّى تَشْتَبِهَ الْقُلُوبُ ".

{ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا } وصية ثانية من رب كريم عليم حكيم لبني آدم جميعاً، أباح لهم فيها أن يتنعموا بألوان الطعام والشراب، ونهاهم عن الإسراف فيهما لئلا يُعْرِضُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْفُسَادِ وَالضَّرَرِ.

والإسراف في الشيء هو تجاوز الحد عما ينبغي ويليق، والآية جاءت في معرض خطاب أهل مكة الذين كانوا يسرفون على أنفسهم بتحريم ألوان من الطعام، أو أنهم كانوا يأكلون طعاماً حراماً عليهم اشتروه أو حصلوا عليه عن طريق الكهانة أو العرافة أو رعاية الأصنام، فيتجاوزون حدود الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه.

روى غير واحد من أهل التفسير بأسانيدهم إلى الصحابة أن أهل الجاهلية كانوا يحرّمون بعض أنواع اللحم والطعام في موسم الحج كالشاة ولبنها وسمنها، وكانت قريش تمنع من الأكل إلا من طعامها، فكان هذا من الإسراف الذي يبغضه الله.

هذا فضلاً عما حرّمه على أنفسهم مما جاء ذكره في قوله تعالى: " مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " [المائدة: 103]. والبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي فئات من الأنعام حرّمها أهل الجاهلية على أنفسهم.

والإسراف في الطعام لا يكون فقط بالأكل الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يكون بالأكل فوق الشّبع، وبالزيادة في الشرب عن قدر الحاجة، وهذا أمر نسبي في الناس لا يتحدد بعدد الوجبات ولا بنوعها، ولكنه يختلف باختلاف حاجاتهم وأعمارهم وأعمالهم، فقد يأكل الإنسان وجبة واحدة ويسرف فيها، وقد يأكل ثلاث وجبات متفرقات من غير إسراف، وهكذا.

ومعلوم لديكم أن إقبال الواحد منا على الطعام والشراب مطلوب منه، ومأمور به شرعاً وعقلاً، فإنه يحفظ البدن، ويعين على الطاعة، ويلبي حاجات النفس والأهل، فمتى ما وصل الواحد إلى حد سد الجوع وكفاية النفس، وسكون الظم وإرواء العطش، فلا يزيدن على ذلك.

ومعلوم لديكم أن الشرع نهي عن الوصال في الصوم لمدة يومين وأكثر لأنه يضر بالبدن، والأفضل في الأكل والشرب أن يكون ثلثاً لكل منهما، ونبقي ثلثاً للنفس لتبقى الراحة موفورة.

قال أهل العلم: الأحكام الفقهية الخمسة تعزري حكم الأكل والشرب، وإليك البيان:

1- قد يكون الأكل والشرب فرضاً، وهو ما يندفع به الهلاك، فإذا ترك الطعام حتى مات كان عاصياً.

2- وقد يكون الطعام والشراب مندوباً، وهو ما زاد عن حد الضرورة مما يقوي البدن ويعينه على أمور الدنيا والآخرة، من طلب الرزق والعلم وتحصيل النوافل.

3- وقد يكون مباحاً وهو ما يأكله إلى حد الكفاية.

4- وقد يكون مكروهاً، وهو ما زاد على الشبع قليلاً دون أن يتضرر به. واستثنى بعض العلماء من حكم الكراهة ما لو أكل فوق شبعه لحاجة كوجود ضعف عنده مثلاً ولا يريد تركه يأكل وحده، أو كأن قصد بالأكل الكثير التقوي على صيام يوم غد، وهكذا.

5- وقد يكون حراماً وهو الأكل فوق الشبع كثيراً، ومنهم من جعله مكروهاً لا حراماً، وجعل الحرام فيما لو أدى إلى الإضرار بالبدن، أو التخممة.

وهذا التوجيه الرباني القائم على عدم الإسراف في الطعام والشراب توقف معه أهل العلم كثيراً، وذكروا فوائد ومواعظ عجيبة ونافعة، أختار منها:

1- ما قاله بعض السلف في حق الآية الكريمة فقد جاء عنهم قولهم: إن الله تعالى جمع الطبَّ كله في نصف آية. وهذا فيه إشارة إلى أن كثيراً من الأسقام والأمراض إنما تأتي من الإسراف في الطعام والشراب وتجاوز الحد المعتدل فيهما.

بل إن قلة الطعام والاعتدال فيه له أثر ظاهر في صحة الجسم، وجودة الحفظ والفهم والمذاكرة، وذهاب الكسل، وقلة الأمراض بالجملة، وخفة النفس وراحتها، وعلو الهمة في العبادة والدعوة.

2- ما أخرجه البخاري تعليقاً عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: " كل ما شئت، والبس واشرب ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة ¹³ ".

3- أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه، واللفظ لأحمد عن المقدم بن مَعْدِي كَرِب الكِنْدِيِّ، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حَسْبُ ابن آدم أَكْلَاتٍ يُقَمِّنُ صُلْبَهُ، فإن كان لا محالة، فثلثُ طعام، وثلثُ شراب، وثلثُ لَنَفْسِهِ ".

4- ومن أنواع تربية النفس أن لا يأكل الواحد منا كل ما يشتهي، فهذه النفس تحتاج إلى ترويض ومخالفة لبعض ما تهوى.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في مِعَى واحد ». «.

والمقصود أن الكافر من شدة حرصه على الدنيا، ورغبته في الاستكثار منها، يريد أن يأكل كل شيء، ويظفر بكل شيء، بخلاف المؤمن الذي يحرص على أن يتقلل من الدنيا، ويستحضر على الدوام أنها لا تعدو أن تكون دار ممر للآخرة. قال الله تعالى: " وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ " [محمد: 12].

والأصل فينا أن لا نتشبه بأهل الكفر في ذلك، وأن ننتبه إلى ما يضرنا وينفعنا من ألوان الطعام والشراب، وأن ننظر في أثر الإكثار منها على طاعاتنا وصفاء قلوبنا، وننظر في أثرها على البدن والعقل من الرغبة في الإكثار من النوم ودوام الكسل.

ولكم أن تنظروا وتتأملوا فيما أخرجه البخاري ومسلم من قول أبي سليم لأُمّ طلحة رضي الله عنهما: " لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَعِيفًا، أَعْرَفُ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ ؟ " .

¹³ من الخيلاء وهو التكبر.

5- كان صلى الله عليه وسلم يحرص على تعليم من حوله قيمة اللقمة الواحدة، وقيمة هذا الطعام الذي قد يزيد عند قوم فيلقونه في القمامة وغيرهم لا يجد قوت يومه، ويبيت على جوع بطنه.

أخرج مسلم عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها، فليمط ما كان بها من أذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه البركة ".

وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: « بينما نحن في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم، إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا¹⁴، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان معه فضلٌ ظهرٍ فليعد به على من لا ظهر له¹⁵، ومن كان له فضلٌ من زادٍ فليعد به على من لا زاد له. قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل¹⁶ ». «

{ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } وربنا لا يحب من أسرف وتجاوز حده وغلا فيما أحلَّ وحرم، ولا يحب من نازعه الألوهية فجعل للعالمين شرعا غير شريعته، ولا يحب من غفل عما ينفعه ويرفعه، ومن يقابل نعم الله بالجحود والنكران، ولا يحب من اتبع هواه في جميع أمره، ولكن يبغض كل ذلك ويبغض أهله، وسيحاسبهم ويعاقبهم بقدر ما أضروا بأنفسهم وبغيرهم.

- { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } -

حرم المشركون من أهل الجاهلية ألوانا من الطعام واللباس وغيرهما على أنفسهم وعلى الناس، وضيقوا عليهم، وجعلوا لأهوائهم الرأي الأول والأخير فيما يأكلون ويشربون ويلبسون، والمصيبة أنهم نسبوا ذلك لله، وجعلوه من العبادة.

¹⁴ يعني: ينظر يمينا وشمالا يبحث عن يعينه ويساعده فإنه صاحب حاجة.

¹⁵ أي: من عنده زيادة مركوب فليساعد غيره ممن لا يجد دابة يركب عليها.

¹⁶ أي: حتى ظننا أنه يحرم علينا أن ننتفع من شيء زائد عن مقدار حاجتنا من الطعام والشراب والركوب.

إنكار من الله عليهم وعلى آرائهم الفاسدة، وأمرٌ لنبينا صلى الله عليه وسلم بأن يقيمَ الحجة عليهم زيادةً وزيادةً ويقولَ لهم: من الذي أمركم بهذه البدع والضلالات والطواف حول الكعبة عراة؟ وما الذي أوصلكم إلى أن تحرموا أنفسكم من زينة الدنيا ومتاعها؟ وكيف تتركون نعمًا أعطاكم الله إياها، وأخرجها لكم وخلق لكم موادَّها، وعلمكم صنعها لتوسعوا على أنفسكم وغيركم؟ وكيف وسوس لكم الشيطان وزين لكم سوء صنعكم؟ إن هذا هو الضلال المبين. قال الله تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ" [يونس: 59].

يا أهل الشرك، ويا من تتبعون أهواءكم في التحريم والتحليل: إن الله تعالى لم يحرم شيئًا مما تزعمونه، ولم يوح إلى أحد من المرسلين من قبلُ بذلك، فتمتعوا بزينة الله التي أخرجها لكم، ولا تسرفوا فيها، ولا تغفلوا عن شكر المنعم وإفراده بالطاعة، واحذروا ثم احذروا ثم احذروا. قال الله تعالى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَتَفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" [النحل: 116-117].

{ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ }

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن السؤال ولا ينتظر إجابته لأنه لا جواب عندهم، ولأن السؤال عن حرم زينة الله لم يكن سؤال استفهام واستعلام، ولكنه سؤال تقرير وإفحام وإظهار للحجة.

قل لهم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أنواع المأكَل والمشارب واللباس، وإن جميع الطيبات وأنواع الزينة قد جعلها الله للذين آمنوا في الحياة الدنيا، يتمتعون بها ويفرحون بلذتها.

ثم أعلمهم أن نعيم هذه الطيبات بالنسبة لأهل الإيمان لن يكون فقط في الدنيا، بل هو نعيم ممتد إلى يوم القيامة، وسيكون في جنة الله لهم فقط وليس لغيرهم من أهل الكفر والشرك والصد عن سبيل الله، وليس للذين ابتدعوا في الدين وكذبوا على الله ورسوله، ولذلك قال الله: { خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ }، فهي يوم القيامة في الجنة خالصة للمؤمنين لا يشترك معهم فيها أحد، بخلاف الدنيا التي يُنعم الله فيها بأنواع من الملذات والطيبات على أهل الإيمان وعلى أهل الكفر كذلك، ويعطي من واسع عطائه لمن يحب ولمن لا

يحب، ولكنه سبحانه لا يُدْخِل الجنة إلا من مات على الإسلام، ولا يُعْطِي النعيم في الآخرة إلا لمن يحب، أي: إلا للذين وَحَّدُوهُ وَعَبَدُوهُ وَأَطَاعُوهُ، وخالفوا أهواءهم ونهوا أنفسهم عن الفسق والضلال.

أقول: فيكون تقدير الآية هنا: قل إن الزينة والطيبات للذين آمنوا في الحياة الدنيا وكذلك للذين كفروا، ولكنها يوم القيامة خالصة للذين آمنوا.

وقول الله هنا ينفعنا في حوارنا مع أنفسنا ومع غيرنا، يوم يأتي الشيطان ويعبث بعقل أحدنا ويوسوس له ويقول: لماذا يعطي الله جارك الذي لا يعبد الله ولا يصلي من أنواع الملذات ومن واسع الرزق ولا يعطيك وأنت المؤمن المصلي؟ ولماذا يعطي الكفار ألواناً من الجمال والقوة والرزق والنعيم ولا يعطي أهل الإيمان وهم مقيمون على حراسة الدين والتوحيد؟

والجواب أن هذه الدنيا ليست دار جزاء، وليست دار خلود، ولم يجعلها الله حكراً على الذين آمنوا، ولكنها دار بلاء، ودار ممر إلى الآخرة، ودار اختبار بالغنى والفقر، والصحة والمرض، والشباب والهرم، وتوسيع الرزق وتضييقه، والسعيد من آمن بالله وحده، وكان من الشاكرين في جميع أحواله، وامتلاً قلبه بالرضا عن الله تعالى. أخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنَّه الله بما آتاه».

والسعيد من وُفِّقَ للأخذ بسنن الله ليكون الأقوى والأغنى، وُفِّقَ للأخذ بأسباب التمكين والرزق ليكون كما يرجو، فإن الرفعة في الدنيا ليست بالتمني ولا بالتحلي، وإنما جعلها الله منوطةً بأسبابها، فمن بذل الأسباب وسعى فيها حَصَلَ على مراده غالباً، إلا أن يشاء الله لحكمة علمها سبحانه، ومن أُخِلَّ إلى العجز والكسل لم ينل شيئاً غالباً، إلا أن يشاء الله لحكمة علمها سبحانه.

كل من مات على الشرك والكفر محروم من زينة الدار الآخرة، ومحروم من طيبات طعامها وأحسن ثيابها وأجمل نسائها، وإن تمتع في الدنيا بأنواع من الملذات والشهوات، وإن كان من أغنى الناس وأكثرهم نعيمًا، وإن شارك أهل الإيمان بها في الدنيا.

{ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } إن الله تعالى فصل في أحكام هذا الدين، وبين للناس الحلال والحرام، ولا ينتفع من شريعته إلا من عليم أن السعادة فيما شرعه الله، وفقهه عن الله أمره ونهيه، وأيقن أن الاستسلام لأمر الله هو طريق النجاة.

- { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } -

أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ليس أحدٌ أحبَّ إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحدٌ أغْيَر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحدٌ أحبَّ إليه العُدْر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل ».

تأتي الآية هنا لتخبرهم بأصول المحرمات، وما أراد الله من عباده أن يجتنبوه ليسعدوا ويفلحوا، وأول هذه المحرمات الفواحش.

والفواحش جمع فاحشة، وقد تقدم بيانها ¹⁷ وبيان أنها تدور حول الذنوب الكبار التي تُستفحش وتُستقبح لشناعتها وقبحها، كالقتل والزنا وشرب الخمر والسحر ونحوها.

والله تعالى حَرَّمَ ما ظهر منها، أي: ما يفعله الناس جهاراً عياناً أمام غيرهم، وما يتحدثون به أمام خلائهم ومعارفهم، وهو ما يدل على قلة حيائهم من الكريم، والاستخفاف بالعظيم جل جلاله، وهو سلوك يفتح أبواب شرور على الآخرين، وهو من الأسباب التي تستجلب عقوبة الله إذا سكت الناس عن فشو المنكرات والمجاهرة بها.

والله تعالى حَرَّمَ من الفواحش ما بطن، أي: ما فعله العبد بالسر خفية عن الناس، وما لم يعلمه إلا الله، ومنها ما أضمره العبد في قلبه من الحسد والكِبَر والرياء.

¹⁷ وذلك في تفسير قول الله: " وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " [الأعراف: 28].

واعلموا أن خلوة الواحد منا بالمعصية لا يبيح له فعلها، بل قد يكون ذلك علامة على نفاق العبد وقلة إخلاصه، وقد يُحرم الخير العظيم من التوفيق للعبادة ومن أنواع الرزق والصحة والعافية.

{ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ } وحرّم الله عليكم الإثم فاجتنبوه، والإثم هو كل ما حرم الله من المعاصي، وكل ما نهى الله عنه من كبائر الذنوب وصغائرها.

ومن أهل العلم من قال: إن المقصود بالإثم هنا تلكم الذنوب التي يفعلها العبد دون اعتداء على الآخرين كتركه للصلاة والصيام، وكإشراكه بالله ومشاهدة الحرام وسماعه.

والله تعالى حرّم البغي، وهو أن تعتدي على الناس بغير حق، وتظلمهم في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم وأهليهم، كالقتل والسرقة وقذف المحصنات وخيانة الأمانة. قال الله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " [النحل: 90].

وقد أخبرنا القرآن العظيم أن وبال البغي راجع على صاحبه، وأن شؤمه ربما يراه الظالم في ماله وولده ونفسه، وأنه المتضرر الأكبر فيما يفعل. قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ " [يونس: 23]، وقال سبحانه: " وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ " [فاطر: 43].

{ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا } احفظوا يا أهل الشرك ما حرمه الله عليكم وأطيعوا، ولا تأتوا بدين من بنيات أفكاركم واجتهاداتكم القائمة على مصالحكم الشخصية، ومتعكم الدونية.

حرّم الله عليكم الشرك فلا تدعو غير الله، ولا تتخذوا الأصنام واسطة بينكم وبينه، وانظروا وتأملوا في أصنامكم هذه، هل عندهم سلطان ودليل وحجة وبرهان من الله على أنها تنفعكم؟! بل إن الحجة جاءت على صحة ما جاءكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوحيد، وإن البرهان جاء على أن الشرك أعظم الظلم والفسق، وأنه طريقكم إلى الخسارة التي ليس بعدها خسارة. قال الله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ

لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا " [النساء: 116].

وأنتم يا أهل الكتاب ممن جعل الله ولدًا وصاحبة، وممن آمن بأنبياء وكفر بآخرين، وممن آمن بكتب وكفر بأخرى، وممن صدَّ عن سبيل الله، أقول: وأنتم كذلك احذروا الشرك الذي انغمستم فيه، وأقبلوا على خطاب العقل والفطرة، وانقادوا لشرع الله وأمره الذي قام على أنه لا إله إلا الله، وعلى الإيمان بجميع الكتب والرسول. قال الله تعالى: " قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِحَدٍّ أَنْتُمْ قُلُوبُكُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " [يونس: 68].

وأنتم أيها المسلمون المؤمنون: لا تجعلوا بينكم وبين الله واسطة من بشر أو حجر، ولا ترضوا بغير شريعة الله حكمًا في بلادكم وجميع أحوالكم، وتذكروا دومًا واستحضروا أن النفع والضرر، والموت والحياة، والرزق والملك بيد الله وحده لا شريك له، وأن رغبتنا لله وحده، ورهبتنا منه وحده، فلا إله إلا هو ما أعظمه.

{ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } وحرّم الله عليكم أن تعبدوا الله على جهل، وأن تفتروا على الدين ما ليس منه وفيه، وأن تقولوا: إن الله أمرنا بالتعري في الطواف، وحرّم علينا أطعمة وأشربة وألبسة في أحوال وأوقات.

صحيح أن أهل الشرك هم الذين جاء وصف حالهم هنا، وجاء نهيهم عن الكذب على الله، ولكننا وجدنا بيننا وبيننا من يتشبه بهم، ويكذب على دين الله بطرائق شتى، فمنهم يفتي في دين الله بغير علم فيضِل ويضِل، ومنهم من يأتي بأحاديث يزعم أنها من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هي من قوله، ومنهم من يتصدر للكلام في كبار المسائل في العقائد والأحكام والأخلاق وهو أبعد ما يكون عن العلم وأصوله وقواعده، ومنهم من شرع للناس طرائق في الذكر والعبادة مما لا نعرفها في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في صحابته وسلف الأمة الأخيار الأطهار، وهذا كله من تغيير الدين وتبديله فاحذروه.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ».

وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ».

- { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } -

الأمّة هنا معناها القرن من الزمان، والجيل الذي يعاصر أبناؤه بعضهم، فهؤلاء جميعاً كتب الله مقاديرهم، وجعل لهم أجلاً سيأتيهم فيه العذاب أو الموت، فلا يملكون أن يؤخروا قدر الله إذا نزل، ولا يملكون البقاء في الدنيا بعده، وكذلك لا يملكون تعجيل قدرهم والتحكم فيه. قال الله تعالى: " وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ " [الحجر: 4].

وهذا تهديد ووعد للمشرّكين بعد أن أقامت الآيات السابقة عليهم الحجة، وبعد أن وَعَظْتَهُمْ وَذَكَّرْتَهُمْ ونادت عليهم بخطابات متنوعة لعلهم يهتدون ويرجعون.

هذا تذكير لأهل الشرك بما حل بالأمم المكذبة من قبلهم مما يعلمونه، فكأنه يقول لهم: لا تغتروا بامهال الله لكم، فكما جعل للمكذّبين قبلكم أجلاً حلّ فيه العذاب، ونزل فيه بأس الله، فكذلك جعل لكم عذاباً ينزل بساحتكم ويحل بكم إن بقيتم على ما أنتم عليه من التمرد والضلال.

تقرأ في هذه الآية طمأنة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين في كل زمان ومكان، بأن هذا الدين ماضٍ، وبأنه غالب، وبأن أعداءه والصادقين عنه إنما يمهلهم الله قليلاً، ويمتعهم يسيراً، ثم تأتيهم ساعتهم التي قدرها الله. قال الله تعالى: " لَا يَعْزَّنَكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ " [آل عمران: 196-197]، وقال جل وعلا: " حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ " [يوسف: 110].

ولعلكم تستحضرون معي هنا كيف أن الله تعالى أخزى الشرك وأهله وكسر شوكتهم بعد فتح مكة، وكيف أن الشرك لم تقم له قائمة في جزيرة العرب بعد أن نصر الله جنده وأوليائه، فاللهم ربنا لا تمكن لهم في ديارنا، ولا ترفع لهم راية ولا تحقق لهم غاية.

- { يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } -

أكرم الله عباده جميعًا وأعانهم على عدوهم إبليس يوم أرسل إليهم رسلاً من أنفسهم وعشائريهم وقبائلهم، يدعوهم إلى التوحيد، ويرشدونهم إلى ما فيه نجاتهم وفلاحهم، ويقصون عليهم الآيات والمواعظ والتبشير والإنذار.

نداء لبني آدم جاء بعد ثلاثة نداءات في السياق القرآني، مما يدل على عظم هذه النداءات وما فيها، فإنها تحمل قواعد التفكير والسير إلى الله، وترشد إلى ما فيه سعادة الإنسان، وتعين في الحياة الدنيا.

يا بني آدم، إذا جاءكم رسل الله تأمركم وتنهاكم، وجاءت معهم المعجزات والآيات الباهرات، وجعلوا يُسمعونكم كلام الله في كتابه، ويُعرفونكم التوحيد والعبادة والأخلاق، فاتبعوهم وأطيعوهم.

{ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } فإنه من ترك ما نهى الله عنه من الحرام، واستجاب لله تعالى فيما أوجب، وأصلح قلبه وأعماله الظاهرة والباطنة بعد أن كان مفسدًا لها، فهؤلاء هم أهل الأمان في الدنيا والآخرة، وهؤلاء هم الذين لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وهؤلاء هم حزب الله وأهل طاعته والإيمان به وبرسوله وكتابه. قال الله تعالى: " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " [يونس: 62-64].

هذه دعوة الله، وهذا نداؤه لجميع الأمم، حتى انتهى إلى أمتنا التي يلزمنا أن نقيم هذه الدعوة فيها، وأن ننشرها للقاصي والداني حتى نبلغ الدين للناس ونقيم حجة الله على خلقه.

- { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } -

أما الذين ماتوا على التكذيب والصدود، ورفضوا توحيد الله ولم يقيموا له قدرًا، ولم يستجيبوا لدعوة أنبياء الله، واستكبروا عن كلام الله وآياته، فهؤلاء ماكنون في النار ولن يخرجوا منها، وهم أهلها وسكانها وأصحاب العذاب الدائم الملازم فيها.

لقد استكبر عن الدخول في الإسلام كثير ممن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه، فمنهم من استكبر لأنه أكثر مالًا وأعز نفيرًا من النبي المرسل بزعمه، ومنهم من استكبر لأن النبوة لم تكن في عشيرته وقبيلته، ومنهم من استكبر لأن النبوة كانت في العرب ولم تكن في بني إسرائيل، وهكذا يحول الكبر بين طريق النجاة وبين كثير منهم، وكثير ممن جاء بعدهم إلى أيامنا، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُخَبِّرُهُمْ قَالُوا آيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ }

إن ما تفعلونه يا أهل الشرك من الافتراء على الله بنسبة الشريك له، ونسبة بعض أحكامكم إليه، ومن التكذيب بآياته ببحود نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزاته، والكفر بآيات القرآن، والتكذيب بدلائل وحدانية الله التي تملأ الأنفس والآفاق، أقول: إن ذلك هو أعظم الفرية والكذب، ولا أحد أعظم ظلمًا لنفسه ولغيره منكم، ولا أحد أخطأ فعلًا، ولا أجهل قولًا، ولا أبعد شرودًا عن الحق منكم، فانتبهوا لأنفسكم، وأنقذوها قبل أن يأتيكم ما في تمام الآية، فتأملوا.

{ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ } كتب الله في اللوح المحفوظ على من كذب به وبدينه وكتبه ورسله أن يسودَّ وجهه يوم تسودُّ وجوه وتبيضُّ وجوه، وأن يكون من أهل النار الذين يخلدون فيها ولا يخرجون. فالمقصود هنا بنصيبهم الذي سينالهم، أي: ما كتبه الله عليهم من شقاوة وعذاب إن ماتوا على ذلك.

ومن أهل العلم من قال: بل المقصود بنصيبهم هنا رزقهم وحياتهم في الدنيا، أي: ينال هذا الصنف من الناس رزقه وعمله وعمره الذي كتبه الله له في الدنيا، ويتمتع به ويأخذ حظه ونصيبه، حتى إذا أقبل على

الله كان حاله كما جاء وصفه في تنمة الآية، فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمُغْنٍ عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً ثم يعذبون طويلاً.

ومقصود الآية بالجملة أنها حملت وعيداً لا يسع أهل الكفر إلا أن يطرق مسامعهم وقلوبهم، ولا يسعهم إلا أن يرجعوا عن غيِّهم، بل لا يسع المؤمنين إلا أن يزدادوا صلابة وقوة في دعوتهم، وأن يصبروا على أذيتهم، وأن لا يغتروا بإمهال الله لهم. قال الله تعالى: " وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) مُتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ " [لقمان: 23-24].

{ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ }

تبدأ مشاهد الفرع في رحلة أهل الكفر إلى الدار الآخرة من تلك اللحظة التي يعاينون فيها ملائكة الموت التي تجيء لتقبض أرواحهم، فإنها إذا جاءت أدخلت الرعب إلى قلوبهم، وقالت لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا ؟ وأين آلهتكم التي تعلقتم قلوبكم بها لقضاء الحاجات ودفع المضرات ؟ أين هم ليخلصوكم وينجوكم مما أنتم فيه ويكونوا لكم عوناً وسنداً ؟

وقول الملائكة هنا جاءهم لترهيبهم وتخويفهم وتغييسهم ومعاتبتهم، كما جاءتهم بالعذاب والنكال والإهانة. قال الله تعالى: " وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ " [الأنفال: 50].

{ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ }

أدركوا في تلك اللحظات مقدار غفلتهم، وأيقنوا أنهم كانوا يعبدون ما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، وتعلقوا بالسراب والضياع والشتات، وشهدوا على أنفسهم وأقرباء واعترفوا أنهم كفروا بالواحد الأحد الفرد الصمد، وأنهم مستحقون للعذاب المهين الدائم.

- { قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ }

إن سوء الجزاء الذي ينتظر أهل الكفر والفسق لا يكون عند الموت ونزع الروح فقط كما بينت الآيات السابقة، ولكنه جزاء ممتد في أرض المحشر إلى أن ينتهوا من الحساب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يُقَادُونَ إلى النار زمراً.

هنا إخبار من الله تعالى عن حال أهل الشرك في الدار الآخرة، وعن حال الأمم التي مضت وانقرضت ممن كانوا يعبدون الأصنام والنار وغيرها، لعل أهل الدنيا منهم يتعظون ويتركون دين آبائهم ومن سبقهم، ولعلهم يسارعون إلى تعظيم ربهم وتوحيده وأداء ما به أمرهم، ولعلهم يفقهون عن الله وعيده وينقذون أنفسهم مما ينتظرهم. قال الله تعالى: " وَسَكَنُتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ " [إبراهيم: 45].

يقول الله لهم بعد حسابهم في أرض المحشر، وبعد أن أيقنوا أنهم مفترون ومكذبون ومعتدون: الحقوا بالأمم التي سبقتكم إلى النار، الأمم التي هي على شاكلتكم وطريقتكم، الأمم التي سبقتكم في زمان الكفر والصدود في الدنيا كما سبقتكم في الدخول إلى النار في الآخرة، الأمم التي كفرت من الإنس والأمم التي كفرت من الجن.

والجن كما تعلمون منهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم من يظفر بجنة الله ومنهم من يخلد في ناره، وتأملوا كيف قُدموا في الآية على الإنس لأن بداية الإغواء والإضلال إنما كانت منهم، ولأنهم خلَقُوا أولاً.

{ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا } سبحانه الله، كيف تظهر العداوة بينهم في النار، وكيف تتبرأ كل أمة من أختها، مع أنها في الدنيا كانت تُثني عليها وتمدحها، وتسير على طريقها وتأبى أن تهتدي. قال الله تعالى: " وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ " [العنكبوت: 25].

ما أفضعه من مشهد، وما أصعبها من لحظات يوم يلعن بعضهم بعضًا وهم يتقبلون في الجحيم، يشربون من شرابها ويأكلون من زقومها، وتتبدل جلودهم كلما نضجت واحتترقت، ولعل هذا اللعن الذي يجري بينهم إنما هو دعوة على من كان سببًا في الضلال، ومن كان عونًا عليه.

ستلعن كل أمة أختها المماثلة لها في الدين والتي سبقتها في الدخول إلى النار، والتي حملت الضلال في الدنيا قبلها ونقلته إلى من بعدها، سيلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة منهم الأولى.

هل رأيتم أثر رفقة السوء في الدنيا ؟ وهل أدركتم حقيقة ملل الكفر والفسق والفجور التي يبدو ظاهرها أن أهلها منسجمون معًا ويحبون بعضهم ؟ إنهم يوم القيامة أعداء ويلعن بعضهم بعضًا. قال الله تعالى: " الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ " [الزخرف: 67].

وهذا بخلاف أهل الدين وأهل التقوى، وبخلاف من جمعت بينهم محبة الله والعمل لنصرة دينه وأوليائه، وبخلاف من كانوا عونًا لبعضهم على الصلاة والرباط على ثغور الأمة والقيام على حاجات المساكين والتواصي بالحق والصبر، أقول: فهؤلاء يستبشرون بما ينتظرهم من كرامات في كل موطن من مواطن الدار الآخرة حتى يأخذوا منازلهم ومقامهم في الجنات. قال الله تعالى: " وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا " [الزمر: 73].

{ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ }

ادَّارَكُوا فيها، أي: اجتمعوا في النار وتلاحقوا ودخلوا جميعًا فيها، الأولون زمانًا من أهل الملل الكافرة والآخرين منهم، وهنا تبدأ آخر الأمم كفرًا في كلامها وسؤالها لله، تدعو على من سبقها في الكفر وكان سببًا فيما هي فيه.

يقولون: يا رب، هؤلاء من سبقونا، وهؤلاء الذين تركنا التوحيد والعبادة من أجل تقليدهم، وتعصَّبنا لهم، وإحياء لعقائدهم الباطلة وتاريخهم الأسود، يقولون: يا رب، نشكوهم إليك، ونسألك أن تضاعف لهم العذاب في النار، وأن تجعلهم يتألمون مرتين، وأن تشدَّ بأسك وعقوبتك عليهم، كما كانوا كفارًا، وكما

كانوا سبباً في كفر غيرهم. قال الله تعالى: " بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ " [الزخرف: 22].

ومن أهل العلم من لم يجعل الدعاء هنا صادراً من الأمم اللاحقة، بل قال: إن هذا الدعاء يقوله الضعفاء في حق السادة والكبراء من نفس أمتهم، فيكون المقصود بأخراهم في الآية هم الآخرون في الرتبة والمكانة وهم الأتباع، ويكون المقصود بأولاهم الملأ الذين يأمرهم وينهون، وهم رؤوس الشر والفساد، وهم المطاعون في أقوامهم، كما في قول الله تعالى: " وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا " [الأحزاب: 67-68].

ويكون المقصود من الآية أنه يدخل القادة والسادة إلى النار قبل ضعفاء العقل والهمة، وقبل أعوانهم الذين كانوا يسيرون أهل الله والدعاة والمجاهدين ألواناً من الأذية في الدنيا، والذين كانوا يعظمون أسيادهم ويجوبونهم أكثر من تعظيمهم وحبهم لله جل وعلا. قال الله تعالى عن فرعون رأس الكفر في قومه: " يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ " [هود: 98].

يقول هؤلاء الضعفاء: يا رب، هؤلاء كُبارنا الذين كنا نخافهم ونطيعهم، وهم الذين زينوا لنا الكفر، وابتدعوا لنا ديناً يناسبهم ويوافق أهواءهم، وهؤلاء هم الذين كفرنا بك دفاعاً عن مصالحهم، وحراسة لسلطانهم ومثلهم، ونكاية بمن يريد أن يُصلحهم، فاللهم إنا نشكوهم إليك، ونسألك أن تصب عليهم العذاب صباً، وأن تضاعفه لهم.

ما أعجبه من اجتماع في جهنم يكون فيه فرعون وهامان وقارون، ويكون فيه النمrod والذي عقر الناقة، ويكون فيه عمرو بن لحي وأبو جهل وأبو لهب، ويكون فيه الطغاة والمتجبرون من كل زمان، ويكون فيه رؤوس الكفر وأعوانهم، ورؤوس الفسق ومُحَامَتهم، ورؤوس الظلم وأذنانهم الذين كانوا يسيرون أهل الصلاح والإصلاح ألواناً من العذاب؛ يسجنونهم ويعذبونهم ويحرمونهم من الحياة الكريمة الطيبة.

{ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ } إخبار من الله تعالى بأن العذاب سيكون مضاعفاً كما طلبتم يا أيها الأمم المتأخرة، وهذه المضاعفة لن تكون فقط للسابقين، بل ستكون كذلك لللاحقين.

أما مضاعفته للسابقين فلأنهم صنعوا عقائد أهل الكفر، ونشروها فيمن حولهم من الأمم، ولأنهم وضعوا قواعد الضلال والإضلال، وأما مضاعفته للاحقين فلأنهم ساروا على ما سار عليه السابقون، وحملوا الراية من بعدهم حتى أوصلوها إلى غيرهم.

وعلى القول الثاني في التفسير: لا تظنوا أيها الأتباع أن مضاعفة العذاب ستكون فقط على أسيادكم، أو أن العذاب سيكون خفيفاً عليكم، بل إن المضاعفة لكم جميعاً كما أنكم مشتركون في العذاب جميعاً. قال الله تعالى: " وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ".

أما مضاعفة العذاب للرؤساء والقادة فلأنهم كانوا مفاتيح للشر مغاليق للخير، ولأنهم سنوا لأتباعهم كل هذا الضلال، وأما مضاعفته للتابعين فلأنهم كانوا يجرسون الشر وأهله، ويطيعون القائمين عليه طاعة عمياء، وكانوا ينصرونهم ويقدمون لهم ما يحتاجون من عون وخدمة، ويزيدونهم طغياناً ويغرونهم بالإكثار منه.

انظروا إلى هذا الحوار الذي يحصل بين أهل النار في النار، والذي قال الله تعالى فيه: " وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَيْنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ " [غافر: 47-48].

ثم انظروا إلى هذا الحوار وعيشوا مع ظلاله، وقولوا: اللهم ثباتاً حتى الممات. قال الله تعالى: " هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ " [ص: 59-61].

وهذه المضاعفة التي تكون عامة لأهل النار لا يلزم منها أنهم متساوون في العذاب وفي الدرجات، بل إنهم مختلفون بحسب عقائدهم وأعمالهم. قال الله تعالى: " إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا " [النساء: 145]، وقال سبحانه: " الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ " [التحل: 88]، فكان العذاب مضاعفاً عليهم جميعاً في جميع دركاتهم وما قُدِّر لهم أن يكونوا فيه.

وفي ختام الآية، جاء قول ربنا { وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ } أي: لا تعلمون حقيقة ما ينتظركم من أهوال وعذاب أليم مهين شديد في النار، ولا تعلمون أنكم مجرمون كأسيادكم وإن تظاهروا في النار بأنكم ضحية من ضحايا عليه القوم فيكم.

- { وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } -

قالت الأمم السابقة للأمم اللاحقة التي دعت عليهم: لم يكن حالكم أفضل من حالنا، فنحن أعطانا الله العقل وأرسل إلينا الرسل وأنزل علينا الكتب، وأنتم كذلك يا من جئتم بعدنا، أعطاكم الله العقل وأرسل إليكم رسله وأنزل عليكم كتبه، فليس لكم فضل علينا في شيء فيخفف عنكم العذاب؛ لأنكم كذبتكم كما كذبتنا، وأبئتم الإيمان كما أبئنا، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون كما ذقناه.

وعلى التفسير الثاني: لم يسكت قادة الفجور والفسق والضلال عن دعاء أتباعهم عليهم، ولكنهم قالوا لهم: قد ضللتم كما ضللنا، وصددتم عن الحق كما صددنا، وكنتم يدنا التي نبطش بها، وأعينا التي تأتينا بأخبار المصلحين، فما كان لكم علينا من فضل، ولكن نحن وأنتم في الجرم سواء، فذوقوا العذاب الذي ندوقه واعلموا أن كلامكم هذا غير نافع لكم. قال الله تعالى: " وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّآ لَذَائِقُونَ (31) فَأَعْوَيْنَاكُمُ إِنَّا كُنَّا عَاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ " [الصفات: 27-34].

حوار قرآني تقرأ فيه الندم الذي أسروه في قلوبهم وحملوه، وتقرأ فيه حسرة على زمان في الحرام والصد عن دين الله أمضوه، وتقرأ فيه ذلة ما بعد ذلة.

وسبحان الله، كيف تتعدد الحوارات والخصومات بينهم في أكثر من موطن في اليوم الآخر، كما في مشهد وقوفهم للحساب، والذي قال الله تعالى فيه: " وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ

لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " [سبأ: 31-33].

وفي ختام تفسير السياق القرآني هنا، والذي وصف حوارات ستكون في النار بين أهل الكفر جميعًا، لا يفوتنا أن ننتفع منها في واقعنا الذي نعيشه، ونقول للقادة والأتباع، والحاكمين والمحكومين، والسابقين واللاحقين ممن تبلغه هذه الكلمات، وممن يعيش مع كلام الله تلاوة وتدبرًا، ويحرص على أن ينتفع، نقول لهم: هذه موعظة لكم لتراجعوا أنفسكم، وتنظروا فيما ينتظركم بعد موتكم، فإن كنتم من الظالمين وممن أعان على الظلم فإنه سيصيبكم مثل ما أصاب الأقيام من قبلكم، وإن عدلتم وأعتتم على العدل كنتم ممن سيأتي الحديث عنه في تمام السياق القرآني.

يا أتباع الظلمة وأعوانهم، ويا من تحمون الظلم وتنشرونه وتنصرون أهله: لقد رأى نبينا صلى الله عليه وسلم لما عُرج به إلى السماء ألوانًا من عذاب أهل النار في النار إلا صنفين، وعدم رؤيته لهما علامة على شدة ما ينتظرهما، أحد هذين الصنفين: أعوان الظلمة الذين يضربون الناس ويعذبونهم على غير جُرم منهم، والذين يعينون الظالم على أكل الحقوق والتضييق على الدعاة وإيلاهم، وإليكم ما يدل على ذلك فانتبهوا ولا تستخفوا، وأفيقوا قبل فوات الأوان، فإن كبراءكم لن يغنوا عنكم من الله شيئًا. أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس " الحديث.

- { إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ }

اسمعوا يا أهل الكفر ما ينتظركم إن بقيتم على ما أنتم عليه، اسمعوا لتعلموا أن الروح إذا خرجت فقد أُغلق باب التوبة، ولتعلموا أن جميع حواراتكم التي تحصل بينكم في أرض المحشر وفي النار غير نافعة لكم، ولن تقدم من الأمر شيئًا أو تؤخر.

تخرج أرواح أهل الكفر من كفروا بالقرآن العظيم، وممن كفروا بنبي الرحمة والنور محمد صلى الله عليه وسلم، وممن عبدوا الأوثان أو النار أو الصليب أو أنكروا وجود الله، أقول: تخرج أرواحهم بصعوبة وعُسْر

وأحوال تنذر بشر حال وسوء منقلب، تخرج أرواحهم وتفارق أبدانهم ثم ترفعها الملائكة الموكلة بها إلى السماء، ويُسْتَأْذَن لها لإتمام مسيرها نحو ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ولكنها تتوقف عند باب السماء الأولى، ويأبى حراسها أن يأذنوا لها بالدخول، ثم تُرَدُّ إلى الأرض لتنال بعد ذلك حظها من العذاب حتى يأذن الله بالحساب الكامل يوم القيامة. قال الله تعالى عن قوم فرعون: " النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ " [غافر: 46].

أخرج أحمد وغير واحد من أصحاب السنن من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَعَظَهم مرة موعظة بليغة عند القبر، بيّن لهم فيها أين تذهب الأرواح بعد مفارقتها للبدن، وأين تكون إلى أن تقوم القيامة، وكان مما قاله في حق من مات على الكفر: " وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح¹⁸، فيجلسون منه مَدَّ البصر، ثم يجيئُ ملك الموت، حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب ". قال: " فتفرَّق في جسده¹⁹، فينتزعها كما يُنتزع السَّفُود²⁰ من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كائن ريح جيفة²¹ وُجِدَتْ على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا²²، حتى يُنتهى به إلى السماء الدنيا، فيُستفتح له، فلا يُفتح له "، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ " [الأعراف: 40] فيقول الله عز وجل: " اكتبوا كتابه في سِجِّين في الأرض السفلى²³، فتطرح روحه طرْحًا ". ثم قرأ: " وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحَطُّهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ " [الحج: 31] فتعاد روحه في جسده ". الحديث

قارنوا ذلك بحال تلك الروح الطيبة المؤمنة التي تأتيها ملائكة حسنة الوجوه، ومعها اللباس الناعم والريح الطيبة، ويقبضون الروح بيسر وسهولة، وتفتح لها أبواب السماوات جميعاً لترى من جمال النعيم وعظيم

¹⁸ وهو اللباس الخشن.

¹⁹ أي: الروح، وذلك كراهة الخروج إلى العذاب الأليم الذي ينتظرها.

²⁰ أي: الشوك أو الحديد التي يشوى بها اللحم.

²¹ الجيفة هي الميتة إذا أنتنت وخرجت رائحتها.

²² أي: يذكرونه بأشنع أوصافه.

²³ أي: السابعة.

الخلق ما ترى، حتى تصل إلى السماء السابعة، إلى رب العزة، إلى الرحمن الرحيم، كما جاء في تنمة الحديث. قال الله تعالى: " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " [الجاثية: 21].

ومن عميق نظر أهل التفسير في هذه الآية أنهم قالوا: إن الآية دليل على أن الخير الذي يفعله أهل الكفر في الدنيا لا تُفْتَحُ له أبواب السماء ولا يُرْفَع إلى الله ولا يُقْبَل، ولا يَشْفَعُ لهم لدخول الجنة، فلو أن أحدهم تصدق أو كان باراً بوالديه أو كان قائماً على أصحاب الحاجات، فإن أعماله هذه يُعْطَاهَا نِعَمًا في الدنيا، وقد تنفعه للتخفيف عنه من عذاب النار، أمّا أن يكون صاحبها من أهل الجنات والنعيم الخالد فهذه ليست له، فإنه أبل التوحيد بعد أن بلغته دعوته، ووقف مع أهل الباطل والكفر وكثّر سوادهم، وربما كان سيقاً من سيوفهم في وجه الدعاة إلى الله والمصلحين وأهل الجهاد والرباط. قال الله تعالى: " وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا " [الفرقان: 23]، وقال سبحانه: " عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً " [الغاشية: 3-4].

أهل الكفر لا تُفْتَحُ لأرواحهم ولا لأعمالهم أبواب السماء، فاللهم ثباتاً على الإيمان، وقوة في الدين، واستخداماً في هداية العباد، وإعانة على جهاد أعداء الملة.

{ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } هنا مسألة ثانية في الآية تتعلق بعقيدتنا كمسلمين، مسألة يجري اللغظ حولها في زماننا ويشتد، مسألة زلّت فيها أقدام ولا زالت، فانتبهوا إليها واحفظوها وبلغوها واحرسوها.

هذه المسألة جاءت في حديث أخرجه البخاري ومسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بلالاً رضي الله عنه أن ينادي في الناس، " أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ".

بيان عظيم في الآية من الله تبارك وتعالى للعلمين يقول لهم فيه: لن يدخل من مات على الكفر الجنة حتى يدخل الجمل من سمّ الخياط، وهو حُرْقُ الإبرة التي نَخِيطُ بها ثيابنا، ومعلوم لديكم أنّ دخولَ الجمل

الذي نعرفه في ثقب الإبرة الصغير جدًا مستحيل، فكذا دخول أهل الكفر إلى دار الكرامة والراحة والسعادة والهناء.

هذا تيئيس لهم من دخول الجنة، وتأکید لعقيدتنا فيمن مات على الكفر بأنه من أهل الخلود في النار ولن يخرج منها. قال الله تعالى: "إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ" [المائدة: 72].

{ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } هذا جزاء من أكرم في حق الله وفي حق نفسه وفي حق الناس، فالشرك جريمة عظيمة لا تُغتفر، وأهلها اعتدوا على مقام وحدانية رب العالمين، وامتد شؤم كفرهم إلى البلاد والعباد فحُبست عنهم خيرات كثيرة، ونزل بسببهم عقوبات شديدة، فما أعظمه من جُرمٍ وربّي.

- { هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ }

المهاد هو الفراش الذي يجلسون عليه ويضطجعون، والغواش جمع غاشية، وهو ما يغطي الإنسان ويكون فوقه ويغطيه كاللحاف.

ولكم أن تتأملوا كيف يكون حال من كان في النار، إذا كانت النار تأتيه من تحته فيجلس عليها، وكانت النار تأتيه من فوقه وتغشاه، فلا راحة له من أي مكان، ولا خير يأتيه. قال الله تعالى: " هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ " [الزمر: 16].

{ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } وإلى كل ظالم لنفسه بالشرك وكبائر الذنوب، وإلى كل ظالم لغيره بأكل حقوقه والاعتداء عليه أو على عرضه أو ماله، وإلى كل من ظن أن الأمر يمر هكذا بلا حساب ولا عقاب، إلى كل هؤلاء، وكذلك يجزيكم ربكم بأسوأ العذاب وأشدّه وأصعبه، فتوبوا إلى الله توبة نصوحًا.

- { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
{

آيات سابقة تخلع القلب، وتحدث فيه خوفاً من الجبار المنتقم، تتبعها آيات تنقل أهل التوحيد القائمين على صلاتهم وقرآنهم ودعوتهم، والمجتنبين لكبائر الذنوب وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء عليها، وتنقل المرابطين على ثغور الأمة الجهادية وكذا الفكرية، أقول: تنقلهم إلى روعة ما ينتظرهم إذا ماتوا على هذا الطريق، ولم يلتفتوا إلى الصوارف عنه، ولم تُضعفهم عداوات أهل الباطل والفساق والفجار، ولم يأسوا من إمهال الله لأهل الكفر وإسباغ نعمه عليهم، ولم يبدلوا أو يغيروا أو ينكثوا العهد مع الله، أقول: تنقلهم الآيات إلى الجنات التي تترين لهم كل يوم، وتنادي عليهم أن هلموا، فإنهم أصحابها الذين سيقمون فيها ويخلدون، ولا يبعون عنها حِولاً.

ما أجمل كلام الله لما ينقلك في سياقاته من الرهبة إلى الرغبة، ومن الخوف إلى الرجاء، ومن الخشية من العذاب إلى رجاء الرحمة، ومن اليأس والغرور إلى إحسان الظن بالله مع الإيمان الحق والاجتهاد في العلم والعمل.

وتأملوا قول الله: { لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } والذي جاء في معرض الحديث عن أهل الإيمان والعمل الصالح، وعما ينتظرهم من الجزاء الحسن، كيف أنه يُظهر لنا جمال شريعتنا وديننا، وكيف يزيدها طمأنينة على طمأنينة، وكيف نعلم به لطف الله بنا، وحُبّه لنا، وإعانتته لمن صدقه، وإكرامه وإحسانه للمتقين، وكأنه يقول لنا: اكُلّفوا من الأعمال ما تطيقون، ولا تجلدوا ذواتكم كثيراً، وارفقوا بأنفسكم، وكونوا مع الصادقين.

لا يكلف الله أحداً منا ما لا يطيقه، ولا يشرع من الأوامر والنواهي إلا ما كان في مقدور العبد، ولا يريد بنا العسر، ولا يعذبنا إن شكرنا وآمنا.

هنا أصل من أصول الشريعة، وقاعدة عظيمة من قواعدها، ففي شريعتنا لا تكليف بما لا يُطاق، فإذا كان ثمة حرج أو كانت مشقة غير معتادة جاءت الرخص الشرعية لتَهوّن على العبد وترفع عنه الحرج.

ولعلكم تستحضرون في هذا المقام أحكام قصر الصلاة في السفر، وأحكام الجمع بين الصلاتين في السفر وفي الحضر، وأحكام المسح على الخفين، وإباحة الفطر في نهار رمضان للمريض والمسافر، وإباحة النطق بكلمة الكفر في أحوال، وكذا الأكل من الميتة وشرب الخمر إذا وجدت الضرورة، وغير ذلك من الأمثلة الممتدة في جميع أبواب الدين وأحكامه. قال الله تعالى: " لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا " [البقرة: 233]، وقال سبحانه: " وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " [سورة الحج: 78]، وقال جل وعلا: " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " [البقرة: 185]، وقال عز من قائل: " فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ " [التغابن: 16].

ـ { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَحْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأُنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلْكَمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

لا تظنوا أن طبائع البشر ليست موجودة عند أهل الإيمان والتقوى، ولا تظنوا أن الدنيا لا تنضب حباها لهم، ولا تظنوا أن الحيل النفسية ونزغات إبليس مصروفة عنهم، بل تأتيهم ويعيشون تفاصيلها، ومن ذلك أن الخصومات قد تنشأ بينهم في أمر من أمور دينهم أو دنياهم، وقد يجد بعضهم في قلبه شيئاً على الآخر، بل قد ينشب تحاسد وتقاتل وتعارك. قال الله تعالى: " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " [الحجرات: 9].

ولقائل أن يقول: إذا كان هذا الحال بين أهل الإيمان والتقوى، فما الذي يختلفون فيه عن غيرهم من أهل الكفر والفسوق والعصيان ؟

والجواب على ذلك من وجهين جاء بيان أحدهما في الآية هنا:

الأول: أن الخلاف والنزاع بين أهل الدين قليل وليس كثيراً، وأن الخصومة بينهم على الغالب لا تسمع فيها كلام الفحش والتفحش، ولا شتم الآباء والأمهات والأهل والقراة، ولا يكون فيها اعتداء على

الأعراض والأموال والأنفس، ولا تكون غالبًا إلا عن اجتهاد وَهِم أَحَدُ الطرفين فيه، وظن أن الحق له ومعه.

أما اختلاف غير المؤمنين فقد تجد فيه من سوء الأخلاق والمنكرات الكثير، وقد يبلغ حد الاقتتال وإراقة الدماء، وترى فيه عداواتٍ ممتدةً وأحقادًا لا تنقطع، كما حصل في الحروب العالمية التي مات فيها عشرات الملايين من الناس، وكما في إبادة المستعمر الغربي للهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين، وكما في غيرها من حروبهم الطاحنة التي عشناها ولا زلنا نعيشها.

الثاني: أن الله تعالى يغفر لهم جميعًا ويدخلهم الجنة، وهذه المغفرة إما أن تأتي أسبابها في الدنيا بشدة البلاء، وإما أن تحصل في القبر بتعريض الظالم منهم لأهوال القبر وشدته، وإما أن يغفر الله لهم يوم القيامة ويصلح بينهم، وإما أن يكون بينهم قصاص قبل المرور على الصراط، والقصاص يومئذ إنما يكون بالחסنات والسيئات، وقد يودي بالظالم منهم إلى النار ولكنه لا يخلد فيها.

فإن لم يتطهروا من خصوماتهم وتُغفر لهم، فإنهم يُحبسون بعد مرورهم عن الصراط على قنطرة، وذلك قبل دخولهم إلى الجنة، وهذه القنطرة يكون فيها كذلك قصاص بينهم بالחסنات والسيئات، فالمظلوم يأخذ من حسنات ظالمه أو يُطرح من سيئاته على سيئات من ظلمه، لتختلف درجاتهم ونعيمهم في الجنة بعد أن يُهذبوا من جميع الذنوب والخطايا؛ فيا لسعادة من خَفَّفَ الحِمْلَ وأمسك عن الشر.

أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يَخْلَصُ المؤمنون من النار، فيُحبسون على قَنَطرة بين الجنة والنار، فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا وثُقِّبوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا ".

وهذا المعنى هو الذي جاءت به الآية هنا، والتي بَيَّنَّ الله فيها أنه يُكْرَمُ أهل الجنة ولا يجعل في عيشهم هناك غمًّا ولا همًّا، وأنه يزيل ما في الصدور من الغل والحسد والبغضاء، ويرفع منها إرادة الانتقام أو التشفي أو غير ذلك من الأمراض، فالقلوب في الجنة تكون على قلب رجل واحد لا اختلاف بينها ولا تباغض، كل واحد منهم يرى أنه في النعيم الكامل الذي ليس مثله نعيم، أي غبطة وسرور ورضا ! بل

يكونون في الجنة على سرر متقابلين. قال الله تعالى: " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [الحجر: 47].

وقد أشار غير واحد من أهل التفسير في بيان هذه الآية إلى تلکم الخصومة التي حصلت بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، واقتتلوا فيها ومات فيها من مات، وأخرجوا بأسانيدهم قول علي رضي الله عنه، لما قال: " إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } ".

ومما يزيد جمال العيش في الجنة جمالاً كما في الآية، أن الأنهار تجري من تحت قصور الجنة وأشجارها، وكذا من حولها، تجري كما يريدون وكما يحبون ويفجرونها تفجيراً، يكونون في مكان عالٍ يشرفون فيه على ما فيه طيب عيشهم، وبذا يكون قد اجتمع عندهم جمال الظاهر فيما يرون ويشربون ويطعمون، مع جمال الباطن في انتفاء الكره والبغض والغِلِّ، ليكون النعيم هناك مختلفاً، اللهم أكرمنا به.

واستطراداً في بيان ما ينبغي أن تكون عليه قلوب المسلمين في الدنيا، قد يقول قائل: هل نفهم من هذا التفسير ومما حصل مع الصحابة أننا نسوّغ لهذا الخلاف ونشجعه ندعو إليه ؟ وهل هو نافع للإسلام والمسلمين ؟

والجواب أن الخلاف شرٌّ لا نجهه، وأن نصوص الشريعة في الكتاب والسنة طافحة بالدعوة إلى الاجتماع، والأمر بلزوم جماعة المسلمين، وعدم التفرق والتشتت، فإن ذلك سببٌ لقوتهم، وحفظ الله لهم، ونصرهم على عدو الله وعدوهم.

قال الله تعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَحْوِيكُم " [الحجرات: 10]، وأخرج مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ".

واعلموا أن التفرق المنهي عنه هو التفرق الذي يكون في عقيدتنا، ويكون في أحكام شريعتنا التي جاءتنا بنصوص قطعية في ثبوتها ودالاتها، والتفرق المنهي عنه هو تحكيم الأهواء والأمزجة في دين الله تعالى.

أقول ذلك لأن الاختلاف طبيعة بشرية لا ينفك الناس عنه، وقد اختلف أئمة الإسلام في عدد من الأحكام التي جاءت في نصوص ظنية في ثبوتها أو دلالتها، ولم يكن دافعهم في ذلك الهوى ولا التعصب، ولذلك كان مقبولا، وينقصنا أن نتعلم إدارته وكيفية التعامل معه لا أن نلغيه ونقضي عليه.

ولا يفوتنا أن نتذكر هنا أن عقيدتنا دعتنا إلى أن يكون الولاء والحب في الله، وأن يكون البراء والبغض في الله. أخرج أحمد وأبو داود بسند حسنه بعض أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ ".

ولا يفوتنا أن نستحضر كيف كان صلى الله عليه وسلم يحرص على دوام الاجتماع، وتمازج الألفة بين أصحابه وبين المسلمين، كما حصل في قصة شاس بن قيس اليهودي الذي أغرى بالعداوة بين الأوس والخزرج فأصلح صلى الله عليه وسلم بينهم، وكما في تناوُر عدد من الصحابة في حادثة الإفك وخصومتهم.

والتأمل لمنظومة التشريع يجدها قائمة في كثير من أحكامها على التأليف بين المسلمين، وعلى إزالة أسباب الشحناء والبغضاء، وعلى ضرورة الإحسان لمن أساء، مع الصبر على سوء الخلق في مواطن كثيرة، ولكم أن تتأملوا منظومة بر الوالدين وأثرها في تحقيق التآلف، وكذلك منظومة صلة الأرحام، ومنظومة حقوق الجار، وحقوق المسلمين جميعا.

ولكم أن تتأملوا في منظومة توزيع الزكاة، والصدقات، والكفارات، وتأملوا في نظام الأخلاق الممتد في جميع أنواع التعامل من الصدق والوفاء بالوعد والتراحم وفضل كلمة الخير والابتسام، وغير ذلك.

أخرج البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « حق المسلم على المسلم ستٌّ. قيل: ما هن يا رسول الله ؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فسيّئته²⁴، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه ".

²⁴ يصح أن نقول: (فسمته) ويصح أن نقول (فشمته)، وهما لغتان مشهورتان عند العرب. وتسميت العاطس معناه هداك الله إلى السم، يعني: أنت تدعو له بذلك.

وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كُربة فرج الله عنه كُربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة".

{ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ }

هنا مسألتان وعظمتان نافعتان لأهل الإيمان والدين:

الأولى: استشعار أهل الجنة بعظيم نعمة الله عليهم، وهو الذي يسر لهم ما هم فيه من النعيم المقيم الخالد، الذي لا يتبدل ولا ينقطع.

وهذا الحمد جاء في الجنة، وقالوه في أنفسهم وصدعوا به في مجامعهم بعد أن وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً، ولكم أن تتخيلوا تلکم اللذة التي تملأ قلوبهم وهم يحمدون، ولكم أن تستحضروا تعظيمهم لخالقهم وهم يشكرون، ولكم أن تشبهوا بهم في حمد الله على نعمه التي نراها في دنيانا ونعيشها، ونفهم تفاصيلها ودقائقها.

يقولون: الحمد لله الذي أيقظنا من غفلتنا، وأرسل إلينا رسله، وأنزل علينا كتبه، وشرح صدورنا وهدانا فلم نعانده ولم نستكبر، ثم حفظنا حتى وصلنا إلى هذه الدار.

الثانية: المؤمن يتبرأ من حوله وقوته، ويعلم تمام العلم أن هدايته للإيمان وتوفيقه للعمل الصالح لا يكونان إلا بعون الله وتأنيده، ولولا أنه شرح صدورنا للإسلام، وهدانا إلى الصراط المستقيم، وأعاننا عليه إلى الممات، ما كنا لنهتدي.

أخرج البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق، حتى اغبرَّ بطنه، يقول:

"والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكيناً علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بَغُوا علينا ... إذا أرادوا فتنَةً أبِينَا "

ورفع بها صوته: " أبينا أبينا "

ومعلوم لديكم أن الواحد منا قد يُصاب بالعُجب إذا رأى من العمل الكثير، أو رأى من القبول بين الناس ما لم يتوقع، ومعلوم لديكم أن العجب يهلك المرء ويتعبه، وقد يصرفه عن الطريق، فالحذر الحذر يرحمكم ربي. قال الله تعالى: " يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُم لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " [الحجرات: 17].

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان بسند حسن، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو لم تكونوا تذبون لخشيئ عليكم ما هو أكبر من ذلك؛ العُجب العُجب ".

{ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } كأنهم يتذكرون هنا أولئك الذين أنكروا الرسالة، والذين كانوا يطعنون فيها ويغمزون ويلمزون، والذين ابتدعوا ديناً لأنفسهم بعيداً عن الوحي وهداه، أو أنكروا وجود الخالق والدين كلّه، والذين كانوا يبذلون الغالي والنفيس ويمكرون الليل والنهار من أجل إطفاء نور النبوة، والقضاء على المصلحين وجهودهم، والوقية باتباع القرآن العظيم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم. يقولون في الجنة: لقد رأينا ثمرة إيماننا بالرسالة، وتصديقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم وجميع رسله، وانتقلنا من علم اليقين إلى عين اليقين.

وهذا فيه تعريض بمن نزل عليهم القرآن وكذبوه، ومن سيأتي من بعدهم ممن عاند واستكبر وجحد.

{ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } نداء يسمعه أهل الجنة جميعاً وهم فيها، نداء يكون من الله أو من ملائكته يحمل تكريماً لهم وتحية ورفعة، يقول لهم: لقد عملتم يا أهل الجنة في الدنيا، صليتم وتصدقتم، وصمتم وتلوتم القرآن، وحججتم بيت الله، واجتنبتم المحرمات من الزنا والسحر والكذب والخيانة، وابتعدتم عن الزنا والسرقة وشرب الخمر وقذف المحصنات، ولم تأكلوا أموال الناس بالباطل، ولم تمتد يداكم إلى مال اليتيم أو إلى حق ذويكم من الميراث.

يا أهل الجنة، هل تذكرون دعوتكم إلى الله وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر وحراستكم للدين ؟ وهل تذكرون جهادكم في سبيل الله وبذل النفس والولد والمال من أجل عزة الإسلام والمسلمين ؟ وهل تذكرون مشاريعكم التي سهرتم عليها وضحيتم من أجلها لتكون كلمة الله هي العليا ؟

يا أهل الجنة، إنما هي أعمالكم قد أحصاها لكم خالقكم، وقبلها منكم بواسع فضله ورحمته، واليوم يجزيكم عليها خير الجزاء، ويعطيكم من واسع الفضل، ويرضى عنكم ويرضيكم.

ولقائل أن يقول: كيف نوفق بين دخول الجنة بسبب أعمالنا وبين الحديث الذي ذكر أننا لن ندخل الجنة إلا برحمة الله ؟

قلت: السؤال يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لن يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: " لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسدّدوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت: إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعْتَبَ ²⁵ ".

وهذا الحديث لا يخالف الآية الكريمة لأن الآية تُثَبِّت أن أعمالنا قد حصلت منا في الدنيا، واستجبنا فيها لأمر الله، ولكننا لم ندخل الجنة بسببها فقط، ولكن لأنه اجتمع معها قبولها من الله، ومضاعفة أجورها وثوابها، وتوفيق العبد لها وإعانتها فيها فإنه خالق الأسباب والمسببات، ولو أن الواحد منا وُكِّل إلى نفسه دون رحمة ربنا لزلّت قدمه سريعًا ولخسر حُسْرَانًا مَبِينًا، حتى النبي عليه الصلاة والسلام، لولا أن الله منّ عليه بأن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ما أنجاه عمله، وكأن الحديث يقول للعبد: إياك أن تغتر بعملك، فعملك قليل بالنسبة لحق الله عليك.

أقول: كما أن الرزق نسعى فيه ونعمل من أجله، ولكنه لا يكون إلا بفضل الله ورحمته، فكانت حقيقة الرزق بيد الله وحده، وكما أن السعي في طلب الشفاء عن طريق الدواء لا يكون إلا بقدر الله وكرمه وفضله، فكذلك لا تكون حقيقة الشفاء إلا من الله، وقيسوا على ذلك.

وقد تأمل غير واحد من أهل التفسير لفظة { أُورِثْتُمُوهَا } التي جاءت في الآية، وذكر أن الإرث لا يكون إلا من الغير، فكأن نصيب أهل الجنة كان لهم ولغيرهم ولكنهم ورثوا نصيب غيرهم، وغيرهم هؤلاء

²⁵ أي: لعله يسترضي، يعني: يتوب ويرد المظالم ويطلب رضا الله عز وجل ومغفرته.

هم الكفار الذين بينت النصوص الشرعية أن الله تعالى أعد لهم في الجنة منزلاً ولكنهم خسروه بإصرارهم على الكفر والباطل.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن يدخل الجنة، فإن له مقعداً من النار، يرثه عنه أهل الكفر من اليهود والنصارى وغيرهم.

وقد أخرج أحمد وغيره حديثاً يصف فيه شيئاً مما يحصل مع المؤمن ومع الكافر في القبر، وكيف أن مقاعدهم تُعرض عليهم في قبورهم فيما لو كان حالهم مختلفاً، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني، فيكون عليه حسرة. قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني، قال: فيكون له شكراً".

وأخرج ابن ماجه حديثاً هو أظهر في دلالة على المذكور، أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: { أولئك هم الوارثون } [المؤمنون: 10]".

وأخرج مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا كان يوم القيامة، دفع الله عز وجل إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقول: هذا فكأنتك من النار". أي: هذا فداؤك من النار وأخذ مكانك بعد أن كنت مُعَرَّضاً لأن تكون من أهلها، ولكنك بإيمانك وعملك الصالح نجوت.

- { وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ }

دخل أهل الجنة إلى الجنة، وأخذوا منازلهم، ورأوا فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وما لم يخطر لهم على بال، رأوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجالسوه وكلموه، ورأوا إخوانه من الأنبياء آدم ونوحاً

وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم جميعاً صلوات ربي وسلامه، ورأوا فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً، وطلحة والزبير وخالدًا وأبا عبيدة، وأبا هريرة وابن عباس وابن مسعود ومعاذًا وزيد بن ثابت وغيرهم، ورأوا فيها أمهات المؤمنين خديجة وعائشة وصفية وأم سلمة وزينب وميمونة وغيرهن، ورأوا فيها علماء الإسلام والمجاهدين والقادة الأبطال والثابتين على عقيدتهم ومبادئهم، الذين لم يغيروا أو يبدلوا أو يبيعوا أو يشتروا، ورأوا فيها الأخفياء والأتقياء والأصفياء والأتقياء.

دخل أهل الجنة إلى الجنة لينعموا بقصورها وبيوتها وخيمها وغرفها وأشجارها وتربتها، وينعموا بألوان الشراب والطعام فيها، وينعموا بالشُّر والنمارق والأرائك والأكواب والأواني، والخمر والعسل والماء واللبن، والخور العين قاصرات الطرف اللاتي لو نظرت منهن واحدة إلى الدنيا لأضاءتها.

دخل أهل الجنة إلى الجنة لينعموا باستقبال الملائكة لهم، وطواف الخدم والغلمان عليهم، واجتماعهم بمن يحبون، وخير من ذلك كله رؤية وجه العظيم جل جلال ربي، وتقديست أسمائه سبحانه، وأكرمنا بتلك اللحظة التي يُحل فيها علينا رضوانه فلا يسخط بعدها أبدًا.

ولما دخل أهل الجنة إلى الجنة جعلوا يتذكرون شيئاً من حال أهل الكفر والفسوق والفجور والفحشاء في الدنيا، وجعلوا ينادون عليهم تقريباً لهم وتوبيخاً، ويحاطبونهم ويقولون: يا أهل النار، قرأنا كتاب الله وآمنا بما فيه من وعد ووعد، وقرأنا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنا بما فيه من وعد ووعد، فعملنا لنظفر بوعده وجنته، ولننجو من وعيده وناره، ثم ها نحن نتقلب في أنواع النعيم وألوانه وقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وصدقاً، فهل وجدتم أنتم وعيده الذي جاءكم مرات ومرات فسخرتم منه وكذبتم به ؟ وهل وجدتم الخزي والهوان والعذاب الذي أخبرتكم عنه الرسل وجاءتكم به الكتب ؟ وهل وجدتم جزاء إصراركم على الكفر ؟

لقد كان أهل الكفر والفجور يظنون أن الصالحين المصلحين ضلوا حين فارقوا دين آبائهم، وأنهم لم يتمتعوا بالزنا وشرب الخمر وأكل المال بالباطل، ولم يتمتعوا بسماع الحرام ورؤيته ومجالسة أهله والسفر من أجله، فأراد أهل الجنة أن يُعلموهم أنهم صبروا قليلاً فنالوا أجراً عظيماً، وأن غمسة واحدة في الجنة أنستهم كل بؤس وشقاء وضيق عاشوه في الدنيا، وأن العبرة بالخواتيم، وأن النجاح نجاح الآخرة، وأن

حقيقة أمر الكافرين أنهم جنوا على أنفسهم، وحرموها رحمة الله وجنته، وأركسوها في العذاب المقيم المهين.

إن أهل الجنة يعلمون أن أهل النار وجدوا ما وعد ربهم، ولكنهم بسؤالهم أرادوا أن يُظهروا من كان مصيبًا للحق ممن كان مخطئًا مجرمًا متبعا للباطل، وأرادوا أن يفتخروا بما هم فيه، وأرادوا أن يدخلوا الغم عليهم ويثيروا ندامتهم ويشمتوا بهم، وحُقَّ لهم وربي.

واعلموا أن استحضار أهل الجنة لمن كانوا في زمانهم من المكذبين لم تأت به الآيات هنا فقط، بل جاء في غير هذا الموضع من كتاب الله، وهو ما يدل على أن أهل الجنة يتذكرون أمورهم وشؤونهم في الدنيا ما لم يكن في تذكرهم تنغيصٌ عليهم وإدخالٌ للحزن والتعب. قال الله تعالى في وصف كلام أهل الجنة مع بعضهم: " فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلَيْنَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ (59) إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ " [الصفات: 50-61].

ومن جميل الانتفاع بهذا الخطاب الذي يُظهر الشماتة في أعداء الله والصادقين عن دينه، أن يستعمله أهل الدنيا في الدنيا إذا مكَّن الله لهم ونصرهم على عدوهم، وإذا أعزَّ الله جنده وأوليائه وحمله شريعته، وأذل المجرمين وأعوأهم وأذناهم، كما فعل صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، في قصة قتلى غزوة بدر من المشركين، وذلك بعد أن جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورماهم في بئر، قال أنس: فَجَعَلُوا فِي بئر بعضهم على بعض، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال: " يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، هل وجدت ما وعدكم الله ورسوله حقًا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا. قال عمر: يا رسول الله، كيف تُكلم أجسادًا لا أرواح فيها ؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليَّ شيئًا ".

وفي رواية النسائي: عن أنس قال: " سمع المسلمون من الليل ببئر بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم ينادي: يا أبا جهل بن هشام، ويا شيبة بن ربيعة، ويا عتبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، هل

وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا. قالوا: يا رسول الله، أوتنادي قومًا قد جِيفوا²⁶ ؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا".

{ قَالُوا نَعَمْ } أجاب أهل النار أهل الجنة بأنهم وجدوا العذاب الذي سمعوا به، ورأوا شدته وغلظته، وعاشوه بتفاصيله في النار، وذهبت عنهم الشكوك والأوهام وتيقنوا أن البعث حق. شربوا من حميم النار، وأكلوا من زقومها، وقُيِّدوا بسلاسلها وأغلاها، وأُغْلِقَتْ عليهم أبوابها فلا يخرجون، وسلطت عليهم الحيات والعقارب، وضربوا بمقامع من حديد، وبكوا وصرخوا واستغاثوا، ولا مجيب. تقرأ في إجابتهم الحسرة والندامة والاعتراف والإقرار باستحقاق العذاب، وتقرأ فيها تلك الليالي والأيام التي قضوها في سماع الغناء وفعل الزنا وشرب الخمر، وتلك الليالي التي ناموا فيها على ما يُسَخِّطُ الرب جل وعلا، وتلك الأيام التي أمضوها في الصد عن دين الله، وتقليد أهل الكفر، وتحكيم شريعتهم، أيُّ شقاء هذا !

{ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } ما أفضعه من حال ! وما أصعبه من نداء يسمعه أهل الجنة وأهل النار ! نداء يكون بعد السؤال والجواب، نداء يكون من الملائكة غالبًا أو من الله، نداء يزيد أهل النار يأسًا إلى يأسهم ويدلك على خبث نفوسهم وفساد معتقدتهم، نداء يعلم أهل الجنة أنه ليس لهم ولا يعينهم، وأنه يخص الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وظلموا غيرهم بصددهم عن دين الله، وظلموا مجتمعاتهم وأمهم فحرموهم من كثير من الخيرات والبركات بسبب الظلم، وهؤلاء هم أهل النار. تنزل لعنات الله على هؤلاء الظالمين، وتبقى مستقرة عندهم لا تفارقهم، وهي اللعنات التي تعني أن رحمة الله بعيدة عنهم ولن تنالهم بحال من الأحوال، وأن غضب الله وسخطه هو الجزاء الذي يستحقونه.

²⁶ يعني: أصبحوا جيفة وميتة لا روح فيها.

والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، فمن كانت عبادته لغير الله كان ظالماً، ومن اتخذ شريكاً مع الله من حجر أو بشر كان ظالماً، ومن حَكَمَ غير شرع الله كان ظالماً، ومن جعل الرهبة والرغبة لغير الله كان ظالماً.

صحيح أن لفظة الظلم هنا جاءت في وصف من ماتوا على الكفر والشرك، والذين هم أهل الخلود في جهنم، ولكن المتتبع لنصوص الشرع يدرك أن الظلم شرٌّ كله، ووبال عظيم على صاحبه وإن مات على الإسلام، واستحضروا معي هنا آياتٍ وأحاديثٌ دلَّت على أن الظلم ظلمات يوم القيامة، وأن للمظلوم قصاصاً من ظالمه في أرض المحشر، وأن الظالمين ليس لهم شفيع ولا صديق حميم ينفعهم، وأن دعوة المظلوم في الدنيا مستجابة، وأن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وأن التعدي على حرمة الله ظلم، وأنه لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، وأن الظلم قد يقع بين الأزواج، أو بين الأرحام أو الجيران، وقد يكون في حق العمال، وقد يكون بأكل أموال الضعفاء كاليتامى، وقد يقع على أهل الذمة والعهد من غير المسلمين، وغير ذلك من أنواع الظلم وأشكاله التي لا يليق بمسلم أن يغفل عنها، ويجدر به أن يسارع للتوبة منها إذا وقع فيها، كما يجدر به أن ينصر المظلومين ويقيم الدين بحسب قدرته واستطاعته.

- { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُوهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ } -

ومن أنواع الظلم التي يفعلها رؤوس الكفر والفسق في الأرض أنهم يصدون عن الإسلام وعن التوحيد، ويصدون عن نشر العدل والصدق والفضيلة والعفة والطهارة، ويصدون عن القرآن والسنة وكلام العلماء الربانيين ويُتَفَرِّقُونَ الناس منهم.

هؤلاء يريدون لسبيل الله أن يظهر أنه معوجٌ غير مستقيم، وأنه لا يوافق الحضارة والرقى والتطور، وأنه لا يعدو أن يكون مناسباً لفترة زمنية ماضية وانتهت، يفعلون ذلك ليصدوا الناس عن الدين والتقوى والعبادة، وليصرفوهم عن تحكيم شريعة الله وأوامره ونواهيه، وليبقى هؤلاء منغمسين في الحرام سماعاً ونظراً ومخالطة، ولتبقى الكلمة العليا في الأرض للكفر وأهله.

وقد جاءت الأفعال هنا بصيغة المضارعة للدلالة على أن هذا الصد منهم متكرر ومتجدد، لا ينفكون عنه ولا ينفك عنهم.

إن دعاة الكفر والانغماس في الحرام موجودون في كل زمان ومكان، وتجدون صنفًا منهم لا يكاد يمل من نصرته للباطل، ويتفنن في زخرفته وتقريبه من الناس، هذه تجارتهم وهذه حياتهم، ولو تتبعتم حال بعضهم لوجدتم أنه يتمنى لو كان كل الناس مثله حتى لا يكون شاذًا في مجتمعه.

يا أيها المخلصون لدينكم: جاءكم قول الله هنا ليبين لكم حقيقة أعدائكم، ويجلي لكم أمرهم، فهم لا يريدون لقلوبكم أن تكون طاهرة عامرة بالتوحيد، ولا يربطون حياتكم وحياتكم بالدار الآخرة، ويسعون لإضلالكم وميلكم عن الحق إلى الباطل، ويحولون بينكم وبين نفعكم ونجاتكم.

والمطلوب: احذروهم واتخذوهم أعداء، ودافعوهم واصبروا على ذلك فإنها أمانة الله إليكم، وكونوا أهل بصيرة بطرائقهم وحيلهم، واستعينوا بالله عليهم قبل أن يأتي اليوم الذي يُنادى فيه على الظالمين أن لعنة الله عليهم.

واستطردًا في بيان الأصناف التي تبغي حياتنا عوجًا من غير المسلمين، وكذا من أبناء المسلمين، أقول: إن قادة الكفر والفسق في حياتهم أصناف:

1- منهم اليهود والنصارى الذين حرفوا كلام الله في كتبهم عن مواضعه، ونسوا حظًا مما ذكروا به، واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، ويسعون صباحهم ومساءهم ليصدوا المسلمين عن طريق الجادة.

2- ومنهم من يعبد الأصنام والبقر، ومن لا يؤمن بالله، وهؤلاء لا ينفكون عن أذية المسلمين في بلادهم، وجرائمهم شاهدة على حقدهم وكرهيتهم للتوحيد وأهله.

3- وآخرون يمكرون الليل والنهار ليتاجروا بأعراض الناس وشهواتهم، يبثون المقاطع الخبيثة والصور الدنيئة، ويغرقون الأجيال بقصص الحب والغرام والخيانة والدياثة، هؤلاء يغفلون عن عاقبة ما يفعلون، ونظرهم قاصرة على متع الدنيا ولذائدها وكفى. قال الله تعالى: " وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا " [النساء: 27].

4- وصنف من ظاهره أنه من أبناء المسلمين يُكَبِّس على المسلمين دينهم، فتارة يدعو للاكتفاء بالقرآن دون السنة، وتارة يغمز بالصحابة أو يكتب أهل الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما، وتارة يهاجم نصوص الشريعة ليسقطها ويسقط دلائلها، وتارة يجعلون واسطة بين العبد وبين خالقه. قال الله تعالى: " فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ " [البقرة: 10].

5- ومن أخطرهم: أولئك الذين ملكوا حياة الناس في أبواب السياسة والتربية والاقتصاد، وملكوا مفاتيح التشريعات في أبواب الحياة الاجتماعية والتعليم والإعلام، مصيبتهم: انبطاحهم أمام تشريعات أهل الكفر، وعدم انطلاقهم فيما أوتمنوا عليه من ثوابت الشريعة الإسلامية، ولا من مصدرَيْها اللذين هما أصلنا وفصلنا، أعني: القرآن والسنة.

{ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ } وهم لا يخافون عقابًا ولا يرجون ثوابًا، ولا يؤمنون باليوم الآخر إيمانًا حَقًّا ولا يصدقون، ولكنهم يحدون ويكذبون، ويكفرون كفرًا راسخًا فيهم، ولذلك يفعلون ما يفعلون.

ومن هؤلاء فريق نطقت ألسنتهم بالجحود والنكران، وسخروا من البعث والحساب، ومنهم مَنْ أفعاله وأقواله تدل على أنه يشك في مجيء هذا اليوم، نسأل الله السلامة والعافية.

- { وَيَبْنِيَنَّهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ }

الحجاب هو حاجز يكون بين أهل الجنة وبين أهل النار، وهذا الحجاب يمنع أهل النار من الوصول إلى الجنة ونعيمها وأهلها، ويمنع أهل الجنة من النار وجحيمها وأهلها.

{ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ } الأعراف هي التي سميت هذه السورة باسمها، وموقعها يكون بين أهل الجنة وأهل النار، وهي من الحجاب الذي يفصل بينهم. قال غير واحد من أهل العلم: الأعراف سور يكون بين الجنة والنار، وقال بعضهم: هو مكان مرتفع مُطلُّ مُشرف مثل التَّلَّة.

يخبرنا الله تعالى هنا أن هذا المكان يكون عليه أقوام بعد انتهاء الحساب، وهؤلاء الأقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فحسناتهم تجاوزت بهم النار ولكنها لم تدخلهم الجنة، وسيئاتهم منعتهم من دخول الجنة، فيبقون في هذا المكان إلى أن يشاء الله، مع أن أهل الجنة دخلوها وأخذوا منازلهم، ومع أن أهل النار دخلوها وكانت لهم مستقرًا.

وهؤلاء الأقوام يستطيعون رؤية الجنة وأهلها، ويعرفون أقوامًا منهم كانوا على الخير وكانت حسناتهم كثيرة ومقبولة، ويعرفون أقوامًا من سيماهم ويشهدون حالهم؛ فوجوههم نور، وملابسهم حرير، وقصورهم ذهب وفضة ومسك، وتربتهم الزعفران، والطعام والشراب الطيب يملأ المكان بلا انقطاع أو امتناع.

وهؤلاء القوم يستطيعون كذلك رؤية النار وأهلها، ويعرفون أقوامًا كانوا على السوء في الاعتقاد والقول والعمل، وكانت سيئاتهم كثيرة، وكانوا من أهل التكبر وشدة الكفر والتكذيب، ويعرفون أقوامًا بسيماهم ويشهدون حالهم؛ فوجوههم سوداء مظلمة، وملابسهم من نار ونحاس مذاب، والزقوم والشوك والماء المغلي شراهم وطعامهم.

وأصحاب الأعراف يكونون زمنًا على مكائهم المرتفع يرقبون مصيرهم، حتى تدركهم رحمة الله فيدخلهم جميعًا إلى الجنة بعد أن يمضوا ما قُدِّرَ لهم على الحال التي ذكرها ربنا في تنمة الآيات.

واستقرارهم في الجنة في نهاية الأمر هو قول عدد من الصحابة رضي الله عنهم، وكان مما استدل به غير واحد من العلماء على ذلك أن أقوامًا من أهل النار ممن ماتوا على التوحيد سيخرجون منها بعد حصول أنواع الشفاعات، فكان دخول أصحاب الأعراف إلى الجنة في ختام أمرهم أولى.

بل ذهب بعض المفسرين في تفسير قول الله تعالى الذي سيأتينا بعد آيتين: " أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ " أن أصحاب الأعراف هم المخاطبون، وأن الذي يقول لهم ذلك هو الله جل جلاله.

ولقائل أن يقول: هل الأعراف خاصة بالرجال دون النساء، لأن الآية جاءت بذكرهم دون النساء ؟

والجواب أن أهل الأعراف يكونون من الرجال والنساء، ولكن الاختصار على لفظ الرجال هنا لأنه جرت عادة القرآن كما هي عادة العرب في الخطاب، أن تكون الإناث تبعًا في الخطاب للرجال، كما أن

نَسْبُهُنَّ يَكُونُ لَهُمْ، وكما أن أَمْنًا حواء خلقت من ضِلَعِ آدَمَ عليهما السلام، وكما في غير ذلك من معاني الشريعة وأحكامها.

ومن أهل العلم من قال: إن تخصيص الرجال بالذكر هنا يدل على أنهم هم الذين يخاطبون أهل الجنة وأهل النار، وليس النساء وإن كن معهم.

أقول: ولكم أن تتخيلوا كيف يكون حالهم في تلك اللحظات، وما الذي يدور في خلدِهم ووجدانهم، وكيف يمضون أوقاتهم وهم ينتظرون رحمة الكريم لتناهم!

{ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } إذا رأى أصحاب الأعراف من مكائهم أهل الجنة وما هم فيه ألقوا عليهم التحية، وسلموا عليهم سلام إكرام وقلوبهم تشتاق إلى رفقتهم في الجنة، وتتطلع إلى كرم الكريم ليدخلوها.

طمعوا في أن يدخلوها مع الداخلين، وأن يكونوا من أهلها دون تأخير، وأن يظفروا بما ظفر به السابقون، ولكنهم لم يدخلوها فأبْنَوْا صلتهم مع أحبائهم عن طريق السلام. قال الحسن: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريد بها بهم.

- { وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } -

إذا نظر أصحاب الأعراف إلى أهل النار استعاذوا بالله من حالهم ومنازلهم، ودعوا ربهم ألا يكونوا معهم ومنهم، فإنهم ظلموا أنفسهم وجاؤوا بأسباب شقائها وخسرتها.

وتأملوا كيف جاءت الصيغة هنا في فعل (صُرِفَتْ)، وكأنهم لا يريدون أن ينظروا إلى أهل النار، ولا يريدون أن يروا كيف أصبحت أشكالهم ووجوههم، ولا يريدون أن يفزعوا من هول منظرهم، ولكن أبصارهم تُصرف كَرْهًا، أي: يصرفها صارف إلى رؤيتهم، بخلاف نظرهم إلى أهل الجنة الذي يأتي بالسلام والرغبة والقصد.

- { وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُوهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } {

نظر أهل الأعراف إلى النار فرأوا فيها جبارين كانوا يعرفونهم في الدنيا، ورأوا فيها قادة الكفر، وصناديد الشرك، والذين حملوا راية الصد عن دين الله، وراية تعذيب أولياء الله، وراية سجنهم والتعرض لأهلهم، والتضييق عليهم في أرزاقهم، ونفيهم وإخراجهم من أرضهم.

لقد كان صنف من هؤلاء المتكبرين على الحق وأهله يزعم أنه لو كان هناك يوم آخر، وكانت هناك قيامة وحساب، فإنهم لن يُعَذَّبوا لأنهم أكثر نادياً وأهلاً ومالاً، ولأنهم أعزاء في الدنيا. قال الله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ " [سبأ: 35].

لما نظروا إلى النار وجدوهم فيها، وعرفوهم بعلاماتهم التي لا تخفى عليهم، فقالوا لهم: أين كُثِرْتُمْ وأموالكم وثرواتكم التي كانت في الدنيا ؟ وأين من كانوا يصفقون لكم ويطلبون لقراراتكم وكلامكم وأفعالكم ؟ وأين جندكم الذين كنتم تستقوون بهم وتستكبرون على الدين والناس ؟ لماذا لا ينقدونكم من العذاب والنكال ؟ ولماذا لا يخرجونكم من كل هذه الذلة والمهانة ؟

وكان أصحاب الأعراف يَشْتُمُونَ بهم كما شتم أصحاب الجنة، ويزيدونهم ألماً إلى ألهم، ويزيدونهم على المأل بعد أن رأوا مصيرهم وعلموا حقيقتهم، وكأنهم يقولون لهم: لن ينفعكم شيء مما كنتم عليه في الدنيا. والمقصود: اعتبروا يا أيها الناس، واتَّعظوا قبل أن تُطوى الصفحات وتأتوا ربكم فرداً فرداً، ويبدأ الحساب، وتُسَعَّر الجحيم، ويُصب الصراط على النار، ويُساق أهلها إليها زمراً زمراً، وحينئذ لا ناصر لكم ولا معين.

والمقصود: لقد جاءتكم التذكرة يا أيها الجبابرة، وجاءكم التحذير من الاستخفاف بالمؤمنين، ومن استضعاف أهل الطاعة واحتقارهم، فسيأتي يوم ترون فيه من القوي ومن الضعيف، إن لم يكن في الدنيا فلموعد عند الله.

- { أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } -

يقول أصحاب الأعراف لهم: انظروا إلى الدعاة إلى الله، والقابضين على دينهم، وأهل الصدق والعدل والحق، ممن كنتم تستضعفونهم في الدنيا وتقسمون أنهم لن يُفلحوا، وممن كنتم تظنون أنكم أرفع منهم قدرًا وأعز سلطانًا.

يا أبا لهب، ويا أبا جهل، ويا عقبة بن أبي معيط، ويا أبي بن خلف، هل كنتم تظنون أن بلالًا وصهيبًا وسلمان وخباب وآل ياسر لن يفوزوا بالجنة لضعفهم فيما يبدو لكم، إن الله كتب لهم في الدنيا أن يكونوا أسياد المسلمين جميعًا، وأن ينالوا دعوات المؤمنين بأن يرضى الله عنهم، ثم ها هم قد رحمهم الله وقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم من المستكبرين، وليس ثمة حزنٌ هنا على شيء، فخاب ظنكم أيها المتكبرون، وكذب قسَمكم.

قال الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " [المطففين: 29-36].

ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية دليل على أن أصحاب الأعراف يدخلون الجنة، وأن القائل هنا هو الله جل جلاله، حيث يخاطب أهل النار وقادتهم ويقول لهم: لقد كنتم تظنون أن من كانت عنده سيئات وحسنات سيكون معكم في النار، وغفلتم عن أن رحمة الله تنال أهل التوحيد وإن كانت عندهم ذنوب.

ثم يقول الله لأهل الأعراف: ادخلوا الجنة برحمتي لا خوف عليكم من الدخول في النار أو من أي عقوبة، ولا أنتم تحزنون لتأخركم عن دخول الجنة.

- { وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ خَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ }

هنا مشهد من مشاهد ذلة أهل النار في النار، وما أكثر مشاهد ذلتهم فيها، ينادون على أصحاب الجنة لعلمهم ينتفعون، ولعل طعامهم وشرابهم يطيب، يسألونهم أن يمدوهم من طعام الجنة وشرابها بدلاً من حميمها وزقومها وضريعها.

ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة حين يشتد عليهم العذاب ويبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ينادون عليهم ويطلبون منهم ماء وطعاماً، يستطعمونهم ويستسقونهم، ينادونهم: قد احترقنا، فأفيضوا علينا من الماء لِيَهْوِيَ عَلَيْنَا، ومن الطعام ليسدَّ جوعنا.

وقد أسلفت أن مشاهد ذلة أهل النار في النار كثيرة، أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر، أنهم يُسحبون إلى النار على وجوههم. قال الله تعالى: "يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ" [القمر: 48-49].

ومن مشاهد الذلة أنهم ينادون مالِكًا خازن النار من أجل أن يشفع لهم، ويطلب من الجبار المنتقم أن يقضي عليهم ليموتوا، فيكون جواب مالِك عليه السلام صعباً عليهم مخزياً لهم. قال الله تعالى: "وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ" [الزخرف: 77-78].

وينادون على خزنة جهنم جميعاً لعلمهم يشفعون، ولكنهم يجيبونهم جواباً يزيدهم خزيًا إلى خزيهم. قال الله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوْ لَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" [غافر: 49-50].

بل ينادون على ربهم، ويرجونه ويدعونه أن يخرجهم منها ويكلفهم من جديد لينظر كيف يعملون، ولكن طلبهم هذا مردود ومرفوض فقد أمهلوا كثيراً وجاءتهم البينات وبلغتهم الدعوة مرات، بل عشرات، بل أكثر. قال الله تعالى حكاية لندائهم هذا: "رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ" (107) قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ " [المؤمنون: 107-111].

{ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ } طعام الجنة وشرابها حرام عليكم يا من غادرتم دنياكم وأنتم تكفرون بالعظيم جل جلاله ولا تؤمنون به كما أمركم، يا من منعتهم الصلاة والزكاة، يا من سخرتم من الحجاب والدعاة، يا من قتلتم أهل الله وأهل القرآن وأهل العلم.

هكذا قال أهل الجنة لأهل النار وأجابوهم، وقالوا لهم: نداؤكم غير مُجَاب، وطلبكم غير مُرَحَّبٍ به، ونعيم الجنة كله بعيد عنكم بعد المشرقين.

يا أهل الكفر، ويا من يتشبه بهم من أبناء الإسلام، في تلك اللحظات: أين لذة الزنا؟ أين لذة الربا؟ أين لذة تضييع الحقوق؟ أين لذة خذلان الإسلام وحملته؟ أين لذة الانغماس في الحرام وضياع المهمة في التوبة؟

- { الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } -

اتخذ أهل الكفر دينهم لهواً ولعباً في الدنيا، فمنهم من أنكر وجود الخالق، ومنهم من أنكر الآخرة والرجوع إلى الله، ومنهم من آمن بالآخرة ولكنه عبد الله بحسب هواه وكما ورث عمن سبقه، ومنهم من حَرَّمَ وأَحَلَّ بدون علم ولا دراية وابتدع للناس شريعة حتى وصل بهم الحال إلى أن تكون عبادتهم لأصنامهم تصفيراً وتصفيقاً وهم يطوفون حول الكعبة، ومنهم من سَخِرَ من أنبياء الله ورسله، وسخر من كتبه، وسخر من المؤمنين الضعفاء، وغمز ولمز في كل ما هو من عند الله؛ هؤلاء: خفَّ الدين في قلوبهم ولم يعظموه، بل جعلوه للضحك وكثرة السؤال والجدال.

تعالوا ننتفع نحن من هذه الآية التي تصف أهل الخلود في جهنم، تعالوا لنستحضر أقوامًا من أبناء المسلمين وبناتهم اتخذوا شعائر الإسلام لهواً ولعباً، تعالوا نُذَكِّرْهم ونُحَذِّرْهم ونأخذ على أيديهم لعلمهم يفيقون من غفلتهم ويقبلون على دينهم.

نرى أصنافاً من المسلمين يضحكون ويلعبون إذا حَدَّثَتْهم عن الصلاة، أو عن اللباس الشرعي، أو عن خطورة ما تتعرض له الأمة باتباعها لأهل الكفر وتقليدهم، نراهم يركضون خلف الدنيا وألعابها ومتعها ولدائدها حتى أشغلتهم عن واجباتهم بُحاه خالقهم وأهلبيهم وأمتهم، وحتى غطت عقولهم وحاصرتها وحالت بينهم وبين الدفاع عن ثوابتنا.

ولنا أن نسأل أنفسنا: كيف حالنا مع الصلاة والخشوع فيها ؟ وكيف حالنا مع مراقبة ألسنتنا وأسماعنا وأبصارنا ؟ وكيف حالنا مع أداء الحقوق إلى أصحابها ؟ وكيف حالنا مع الانتصار لدين الله وشعائره والوقوف مع حملته والدعاة إليه ؟

إن الدعوة إلى الله في أيامنا تمر بمرحلة عسيرة تتطلب منا أن نُقدِّرَ الله حقَّ قدره، ونعطي هذه الدعوة من أوقاتنا وأموالنا وأفكارنا ما تستحق، وما نبراً فيه أمام الله ونَعذر إليه.

{ وَعَرَّضَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } تتعرض الدنيا لأهلها، فقسم تَعَرَّه وتعصف بقلبه وتسيطر على تفكيره حتى تصرفه عن دينه، وصنف يستحضر على الدوام أن لذتها فانية، وأن زخرفها إلى زوال، فيؤدي حق دينه عليه، ويأخذ من دنياه ما ينفعه.

تتعرض الدنيا لأهلها عن طريق فتنة النساء فيها، وفتنة المال والأولاد، وفتنة المنصب والصحة والقوة، وفتنة الرياء والعجب والتكبر، فقسم من الناس تُبهره وتُمرِّضه، ويستمتع في لذاتها دون أن يقف مع حلال أو حرام، ويكون همه وهمته في إرضاء شهواته ونزواته وكبريائه، وقسم يأخذ حظه منها مبتعداً عن الحرام، ويستمتع بالحلال ويرضى بقسمته فيه، ويكون كل همّه أن يرضى الله عنه، وتكون كل همته في أن ينصر الدين وتعلو كلمة التوحيد.

ولقد غرَّت أهل الكفر الحياة الدنيا وخذعتهم، حتى ظنوا أنه لا حياة بعدها، وقالوا: " إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ " [المؤمنون: 37]، ثم اشتغلوا بلذاتها التي ألهتهم عن آخرتهم.

{ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } دل ختام الآية على أن الله تعالى سيعاملهم معاملة من نسيهم، ولن ينظر إليهم وإلى استغاثاتهم، وأن الله سيُعرض عنهم ويهملهم، وسيتركهم جِيعًا عطاشًا في النار، وذلك لسببين:

1- أنهم نسوا الله وأوامره في الدنيا، وكانوا يسمعون القرآن والسنة وكلام أهل العلم والدعاة ولا يعيرونها اهتمامًا، وكانوا إذا تكلموا عن اليوم الآخر يتكلمون كلامًا من هو شاكُّ فيه، غيرُ مصدق بوقوعه.

2- أنهم كانوا يجحدون بآيات الله الكونية والشرعية، فأما الكونية فإنهم لم ينتفعوا من دلائل عظمة الله الماثلة في الآفاق والأنفس، وأما الشرعية فلم يأتمروا بأوامر الله ونواهيه في الكتاب والسنة.

وانتبهوا هنا إلى أن النسيان نوعان، نسيان يكون بسبب النقص، وهو النسيان الذي يعتري الإنسان فلا يتذكر ما حصل معه، ولا يتذكر الشخص والشخص والأماكن، وهذا منفي عن الله العظيم العليم خالق الخلق ومقدر الأقدار. قال الله تعالى: " قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى " [طه: 52].

وأما النسيان الثاني فهو نسيان الإهمال والإعراض والترك، وهو الذي يتعمد صاحبه أن يهمل الآخرين ولا يلتفت إليهم، وهذا النسيان هو المقصود في الآية الكريمة، فإن الله تعالى لم ينسهم من العذاب والعقوبة وإنما نسيهم فتركهم في النار وحرهم رحمته ومغفرته. قال الله تعالى: " وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى " [طه: 124-126].

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكر في حديث طويل أن الله تعالى يلقي العبد ويقول له: " أي قُلْ²⁷، ألم أُكْرِمك، وأسودك²⁸، وأزوجك، وأسخر لك

²⁷ معناه يا فلان.
²⁸ أي: أجعلك سيّدًا على غيرك.

الخليل والإبل، وأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعٌ²⁹ ؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني".

أقول: يجدر بأهل الإيمان والتقوى أن يخافوا من نسيان الله لهم غداً، وأن يكونوا على حذر دائم، وأن يكثروا من التوبة والإنابة، فإننا لا نطيق وربي.

- { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

لا تظنوا أن كل هذا العذاب الذي ينتظرهم قد جاءهم فجأة من غير علم وإعذار ودعوة وتذكير، ولا تظنوا أن فوز المتقين بجنات النعيم كان بدون إرشاد إلى الصراط المستقيم، وبدون بيان للحق من الباطل، بل إن الله تبارك وتعالى أنزل على رسوله كتاباً، فيه تفصيل لما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وفيه دليل على صدق هذا الدين وصحة هذه الرسالة، وفيه بيان للشرعة التي اختارها الله لهم، وهذا الكتاب هو القرآن، وهذا النبي هو محمد صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى: "الرَّكَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" [هود: 1].

{ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ } إن مثل هذه الآيات تعطي قارئها الثقة بهذا الدين، وتزيده يقيناً على يقين، فالله ربنا هو خالق الناس وخالق الكون، وهو الذي يعلم حاجتهم، وقد أكرمنا بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، فيه العلم والعمل والتزكية والهداية.

فَصَّلَ اللهُ لَأَمَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِهِ كُلِّ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَفَصَّلَ لَهُمْ كُلِّ مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ الشَّرَّ وَالسُّوءَ، فَصَّلَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ لِأَنَّهُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ الْحَكِيمُ الَّذِي يَعْلَمُ مَا الَّذِي يَصْلَحُ النَّاسَ وَيُسَعِّدُهُمْ، وَيَعْلَمُ كُلَّ خَلْقِهِ وَمَا هِيَ صَائِرَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي وَسَّعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَالَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِي يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: "وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ" [البقرة: 255]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: "وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا" [طه: 110].

²⁹ (ترأس) أي: تكون رئيس القوم وكبيرهم. (تربع) تُطَاع في قومك وتعيش مستريحاً.

أنزل الله القرآن العظيم بعلمه، وجعل فيه ما أراد أن يُطلع عباده عليه من علوم العقائد والشرائع والأخلاق، ومن أخبار من مضى وما سيكون، وما أحلّ وما حرّم، ليندفع كل عُذر قد يبيديه أهل الكفر والصدود، وليُعذّر إليهم ويقيّم عليهم حجته. قال الله تعالى: " لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا " [النساء: 166].

وهذا الإعذار جاء إلى جميع الأمم من قبلهم، وفصل الله لكل زمان ما يحتاجه أهله ليفلحوا وليكونوا من المهتدين.

وقد يظن بعض الناس أن التفصيل المذكور هنا يعني أن القرآن جاء بذكر كل صغيرة وكبيرة في حياتنا باسمها ووصفها، وأن كل مسألة في أنواع العلوم المختلفة قد جاء فيها نص من القرآن، وهذا فهم مغلوط ومردود، فالتفصيل هنا معناه أن كتاب الله جاء بقواعد واضحة وبينية في كل ما يحتاجه الخلق لهدايتهم، فيسهب حيث ينبغي الإسهاب ويوجز حيث يكفي الإيجاز، فأياته أسهبت في الحديث عن التوحيد وإبطال الشرك، وأسهبت في بيان بعض المحرمات والتذكير بحرماتها، وجاءت بإقامة الصلاة وبيان بعض أحكام أركان الإسلام، وجاءت بقواعد الحلال والحرام، وجاءت بالدعوة إلى الأخلاق على سبيل الإجمال.

ثم إن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بينت المجمال كأفعال الصلاة والحج وأنصبة الزكاة وبعض شروط الصيام، وقيدت المطلق كمسألة قطع يد السارق من الرسغ لا من الكتف، ووضحت العام وخصصته كما في الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها الذي جاء في السنة مخصّصاً لقول الله تعالى: " وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ " [النساء: 24]، وكذلك جاءت السنة بأحكام ليست موجودة في القرآن لأنها وحيّ مثله.

ومن تمام حفظ الله لوحيه وما فصله في القرآن والسنة، ذلكم التراث العظيم الذي خلفه لنا أهل العلم، الذين اجتهدوا واستفروا وسعهم، وأعملوا عقولهم وفق قواعد علمية وضوابط فقهية، حتى إنهم لم يتركوا شاردة ولا واردة مما يحتاجه الناس في أمور دينهم إلا أجابوا عنها، وبينوها أحسنّ البيان وأوضحه.

{ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ومن عظيم كرم الله على أهل الإيمان أن جعل القرآن هاديًا لهم، ومرشدًا ودليلاً إلى جنات النعيم، وسببًا عظيمًا من أسباب النجاة من الضلال والشقاء والحزي العظيم.

جاء هذا القرآن للناس رحمة وهدى، فلم ينتفع منه ويتوصل للاهتداء به إلا من آمن به وصدّق، وقام على حفظه وتدبره، وعمل به وأذعن له وانقاد، ونشره في العالمين.

إن من يعيش مع ختام الآية بجوارحه وجوانحه لا يسعه إلا أن يقبل على هذا الكتاب العظيم، ويعطيه حقه من العلم والعمل، ويتنصر على كل ما يحول بينه وبين القرآن، إنه كلام الله الذي لا يحمله إلا أهل الله وخاصته، فتأملوا.

- { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }

التأويل هنا معناه ما يؤول إليه الأمر ويكون، وذلك عندما يصبح مشاهدًا مرئيًا يعيشه أهله بدقائقه وتفصيله.

والمقصود هنا هو يوم القيامة الذي أخبر عنه القرآن بسور وآيات كثيرة، والكلام يصف حال أهل الكفر الذين لم يؤمنوا بما في القرآن، ولم يعملوا للدار الآخرة ولم يستعدوا لها، وذلك بعد أن كذبوا بها وأنكروها قلوبهم.

هل ينتظر المنكرون ليوم القيامة إلا تأويله ؟ أي: ليس أمامكم يا أهل الكفر إلا أن يأتيكم تأويل اليوم الآخر، أي: مجيئه بما فيه من العذاب والنكال، بعد الحساب ومختلف الأهوال، ثم نار تُلظى عليكم إذا بقيتم على الكفر وقُبضت أرواحكم عليه، أو جنة تتزين لكم إذا آمنتم وتبتم وأحسنتم.

قال بعض أهل العلم: إن تأويل ما ينكرونه لا يقتصر على الدار الآخرة، بل إن فريقًا منهم رأى وعيد الله قد تحقق فيهم في الدنيا يوم زالت شوكتهم ونزل عذاب الله بهم، ويوم نصر الله المؤمنين عليهم وأذلهم، ويوم مكن الله لدينه حتى بلغ المشرق والمغرب.

{ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } يوم يأتي يوم القيامة ويحل بهم العقاب ويعاينون دار الجزاء، يؤمن أهل الكفر به بعد أن تركوا العمل له في الدنيا، وتناسوه نسيان إعراض وترك وغفلة، وحينها يشهدون للرسول بالصدق ويتحسرون، ويبحثون عن الخلاص مما هم فيه وما ينتظرهم، ويرجون أحد أمرين:

الأول: أن يشفع لهم أحد من أهل القبول عند الله، أو تشفع لهم أعمالهم التي ظاهرها الصلاح، أو تشفع لهم الملائكة، يريدون من هذه الشفاعة أن يدخلوا الجنة وأن يعفّر الله لهم.

ومعلوم لديكم أنهم لن يدخلوا الجنة، ولن يكونوا من أهلها، وليس لهم في الدار التي جحدوها إلا الخزي والندامة والهوان والصغار. قال الله تعالى: " هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ " [الأنعام: 158].

سبحان الله كيف كانوا يزعمون في الدنيا بأن أصنامهم ستشفع لهم وستنفعهم، ثم ها هم يندمون ويتأسفون على ما فاتهم، ويقصدون كل أحد في أرض المحشر لعله يكون سبباً في نجاتهم، ولكن الله تعالى قضى ألا ينتفعوا بشيء من ذلك. قال الله تعالى: " فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ " [المدثر: 48]

والثاني: أن يرجعهم الله إلى الدنيا ليعملوا عمل أهل الصلاح والتقوى، فيؤمنوا ويصلوا ويصوموا ويجاهدوا وينكروا المنكرات.

لما رأى أهل الكفر النار، ورأوا ما فيها من الأمور العظام والأغلال والسلاسل، ورأوا طعام أهلها وشرابهم ولباسهم، ورأوا فراشها وشدة سعيها، جعلوا ينادون يومئذ ويتمنون لو رجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول وما جاءت به.

إن أمنياتهم التي أطلقوها لما رأوا العذاب أمنيات كاذبة فلا تغرنكم يا من تعيشون مع الآيات، وقولهم { أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } ليس صحيحاً، وقد سبق علم الله فيهم بأنهم لو رجعوا إلى الدنيا وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأراههم المعجزات تلو المعجزات فإنهم لن يؤمنوا. قال الله تعالى:

" وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " [الأنعام: 27-28]، وقال سبحانه: " وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِثُونَ (74) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ " [المؤمنون: 74-75].

هؤلاء لم تكن مشكلتهم في قلة الدلائل والبراهين التي تثبت صحة الرسالة، ولا في صحتها وظهور دلالتها على المطلوب، ولكن مشكلتهم تكمن في عنادهم ومكابرتهم عن قبول الحق مع علمهم بأنه حق، وتكمن في اتباعهم الهوى، وفي خضوعهم للشهوات والمحرمات، وفي إغماض العينين عن الحجج التي لا حصر لها.

إن إخبار الله لنا عن أحوال من يؤذوننا في ديننا وأهلينا ودعاتنا وعلمائنا، ويسعون للقضاء على كل كلمة خير نقولها، ويعملون ليلهم ونهارهم لإجهاض كل مشروع نافع لأمتنا وعالمنا، أقول: إن إخبار الله عنهم يزيدنا قوة إلى قوتنا، ويدخل الطمأنينة إلى قلوبنا لئلا نلتفت كثيراً إلى خصالهم وفعالهم، ويجعلنا نمضي في دعوتنا وجهادنا في الدنيا حتى يقضي الله بيننا وبينهم في الدنيا أو في الآخرة.

{ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ما أصعبه من مشهد من مشاهد الدار الآخرة، يظهر فيه ندمهم، وتظهر فيه حسرتهم، قد خسروا أنفسهم بالطريق التي اختاروها في الدنيا حتى أوردوها النار وخلدوها فيها.

خسروا أنفسهم لأنهم باعوا الجنة بالخسيس من عرض الدنيا الذي ذهب سريعاً، خسروها لأنهم لم يركوها بالتوحيد والعمل الصالح وذكر الله، خسروها لأنهم استعجلوا اللذة بالحرام، وسلكوا طريق الكفر والفجور والفحشاء والمنكرات التي خدعتهم وظنوا أن راحتهم فيها، فكان الغبن العظيم والخسران المبين.

ثم ضل عنهم ما كانوا يفترون، فأين آلهتهم التي كانوا يفترون على الله ويجعلونها ندّاً له ؟ وأين من كانوا يعبدونهم من دون الله وينسبون لهم صفات الربوبية والألوهية كذباً وزوراً ؟ لقد ضلوا عنهم ولم يكونوا لهم شفعاء، ولم ينفعوهم بشيء. قال الله تعالى عن كلام أهل النار في النار: " فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " [الشعراء: 100-102].

يا أهل الكفر، ويا أعداء التوحيد، لا تظنوا أن مُشَاقَّتكم للحق ومنازعتكم لأهله سيمضي دون حساب أو عقاب، ولا تحسبوا أن نجواكم في الليل ومكركم الذي كنتم تخفونه عن الناس سيمرُّ مرور الكرام، وأنكم لن تُفضحوا أمام الخلائق غدًا، فأفيقوا قبل فوات الأوان، وتوبوا قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم، وقبل أن تشهد عليكم جوارحكم والملائكة والنبيون بما كنتم تعملون.

- { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }

تعالوا يا أهل الكفر للنظر في آيات الله الكونية التي ترونها صباحكم ومساءكم، وتعيشونها في حلِّكم وترحالكم، وتدركونها بعقولكم ووجدانكم، تعالوا لنستدل بها على وحدانية خالقكم، وأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأنه ليس صحيحًا أن تنسبوا لغيره الألوهية وأن تجعلوا له شريكًا أو صاحبة وولدًا.

وتعالوا يا أهل الإيمان إلى ما يزيد عظمة الله في قلوبكم عظمة، وإلى ما يزيد ثباتكم على الدين ثباتًا، وتعالوا إلى العلم وخطاب العقل والفطرة، تعالوا لننتفع من كل هذا في دعوتنا وإبلاغ رسالتنا، وفي استشعار واجبنا نحو عقيدتنا وشريعتنا، وفي إدراك أن العزة لا تكون إلا لمن أقام دين الله ونصره، وأطاع من له الأمر والخلق.

إن ربكم وسيدكم ومُصلحكم الذي لا معبود بحق إلا هو، هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، وليست الأصنام ولا النار ولا الشمس، ولم يخلقها البشر، فلا وجه أن يكون المعبود غيره، وماذا فعلَ غيرهَ ليستحق العبادة؟!

خلق ربنا السماوات والأرض في ستة أيام، أي: من أيام الدنيا التي يعرفها الناس.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن المراد هنا في ستة أيام من أيام الله، وكل يوم من أيامه بألف سنة كما تعلمون.

خلق الله السماوات وما فيها من كواكب ونجوم ومجرات، وما فيها من شمس وقمر، خلقها بإحكام وإتقان فلا ترى فيها خللاً أو عيباً أو نقصاً، وخلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار، وشجر وحجر وتراب وآكام، وسخرها فكانت طيبة لأهلها؛ كل ذلك في ستة أيام.

خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام وهو قادر على أن يخلقها بلمح البصر، وبقوله لها: كوني، فتكون، ولكنه سبحانه قدّر ذلك ليتعلم عباده كيف يدبرون أمورهم ولا يتعجلوا فيها، وكيف تكون عندهم الأناة في قراراتهم التي تحتاج إلى ذلك، فرُبُّهم القادر العظيم لم يعجل في خلق السماوات والأرض، كما لم يعجل في خلق آدم.

{ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } لما فرغ الله من خلق السماوات والأرض استوى على العرش، أي: علا وارتفع فوق عرش ملكه سبحانه، ارتفاعاً وغُلُوّاً يليق بجلاله وعظمته، فإن الله ليس كمثله شيء من خلقه في ذاته، ولا يشابههم في شيء من صفاته.

استوى ربنا على العرش يدبر أمر خلقه سبحانه، ويصرف نظامه حسب تقديره القائم على العلم والحكمة، يميت ويحيي، يمنح ويعطي، يرفع ويخفض. قال الله تعالى: " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ " [يونس: 3]

والعرش مخلوق من مخلوقات الله، وهو من أعظمها فيما نعلم، فقد أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله !، أيُّ آية نزلت عليك أفضل ؟، قال: " آية الكرسي، ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة ".

وقد جاء ذكره في القرآن أكثر من عشرين مرة، وجاء في وصفه بأنه عظيم وكريم ومجيد، خلقه سبحانه قبل خلق السماوات والأرض، لما أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء "، ولما أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين رضي

الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء ".

ومن صفات العرش أن له قوائم لا نعرف عددها، لما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: " لا تُخبروا بين الأنبياء، فإنَّ الناس يُصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صُعق، أم حوسب بصعقة الأولى ".

ومن صفاته أنه يحمله يوم القيامة ثمانية من الملائكة، يوم يأتي الله للفصل بين الخلائق ومحاسبتهم، ويوم يستظل به أصناف معلومة من المؤمنين المتقين. قال الله تعالى: " وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَّةٌ " [الحاقة: 17].

وفي عظم خلق هؤلاء جاء الحديث الذي أخرجه أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ".

وهؤلاء الملائكة الذين يحملون العرش لهم علاقة تخصهم بالمؤمنين من الناس، فإن كتاب الله أخبرنا أنهم يدعون للمؤمنين دوماً ويستغفرون لهم، كما في قول الله تعالى: " الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ " [غافر: 7].

ويا لروعة أن يستغفر الملائكة المقربون لأهل لا إله إلا الله القابضين على دينهم، فإن الواحد منا لا ينفك عن حاجته لذلك، ولعلها تكون المنجية.

بل يا لجمال أن يستشعر المؤمن ذلك القرب بينه وبين ملائكة الله التي تحفظه وتحرسه وتستغفر له وتدعو.

ومن صفات العرش أنه يكون فوق الدرجات العلا من الجنة، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل

درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة".

وانظروا يرحمكم الله بعد كل هذه العظمة في الخلق والملك، وبعد كل هذه الصفات التي تُنبئك عن عظم الأمر، وبعد كل هذه المعاني الراقية، يأتيك حديث أخرجه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ".

{ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا } وإن ربكم الذي تشركون معه وتتخذون آلهة غيره، هو الذي يغشي الليل النهار، أي: يأتي بالليل فيغطي به النهار ويذهب بضياءه ونوره.

ويطلبه حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، وذلك كل يوم، فمن هي الآلهة التي تفعل ذلك وتستحق أن تُعبد؟ وأين عقولكم من التفكير بالآيات التي تعيشونها في كل صغيرة وكبيرة من حولكم؟

انظروا كيف يأتي الليل ويغشى النهار ويحيط به، وكيف كان ذلك رحمةً للناس والدواب ليسكنوا فيه، ويأخذوا حظهم من النوم والراحة، ويرتاحوا بعد عناء النهار وكبده. قال الله تعالى: " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا " [النبا: 10-11].

وقد جاء في مواضع أخرى التذكير بآية مجيء الصباح بعد الليل، وكيف يشقُّ ربُّنا الصبح عن ظلمة الليل وسواده، وكيف يَفْلِقُ ظلام الليل ويفصله عن الصباح شيئًا فشيئًا حتى يذهب الليل، ويضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويأتي النهار بضياءه ليخرج الناس إلى معاشهم وحاجاتهم وعباداتهم، وليعيشوا فيه ما لا يُحصى من نعم الله ومظاهر حكمته في خلقه.

وتقلُّبُ الليل والنهار من المظاهر التي اعتنى بها القرآن، وتكرَّرَ خطاب العقل به، فإن دلالته على عظمة الخالق ظاهرة جليَّة، كغيره من آيات الله في الأنفس والآفاق. قال الله تعالى " وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا " [الفرقان: 62]، وقال سبحانه: " وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ " [يس: 38].

{ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ } ومن عظيم خلق الله أنه خلق الشمس والقمر والنجوم، وسخَّرها لتكون مطيعة منقادة، لا تتحرك إلا بمشيئة الله وأمره ونهيهِ، وهي تجري بحساب مقدَّر لا يتغير ولا يضطرب، وهي خاضعة للنظام الذي جعله رب العالمين للكون.

إن آيات الله تعالى في خلقه لا حصر لها، والنجوم والشمس والقمر واحدة منها، وفيها دلالة بينة على أن عقولنا قاصرة عن الإحاطة بعلم الله وحكمته وقدرته، وأن الإنسان مهما بلغ من العلم فإن علمه سيبقى محصوراً ويسيراً.

وقد جعل الله للشمس والقمر منازل في أيام السنة، فيختلف طولها وقصرها بحسب تلك المنازل، وبهذا الحسبان يعرف الناس أوقات الليل والنهار، والشهور والفصول والأعوام. قال الله تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ " [يونس: 5]، وقال سبحانه: " لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " [يس: 40]، وقال عزَّ من قائل: " الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ " [الرحمن: 5].

أما النجوم فقد جعلها ربي منارات في السماء تضيء للناس طريقهم وليلهم فيهتدون بها، وجعلها زينة تسعد العين برؤيتها وتطمئن النفس إلى عظم خالقها، وهي رجوم على الشياطين الذين يصعدون في السماء ليسترقوا السمع وينقلوا ما سمعوه إلى الكهان ليوهموا الناس أنهم يعلمون الغيب فيعظمونهم ويطيعونهم. قال الله تعالى: " وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ " [النحل: 16]، وقال سبحانه: " إِنَّا زَيْنًا لِّلسَّمَاءِ الدُّنْيَا بَرِيقًا الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُخْرًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ " [الصافات: 6-10].

{ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } الملك والأمر والنهي لله وحده وليس لغيره، وهو أمر يدركه العقل السليم، والفطرة الصافية الطيبة، ويعلمه القاصي والداني، ولكن فريقاً من الناس يجحدون.

الخلق هو إيجاد الموجودات من العدم، وهو لله وحده، والأمر هو التصرف في هذا الخلق وتسخييره لما خلق له، وتدبير أمره وإنزال الشريعة التي تصلحه، وهو لله وحده، وهو الذي أنزل الكتاب ليحكم بين

عباده، وهو الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين، وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وشريعته لتكون مهيمنة في العالمين.

الذي خلق من العدم هو الذي له الأمر، فالخلق والأمر قرينان، يعني: لا يمكن أن يكون الخلق له والأمر لغيره. قال الله تعالى: "إِلَهُ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ" [الروم: 4]، وقال سبحانه: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" [يس: 82]، وقال جل وعلا: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ" [الروم: 25].

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد قال: "اللهم لك الحمد، أنت قِيمَ السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت مَلِكُ السماوات والأرض" الحديث.

يا أيها الناس، لا تطيعوا من جعل أحدًا من البشر نِدًّا لله، ولا تصدقوا من زعم أن أحدًا من البشر يملك تصرفًا في هذا الكون من وليٍّ أو من كاهن أو ساحر أو غيرهم، وأن له الأمر والنهي من دون رب العالمين، وأنه يُقصد بالارغبة والرغبة ليكون طريق الناس إلى الله، فالرغبة والرغبة والمحبة والطاعة والدعاء والخشية لا تكون إلا لمن بيده الخلق والأمر. قال الله تعالى: "أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَاءٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَاءٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌ هَانُوا بُرْهَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [النمل: 60-64].

{ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } تعاظمت بركات ربنا وكثر خيره وإحسانه، وهو الذي خلق كل شيء وسيره وقدَّر له ما يصلح له، وتقدَّس الله الذي لا يُمانع في أمره ولا يُخالف، والذي انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مُدَلَّلة مُسَخَّرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر.

كل ما نراه حولنا من مظاهر قدرة الله وكرمه يستوجب الشكر، وحسن التسليم والانقياد، ويدفعنا نحو دعوة الناس للتوحيد، ونحو إغلاق أبواب الشرك على العابثين وأهل البدع والأهواء.

- { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } -

التضرع هو التذلل والاستكانة وتمام الاستسلام للرب جل وعلا، وخُفْيَةً، أي: سرًا.

هنا أمرٌ من الله تعالى لعباده بأن يدعوه، وإرشاد لهم بأن يحرصوا في دعائهم على الجمع بين التضرع والخفية، فإن الجمع بينهما علامة على أن قلب الداعي ليس فيه إلا الله جل وعلا، وعلامة على تعلقه بالدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم. قال الله تعالى: "وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَذَوِّنِ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ" [الأعراف: 205].

إن الذي يدعو ربه تضرعًا يكون قد أدرك حقيقة العبودية وتماها، ويكون اليقين الذي يحمله قلبه قائده وهاديه، ويكون تعظيم خالقه ومولاه سببًا عظيمًا من أسباب سعادته وطمأنينته وثباته.

وإن الذي يدعو ربه سرًا ومناجاة يكون أقرب إلى الإخلاص والصدق، ويكون أبعد ما يكون عن الرياء ولعب الشيطان، ولعل اللذة التي يجدها في خلوته لا تعدلها لذة في الدنيا.

انظروا إليه كيف يطيل سجوده داعيًا منيًّا مخلصًا، لا يريد أن يرفع رأسه، يتنقل بين أنواع الدعاء يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه.

يتتبع مواطن إجابة الدعاء لعله يظفر بدعوة تُستجاب، فيرى بركتها في رزقه وعياله وصحته، ويرى تفريج الهم، وتنفيس الكرب، وتبديل الحال إلى أحسن حال.

حفظ القرآن وما شعر به أحد، وأقام الليل وأطال الصلاة ولم يعلم به أحد، وبكى من خشية الله وما درى به أحد، ودعا إلى الله ونشر الخير وأنكر المنكر ولم ينتظر مدحًا وثناء من أحد، قدوته في ذلك العبد الصالح نبي الله زكريا عليه السلام، "إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا" [مريم: 3].

جاءت الآيات السابقة تدل الخلق على الله، وتذكرهم بعظمته في الملك والتدبير والخلق والمشیئة، ثم جاءت هنا لترشدهم إلى إفراده بالدعاء والعبادة، وتدعوهم إلى آداب شرعية يجعلونها في دعائهم لئلا تتعلق قلوبهم بغير الله ولئلا يظنوا أن غير الله ينفع أو يضر.

واعلموا أن خفض الصوت والإسرار في العمل الصالح والذكر والدعاء أهنأ للقلب في تضرعه، وأسعد للروح في ارتقائها، وأدعى لاستجابة الله للعبد، فإن الذاكر سراً والداعي في خلوة ينسيان نظر الخلق ولا يديمان النظر حينها إلا للخالق جل وعلا.

وكذلك الأمر فيما لو كان يدعو الله ويذكره وهو جالس بين الناس في المسجد أو غيره، فإن امتثاله للتوجيه الرباني هنا خير له في صدقه، وخير للناس من حوله لئلا يؤذيه برفع صوته ويشوش عليهم في طاعتهم.

أقول: إلا أن الشرع جاء برفع الصوت في عدد من الأذكار كالتلبية في الحج وتكبير العيدين، والرفع هنا يكون للجميع فيبعد عن الرياء، وجاء كذلك بجواز رفع الصوت في الذكر والدعاء للتعليم وإرشاد الناس وحين الحاجة.

أخرج البخاري ومسلم أن ابن عباس رضي الله عنهما، أخبر موله أبا معبد أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة³⁰، كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عباس: "كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته". يعني كان يعلم انتهاء الصلاة إذا سمع صوت الناس يذكرون الله.

قال بعض أهل العلم: يستحب رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة، لورود الأثر بذلك. ولكن انتبهوا أنه ليس في الحديث أنهم كانوا يذكرون الله ذكرًا جماعيًا بصوت واحد.

واستحباب رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة قال به بعض أهل العلم، وقال آخرون كالشافعي وغيره: الأصل هو إخفاء الذكر بعد الصلاة وليس رفع الصوت إلا إذا كان إمامًا يريد أن يعلم الناس فيرفع صوته.

وقد أرشد الشرع نبينا صلى الله عليه وسلم لما كان يصلي في مكة إلى أن يسمع أصحابه القرآن، ولا يقتصر على إسماعه نفسه فقط، وكذلك أرشده إلى أن يجتنب إسماع أهل الكفر قراءته إذا سبوا القرآن

³⁰ يعني من صلاة الفرض. وقوله (وحين ينصرفوا) أي: حين يسلموا من صلاتهم.

وشتموا أهله، وإذا خشي أن يتعرضوا له بسوء. قال الله تعالى: " وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا " [الإسراء: 110]. قال بعض أهل العلم: نزلت الآية هنا في الدعاء لا في الصلاة.

{ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } الله ربنا لا يحب من يعتدي في دعائه، ولا يحب من يعتدي على مقام أفراد الله بالرغبة والرغبة، ومن لا يقف مع حدود الشرع التي أرشد إليها ويَبَيِّنُها ليكون الدعاء وصاحبه من المقبولين.

نزلت هذه الآية في مكة، في قوم قامت عبوديتهم على دعاء غير الله تعالى، وعلى التوجه إلى من لا يملك من أمر نفسه أو من أمر الدنيا والآخرة شيئاً، نزلت في حق أهل الشرك الذين كانوا يتوجهون بدعائهم للأصنام، وقد يجعلونها واسطة في الدعاء بينهم وبين الله لثَقُصِي حاجاتهم، وتُفَرِّج همومهم وغمومهم، فضلاً عما كانوا يفعلونه في طوافهم حول الكعبة من تصفيق وتصفير فلا تضرع فيه ولا خفية، وهذا من أعجب حالهم وربّي.

وصنيعهم هذا يذكرنا بحال كل من دعا غير الله، أو من جعل بينه وبين الله واسطة مما لم يأذن به الله، كما فعل النصارى بدعائهم سيدنا عيسى وأمنا مريم عليهما السلام، وكما فعل قوم نوح من قبلهم مع أصنامهم، وغيرهم من الأمم السابقة واللاحقة. قال الله تعالى: " وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ " [الرعد: 14]، وقال سبحانه: " وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ " [غافر: 60].

واعلموا أن أهل العلم انتفعوا من هذه الآية ومن غيرها من الأدلة في توجيه المسلمين وتذكيرهم، لئلا يكونوا كأهل الشرك، ولئلا يُعرضوا أنفسهم لسخط الله وغضبه.

ولذلك ذكروا صوراً من الاعتداء في الدعاء تتعلق بمن يدعو الله من هذه الأمة الطيبة المصطفاة، بعض هذه الصور تخالف التوحيد الذي جاء به نبينا عليه الصلاة والسلام، وبعضها لا يخالف التوحيد ولكنه يتعلق بآدابٍ للدعاء ينبغي لنا أن نراعيها في دعائنا ورجائنا وتضرعنا.

إن الدعاء شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام، ومفتاح من مفاتيح عزة الأمة وحفظها، ومظهر من مظاهر قرب العبد من خالقه، فضلاً عن كرامة صاحبه في الدنيا والآخرة، ولذلك كان الاعتداء فيه مردوداً على صاحبه، وسبباً في خسران محبة الله واستجابة الدعاء.

أذكر لكم صوراً من الاعتداء في الدعاء، يفعلها بعض أبناء الإسلام، منها:

1- الذين يستغيثون بالأموال في دعائهم فيما لا يقدر عليه إلا الله، كاستغاثتهم بالحسين وفاطمة رضي الله عنهما وغيرهم، وكدعاء نبينا صلى الله عليه وسلم من دون الله، وكالاستغاثة بالجن واعتقاد أن النفع والضرر عندهم وبهم.

أقول: كل هذا من الشرك والكفر الذي لا يرضاه الله تعالى ولم يأمر به، وهو مخالف للتوحيد الذي جاءت به الأنبياء والرسل، وهو شرٌ عظيم يستحق أن تقوم من أجله المشاريع الدعوية الكبيرة الممتدة، ويستحق أن تُبذل له الأوقات والكلمات والجلسات، ويستحق أن يدوم التذكير به وبأدلته وأثره على عقيدة المسلم.

2- اتخاذ الوسطة بين العبد وبين الله في الدعاء، مع أن الله تعالى نادى عباده ليدعوه وحده لأنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ومع أن الله قال للناس ادعوني أستجب لكم، ولكن صنفاً من الناس يأبى إلا أن يكرر خطيئة قوم نوح الذين نصبوا لصالحهم أصناماً وأشكالاً، ثم جاء قوم من بعدهم جعلوا اسمهم في دعائهم، جعلوه ظانين أن وساطتهم تنفع، وظانين أن الله أرادها وأمر بها، فَضَلُّوا وأضلوا من بعدهم.

يا أيها المؤمنون، إن ربكم سميع بصير قريب، يعلم حاجاتكم ويؤتكم سؤلكم إذا صدقتم ودعوتهم وأنتم موقنون بالإجابة، وإذا كان الإلحاح على الله في الدعاء هو العنوان الأسمى في سجودكم وقيامكم، وإذا صرفتم الدعاء له وحده بدون واسطة من بشر أو حجر.

3- الصباح في الدعاء ورفع الصوت والنداء فوق العادة مما يخالف أدباً لا يخفى عليكم في دعاء ربنا، وهو التضرع والاستكانة في الدعاء استجابة لأمر الله تعالى. أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: " لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أيها

الناس اَرْبَعُوا³¹ على أنفسهم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم " الحديث.

4- ومن أنواع الاعتداء في الدعاء مما يتعلق بآدابه، ما يفعله عدد من الداعين يوم يَظْهَر التكلُّفُ في دعائهم وفي سَجْعهم، ويسألون الله تعالى تفاصيل في الدنيا والآخرة مما لم يُعهد في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يُعرف عن السابقين من الصحابة ومن تبعهم من سلف هذه الأمة وخيارها، بل عُهد عنهم إنكاره، وتوجيه فاعليه إلى الهدى والسنة فإن في ذلك الخير الكثير.

أخرج أبو داود وابن ماجه وغيرهم عن أبي نَعَامَة، أن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، قال: يا بني، سل الله الجنة وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطُّهور والدعاء ".

5- ومن أنواع الاعتداء في الدعاء الإفراط أو التفريط فيما لو دعا لنفسه أو عليها، أو دعا لغيره أو دعا عليه، فقد نجد من يدعو على أولاده وعلى ماله وعلى نفسه، وقد نجد من يقتصر على دعوة واحدة لأولاده أو لأبويه ولا يرجع إليها إلا بعد زمن، وقد نجد من يدعو الله بقطيعة رحمه، أو أن يسهل وصوله إلى فعل الحرام، أو يذكر تفاصيل تنكرها النفوس في دعوته على من ظلمه، مع أن الشرع أذن له بالدعاء على من ظلمه. أخرج البخاري في الأدب المفرد عن جابر رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " اللهم أصلح لي سمعي وبصري، واجعلهما الوارثين مني، وانصربي على من ظلمني، وأرني منه ثاري ".

أخيرًا: ومن جميل مجيء التوجيه الرباني هنا في الدعاء أنه جاء بعد آيات تكلمت عن عظيم قدرة الله، وستأتي بعده آيات تتكلم عن مظاهر أخرى لعلم الله وقدرته، وهذا من عظيم البلاغة القرآنية، فكأنَّ الله تعالى هيَّا القلوب بالاستسلام لعظمته، ليكون ذلك أدعى لتلقيها الموعظة، وأيسر لقبولها والانتفاع بها.

- { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } -

³¹ أي: أمسكوا عن الجهر، وقفوا عنه، وارفقوا بأنفسكم.

أعظم فساد في الأرض هو نشر الكفر والشرك فيها، والتمكين لأهل الفسق والفجور بأن يعيشوا في الناس فسادًا وإفسادًا، يُفسدون على الناس دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم، وينشرون الفاحشة والزنا وقلة الحياء، ويعيثون بثوابت الأمة ومعالم عزتها ورفعتها. قال الله تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ " [البقرة: 11-12].

يا عُبَادَ الْأَصْنَامِ: لا تفسدوا في الأرض بابتداع دين ما أنزل الله به من سلطان، ولا تصرفوا الناس عن خالقهم وتصدوا عن التوحيد، والخطاب بعمومه يصلح أن يخاطب به اليهود والنصارى وعُبَادُ الْبَقَرِ ومنكرو الأديان، ومنكرو السنة، وأهل البدع والضلالات، بل يصلح لأهل الكفر في زماننا الذين أفسدوا عيشنا وهواننا وماءنا وأرضنا، وأفسدوا علينا أهلينا وأحبابنا، حتى طالت أيديهم وأقلامهم ثوابتنا وإسلامنا وقرآننا ورسولنا صلى الله عليه وسلم.

ما أصعبها يوم يأتي الإفساد في الأرض بعد صلاحها، أي: يأتي الكفر بعد الإسلام، والبدعة بعد السنة، والسيئات بعد العمل الصالح، وقيسوا على ذلك.

ولا تظنوا أن الإفساد في الأرض يتوقف عند ذلك، ولكنه يمتد إلى صور أوسع اهتم أهل العلم ببيانها، واستدلوا بالآية على منعها، كمن يعتدي على أرواح الناس بالقتل فهذا مفسد في الأرض، وكمن يعتدي على أموالهم وأعراضهم وعقولهم، وكمن يوقع الشحناء والبغضاء والاقتتال بين الناس بما يفعله من النميمة وإثارة النفوس، وكمن ينشر على صفحاته ومنصَّاته مناظر الفحش والرذيلة والغناء والرقص والعورات المكشوفة.

إن الإصلاح في الأرض بنشر التوحيد والدعوة إلى العلم والعمل، وإغلاق مراتع الفساد والإفساد مدعاة لحياة طيبة مباركة يهنأ فيها الجميع، ويحل الأمن والأمان.

وإن الإفساد في الأرض بأنواعه وأشكاله مدعاة لفساد حال الناس في أرزاقهم وأخلاقهم وعيالهم وأهليهم، ومدعاة لحرمان خيرات السماء والأرض وبركاتهما، ومدعاة لسخط الله وغضبه. قال الله تعالى: " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " [الروم: 41].

{ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا } اجعلوا الخوف من الله ومن عقابه ومن ناره عُدةً لكم ومعينًا، واجمعوا إليه الطمع فيما عنده من الثواب والجنة والرضا والنعيم المقيم، ولتنطلق ألسنتكم بالدعاء بسؤال الله الجنة والنجاة من النار، وسؤال الله المغفرة والنجاة من السخط، وسؤال الله حسن الختام والنجاة من سوء القدوم عليه.

صحيح أن هذا التوجيه الرباني العظيم جاء في معرض الحديث عن أهل الكفر الذين تعلقت قلوبهم بغير الله، وتوجهت بالدعاء والرغبة والرغبة إلى من تعلق القلب به، ولكنه توجيه لا يستغني عنه أهل الإيمان، ولا يستقيم دعاؤهم لخالقهم بدونهم، ولا ينتفعون مما تلهج به ألسنتهم في صلواتهم وخلواتهم إلا باجتماع الخوف والطمع.

يا أهل الإيمان والطاعة والإحسان: احذروا من العُجب في دعائكم، وانكسروا بين يدي خالقكم وافتقروا إليه، واستحضروا الجنة وما فيها من أنواع السرور والحبور واسألوا الله من واسع فضله، واسألوه أن يستر عليكم الذنوب ويغفرها، واستحضروا النار وما فيها من أهوال ترتجف لها القلوب، ثم اسألوا الله أن يُحرِّمكم عليها ومن تحبون.

{ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ } انظروا هنا كيف أن رحمة الله قريبة، ثم انظروا في الوصف الذي ارتبط به هذا القرب، إنه وصف الإحسان، وإليك البيان:

أما الرحمة فإنها واسعة، وقلوب المؤمنين تتفياً ظلالها على الدوام، وتعيش معالمها في البلاء وفي النعم، وفي السراء والضراء، وفي المنشط والمكره، وفي السفر والإقامة، وفي الصحو والمنام، وفي كل نفس يتنفسه المؤمن من صباح أو مساء.

إن الله تعالى فتح أبواب رحمته لجميع عباده، وإن رحمته سبقت غضبه، وإن العطاء أحب إليه من المنع، وإنه يفرح بإسلامهم وتوبتهم ويكرمهم بكرم لم ولن يخطر لهم على بال. أخرج البخاري ومسلم عن أبي

هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، وهو يكتب على نفسه، وهو وضِعُّ³² عنده على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي ".

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّرَ الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ".

ما أحوجنا إلى رحمة الله، وما أحوجنا إلى التعلق بها كلما غلبتنا أنفسنا وعصينا، وما أحوجنا إلى استحضار فضل الله علينا أن شرح صدورنا لكلمة التوحيد، وجعلنا من أهلها وحملتها.

نفزع إلى رحمة الله، ونفر إليها إذا أذنبنا، ولكننا لا نتجرأ على الذنوب ولا نتفنن فيها متكئين على سعة رحمة الله.

وبطريقة أخرى: نحصر على أن نجعل بيننا وبين الشهوات والمعاصي سدًّا وحاجزًا، ولا نطمئن إلى ما يُسخط الرب علينا، فإذا ضعفنا أمام لذة الحرام أقبلنا على أرحم الراحمين لعله يتوب علينا ويسترتنا. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحدٌ ».

وأما المحسنون الذين تبقى رحمة الله قريبة منهم، فإنهم الذين اتبعوا أوامر الله وانتهوا عما زجرهم عنه ونهاهم، وهم الذين أحسنوا في عبادتهم فلم يجعلوها إلا لله، ولم يؤدوها إلا على منهج الله، ولم يزيغوا عن طريق الاستقامة ولم يركنوا إلى غيره.

المحسنون هم أولئك الذين عبدوا خالقهم كأنهم يرونه، والذين نشروا دينهم في العالمين، والذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وكانوا خير معين للدعاة والمصلحين، والذين جاهدوا الكفار والمنافقين وكانوا حُرَّاسًا للدين.

ولا يفوتنا يا أهل الكفر أن نقول لكم: أسلموا وأحسنوا في عبوديتكم فإن رحمة الله قريب منكم إذا فعلتم.

³² يعني: موضوع.

- { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }

آية من آيات الله المحسوسة في أرضه، يضربها سبحانه وتعالى مثلاً لمن أنكر البعث، ولمن لم يتصور في عقله كيف يحيي الله الإنسان بعد موته وتُحلَّل جسده وبقاء شيء من عظمه فقط.

آية من آيات الله التي لا تُعد ولا تحصى من حولهم وفي أنفسهم، مما أشارت إليه آيات سابقة في السورة وغيرها من خلق السماوات والأرض، ومن التسخير والتدبير والتكوين، ومن الآلاء التي يقرونها في أنفسهم.

آية من آيات الله جاءت لإثبات البعث من جهة، وجاءت لبيان فضل الله على الناس ورحمته بهم من جهة أخرى.

يقول الله لهم: تأملوا وانظروا وأعملوا عقولكم في الأرض الميتة التي لا يكون فيها شجر ولا ثمر، ولا نبات ولا حياة، ولا قوت للناس ولا غذاء، ثم إن الله تعالى من رحمته وواسع فضله يرسل رياحاً من عنده مما لا يستطيعه أحد إلا الله، يرسل رياحاً مؤذنةً باقتراب المطر، تبشر الناس وتبعث في نفوسهم طمأنينة بأن الخير قادم من السماء. قال الله تعالى: " أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ " [النمل: 63]، وقال سبحانه: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " [الروم: 46].

وجاء في قراءة ثانية صحيحة لفظة (نُشْرًا) بدلاً من (بُشْرًا)، فتكون الآية " وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ "، وفي قراءة صحيحة كذلك (نُشْرًا)، وكذلك (نُشْرًا)، ويكون معنى الآية أن الرياح تساعد على نشر السحاب وبثه في الجو وتكثيره، وتساعد على توزيع المطر على الأرض لتنتفع وتنتفع.

{ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ { حتى إذا حملت هذه الرياح السحاب الثقيل الذي امتلأ بالماء وكثر فيه، وسارت به ونشرته واقتربت من الأرض الميتة المحتاجة للماء، المجدبة التي لا زرع فيها ولا ثمر، التي ينتظر أهلها ودوابها الغيث، أنزل الله بقدره وقدرته وعلمه الماء فأنبثت الأرض من ألوان الثمار والزروع ما تسعد به النفس وتطمئن، وأخرجت الأرض الثمرات المختلفة في اللون والطعم والريح، مما تعلم النفوس المؤمنة أنه من دلالات عظمة المنعم وقدرته وحكمته، جل جلاله. قال الله تعالى: "وَأَيُّ لَهِمُّ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ " [يس: 33].

ذكرت الآية هنا ثمرة إرسال الرياح وتكون السحاب وسيره إلى الأرض التي تحتاج، وهي نزول المطر، وهذه ثمرة عظيمة تتجلى فيها رحمة الله بالعالمين، ولذلك جاء في بداية الآية بأن إرسال الرياح إنما كان بين يدي رحمة الله، أي: إنما هو مقدمة لنزول المطر، فالمطر من أعظم مظاهر رحمة الله، وما أكثرها، والمطر فيه رحمة واسعة للبشر والحجر، وللحيوان والنبات. قال الله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ " [الشورى: 28].

ولا تظنوا أن الريح لا تأتي إلا بالمطر، فقد تأتي بدون مطر، وقد تكون لإرسال اللقاح بين الأشجار، أو للإعانة في جريان السفن، أو قد تأتي بالعذاب والعقاب، وغير ذلك.

ولا تظنوا أن المطر لا يكون إلا إذا كانت الريح، فقد يكون المطر مع سكون الهواء وعدم جريان الريح، ولكن التعبير القرآني هنا جاء بذكر الريح وربطه بالمطر لأنه مشاهد معلوم منظور يسهل الاستدلال به على الحقيقة التي يقررها السياق القرآني.

{ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ { يقول الله لهم: انظروا كيف يُرزق الناس جميعًا بعد أن يموتوا، وكيف تصبح الأرض خضراء مثمرة بعد أن كانت ميتة، كذلك يعيد الله الموتى يوم القيامة، وكذلك يعيد الله الأجساد بعد أن صارت رميمًا، فتذكروا وأنظروا وافتحوا قلوبكم للهدى ولا تكابروا. قال الله تعالى: "فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

" [الروم: 50]، وقال سبحانه: " وَاللّٰهُ الَّذِيّ اَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ اِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَاجْيَيْنَا بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذٰلِكَ النُّشُوْرُ " [فاطر: 9].

وقد دلت سنة رسول الله الصحيحة على كيفية إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب يوم القيامة، وكيف يُنزل ماء من السماء متتابعًا فتنبت منه الأجساد في قبورها. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما بين النفختين أربعون، قال: أربعون يومًا؟ قال: أربعون شهرًا؟ قال: أربعون سنة؟ قال: أربعون أبيت، قال: أبيت، قال: ثم يُنزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلَى، إلا عظمًا واحدًا وهو عَجَبُ الذَّنَبِ ³⁴، ومنه يَرْكَبُ الخلق يوم القيامة ».

- { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي حَبَتْ لَآ يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ }

تُثَبِّتُ الْآيَةَ أَنَّ الْبِلَادَ صِنْفَانِ: صِنْفٌ طَيِّبٌ، وَصِنْفٌ غَيْرُ طَيِّبٍ، وَالطَّيِّبُ هُنَا مُرْتَبِطٌ بِأَرْضِهَا وَتَرْتِبَتِهَا، يَعْنِي: الْأَرْضُ فِيهَا الْخَبِيثُ وَفِيهَا الطَّيِّبُ، أَيْ: فِيهَا مَا يَكُونُ قَابِلًا لِلْمَاءِ فَيَتَلَقَّاهُ وَيَشْرَبُهُ، وَيُخْرِجُ مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ وَالشُّمَارِ مَا يَكُونُ نَافِعًا مَبَارَكًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، وَيَكُونُ كَثِيرَ الْعِلَّةِ وَطَيِّبَ الثَّمَرَةِ، وَفِيهَا الْأَرْضُ الْجَدْبَاءُ وَالتُّرْبَةُ الرَّدِيئَةُ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ مِنَ الْمَاءِ بِشَيْءٍ فَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا الشُّوكُ وَمَا فِيهِ أَذِيَّةٌ، أَوْ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا شَيْءٌ كَالْمَطَرِ الَّذِي يَمْرُ عَلَى الرَّمَالِ وَالصَّخُورِ، فَلَا تَأْتِي مِثْلُ هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَّا بِمَا يَكُونُ نَكْدًا عَلَى أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمُخْزَنًا لَهُمْ، وَمُدْخَلًا لِلْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ وَالْعُسْرِ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَصْلَحُ لَشَيْءٍ.

{ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } هذه واحدة من الآيات التي يُصَرِّفُها الله ويذكرها للعالمين ويضرب بها الأمثال لينتفع منها أهل الشكر المستحضرين لعظمة الله وقدرته ونعمه.

33 يعني أبييت أن أجزم بأن المراد أربعون يوماً أو سنة أو شهراً، ولكني أجزم أنها أربعون. ولكن جاءت رواية صحيحة تجزم بأنها أربعون سنة.

³⁴ أي: العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، عند نهاية فقرات الظهر بين الإليتين، وهو رأس العصعص.

وكأن الآية تقول لنا: القوم الشاكرون هم الذين ينتفعون من آيات الله الكونية والشرعية المتتابعة الكثيرة، وقلوبهم هي التي تظفر بما نزل به الوحي من السماء وتسعد، وهم كالأرض الطيبة التي تستقبل المطر وتنفع من حولها.

بطريقة أخرى: لا تظنوا أن الطيب والخُبث موجود فقط في النباتات، بل هو موفور في جنس الإنسان الذي تأتبه أنواع الهدايات فتصادف قلوبًا طيبة فتنتفع، وتصادف نفوسًا خبيثة فتسخر وتجد وتعاقد، كما يحصل مع الأرض بالتمام. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه³⁵ قال: "الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا".

بطريقة ثالثة: لا ينتفع برحمة الله وهداه إلا من كانت فطرته طيبة نقية مستعدة للانتفاع كما هو حال الأرض ذات التربة الزكية التي انتفعت من الماء وأنبتت.

أما الذي انتكست فطرته فخبثت نفسه، وأغلق عقله وسمعه وبصره عن نداءات الله له فهذا محروم ومصروف عن نور الله وفضله، كما هو حال الأرض التي خبثت فلم تخرج شيئًا نافعًا.

انظروا في قول الله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً" [البقرة: 245]، لما نزل كيف صادف نفوس اليهود فجعلوا يتجرؤون على العظيم جل جلاله ويزعمون أنه يستقرضهم ويطلب منهم دينًا، ويقولون: "إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ" [آل عمران: 181]، وكيف صادف نفوس أهل التقوى من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، الذين سمعوا ذات النداء، فتسابقوا في الخيرات، وبذلوا من نفائس أموالهم ابتغاء مرضاة من بيده خزائن السماوات والأرض. أخرج أحمد والترمذي وأبو يعلى واللفظ له، عن أنس رضي الله عنه، قال: لما نزلت "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ" [آل عمران: 92] وَ "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" [البقرة: 245]، قال أبو طلحة رضي الله عنه: يا رسول الله حائطي³⁶ الذي بمكان كذا وكذا لله، والله لو استطعت أن أسرها لم أعلنها، فقال صلى الله عليه وسلم: "اجعله في فقراء أهلك".

وهكذا كل خطاب رباني في القرآن العظيم وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إما أن يلامس قلوبًا طيبة نقية مطمئنة بالإيمان فتسارع وتبادر وتسابق، وإما أن يلامس قلوبًا مريضة ونفوسًا خبيثة فتغمر

³⁵ أي: إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
³⁶ أي: يستاني المثمر. يعني يريد أن يوقفه الله.

وتلمز وتأبى، كما يفعل بعض أبناء زماننا في كثير من أحكام شريعة الله، ممن ينتسبون إلى الإسلام ومن غيرهم، ولعلكم لو تتبعتم كثيراً من الحوارات التي تدور حول فقهاء وعقيدتنا لوجدتم ذلك في خطابهم، كحديثهم عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم بكثير من النساء، وحديثهم عن الحجاب وتعدد الزوجات والجهاد في سبيل الله، وغير ذلك.

وقد جاء في هذا المعنى حديث يُشبه أحوال الناس في قبول دعوتنا بأحوال الأرض إذا نزل عليها الماء، كما أشارت الآية. أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان ³⁷ لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ».

بل إن طيب المعدن وسوءه موجود في المسلمين أنفسهم، الذين ترى في أخلاق صنف منهم المروءة والرقى والصدق والأمانة، وترى في أخلاق صنف منهم الخسة والفجور والنفاق والكذب، والله المستعان.

- { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }

تأتيكم في الآيات القادمة قصص عدد من أنبياء الله الذين جعلهم الله لنا أسوة وقدوة، والذين كانت ولا زالت خصالهم وسيرتهم كُراً يتدارسه الأجيال ويمضون في تربية أبنائهم ومن حولهم عليه، والذين أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتبع هداهم ويقتدي بهم بقوله سبحانه: " أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدِهْ " [الأنعام: 90]، والذين أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم بأنهم أشد الناس بلاء، وأرفع الناس منزلة عنده، يكفيهم أن الله اصطفاهم وأوحى إليهم.

³⁷ أرض مستوية لا نبات فيها.

وكان القرآن يريد منا أن نستحضر تاريخهم مع أقوامهم، ونكون أقوياء كلما رجع الحزن إلينا بسبب ما نجده من أقوامنا وأبناء جلدتنا وزماننا، وكأنه يريد أن ترسخ عقيدة الإيمان بهم في قلوبنا على الطريقة الصحيحة لا مجرد أن نذكرهم ونتكلم عنهم. قال الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: " وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ " [الأنعام: 34].

وقصص أنبياء الله مع أقوامهم فيها تذكير لأهل الكفر والمشركين الذين يظنون أنفسهم بعيدين عما حلَّ بالأقوام السابقة، فقد أخبر الله عنهم بقوله سبحانه: " وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابٍ أَلَيْمٌ " [الأنفال: 32]. وفي إخبارهم بهذه القصص دعوة لهم ليؤمنوا قبل أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم، بل إن في ذكر هذه القصص بتفاصيلها معجزة تكفي ليؤمنوا فإنهم كانوا يجهلون أخبار الأمم السابقة، ودليلاً على أن القرآن من عند الله لا من عند البشر، فمن أين لمحمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي الذي نشأ بينهم وفيهم أن يأتي بكل هذا !! أمر الله تعالى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهدى الأنبياء من قبله، ثم أمره على وجه الخصوص بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. قال الله تعالى: " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ فَلَئِنْ يُهْلِكُوا إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ " [الأحقاف: 35].

وهنا في الآيات قصص ربنا تعالى علينا طرفاً من سيرة واحد من أولي العزم من الرسل، وهو نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام ليحصل الاقتداء والاهتداء على أتم وجه وأحسن حال.

والمقصود: انظروا في سلاح نبي الله نوح الذي جعله يصبر على كل هذا، وانظروا لمن تكون العاقبة في آخر الأمر، وهونوا على أنفسكم وتسلوا واطمئنوا وترقبوا فضل ربكم.

نبي الله نوح عليه السلام هو أول رسل الله سبحانه وتعالى، أرسله الله ليدعو قومه إلى التوحيد بعد أن أشربت قلوبهم حُبَّ الأصنام وعبادتها، وبعد أن صنعوها على هيئة رجال صالحين عظموهم حتى جعلوهم واسطة بينهم وبين خالقهم، وقد بين القرآن أسماء هؤلاء الصالحين، وذلك في قوله سبحانه: " وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا " [نوح: 23].

مكث عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفيه جاءت سورة كاملة في كتاب الله تعالى تذكر عطاءه الذي لم ينقطع في السعي إلى إرجاع قومه إلى عبودية الرب جل وعلا، وتذكر استغفره لوسعه في بذل أسباب الدعوة وأساليبها فيهم لعلمهم يهتدون.

أكرم الله نبيه نوحًا عليه السلام بالهداية والتوفيق والإعانة، ووهب له ذرية طيبة جعل فيها النبوة والدعوة كما جعلها في ذرية إبراهيم من بعده عليهما السلام. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ " [الحديد: 26].

أخرج ابن حبان عن أبي أمامة رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: " نَعَمْ مَكَلَّمٌ "، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: " عَشْرَةُ قُرُونٍ ".

وأخرج الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: " كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلُّهم على شريعة من الحقِّ، فاختَلَفُوا؛ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ".

ذكرت الآية هنا كيف دعا نوح قومه إلى توحيد الله تعالى، وإلى الخضوع له بالاستكانة والطاعة، وكيف بيّن لهم أنه لا إله لهم غيره، وأنه لا ينبغي أن يصرفوا عبادتهم ودعائهم ورجبتهم إلى أصنام وأنداد وآلهة لا تنفع ولا تضر.

ولكم أن تتأملوا في ندائهم ب (يا قوم) لتجدوا فيها تذكيرًا لهم بأصرة القرابة بينهم، وذلك ليعلموا أنه لا يقول هذا الكلام رغبة في عداوتهم أو الانتقام منهم، ولكنه يدعوهم لأن لهم حقًا عليه، ولأنهم قريبون منه، ولأنه مشفق عليهم يريد الخير لهم.

ولعلكم لاحظتم أن قصص القرآن لا يُذكر فيها دومًا مكان عيش أهل الكفر والبلاد التي أقاموا فيها، ولكنها قد تذكر ذلك إذا كان فيه نفع لأهل القرآن المهتدين به.

وفي قصة نوح عليه السلام لم يأت بيان للأرض التي كانوا بها، ولكن بعض العلماء ذكروا أنهم كانوا يسكنون الجزيرة والعراق بحسب ظن المؤرخين.

{ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } أربع فوائد وعظمية أقف معها في ختام الآية هنا:

الأولى: ما ينبغي أن يكون عليه الداعية من الخوف على قومه وعلى أهله، والخوف على من يدعوهم ويبلغهم دين الله تعالى، وهذا الخوف إذا ملأ القلب أورث رحمة عجيبة بالمدعو والمخاطب، وأورث لنا في القول وتفتُّناً في الخطاب، وأورث كذلك صبراً عليه وبَذْلاً للمحاولة بعد المحاولة، بل أورث مشاريع للدعوة تكون رؤيتها ورسالتها وأهدافها صادقة وواضحة في إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

الثانية: حرص الداعية على تخويف الناس كحرصه على ترغيبهم، فالداعية الموفق لا يقتصر في لغة خطابه على ذكر المغفرة وسعة الرحمة ونعيم البرزخ والجنة، مع أهمية هذا الخطاب وحاجة أصناف من الناس له، خاصة من عظمت ذنوبه ويريد التوبة، ولكن الداعية لا يقتصر عليه ويتنفر من بيان حال أهل النار في النار، ومن التذكير بالعذاب الذي ينتظر الكفرة والفجرة والعصاة في البرزخ وفي يوم القيامة إذا لم يتوبوا. ولذلك، نجتمع في لغة خطابنا بين الوعد والوعيد، وبين الرجاء والخوف، وبين الرغبة والرغبة، وبين حال أهل النار وحال أهل الجنة، ونزيد في ذلك أو ننقص منه بحسب حال المدعو وما يحتاجه، وبحسب المقام والمكان والزمان. قال الله تعالى: " نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ " [الحجر: 49-50].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: « لما أنزلت هذه الآية: " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ " [الشعراء: 214] دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ، فقال: يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبُلُّها بِلَالِهَا ³⁸ " .

الثالثة: تأملوا في ثقة نبي الله نوح عليه السلام بطريق الدعوة وما هو عليه، وانظروا في وضوح ما يدعو إليه وما يُخَوِّفُ منه، فالداعية لن تبلغ دعوته وتؤثر إذا كان متردداً ضعيفاً لا يثق بما يقول. قال الله تعالى: " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " [يوسف: 108].

³⁸ أي: سأصلها .

الرابعة: هناك يوم عظيم ينتظرنا بعد موتنا جميعاً، وعظمة هذا اليوم تكون بأهواله وأحوال أهله وتمايزهم، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار.

والواجب علينا أن نعد العدة له، وأن نعتبر من الأقوام التي سلفت لثلاً نكون من الخاسرين، وأن نسير على حُطَى الأنبياء والدعاة استعداداً لهذا اليوم العظيم، اللهم سلِّم سلِّم.

- { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } -

هكذا يعمد رؤوس الشر في الأرض إلى صد غيرهم عن طريق الهداية، وهكذا يبذلون الغالي والنفيس من أجل بقاء أكثر الناس على الكفر والشرك والفجور، وهكذا يأبون الانقياد لمنهج الله وشرعه وهداه، ويستكبرون عليه ويقدحون فيه.

الآية نخب أن الملاء، وهم الكُبار والقادة والرؤساء والمتحدثون باسم الجماهير، نسبوا إلى نبي الله نوح عليه السلام الضلال الظاهر البين، يقولون له: لقد خرجتَ عن طريقنا ومنهاج حياتنا، ولقد تركتَ ما فعله آباؤنا وسادتنا ويفعلونه، وأتيتنا بدين لا نعرفه ولا نقبله، فكنت من المبتعدين عن طريق الحق، المنغمسين في الضلال والخطأ.

إن الفُجَارَ وأهل الشرّ ينظرون إلى أهل الصلاح والإصلاح على أنهم في ضلال، وعلى أنهم يجهلون مصلحتهم وطريق سعادتهم، وعلى أنهم محرومون من أنواع اللذائذ والشهوات، ويا ليتهم يعيشون عُشْر سعادتهم وراحتهم وصلاح بالهم، ويا ليتهم يذوقون لذة واحدة من لذائذ العيش مع القرآن وقيام الليل وذكر الله والدعاء، أو لذة من لذائذ الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو لذة من لذائذ العيش مع السنة وعلوم الشريعة، أو لذة من لذائذ صحبة الصالحين ومجالستهم. قال الله تعالى في بيان كلام هؤلاء الفجار في النار: " قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوُكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ " [المؤمنون: 106-111]، وقال

سبحانه: " وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَأَتَّخِذُنَا هُمْ سَحَرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ " [ص: 62-64].

- { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

يقول عليه الصلاة والسلام لقومه جميعاً، المألأ والتابعين لهم: يا من أنتسب إليهم وعشت معهم، ويا من ترعرعت فيهم ويعلمون كل شيء عني: لست ضالاً ولا تائهاً عن الطريق الصحيح، ولست متخبطاً فيما أقول وأعمل، إني رسول من الله الخالق المالك الذي دبّر أمركم وأمر الخلائق كلها.

يقول لهم: لن ألتفت إلى خطاب المألأ الذين بيدهم الأمر والنهي في قومي، ولن أياس أو أقعد عن دعوتكم لجوابكم هذا، ولكني سأدعوكم إلى توحيد الله المرة بعد المرة، وسأحاوركم وأناقش كلامكم لعله يخرج من بينكم من يهتدي ويقول كلمة الحق ويعين في الدعوة، ولعلي أنقذكم من الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

- { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }

أمرني سيدي ومولاي ورازقي ومن بيده كل أمري أن أبلغكم ما يوحيه إليّ، وأن أكون ناصحاً لكم صادقاً فيما أقول، وألا أكتم عنكم قولاً أو فعلاً ينفعكم.

يا قوم، إني لا أملك جنة ولا ناراً، ولا أملك لكم نفعاً ولا ضرراً ولست عليكم بمصيطر، ولكني أطيع الله فيكم، وأبلغكم وأصبر عليكم لعلكم تهتدون.

يا قوم، والله لا أريد في دعوتي لكم أيّ حظ من حظوظ الدنيا وزينتها وزخرفها، ولن يصدني شيء عن دوام نصحكم وتذكيركم وإن توليتم.

يا قوم، لست سفيهاً كما تزعمون ولكني أعلم من الله ما لا تعلمون من مظاهر العظمة والكبرياء والجبروت والملكوت، ومن العلم الذي يقودكم إلى ما فيه عزكم في الدنيا والآخرة، ومن صفات الخالق العظيم التي من عرفها وعبدته بما دخل في جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

يعيش أهل الإيمان والدعوة والطاعة أحوالاً من الفكر والتدبر والبصيرة لا يعيشها غيرهم من أهل الكفر والمغمسين في الشهوات والحرام، ولذلك ترون نظرتهم تختلف عن نظرة غيرهم فيما يرونه ويسمعونه ويعيشونه في مجتمعاتهم، فلا يقتربون من الزنا ولا من شرب الخمر، ولا من مجالسة أهل الغناء والرقص، ولا من الربا والسحر وأكل حقوق الناس، لا يقتربون لأنهم علموا من الله ما لا يعلمه أهل الغفلة.

قال الله تعالى في حق نبينا عليه الصلاة والسلام، وفي حقيقة دعوته: " وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ " [آل عمران: 20]، وقال سبحانه: " إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ " [الرعد: 7]، وأخرج مسلم خطبة نبينا صلى الله عليه وسلم في أصحابه يوم حجة الوداع وكانوا أكثر ما يكون، وكان مما قاله: " وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها³⁹ إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد ".

- { أَوْعِجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } -

أبدى قوم نوح عليه السلام أعذاراً متنوعة لضلالهم وصدودهم، وجاء الملائكة منهم بزخرف القول ليصرفوا وجوه الناس عنه وعن دعوته، فكان مما قالوه: لماذا يرسل الله لنا بشراً ليدعونا ؟ ولماذا يكون هذا البشر من قربتنا ومن نعيش معه ؟ ولماذا لا يكون ملكاً من السماء مثلاً ؟ قال الله تعالى عنهم: " فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَبْذُرُوا الرِّيَاسَةَ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ " [هود: 27]، وقال سبحانه: " فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ " [المؤمنون: 24].

³⁹ أي: يقلبها ويردها إلى الناس مشيراً إليهم.

واعلموا أن العجب من إرسال رسول من البشر لم يكن في قوم نوح عليه السلام فقط، ولكن القرآن أخبرنا أن الأمم المكذبة اشتركت في إبداء هذه الشبهة واتخاذها ذريعة للكفر والتكذيب. قال الله تعالى: " وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا " [الإسراء: 94]، وقال سبحانه: " ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ " [التغابن: 6].

يحاورهم نوح عليه السلام ويناقش كل شبهة عالقة في عقولهم، أو يبدوها للتشويش فقط، يقول لهم: لا تتعجبوا من نزول الرسالة والذكر على واحد منكم يعيش بينكم، يشعر بما تشعرون به، ويعتريه من الأحوال ما يعتريكُم، ويتكلم بلسانكم، ويذهب ويروح ويجلس ويقوم ويحتاج لغيره كما هو حالكم. لقد جاءكم هذا الرسول منكم رحمة من الله بكم ولطفًا وإحسانًا، جاءكم لينذركم وعيد الله وعقوبته إن صددتم، ولتتقوا ربكم وتخافوه، وترجعوا عن غيِّكم وتوحده، ولتجعلوا بينكم وبين الشرك وكبائر الذنوب وصغائرها سِتْرًا وحاجزًا ومانعًا.

يا قوم: لن تنتفعوا من إرسال الملك إلا إذا جاءكم على هيئة رجل يعيش ما تعيشون، ويشعر بما تشعرون، ويتكلم بلسانكم ويخاطبكم بما تفهمون وتعقلون، ولو أنه كان من غير جنسكم لتعذر التأسي، وامتنع الاقتداء، ولما قامت الحجة عليكم خير قيام. قال الله تعالى: " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " [آل عمران: 164].

إن هداية البشر لا تصلح إلا إذا كان داعيتهم منهم ليحصل السكن والأنس وتآلف الطباع المرجو والمطلوب والنافع، ولذلك كان من تمام حكمة الله تعالى أن يكون الرسول بشرًا، بخلاف ما لو كان أهل الأرض من الملائكة فإن رسولهم سيكون ملكًا مثلهم. قال الله تعالى: " قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُّونَ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا " [الإسراء: 95].

- { فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ }

أربعة محاور طرقها هذه الآية، إليكم بيانها:

1- كَذَّبَ قوم نوح عليه السلام بالرسالة بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا من الدعوة إلى الله والصبر عليهم، وبعد استفراغ الوسع في أساليب الدعوة وأشكالها.

ذكرت الآية هنا أنهم كذبوه، وجاء في سورة هود أنهم نسبوا إليه الجنون وأن آلهتهم مسننه به، ثم إنهم طلبوا منه أن يطرد ضعفاء الناس الذين آمنوا به وكانوا معه، ثم إنهم قالوا له: " قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " [هود: 32]، فتمادوا وأظهروا التحدي لرب العالمين واتبعوا كُتُبَارهم من أصحاب المال والولد والمنصب، وجعلوا ينادون في الناس يُتَّبِعُونَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وجعلوا يسخرون منه وينتقصون من قدره لما كان يصنع السفينة، وجعلوا يمحرون بني الله ومن معه حتى وصل الأمر بهم إلى السعي في قتله. قال الله تعالى: " قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا " [نوح: 21-22].

2- نَجَّى الله نبيه عليه السلام من الغرق، ونجى معه أهل الإيمان الذين ثبتوا وفارقوا قومهم ولم يطيعوهم، والذين جعلوا مرضاة الله همهم وهمتهم، وارتضوا شريعته حكماً ومنهاجاً لهم ولغيرهم، ونصروا دين الله وأولياءه، وعظموا خالقهم ومجدوه وأثنوا عليه، ودعوه وعبدوه، نجاهم في الفلك، أي: في السفينة التي صنعها نبي الله عليه السلام. قال الله تعالى: " فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ " [العنكبوت: 15].

ولقائل أن يقول: وكيف وسعت السفينة التي صنعها كل من آمن معه ؟ والجواب أن كتاب الله أخبرنا أنه لم يؤمن معه كثير من الناس مع طول مدة دعوته، وأن الله تعالى أمره أن يحمل زوجين من كل صنف من أنواع الحيوان الذي عنده. قال الله تعالى: " حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ " [هود: 40].

أطلب منكم أن تعيشوا مع هذه التفاصيل كدعاة إلى الله وحملية لنور الهداية فيمن حولكم، وأطلب منكم أن تتلمسوا هداياتها ومواعظها التي لا تكاد تنقضي، كأنها تقول لنا: امضوا في دعوتكم وإن لم يؤمن بكم أحد، واعلموا أن أكثر الناس ليسوا حريصين على الإيمان بل هم غافلون، ثم استحضروا أن نتائج دعوتكم ليست بيدكم وأن القلوب بيد خالقها جل جلاله، فزوجة نوح في النار وزوجة فرعون في الجنة.

وكأنها تقول لنا: احذروا اليأس أو الشك في الطريق فإن نصر الله ووعده آت ولو طال قليلاً في حِسْبَتِكُمْ، وإن الله خيرُ حافظٍ لكم من مكر عدوكم الذي لا ينقطع في ليل أو نهار.

3- أغرق الله الذين كذبوا واستكبروا ومكروا، وأغرق معهم أتباعهم من الضعفاء الذين لم يفارقوهم ويؤمنوا، فالأتباع لا عذر لهم في بقائهم على الشرك وخوفهم وجبنهم، ولا عذر لهم في إعانتهم لأهل الكفر والظلم، ولا عذر لهم في تكثير سواد الفاسقين المجرمين.

وكان ممن غرق معهم زوجة نوح وولده اللذان اختارا طريق الكثرة واللذائذ العاجلة، وانكسرا وهزما أمام القوة والمنصب والمال.

وظاهر آيات القرآن أن الطوفان ذهب بعمران الأرض أجمع كما ذكر أهل العلم، وذهب بجميع من عليها، حتى كان الناس بعد ذلك من ذرية نوح عليه السلام، وعاد أباً ثانياً للخلقة كما كان آدم عليه السلام أباً أولاً.

وقد جاءت آثار عن بني إسرائيل وعن بعض أهل التفسير أن أولاد سيدنا نوح عليه السلام كانوا ثلاثة، وهم الذين تفرعت عنهم الأمم: وهم يافث وحام وسام، فأما يافث فإنه أكبرهم وهو أبو الروم، وأما حام فهو أوسطهم وهو أبو الحبش والزنج، وأما سام فهو أصغرهم وهو أبو العرب.

وفي بعض الروايات عنهم: يافث هو والد الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وحام والد السودان والبربر والقبط، وسام والد العرب وفارس والروم، وليس عندنا في نصوص شريعتنا الصحيحة ما يصدق ذلك أو يكذبه، والله أعلم.

ذهب القوم الذين استخفوا بنبي الله وبالمؤمنين، والذي طلبوا أن ينزل بهم بأس الله، والذين ظنوا أن الله غير قادر عليهم، ذهبوا وبقيت تفاصيل قصتهم عبرة وشاهداً على سوء مصير المعاندين المتكبرين على الله وعلى أنبيائه وأوليائه.

ويا ليت أمرهم ينتهي عند غرقهم وموتهم، فهذا مع شدته وصعوبته وعظمته لا يكاد يُذكر أمام ما ينتظرهم من حياة بئيسة في البرزخ، ومن أهوال في الدار الآخرة، ومن نار تلظى. قال الله تعالى: "مَجَّ حُطْيَاتِهِمْ أُعْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا" [نوح: 25].

أغرقهم الله بعد أن دعا عليهم نوح لما أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فاستجاب الله الدعوة وحلّ بهم بأسه وجبروته.

قال الله تعالى: " وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " [هود: 36]، وقال سبحانه: " فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَعْلُوبٌ فَانْتَصِرْ " [القمر: 10]، وقال جل وعلا: " وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " [نوح: 26]. أي: لا تُبق فيهم من يسكن الدار، أو لا تُبق من يدور فيها ليفسد ويظلم.

انتقم الله لأوليائه المؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، وهذه سنة الله في خلقه في الدنيا والآخرة مصداقًا لقوله سبحانه: " إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " [غافر: 51، 52].

4- { إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ } هذا هو عمى القلب وليس عمى العين، وهذا هو عمى البصيرة وليس عمى البصر، وهو الخسران المبين بعينه، فإن عمى العين والبصر مُحْتَمَل وقد يعقبه الشفاء، وقد يسعد صاحبه سعادة لا نظير لها إذا صبر على البلاء، فعَوِضُهما الجنة، بخلاف عمى القلب والبصيرة فإنه لا فلاح بعده ولا نجاح، ولا تعويض ولا رجوع.

لقد كان هذا العمى سببًا في ضلال من ضل من قوم نوح، وهو الذي حرّمهم إِبْصَارِ الحق والاهتداء به.

- { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ }

ذهب جَمْع من أهل العلم إلى أن نبي الله هود عليه السلام واحد من الأنبياء العرب الخمسة المذكورين في كتاب الله، وهم صالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، وخامسهم هو هذا النبي الذي أرسله الله إلى قبائل عاد كما في الآية، وهي القبائل التي كانت تسكن الأحقاف جهة أرض اليمن، والأحقاف جمع حُقُف، وهو الجبل من الرمال.

اعتنى كتاب الله تعالى بقصة هود عليه السلام، وجاء بيانها وتفصيلها في سور الأعراف والمؤمنون والشعراء، فضلاً عن سورة جاءت باسم نبي الله هود عليه السلام، وسورة جاءت باسم مواطنهم، أعني: الأحقاف.

وجاء ذكر قومه وتكذيبهم في سور فصلت والذاريات والقمر والحاقة والفجر، وهذا إن ذلك على شيء فإنما يدل على أن هذه القصة تحوي فوائد وعبراً وعظات ممتدة نافعة لنا، وأنه ينبغي لأهل القرآن أن يتدارسوها ويبلغوا ما فيها، كحال قصص القرآن جميعاً.

يخبر القرآن بقصة واحدة من الأمم البائدة التي حلَّ بها العذاب فأبداها بالكامل، يخبر بقصتهم بعد آلاف السنين، ويذكر لنا صفات هؤلاء القوم من الاستكبار والقوة والبطش، والإغراق في الشهوات والترف والنعم، والكذب على نبي الله ونصب العداء له، أقول: أخبر بكل هذا ليعلم الناس أن هذا القرآن من عند الله، وأن خبراً كهذا لا يكون إلا من عند العليم الخبير، ولعلمهم يهتدون ويتعظون.

كان قوم هود عليه السلام يعبدون الأصنام كذلك، ويتخذونها شريكاً مع الله في عبادتهم، وكانوا من أشدِّ الأمم خُلُقاً وعمارة في الأرض، وكانوا من أشدِّهم في الكفر والعناد، فدعاهم نبيهم إلى خلع الشرك ونبذه وتركه، والإقبال على التوحيد الذي فيه النجاة، والذي يقوم على أنه ليس لنا في هذا الكون إله إلا الله، جل جلال ربي.

ثم أخبرهم أن تقوى الله والخوف مما أعدَّه لأهل الشرك مدعاة إلى توحيده والرجوع إليه، ومدعاة للإيمان باليوم الآخر الذي كذبوا به وأنكروه. قال الله تعالى في بيان مقاتلتهم فيما بينهم عن نبيهم: "أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" [المؤمنون: 35].

إن الكلام الذي قاله نبي الله هود عليه السلام لقومه يشابه الكلام الذي قاله نبي الله نوح عليه السلام لقومه، ومثابه لدعوة الأنبياء جميعاً، ولا عجب في ذلك فإن دعوة الأنبياء واحدة، ورسالتهم واحدة، وغايتهم واحدة، والوحي الذي ينزل عليهم واحد، وإن كان كل واحد منهم يخص قومه بما يناسب حالهم وما هم عليه من الفساد والخراب، ولذلك جاء وصف القرآن بأن عاداً كذبت المرسلين وليس رسولاً

واحدًا مع أن رسولهم هو هود عليه السلام، وما ذاك إلا لأن تكذيب رسول واحد إنما هو تكذيب لجميع الرسل فإنهم جاؤوا بدين واحد. قال الله تعالى: " كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ " [الشعراء: 124].

- { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }

هؤلاء المملأ يتصدرون المشهد على الدوام، ويتوَلَّون كِبَر المدافعة عن الباطل وأهله، ويقولون لنبيهم عليه السلام: أنت سفيه، أي: خفيف عقل لا تقول كلامًا موزونًا يوافق العقل، وأنت كاذب في دعواك، ولست نبيًا ولست مرسلًا.

يستخفون برسول الله عليه السلام، ويفترون عليه، وينسبون إليه خفة الحلم ونقص العقل وما ليس فيه، ويمضون في طغيانهم يعمهون.

هؤلاء هم أكابر المجرمين الذين نجدهم في كل قرية يرسل الله إليها رسولًا، وهم الذين أشار إليهم قول الله: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ جُرْمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ " [الأنعام: 123]، ويبن أنهم يتصدون للدعوة ويسعون في الحد من انتشارها والقضاء عليها، ويأتون بزخرف المقال والفعال لتشويه صورة الدعوة والدعاة.

أهل الكفر والفسق، ورؤوس الشر في الأرض، لا يشعرون أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنه سبحانه يُدبِّر الأمر من عنده، وأنه ناصر أوليائه عليهم، وأن له في هذا الكون سننًا وقدَّرًا لا يدفعه دافع، ولا يقدر عليه أحد، وأن جنده هم الغالبون. قال الله تعالى: " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا " [الإسراء: 16].

وهذا ما حصل مع أكابر المجرمين في مكة التي قدَّر الله تعالى أن يكون نور النبوة منها، فقد قُتل كثير منهم في أول معركة بين الحق والباطل، وتم أسْرُ آخرين، وبعد سنوات كان فتح مكة وتحولت إلى دار إسلام، وغاب ذكرهم وانطوت صفحاتهم، وهذه سنة الله تعالى فيهم، فتأملوا وأقبلوا على العمل، واصبروا.

هذا فضلًا عما ينتظرهم في آخرتهم من مكر الله بهم كما مكروا بالدين، فعليهم من الله ما يستحقون.

والذي يعيننا هنا ألا نحزن من كلامهم، وألا نياس من وفاحتهم في فعالهم، وألا يُقعدنا ذلك عن العمل حتى يقضي الله بيننا وبينهم، إما بهدايتهم وإما بنصرنا عليهم.

- { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

يتلطف بهم في القول، ويتعامل معهم بظاهر كلامهم، ويدافع عن نفسه وعن دعوته ويخبرهم أنه ليس سفيهًا، وأن الكلام الذي يقوله هو الكلام الذي يوافق العقل والفطرة، وهو الكلام الذي جاءهم به من عند الحكيم الخبير العليم.

- { أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ }

يقول نبي الله هوذ عليه السلام لقومه: الدين الذي أرسلت به إليكم قائم على النصيحة والبيان والتذكير، وقائم على الإعذار إلى الله تعالى وإقامة الحجة، وقائم على الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر.

لا تقولوا: دع الخلق للخالق ولا تتدخل في شؤون الآخرين، فإن الله تعالى خلقكم لتعبده وتوحدوه، وأرسلني إليكم لأبين لكم طريق النجاة، وأنصح لكم بكل أمانة وتجرد وإخلاص وصدق، فأقبلوا وتوبوا وارجعوا إلى ما تمليه عليكم عقولكم ويوافق فطرتكم، ارجعوا إلى عبادة الله وحده لتسعدوا وتطمئن قلوبكم وتبقى نعم الله فيكم.

يقول لهم: أنا لكم ناصح في دعوتي إلى التوحيد والكفر بالأنداد، وأنا أمين على وحي السماء بأن أحفظه وأنقله إليكم كما أمرني ربي، فلا أخون ولا أبدل ولا أضيع، ولا أكذب عليكم أو على ربي جل جلاله.

- { أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

لا ينفك أصحاب القلوب المريضة عن التربص بالدعاة والرسل، ولا يتركون فرصة يلجئون منها إلى اغتيال شَخْصه إلا ويفعلون، وتكاد قلوبهم وألسنتهم تتشابه في أدوات إسقاط الدعوة والقضاء عليها وعلى حملتها.

يقولون له: أنت رجل مثلنا، ولا ينبغي أن يكون الرسول بشرًا. قال لهم: وما يضيركم أنه بشر، وقد جاءكم بالمعجزات والدلائل الظاهرات على صدق رسالته، وقد ترى بينكم ومعكم وفيكم، وعلمتم فيه ما علمتم من خصال الصدق والأمانة والعفة والحياء.

{ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } وكأنه يطلب منهم ألا يقولوا ما قاله قوم نوح عليه السلام، وألا يقلدوهم في كلمات السخرية وعبارات التكذيب التي لا تسمن ولا تغني، وألا يُصِرُّوا على الكفر كما أصروا، لئلا يحل بهم ما حل بقوم نوح عليه السلام، ولئلا يهلكهم ربه ويأتي بغيرهم.

يقول نبي الله لقومه: استحضروا في هذا المقام نعمة عظيمة من نعم الله عليكم، ألا وهي أن أنشأكم واستخلفكم في عمارة الأرض من بعد ما أهلك المكذبين من قوم نوح، استخلفكم وجعلكم أصحاب قوة وحضارة وهيمنة على الأمم لينظر كيف تعملون فاتقوا الله واستقيموا خيرًا لكم.

وكانه يستثير فيهم أمرًا هو من خصال البشر، فالناس في طبيعتهم أنهم يشكرون المنعم إذا استحضروا نعمه وأقروا بها، وإذا أعطوها قدرها التي يستحق، فكيف إذا كان المنعم هو الله؟!

{ وَزَادَكُم فِي الْخُلُقِ بَسْطَةً } وهذه نعمة أخرى من نعم الله عليهم، يذكرهم بها ويخاطبهم، فقد كان من نعم الله على قوم عاد أن جعل بنيتهم وأجسادهم طويلة وقوية، ويسر لعقولهم أنواع العلوم، حتى إنهم عمروا أرضهم بأنواع من العمران لا يطيقه أكثر الناس، فحفروا في الصخر وأقاموا البناء الشاهق، والقصور العظيمة التي لا فائدة منها، وقد أمدهم الله بالأنعام والبنين والزروع والثمار حتى صاروا أقوى الأمم وأكثرها نفوذًا وسيطرة، ووصل الحال بهم كما قال الله: " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ " [فصلت: 15].

بل حتى قهروا الأمم من حولهم وجعلوا يظلمون الناس ويضطشون بهم جيروناً واستكباراً، ولكم أن تتأملوا في ارتباط الشرك والكفر بظلم الأمم والناس. قال الله تعالى: " أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِيَّيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ " [الشعراء: 128-135].

ولا يفوتني في معرض بيان قصة نبي الله هود عليه الصلاة والسلام مع قومه عاد، أن أنتفع منها في زماننا، وأن أستحضر ما يريده القرآن منا لما نقرأ حوارات أهل الكفر مع أنبيائهم ودعاتهم، وكأن القرآن يقول لنا: يا أهل الزمان، قد أنعم الله عليكم بنعم لم تكن في أسلافكم الذين مضوا، من أنواع الاختراعات والاكتشافات والنظريات في جميع مجالات الحياة، قد أصبح عيشكم سهلاً في الجانب المادي منه، ترواحون وتجيئون، تقيمون وتسافرون، تأكلون وتشربون، تصلون إلى أنواع العلوم بيسر، صار العالم قريباً منكم كأنه بلد واحد، فهلاً شكرتم المنعم حق الشكر، وهلاً كنتم على قدر هذه النعم من حفظها واستعمالها فيما ينفع، وهلاً جعلتموها في تبليغ الدين وبيان عظمة رب العالمين، وهلاً امتلأت قلوبكم بالخشية وظهرت آثارها على جوارحكم، وهلاً أقمتم الإسلام في العالمين.

{ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } يقول لهم: لا تكونوا من الغافلين الذين يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تفعل الأنعام دون أن ينظروا بعين البصيرة في هذه النعم، فادكروها واجعلوها طريقكم إلى التوحيد، واجعلوها عُدتكم في دنياكم وأخراكم لعلكم تكونون من أهل النجاة أهل الجنة، فضلاً عن نجاتكم من الحزني ومن العذاب الأليم في الدنيا، فضلاً عن دوام هذه النعم وزيادتها في الدنيا. قال الله تعالى: " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ " [هود: 52].

- { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }

هذه لغة استعطاف الجماهير واستمالتهم، وهي لغة التعصب للآباء الذين كانوا على الباطل، ولغة المفلس الذي ليست عنده حجة علمية يدافع بها عن نفسه ومعتقده.

أعاد قوم هود عليه السلام تكذيبه وقالوا له: إن آباءنا الذين نحبهم ونحترمهم، والذين تربينا على أيديهم، والذين ما قصرنا معنا كانوا يعبدون هذه الأصنام، فكيف نترك كل هذا لنطيعك في عبادة إله واحد ونترك كل هذه الآلهة، وكأنهم يقولون له: لا تُسِّقْ آباءنا ولا تنتقص من قدرهم، ولا تفرق اجتماعنا، ولا تأتينا بما لا نعرفه من قبل.

وهذه اللغة أعادها أقوام أهل الكفر في صد أنبيائهم ودعاتهم، حتى قالتها قريشُ لنبينا صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى توحيد الله، كما أخرج أحمد والبيهقي وغيرهما أنهم قالوا: " ما رأينا مثْل ما صَبَرْنَا عليه من هذا الرجل قط، سَقَّةَ أحلامنا، وشتَمَ آباءنا، وعاب ديننا، وفَرَّقَ جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ".

قلت: إن توحيد الله في الأرض عقيدة راسخة لا يُغَيِّرُها فعل الآباء والأمهات، ولا يُضَعِّفُها تسلط قوي أو جبارٍ على أهلها، ولا تقف في وجهها أي عاطفة خادعة ولسان معسول.

في ديننا: لا نطيع آباءنا وأمهاتنا إذا أمرونا بالشرك أو بالمعاصي، ولا نقلدهم في فعل الحرام والذنوب، ولا نعينهم على الباطل والفسق والفجور، ولكن نصاحبهم في الدنيا بالمعروف.

إن حق الله علينا أعظم من كل حق، وإن عظمت في القلوب وخشيته أكبر من كل شيء، فهو الذي خلقنا ورزقنا وأكرمنا، وهو الذي هدانا وسترنا وأنعم علينا بما نرى، وهو الذي شرح صدورنا للخير والتقوى، فكيف نترك إلهًا عظيمًا بيده ملكوت السماوات والأرض ونطيع دعاة الشرك والفجور وإن كانوا أقرب الناس إلينا؟!

{ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } لم يكتفوا بعدم الانقياد والاستجابة، ولكنهم أعلنوا التحدي والتمرد والطغيان، وأظهروا صلابتهم في الباطل والكفر، وقالوا له كما قال من قبلهم ومن بعدهم من

الأمم المكذبة: هات ما تعدنا به من العذاب والاستئصال، وذهاب الأهل والعيال، هات ما تعدنا به فلسنا مُصدقين ولا خائفين.

قال الله تعالى: " قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ " [هود: 53].

- { قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ }

قد وقع عليكم من ربكم، أي: قد وجب أن ينزل بكم عذاب الله وبأسه ما دمتم كذلك، وحقَّ عليكم قدر الله الذي ينزل بأمثالكم.

يقول هود عليه السلام لقومه عاد: مقولتكم وإصراركم على إغلاق عقولكم لن يأتيكم بخير، ولكن سيقع عليكم من ربكم رجس: أي: سخط وعذاب، وسيقع عليكم من ربكم غضب فلا ندري كيف يكون انتقام الله منكم.

وفي موضع آخر من كتاب الله تعالى أخبرهم أنه عبد مثلهم لا حول له ولا قوة، وأن علم ما سيأتيهم عند الله تبارك وتعالى، وأنهم ما قدروا الله حق قدره وجهلوه بعد أن جاءهم البيان والبلاغ. قال الله تعالى: " قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ " [الأحقاف: 23].

{ أَتُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } هذه أصنام أنتم من صنعها من الحجارة، وأنتم من أطلق عليها الأسماء التي تظنونها عظيمة، وما هي والله بشيء، وما أنزل الله بها من سلطان، يعني: لم يأمركم الله بما تفعلون، وليس لكم حجة ودليل على أنها تملك لكم من أنواع النفع والضرر شيئاً.

إنكم تحتاجون في أمر يظهر للقاصي والداني بطلانه وسذاجته، فأصنامكم هذه لا تنفع ولا تضر ولا تقربكم من الله خالقكم، وأسمائها التي توافق عليها آباؤكم ليس لها أي حقيقة أو أثر في الواقع، وأنتم مقلدون ناعقون، تجادلون عن هوى وتعصب مقيت ليس فيه برهان من عند الله العظيم.

{ فَأَنْتَظِرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ } لقد جرت سنة الله في خلقه أنه يمهّل ولا يهمل، وقد ظهر في كلامكم أنكم لن تؤمنوا، ولن تستجيبوا، فترقبوا ما سينزل بكم، إني عبدٌ مثلكم لا أعلم من الغيب شيئاً. اعملوا ما شئتم، وترقبوا حكم الله فيّ وفيكم، وقضائه بيني وبينكم، وانتظروا عذابه وانتقامه وأنتم هازلون مرتابون، وأنا أنتظر نصره وعظيم ثوابه موقناً معظماً.

لا تظنوا أن نبي الله هوذا عليه السلام اهتزّ أمام بطشهم وجبروتهم وتخويفهم وتحديهم، أو اهتزّ أمام وصفهم له بالجنون وقلة العقل، بل كان مستمداً قوته من الله فكان أقواهم، وتحداهم بأن يضروه بشيء لم يكتبه الله أو يقضي به، كما في قوله جل وعلا: " قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " [هود: 54-56].

- { فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا ذَاوِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ } -

لعلكم تستحضرون معي أن دعوة الأنبياء في أقوامهم على الغالب تمتد لعشرات السنين، وبعضهم لمئاتها، وتستحضرون معي تفاصيل هذه السنوات الطويلة من سعي الأنبياء ومن معهم من الدعاة في صلاح قومهم، وتقديم كل سبب يستطيعونه في ذلك، وتستحضرون معي حجم الإيذاء الذي يتعرضون له من الملاء ومن أعوانهم، وتستحضرون معي صبرهم على كل ذلك مع اليقين الذين حملوه وجعلوه بالله العظيم. جاء نصر الله للمؤمنين ولنبي الله هود عليه السلام، وحانت ساعة الفصل بينهم وبين قومهم، فأكرمهم الله بالنجاة من الرجز والغضب والعذاب الأليم، وحفظ الله نبيه والمؤمنين من كل ما ستعلمونه في تمام

التفسير، فتأملوا واسألوا الله من فضله. قال الله تعالى: " وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لُجَيْنًا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْيَيْنَاهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ " [هود: 58].

جاءت النجاة لأهل الإيمان والدعوة رحمة من الله كما في الآية، فهو الذي هداهم وشرح صدورهم للتوحيد والطاعة، وهو الذي قوّاهم في دعوتهم وسددهم وأعانهم على الوقوف في وجه هؤلاء الملاء المستكبرين الذين ييطشون بغيرهم، وهو الذي أبعد عنهم أثر الريح الدّبور التي جاءت بأشد أنواع العذاب.

وأنزل الله بأسه بالقوم المجرمين المكذبين الضالين، الذين امتنعوا عن الإيمان بعد كل هذه الدعوة، والذين آمنوا مكر الله بهم وظنوا بالله ظن السوء، والذين استعملوا نعم الله في سخطه، فكانوا من الخاسرين.

قطع الله دابرهم، أي: أهلكهم عن بكرة أبيهم فلم يُعقب لهم نسلاً.

ولقائل أن يقول: وما هو الرجز الذي نزل بقوم عاد ؟ وكيف عاقب الله من كذب بنبيه هود عليه السلام ولم يكن من المؤمنين ؟

والجواب باستقراء ما في القرآن والسنة يأتيكم فيما يأتي:

1- أمسك الله عنهم المطر من السماء حتى جهّدهم ذلك وأتعبهم، وجعلهم يفكرون فيما يُخرجهم مما هم فيه من خشية الهلاك، وكان الناس في ذلك الزمان يفزعون إلى البيت الحرام إذا حزّ بهم أمر وإن كانوا مشركين، ثم يدعون الله هناك.

صحيح أن هناك خلافاً عند أهل العلم والتاريخ في بناء الكعبة ووجودها في ذلك الزمن، ولكن المتفق عليه بينهم أن البيت الحرام كان معلوماً للناس وله مكانة عندهم، وكانت الطاعات والقربات موجودة عنده.

وقد أخرج الإمام أحمد والترمذي وغيرهما قصة حسن إسنادهما غير واحد من أهل العلم، عن الحارث البكري رضي الله عنه، والذي سار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة حتى قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد⁴⁰، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وما وافد عاد

⁴⁰ هو مثل يُضرب لمن اكتسب هلاكاً وشرّاً من حيث يُرجى الخير والبركة، كما حصل في قصة السحابات الآتية. وبطريقة أخرى: مثل يُضرب لمن تسبب في أمر كان فيه الضرر العظيم وهو لا يشعر.

" ؟ فأجابه بذكر تفاصيل فيما جرى في قوم عاد يوم ذهبوا يستسقون بعد القحط الذي أصابهم، وفيها أن الوافد الذي اختاروه ليذهب من أرض عاد إلى المكان المعظم عندهم ليستسقي ويدعو بنزول المطر⁴¹ كان اسمه " قَيْلُ بن عَنَز "، وكان معه آخرون، وكان قد مرَّ في طريقه برجل اسمه بكر بن معاوية⁴² فسقاه خمراً وغنت له الجواري، فأعجبه ذلك حتى غفل عن غايته التي ذهب من أجلها، وأقام عنده شهراً كاملاً يشرب الخمر ويسمع غناء جاريتين يُقال لهما: الجرادتان، ثم أكمل طريقه إلى مكانهم المعظم، ودعا هناك وقال: اللهم إني لم آتكَ لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه، فاسقِ عبدك ما كنت مُسْقِيه، واسقِ معه بكر بن معاوية، يشكر له الخمر التي سقاه، فُرفع له سحابات، فقيل له: اخترْ إحداهن، فاختر السوداء منهن، فقيل له: خذها رماداً رَمْدَدًا⁴³، لا تذر من عاد أحداً. قال أحد رواة الحديث: فبلغني أنه لم يُرسل عليهم من الريح إلا قدرُ حلقة الخاتم.

2- أرسل الله عليهم ريحاً من عنده، فظنوها خيراً لهم، وفرحوا واستبشروا وحسبوا أنها جاءتهم بالمطر والسقيا، وقالوا: " هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا " [الأحقاف: 24]، ولا يدرون ما يحمل السحاب لهم فيما جاء في قول الله جل وعلا: " بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ " [الأحقاف: 24].

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نُصِرَتْ بالصَّبَا، وأهلك عَادٌ بالدَّبُور " أي: نصرت يوم الأحزاب بريح الصبا، وهي التي تهب من جهة مشرق الشمس ولها فوائد ومنافع، وقد أرسلها الله على الأحزاب باردة فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم، أما الدَّبُور فهي الريح العاصفة التي تهب من جهة مغرب الشمس، والتي تكون عذاباً ووبالاً على أصحابها ولا نفع فيها، وهي التي كان بها هلاك قوم عاد.

3- جاء في وصف الريح التي أرسلها الله عليهم أنها ريح عقيم، لا تأتي على شيء إلا جعلته كالريم، كما في قول الله تعالى: " وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا

⁴¹ وكان الناس في ذلك الزمن إذا نزل بهم جهد وبلاء يطلبون الفرج عند بيت الله الحرام، فيجتمع بمكة ناسٌ كثيرٌ شتى مختلفاً أديانهم، وكلهم مُعَظَّمٌ لمكة معترفٌ بحرمتها. قال بعض الشراح: لم تكن الكعبة قد بنيت، ولكنهم يعلمون تعظيم المكان، فكانوا يدعون قريباً منها عند جبالها.

⁴² وكان سيِّداً في قومه العماليق الذين كانوا هم سكان مكة.

⁴³ (رماداً) الرماد معروف، (والرَّمْدُ): أدق ما يكون منه وأكثر ما يكون محترقاً.

جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ⁴⁴ " [الذاريات: 41-42]، أي: هي ريح عقيم عن كل خير، لا تنفع في تلقيح الشجر، ولا تأتي بالأمطار، ولا نفع فيها.

وجاء في وصفها أنها ريح صرصر عاتية، وذلك في قول الله: "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ" [الحاقة: 6]، وصرصر، أي: لها صوت شديد. وعاتية، أي: قوية شديدة في هبوبها، وقد ذكر عدد من أهل التفسير أنها كانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على رأسه حتى ينفصل الرأس عن الجسد، كما يحصل في عود النخل الذي انقطع من أصله ومُنْبَتَه ثم وقع وسقط. قال الله تعالى: "تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ" [القمر: 20].

وجاء في وصفها أنها بقيت فيهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، أي: مستمرة لا تتوقف ولا تنقطع حتى هلكوا جميعاً. قال الله تعالى: "سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ" [الحاقة: 7-8]،

وجاء في وصفها أنها دخلت عليهم في كل مكان فلم تُبق منهم أحداً، وأنها تدمر كل شيء تمر عليه بأمر ربها، إلا مساكنهم وبيوتهم فإنها بقيت ولم تذهب ولم تُهدم. قال الله تعالى: "تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ" [الأحقاف: 25].

4- ودلت الآيات كذلك على أن الله تعالى لعنهم في الدنيا فأخزاهم وألبسهم ثوب الفضيحة والذلة، وستكون لهم لعنة يوم القيامة بطردهم من جنة الله ورحمته، ثم هم في النار خالدون. قال الله تعالى: "وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ" [هود: 60].

وكان السياق القرآني هنا ينادي على قريش التي بدأت فيها دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويقول لهم: إليكم أخبار أقوام تعرفونها، فاعتبروا منها، وآمنوا بنبينا، الرحمة قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب من قبلكم.

وكان السياق القرآني يخاطب جميع الناس، ويقول لهم: لا تصدوا الدعوة إلى الله عن دعوتهم، ولا تنصروا أهل الكفر وملئتهم، ولا تتركوا منهج الله ودينه وشريعته وتبتدعوا، ولا تغفلوا عن غاية خلقكم وعيشكم ووجودكم، وقوموا بحق الله عليكم من التوحيد والعمل والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. قال الله تعالى: "

⁴⁴ أي: كالنبت إذا يبس، وأصل الرميم: العظم البالي المتقادم. وقال ابن عباس: كالرميم: كالشيء الهالك.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ⁴⁵ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ " [الفجر: 6-8].

وسبحان الله، كيف كان صلى الله عليه وسلم يعيش مع الآيات التي يقرؤها ويُعلمها للناس، حتى وصل الحال به إلى الخوف على أمته من الريح إذا هبَّت وعصفت، وكان يدعو الله كلما جاءت لما نزلت عليه آيات قصة عاد. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أنها قالت: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، قالت: وإذا تحيَّلت⁴⁶ السماء، تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت، سُري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرِّئُنَا } [الأحقاف: 24] ".

ختامًا: ذهب قوم عاد، واستبدل الله بهم قومًا غيرهم، وبقيت قصتهم فينا وبيننا، بقيت عظامها وهداياها لنحذر أسباب الاستبدال والاستئصال.

والقرآن العظيم خصَّ هذه الأمة ببيان أسباب استبدالها واستئصالها، وحذرها من خصال لو فعلتها لاستوجبت سخط الله وعقوبته، ولذهب الله بنا وجاء بمن يقوم بقائمة هذا الدين.

أسوق إليكم آياتٍ من كتاب ربنا تدل على ما أسلفت، فتأملوا:

قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " [المائدة: 54]، وقال سبحانه: " إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " [التوبة: 39]، وقال جل وعلا: " هَآنَتْكُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ " [محمد: 38].

⁴⁵ وإرم هو اسم القبيلة قبيلة عاد، وعاد وإرم من أجداد هود عليه السلام كما ذكر غير واحد من المفسرين.
⁴⁶ يعني: غيبت

- { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

هنا قصة من قصص أنبياء الله ورسله مع أقوامهم، لتقفوا معها وتنظروا في مواعظها وفوائدها التي لا تكاد تنقضي، فأما المؤمنون فإنهم يدركون بها حقيقة الطريق إلى مرضاة الله وجنته، ويقفون مع العوائق التي تعيش معهم وينتصرون عليها، ويُبصرون الحيل التي صرفت كثيرًا من الناس عن طريق الدعوة لجهلهم وضعف صلتهم بالقرآن العظيم وما فيه من الحكيم.

وأما الكافرون فإن حكاية القرآن لقصص الأقوام من قبلهم من شأنه أن يفتح قلوبهم وعقولهم، ومن شأنه أن يخوفهم من بقائهم على الكفر، ومن شأنه أن يُثبت لهم أن القرآن كلام الله ورسالته للعالمين لأنه لا يعلم هذا الخبر إلا الله ولا يخبر به إلا رسول، خاصة إذا كانوا يعلمون مساكن القوم الذين كذبوا بآيات الله.

أرسل الله سيدنا صالحًا إلى ثمود، وهو أخوهم، أي: واحد منهم ونشأ فيهم ويُنسب إليهم، أرسله ليأمرهم بعبادة الله وحده وترك الباطل الذي أقاموا عليه وورثوه من آبائهم، فاستمر بأمر الله ونادى فيهم أن هلموا إلى التوحيد الذي أقام الله الأرض والسموات من أجله، وأرسل جميع الرسل من قبلي به، وسيرسل من بعدي به. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ " [النحل: 36]، وقال سبحانه: " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ " [هود: 61].

وكان مما طلبه منهم ألا يطيعوا ساداتهم وكبراءهم الذين يضلونهم وإن زعموا أنهم حريصون عليهم. قال الله تعالى: " وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ " [الشعراء: 151-152].

دَكَرهم عليه السلام بتقوى الله، وبين لهم أنه أمين على وحي السماء وليس كاذبًا، وبين لهم أنه لا يريد من دعوته هذه أجرًا ولا مغنمًا في الدنيا، بل يريد أن ينجو بنفسه وبهم من سخط الله وعذابه. قال الله تعالى: " كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ " [الشعراء: 141-145].

سيدنا صالح عليه السلام واحد من أنبياء الله في العرب العاربة ممن كانوا قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام كما قال غير واحد من أهل التاريخ والسير، وكان عليه الصلاة والسلام ذا قدر ومكانة في قومه، كما دل على ذلك قول الله تعالى على أحد أوجه التفسير: " قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ " [هود: 62].

أما ثمود فهي قبيلة من القبائل الكبيرة التي كانت بعد قوم عاد، ومساكنهم معلومة ومشهورة فيما بين المدينة المنورة والشام، وتسمى الآن مدائن صالح، وكانت لهم حضارة اتسعت وعظمت، وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان التي صنعوها بأيديهم وعظموها كما ذهب إلى ذلك أهل التفسير، وقد مرَّ نبينا صلى الله عليه وسلم على قراهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة.

{ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } يا قوم: جئتمكم بحجة من الله تثبت لكم أنه أرسلني من عنده، وهذه الحجة أنتم من طلبها لتؤمنوا، فإليكموها كما طلبتم لئلا يبقى لكم عذر، إليكموها من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأكرمكم، إليكموها معجزة لا يستطيع بشر أن يأتي بمثلها فهي ليست من عندي ولا من فعلي ولا من كسبي، وهي على خلاف سنن الله في خلق الإبل وصفاتها.

طلب قوم صالح عليه السلام معجزة منه بعد أن كذبوا برسالته، وجادلوه ووصفوه بما لا يليق. قال الله تعالى: " قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " [الشعراء: 153-154].

قال بعض أهل التفسير: طلبوا منه أن يُخرج لهم ناقة من الصخر وأن يحييها الله، وقاموا بتعيين صخرة في ناحية الحجر لتخرج منها الناقة، فأخذ عليهم العهود والمواثيق لئن أجابهم الله وأخرج لهم الناقة ليؤمنن وليكونن من المهتدين.

ومن أهل التفسير من قال: إن الله تعالى شقَّ لهم الجبل فخرجت منه ناقة عظيمة كما طلبوا ووصفوا.

أجاب الله طلبهم وخرجت لهم الناقة، وجعلها آية لهم ليؤمنوا، وقال لهم: ليس عليكم من مؤنتها وطعامها شيء، فلا تمسوها بسوء يُعيقها عن الرعي، ولا تجرحوها ولا تقتلوها، ولا تعترضوا طريقها، فإن مسستموها بسوء فقد فتحتم على أنفسكم أبواباً من سخط الله وغضبه لا تطيقونها، وإن خالفتم أمر الله فيها فائذنوا بعذاب مؤلم موجه كما في الآية هنا، وائذنوا بعذاب عظيم كما في قول الله: " قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ هَا شَرِبْتَ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ " [الشعراء: 155-156]، وائذنوا بعذاب قريب كما في قول الله: " وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ " [هود: 64].

واعلموا أن إضافة لفظة (الناقة) هنا إلى لفظ الجلالة (الله) إضافة تكريم وتشريف، كقولنا: الكعبة بيت الله، وعيسى كلمة الله، فيكون المعنى: { هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ } أي: هذه ناقة شريفة فاضلة فاحفظوا أمر الله فيها.

وفي تفصيل ما جرى في تعاملهم مع آية الله التي عاشوها ورأوها بأعينهم، أن سيدنا صالحاً عليه السلام طلب منهم بوحى من الله أن يتقاسموا الشرب بينهم وبين الناقة من البئر الكبيرة التي تحوي ماء، وأن يتناوبوا على الشرب منها فيكون الشرب لهم يوماً ويكون للناقة يوماً، وهذه الناقة ستنتفعهم باللبن الكثير والوفير فيشربون منها كما يشاءون. قال الله تعالى: " وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ " [القمر: 28]، وقال سبحانه: " قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ هَا شَرِبْتَ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ " [الشعراء: 155].

وقد كانت عندهم عيون متعددة ولكنها كانت لأرضهم ولماشيتهم وليست لشراهم، بخلاف هذه البئر التي كانت بينهم وبين الناقة.

ولما نزل نبينا صلى الله عليه وسلم أرض ثمود هو وأصحابه أنكر عليهم أنهم أخذوا ماء شربهم وعجنوا عجينهم بماء من غير بئر الناقة، ثم أمرهم بإراقتهم والاستقاء من بئر الناقة. أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحِجْر في غزوة تبوك، أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا قد عجنّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء ". وفي رواية " أنه أمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تَرِدُّها الناقة ".

وقد اتفق الفقهاء على جواز الوضوء من بئر الناقة وطهارة مائه، واختلفوا في جواز الوضوء من آبار ثمود الأخرى، فالجمهور على التحريم، والشافعية على الكراهة.

ثم إن القائلين بالتحريم اختلفوا في نجاسة الماء الموجود في آبار ثمود الأخرى، فالمالكية على نجاسته خلافاً للجمهور.

- { وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }

يظهر من كلام سيدنا صالح عليه السلام لقومه أنهم كانوا على علم ودراية بما وصل إليه قوم عاد من قوة وحضارة وما حصل معهم، فجعل يُذكرهم لعلهم يتذكرون.

يذكرهم بأن الله استخلفهم من بعدهم في القوة والحضارة والعمران، وأنزلهم في أرض الحِجْر وما حولها لينظر كيف يعملون، وأن الله مكَّن لهم في الأرض وسهَّل لهم أسباب ما يريدون ويتمنون، وآتاهم من القدرة والرزق ما جعلهم يبنون قصوراً كثيرة وجميلة وعالية في سهول أرضهم المستوية والمبسوطة، بل إن الله تعالى سهَّل عليهم نحت الجبال والتنقيب وصنع البيوت فيها، والتي لا زال بعضها شاهداً على إبداعهم في صنع البناء وهندسته حتى الآن، ومثل هذه النعم ليس لها إلا أن يحسنوا شكرها، لا أن يعيشوا في الأرض فساداً بكفرهم وشركهم وظلمهم لمن حولهم، ولا أن يخربوا الأرض بعبادة الأصنام والغفلة عن الخالق العظيم الواحد الأحد، ولا أن ينشروا المعاصي التي تفسد العيش على أهل الأرض وتستجلب لهم الخراب والدمار.

وكان مما ذكَّروهم به نعمة الأمان التي أكرمهم ربهم بها فلا يخافون شيئاً، وذكَّروهم بنعمة سعة الرزق وتعدد العيون والآبار النافعة لزرعهم وماشيئهم، وهذه زروعهم وثمار نخلهم شاهدة على هذا، ثم عاتبهم على بَطَرهم وتجبرهم حتى تنافسوا في نحت البيوت بين الجبال الصعبة، نحتوها بإتقان وحِدْق، نحتوها للرفاهية والتباهي فقط. قال الله تعالى: " أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا [الشعراء: 146-150].

- { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ }

تمر الدعوة بمواقف تحتاج إلى ثبات أهل الإيمان أمام أعداء الدعوة وجيشهم وآلتهم، وهذا الثبات لا يوفق إليه إلا من امتلأ قلبه بحب الله وتعظيمه والشوق إلى لقائه، وإلا من كان اليقين بنصر الله والتمكين له يملأ قلبه ووجدانه، وإلا من أدرك حقيقة الدنيا وعلم أن سلعة الله غالية وأن الطريق إليها محفوف بالمكاره، أعني الجنة.

فريقان يختصمان في صدق الرسالة وصحتها، فريق ينكرها ويسعى للقضاء عليها وإيقافها، وفريق يمضي في نشرها والدفاع عنها. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ " [النمل: 45].

استكبر أهل الكفر على أهل الإيمان واستضعفهم، وسعوا في أذيتهم وتهديدهم ووعيدهم والاستعلاء عليهم لعلمهم يكفرون، ثم امتحنوهم في إيمانهم قائلين: هل تصدقون بالرسالة وتؤمنون بمن أنزلت عليه ؟ وهل إيمانكم هذا عن علم ويقين أم هو إيمان التقليد الأعمى والضلال المبين ؟ فأجابوا إجابة ظاهرة بينة لا مدهانة فيها ولا تنازل، وتكلموا بكلام يدل على ما تحمله قلوبهم من يقين وصدق مع الله، وقالوا: آمنا وصدقنا واتبعنا، ورضينا بخالقنا وسيدنا إلهًا واحدًا لا شريك له، وكفرنا بأصنامكم وطواغيتكم.

حاول أهل الكفر أن يلقوا الشك في قلوب أهل الإيمان وحملة الدعوة، وحمل راية ذلك منهم الرؤساء والأشراف الذين تكبروا على الحق وتعاضموا في أنفسهم، والذين استذلوا أتباعهم وقومهم كحال باقي الأمم، والذين يمتنعون في الغالب عن الإيمان لأنه يشق عليهم أن يمثلوا للأوامر والنواهي التي تضبط شهواتهم، والتي تحول دون ظلمهم وتسلطهم على العالمين.

انظروا وتأملوا في كثير من أتباع الأنبياء في أول دعوتهم وهدايتهم للناس، إنهم الضعفاء وليس السادة والكبراء، ولكن هؤلاء الضعفاء في عدد من قصص الأنبياء لم يلبثوا إلا أن يصبحوا هم الأقوى بإيمانهم وصبرهم، ويكفي في سيرة أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم أسوة وقودة.

ولا تظنوا أن كل الضعفاء يسارعون في الإيمان، بل يبقى كثير منهم على الكفر وحراسة أسياده وخدمتهم، ويبقى كثير منهم تحت الذلة والمهانة من أجل ثمن بخس دراهم معدودة، ولذلك جاء في الآية { لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ }.

- { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } -

يرددون كلمة الكفر المرة بعد المرة، وهذا علامة على غيظهم وحقدهم ورغبتهم في الانتقام، وعلامة على صعوبة الحال التي وصلوا إليها، قالوا بلغة التحدي والاعتزاز بالباطل: إنا بهذا النبي وهذه الرسالة جاحدون منكرون.

وتأملوا في إشارة نفيسة تحملها الآية هنا، إشارة نأخذها من جوابهم للذين آمنوا، والذي تقرأ فيه تعاضلهم في نفوسهم، واستكبارهم عن أن يشاركوا الضعفاء إيمانهم، فكأنهم يقولون: لن نقبل بالحق، وسننصب رايات العداة له لأنكم أنتم من اتبعه، وأنتم من الضعفاء ولستم مثلنا، وهذا يعني أن الاستعلاء قد بلغ من نفوسهم مبلغًا عظيمًا، فهم لم يكفروا بعد أن تأملوا دلائل النبوة وما جاء به نبيهم، ولكنهم كفروا بسبب التعصب والجهالة واتباع الهوى، وبسبب حرصهم على مكانتهم الاجتماعية، وبسبب شعورهم بالفوقية والكبرياء، فكان خسراهم كبيرًا.

ولكم أن تتأملوا في كلام آخر قالوه في حق نبي الله لما جاءهم بالدعوة إلى التوحيد، ولما دعاهم إلى ترك كل معبوداتهم التي ضلوا فيها، وأمرهم بعبادة من خلقهم وسواهم ورزقهم. قال الله تعالى: " كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَوْلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ " [القمر: 23-25]. قال الله تعالى في بيان خورهم وضعفهم وأنهم لا يملكون من الأمر شيئًا: " سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ " [القمر: 26].

- { فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } -

هذه الآية فيها بيان لما حصل منهم قبل نزول العذاب، أبينه في المحاور الآتية:

1- استجاب قوم صالح عليه السلام لما أمرهم به من أمر الناقة أول الأمر ووفوا بالعهد، وأقامت الناقة فيهم مدة من الزمن تشرب الماء وترد الزرع وترعى الشجر ولا يتعرضون لها ولا يهيجونها، تشرب يوماً ويشربون يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبون فيملؤون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم.

اقتصروا في هذه المدة على مجادلة نبي الله في الدين والعقيدة مجادلةً يغلب عليها التلطف في العبارة والرفق واللين أحياناً، وتكون فيها الغلظة ونسبة السوء إليه أحياناً أخرى.

2- ثم إن قوم صالح طال عليهم ذلك، واشتدَّ تكذيبهم وأرادوا أن يستأثروا بالماء دون قسمةٍ مع الناقة، فاتفقوا على قتلها، وانبرى أشقى القوم وعقر الناقة ونحرها وقتلها.

وهذه أمانة على عجزهم عن الحاجة والاستدلال، هم ظنوا أنه إذا زالت معجزة نبي الله صالح وهلكت انصرف عنه من حوله، والتف حولهم أتباعهم وزادت قوتهم.

ومما رواه أصحاب السير والتاريخ أن الناقة كانت يومَ شربها إذا وضعت رأسها في البئر لا ترفعه حتى تشربه جميعاً، ثم يجلبون منها الكثير الكثير من اللبن، ثم في يومهم يأخذون الماء الذي حواه البئر ويأخذون زيادة عليه ويدخرون ليوم شرب الناقة.

ويذكرون أن الناقة كانت كبيرة إذا رأتها أغنامهم وأبقارهم وإبلهم هربت منها، وكان ذلك يشق عليهم كما يشق عليهم حرمانهم يوماً من ماء البئر، حتى أجمعوا على عقرها والتخلص منها.

رجل واحد من قوم ثمود خفَّ عقله وانتكست فطرته، فتجرأ على أمر الله، وحمل كبر قتل الناقة وانبرى لذلك، فكان عاقبة أمره وأمر كل من رضي عنه أو سكت حُسراً. قال بعض أهل التفسير: هذا الرجل اسمه قدار بن سالف، وهو ما لم يثبت في كتاب أو سنة. قال الله تعالى: "فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ" [القمر: 29]، وقال سبحانه: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا" [الشَّمْس: 11-12]، وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه، قال: "خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها فقال: { إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا } انبعث لها رجل عزيز عارم⁴⁷ منيع في رهطه، مثل أبي زمعة⁴⁸."

⁴⁷ وهو الشرس المؤذي المفسد الخبيث.

⁴⁸ وَهُوَ الْأَسْوَدُ بْنُ الْمَطْلَبِ وَكَانَ ذَا عِزٍّ وَمَنْعَةٍ فِي قَوْمِهِ.

انبرى هذا الشقي بتخطيط منه ومن عدد منهم، انبرى بمباركة قومه وسكوتهم جميعاً، ولذلك نسب القرآن هذا الفعل لقومه جميعاً مع أن الذي عقروها واحد. قال الله تعالى: " فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا " [الشمس: 14]، وقال سبحانه: " وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا " [الإسراء: 59].

أقول: لا تظنوا أن السكوت عن فشو المنكرات بيننا هيئاً، ولا تحسبوا أن الفجور والفحش بعيد عنا وعن أبنائنا وبناتنا، واعلموا أن شؤم الحرام لا يقتصر على أصحابه، بل يمتد إلى الصالحين الذين رأوا المنكر ولم يتحرك فيهم شيء ولم ينكروا.

3- أظهر قوم صالح بعد أن عقروا الناقة تكذيبهم بالآية، وعتوا عن أمر ربهم، أي: تجاوزوا الحد في الكبر والصدود وتجبروا، ثم أعلنوا بقاءهم على الكفر، ونصبوا العداء لنبيهم وللمؤمنين الذين معه على قتلهم، وتحذوه أن يأتيهم بالعذاب الأليم الذي لا يخافونه ولا يحسبون له حساباً.

سبحان الله، كيف يستعجلون عذاب الله ولا يخافون من الجبار جل جلاله، وكيف أحاطت بهم خطيئاتهم حتى أعمت بصائرهم، وكيف خسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم خسراناً مبيئاً، ولذلك أنكر عليهم نبيهم ودعاهم للاستغفار. قال الله تعالى حكاية عنه: " قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " [النمل: 46].

أخرج أحمد بسند قواه أهل العلم عن جابر رضي الله عنه، قال: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر، قال: " لا تسألوا الآيات، وقد سألتها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفَجِّ، وتصدر من هذا الفَجِّ ⁴⁹، فَعَتُوا عن أمر ربهم، فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً، ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة أُمِّدَ الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله "، قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: " هو أبو رِغَال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ".

سبحان الله، هداهم ربنا إلى ما يصلحهم ويسعدهم، وإلى ما تكون به النجاة، فأرسل إليهم رسولاً وآتاه معجزة يعجز عنها البشر، ويعلم كل من رآها أنها لا تكون إلا من العظيم القدير، ولكنهم أبوا إلا الصدود والعناد والتحدي. قال الله تعالى: " وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ

49 أي: الناقة تروح من طريق وترجع من طريق آخر.

صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " [سورة فصلت: 17]، وسبحان الله كيف أمهلهم مع إقامتهم على الكفر والظلم، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

4- ولا تظنوا أن طغيانهم وعتوّهم توقف عند هذا، بل امتد إلى أن يتطهروا برسولهم وبالمؤمنين وينسبوا الشر إليهم، ويزعموا أنهم سبب ما يصيبهم من الشرور والضرر. قال الله تعالى عنهم: " قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ " [النمل: 47].

واعلموا أن هذه عادة رؤوس الفسق والكفر الذين يوهمون أتباعهم أنهم كانوا مجتمعين، وأن الدعاة إلى الله هم الذين أوجدوا بينهم الاختلاف والعداء، كما ذكر ربنا تشاؤم قَوْمٍ فِرْعَوْنَ بسيدنا موسى عليه السلام: " فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ " [الأعراف: 131]، وكما تشاءم أهل القرية التي أرسل الله تعالى لها رسله كما في قول الله تعالى: " قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ " [يس: 18]، وكما فعل المنافقون بنبينا نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا إذا أنعم الله عليهم بنعمة الولد والرزق والسعة في العيش حمدوا الله على ذلك، وقالوا: هذا دين خير، والله أكرمنا وأعطانا من فضله لأن لنا قَدْرًا عنده، ولكنهم كانوا إذا ضَيَّقَ عليهم في الرزق، ومات لهم الولد، وحصلت معهم البلايا التي لا يريدونها في زرعهم ومواشيهم، وهُزِمُوا من أعدائهم، أقول: كانوا إذا حصل ذلك معهم يتطهرون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويتشاءمون به، ويجعلون سبب ما حصل معهم اتباعهم له وإقبالهم عليه واقتداءهم به وتركهم لدينهم، كما دل على ذلك قول الله تعالى: " وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا " [النساء: 78]، سبحان الله كيف تشابحت قلوبهم بالكفر فتشابحت أقوالهم لأنبيائهم ومصلحيهم.

عقر قوم صالح عليه السلام الناقة وسألوه عذاب الله، وتشاءموا به وبمن ثبت معه، ثم وصلوا إلى مرحلة أرادوا فيها قتل نبيهم عليه الصلاة والسلام والتخلص منه، وكان ذلك على يد تسعة أفراد منهم استمالوا الناس وقاموا فيهم بمنعوتهم من الإيمان ويصدونهم عن التوحيد، وكانوا قادة في الإفساد ورؤوساً في الشر، وهم الذين هُمُوا بقتل نبيهم وتآمروا عليه. قال الله تعالى: " وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " [النمل: 48-49].

تسعة أفراد من ثمود كانوا سببًا في ضلال قومهم، وكانوا يفسدون في الناس ويحاربون كل فضيلة وإصلاح، والمصيبة أن قومهم أطاعوهم وسكتوا عنهم وباركوا سعيهم في عقر الناقة والكفر بنبي الله صالح عليه السلام.

قلت: ماذا نقول في زماننا وبلادنا وأوطاننا ! والتي كثر فيها المفسدون وتعددت مشاربهم، وارتفعت فيها راياتهم وانتفشوا، واجتمعوا على إضعاف الدين وإذهاب هيئته من القلوب والعقول، أقول ذلك وصفاً للحال لا استسلاماً، فيقيننا بالله العظيم، وحمة الدين والرسالة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لن يهدأ لهم بال، ولن يغمض لهم جفن حتى يروا راية الدين عالية مهيمنة كما يحب الله ورسوله.

- { فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }

أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه أن أخبرهم أن العذاب سيحل بهم بعد ثلاثة أيام من عقرهم للناقة فأخبرهم، ثم جاءتهم الصيحة بعد ثلاثة أيام فهلكوا. قال الله تعالى: " فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ " [هود: 65].

يذكر أهل التفسير أن صالحاً عليه السلام لما أخبرهم بذلك سخروا منه، فأخبرهم أن علامة ذلك أن يُصبحوا في غداة أول يوم ووجوههم مصفرة، ثم تكون حمرة في ثاني يوم، ثم تكون مسودة في الثالث، فلما أخبرهم بذلك قال التسعة من قومه: هلم فلنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً فيكون قد مات قبلنا، وإن كان كاذباً نكون قد ألحقناه بالناقة، ولكنهم لم يُمكِّنوا منه وحفظه الله وهرب منهم، وحصل معهم جميع ما أخبرهم به عليه السلام حتى جاءتهم صاعقة عذاب الهون والصغار والدمار والبوار.

وقد وصف القرآن العظيم العذاب الذي نزل بهؤلاء الفجرة الكفرة المكذبين المعاندين بأوصاف متعددة تدلنا على عظم ما نزل بهم، فمن ذلك: قول الله تعالى: " وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ " [هود: 67-68]، وقوله سبحانه: " وَمَكْرُؤُهُمْ مَكْرًا وَمَكْرُؤُهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَبَلَكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " [النمل: 50-52]، وقوله جل وعلا: " وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ

الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " [سورة فصلت: 17]، وقال تبارك اسمه: " إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ " [القمر: 31]، وقال عزَّ من قائل: " فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ " [الحاقة: 5]، وقال جل جلاله: " فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْهَا " [الشمس: 14].

فهذه الآيات تدل على أن عذابهم جمع بين الصعقة من فوقهم وبين الرجفة من تحتهم، فأما الصعقة فإنها كانت طاغية شديدة القوة، وصَحَبَتْهَا صَيْحَةٌ مُدَوِّيَّةٌ، أي: صوت من السماء مُهْلِكٌ خفيف، ولعله صوت مُلْكٍ، وهذه الصيحة أهلك الله بها أقوامًا آخرين من المكذبين كقوم شعيب وقوم لوط عليهما السلام، وأما الرجفة فهي الزلزلة الشديدة العظيمة، وهي اضطراب الأرض وتحركها وارتجاجها، ولعلها كانت بسبب قوة الصيحة.

اجتمعت عليهم عقوبة الله حتى ماتوا عن بكرة أبيهم فلم يَبْقَ منهم أحدٌ، وحتى أصبحوا جثثًا هامدين خامدين ميتين لا أرواح فيهم ولا يتحركون، وحتى أصبحوا كهشيم المحتظر، أي: صاروا مقطعين ممزقين مثل حطام الشجر اليابس الذي يجمعه صاحب الماشية ليصنع به حظيرةً ليجمع فيها أغنامه وماشيته، وحتى أصبحت بيوتهم خاوية لا يسكنها أحد.

أمم سادت ثم بادت، وبقيت آثارها حاضرةً لنعتر، والله لن يسألنا عن أعمالهم وأحوالهم ولكن سيُسألنا عما قدمنا وعملنا، فتأملوا.

- { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ }

نجى الله نبيه عليه السلام وَمَنْ معه مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، نَجَّاهُمْ بعد سنوات عاشوا فيها أنواعًا من البلاء لا يعلمها إلا الله، وكان التمكين لهم في الأرض بهلاك هؤلاء الطغاة العتاة المفسدين، وما أعظمه من تمكين. قال الله تعالى: " فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ " [هود: 66]، وقال سبحانه: " وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ " [النمل: 53].

يخاطب نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام قومه بعد أن هلكوا، ويقول كلامًا يحمل تقريرًا لهم، وقوله هذا يحتمل أنه قاله لهم حين غادرهم وتولى عنهم وانصرف بعد أن علم أن العذاب نازل بهم، ويحتمل أنه قاله بعد أن أخذتهم الرجفة وأصبحوا جاثمين ورآهم كيف أصبحوا، وكأني به عليه السلام يوبخهم على ما فعلوا، ويتبرأ منهم ولا يكثر بهم.

يستحضر عليه السلام في هذه اللحظات دعوته لهم، وحرصه عليهم، وصدقه معهم، وأمانته في البلاغ والنصح، واستفراغه لوسعته لينقذهم مما هم فيه الآن، ولكنهم لا يحبون الحق ولا يستجيبون له ويتكبرون عليه.

ولقائل أن يقول: لو قلنا إنه خاطبهم بعد أن نزل بهم العذاب وكانوا موتى، فهل يسمعون كلامه وخطابه ؟

والجواب أن هذا محتمل، بل هو الظاهر من خطابه لهم، وذلك كما خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم قتلى غزوة بدر من رؤوس المشركين وأخبر أنهم يسمعون. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثًا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: "يا أبا جهل بن هشام ! يا أمية بن خلف ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شبة بن ربيعة ! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا"، فسمع عمر رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله ! كيف يسمعون وأنتي يجيئون وقد جيفوا⁵⁰ ؟ قال: "والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدر أن يجيئوا"، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر.

أقول ختامًا: إن قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه فيها تسلية عجيبة لنبينا صلى الله عليه وسلم ولأصحابه القابضين على دينهم ودعوتهم رضي الله عنهم، وهذه التسلية لا يستغني عنها داعية إلى الله في كل زمان ومكان، لا يستغني عنها في تقوية ثباته أمام مكر السادة وأتباعهم من أهل الكفر الذين يتربصون بالدعوة وأصحابها صباحهم ومساءهم.

⁵⁰ يعني: أصبحوا جيفًا وجثثًا.

والقصة فيها بيانُ طريق الدعوة إلى الله، وبيانُ معالِمه ومعوقاته وصعوبته وحلاوته، وبيانُ العقوبة فيه، والتي تكون للمتقين الصابرين الصادقين.

يا أيها المؤمنون: لا تظنوا أن نصر الله يأتيكم بدون صبر وتضحية واستعانة بالله العظيم، فلقد تعرض أنبياء الله ومن معهم من مفاتيح الخير إلى أنواع السخرية والانتقاص والتكذيب والإيذاء والتحدي، فصبروا حتى جاء وعد الله لهم، فهَوَّنوا عليكم ما أنتم فيه، وامضوا في طريق دعوتكم وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر، وتذكروا أن الله عاصمكم وحافظكم وناصركم، وأن عذابه إذا نزل يقوم فلا راد له ولا معقب لحكمه.

ولا يفوتني ختامًا كذلك أن أذكر لكم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ذكرها لما نزل مساكن قوم ثمود هو وصحابته رضوان الله عليهم، فقد أوصى بالإسراع عند المرور بديار المعذنين سواء كانوا من ثمود أو من غيرهم، كما أوصى بالتبكي وإظهار الذلة والانكسار إجلالًا وهيبة ورهبة مما نزل بهم. أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحِجْر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين، ثم قَنَعَ⁵¹ رأسه، وأسرع السَّيْر، حتى أجاز الوادي".

يا أيها المؤمنون: تفكروا في أحوال من أهلكهم الله تعالى، واحذروا من الوقوع فيما وقعوا فيه، ولا تغفلوا عن تدبر الآيات، وابتعدوا عن مساكن الظالمين المعذَّبين.

- { وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ }

نعيش في هذه الآيات مع قصة قوم جاؤوا بعملٍ لم يسبقهم به أحدٌ ممن خلقهم الله من الأمم من لدن آدم عليه السلام، عملٍ لم يكن يألفه ولا يعهده الناس من قبلهم، مع أن الأقوام من قبلهم أظهروا كفرهم وعنادهم، وكذبوا بأنبياء الله وهُمُّوا بقتلهم، وعاثوا في الأرض فسادًا وإفسادًا، ولكنهم لم يأتوا بما جاء به قوم لوط.

⁵¹ أي: أطرق رأسه، ولم يلتفت يمينًا وشمالًا كالخائف لنلا يقع نظره على مساكنهم، وقيل: غطاه.

نعيش مع قصة تحوي عجائب من المواعظ والهدايات لمن تأملها وتبصرها، كباقي قصص رسل الله وأنبيائه، إنها قصة قوم انتكست فطرتهم، وفسدت طبائعهم، وانصرفوا عن الهدى، ومارسوا فاحشة الشذوذ واللواط بعد أن كفروا بالله العظيم وصدوا عن سبيله.

نعيش مع نبي من أنبياء الله الذين اصطفاهم وأرسلهم، والذين أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن يهتدوا بهداهم في الدعوة والجهاد، وهو سيدنا لوط عليه السلام الذي كان ممن آمن مع سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكان ابن أخيه كما هو مشهور عند المؤرخين، وهاجر معه إلى الشام، فأوحى إليه الله وأرسله إلى قوم كانوا يعبدون غير الله، وكانوا يقتربون المنكرات العظام، بعثه ليأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر، وينقذهم من مراتع الرذيلة.

والمقصود: اذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم لقومك وجميع أمتك ما حصل مع قوم لوط، ليكونوا على بصيرة من أمرهم ويتعظوا، وليجتنبوا الشرك وكبائر الذنوب الموبقة.

يُنكر عليه الصلاة والسلام على قومه فعلهم لهذه الفاحشة، ويدعوهم إلى ترك إتيان الذكور، ويرشدهم إلى الزواج من النساء الذي هو فطرة الله في خلقه، ويتوعددهم على سوء صنيعهم إن لم يتوبوا ويستجيبوا، ولكنهم قابلوا دعوته بالاستهزاء والاستخفاف بوعيد الله، وبمعداته ومن معه. قال بعض أهل التفسير: إن الرجال في قوم لوط استغنوا بالرجال، وكذا النساء بالنساء.

ولعلكم تدركون معي أهمية الحديث عن قصة نبي الله لوط مع قومه في هذا الزمن على وجه الخصوص، هذا الزمن الذي نرى فيه من يحاول إحياء الشذوذ واللواط في الناس، ونرى فيه من يدافع عن حقوق هؤلاء في ممارسة الرذيلة زاعمين بأنها من حقوق الإنسان ومن معالم حريته الشخصية، ونرى فيه من يحاول فرض ثقافة الشذوذ على العالم كله على وجه العموم، والعالم الإسلامي والعربي على وجه الخصوص.

صحيح أن هذه الجريمة ترعرعت تحت عباءة أمم الكفر، وصحيح أنها أصبحت محمية بالقوانين في عدد كبير منها، ولكن المصيبة العظمى تظهر في استجابة عدد من أنظمة بلاد الإسلام لهم، وسعيها في تغيير تشريعاتها لتتوافق مع سياسات هذه الأمم.

لقد استطاع هؤلاء أن يدخلوا عددًا من الأفكار الغربية عن ديننا وقيمتنا في مناهج التعليم، واستطاعوا أن يتلاعبوا بعدد من القوانين لتسهيل مهمتهم، بل وجدنا آلتهم الإعلامية تحاول محاصرة العقول لتقبل وجود هؤلاء الشاذين بيننا وفي مجتمعاتنا وحتى في بيوتنا.

والقرآن العظيم ذكر قصة نبي الله لوط عليه السلام مع قومه في مواطن متعددة، وأخبر عن سوءهم وفسقهم وفجورهم، وبَيَّن عقوبتهم التي لم تتوقف عند استئصالهم من الحياة، بل امتدت إلى قراهم لتقلبها عليهم، ليكونوا عبرة لمن يعتبر كما سيأتي.

ومما يدلنا على أن جرمهم هذا يُخشى منه ومن عودته في هذا الزمان، أن قصتهم امتدت في عدد من سور القرآن، كالأعراف وهود والحجر، والأنبياء والشعراء والنمل، وكذلك العنكبوت والصفات والقمر، وهذا إن ذلك على شيء فإنما يدل على أن الخطب جلل، وأن أمرهم كان عسيرًا وصعبًا، وأن ذنبهم كبير وليس هينًا.

اعلموا أن إتيان الدُّكْرِ للدُّكْرِ من كبائر الذنوب والفواحش، وهي معصية مُفسدة للعقل والقلب، والخراب الذي تأتي به على الأسرة والمجتمع لا يخفى، والله حذرنا منها أشدَّ التحذير، حتى إن آيات كتاب ربنا بعد أن أخبرتنا عن أنواع العقوبات التي نزلت بهم، جاء فيها قوله سبحانه: " وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ " [هود: 83]، أي: وما الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ببعيدة عن فعل مثلهم، وما قلب قراهم على رؤوسهم ببعيدة عن فعل مثلهم، فكيف يطيب لنا أن نسكت عن مفاتيح الشر الذين يهددون أبناءنا وأعراضنا وعقولنا، فضلًا عن ديننا الذي فيه فلاحنا ونجاحنا؟!!

ولكم أن تتأملوا الآية الكريمة التي تصف ما كانوا عليه، وذلك في قوله سبحانه: " وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ " [الأنبياء: 74]، فكيف لا نصفهم بما وصفهم به أحكم الحاكمين، ذو القوة المتين؟!!

هي جريمة لو سكتنا عنها لانقطع نسل الإنسان وضاع جنس بني آدم، وضاعت قبله المروءة والإنسانية، ولنشأ معنا وفينا وبيننا رجال طباعهم خسيصة، ونفوسهم دنيئة رديئة، ولانتشرت الديانة والأمراض والأورام والأسقام، ولاقترنا من حياة البهائم والحيوانات، ولعرضنا أنفسنا وأهلينا وأمتنا والعالمين لسخط الله الذي ليس بعده نجاة أو فوز أو ظفر.

أخرج أحمد وأبو يعلى بسند حسنه بعض أهل العلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ملعون من وقع على بهيمة، ملعون من عمل بعمل قوم لوط " .

وأخرج ابن ماجه في الحديث المختلف في صحته، وأكثرهم على تضعيفه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

وقد نقل غير واحد من العلماء أن الصحابة أجمعوا على قتل من فعل جريمة اللواط، وإن اختلفوا في طريقة قتله، بالسيف أم بالتحريق أم بهدم جدار عليه أم بإلقائه من شاهق وإتباعه بالحجارة، ولكن الصحيح أن الإجماع حصل على عقوبته وإن اختلفوا فيها.

أما مذاهب الأئمة الأربعة في عقوبة من عمّل عمل قوم لوط، فالجمهور على أن عقوبته كعقوبة الزاني، يُرجم إن كان محصناً، ويجلد مائة جلدة مع تغريب عام إذا لم يكن محصناً⁵²، بخلاف قول الإمام أبي حنيفة الذي ذهب إلى سجنه إلا إذا تكرر منه اللواط فإنه يُقتل، وبخلاف المالكية الذين ذهبوا إلى أنه يُرجم مطلقاً، أي: سواء كان محصناً أم غير محصن⁵³.

ومما اتفق عليه الفقهاء أن السّحاق بين النساء محرم في دين الله، وبعضهم ذكره في الكبائر، ولكنهم أجمعوا على أن العقوبة هي التعزير، أي: يُقدّر لها الحاكم والقاضي.

- { إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ } -

دعا نبي الله لوط عليه السلام قومه أول ما دعاهم إلى التوحيد، وبَيَّن لهم أنه رسول من الله إليهم لا يبتغي بدعوته أجراً ولا مالاً ولا حظاً من حظوظ الدنيا. قال الله تعالى: " كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ " [الشعراء: 160-164].

52 هذه العقوبة عند الشافعية لللائط، أما بالنسبة للمفعول به برضاه فإنه يُجلد ويُعزَّب عاماً وإن كان محصناً، أي: متزوجاً.

53 وهذا مروي عن الإمام الشافعي في قول، وكذا عن أحمد، وإن كان المعتمد في المذهب ما ذكرناه في المتن.

يقول في دعوته لهم: خلق الله لكم النساء لتقضوا حاجتكم ووطركم، وفطركم على الميل إليهن كما فطرهن على الميل إليكم، فلا تعدلوا عن فطرة الله وتضعوا شهوتكم فيما تشمئز منه النفوس وتحار العقول، تضعون شهوتكم في مكان إخراج البراز وأشد أنواع القذارة، إن هذا هو الإسراف القائم على وضع الشيء في غير محله، فاتقوا الله وتوبوا، وإن هذا هو العدوان على الدين والنفس والعقل والعرض فأفيقوا من غفلتكم، وإن هذا هو الجهل بعظمة الخالق وما يصلح الحال في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: " أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ " [الشعراء: 165-166]، وقال سبحانه: " أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَظْهَلُونَ " [النمل: 55].

ثم أنكر عليهم وتعجب من قطعهم لسبيل الناس وطريقهم، وكيف أنهم يأتون في ناديهم اللواط. قال الله تعالى: " أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ " [العنكبوت: 29]، والنادي هو المجلس، أي: إنهم صاروا يفعلون اللواط جهاراً في مجالسهم ولا ينكر بعضهم على بعض، على قول عند أهل التفسير.

أما قطعهم للسبيل، فهو قطع الطريق على المسافرين بالقتل وأخذ المال، وكذا إتيان الأولاد في أديبارهم، فجمعوا أنواعاً من الشرور لا نظير لها.

- { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْتَهَرُونَ }

كلام قوم لوط هنا من أعجب الكلام وأغربه في تاريخ البشرية، انظروا كيف أرادوا إخراجهم وطرده ونفيه من قريتهم، وكيف تواطؤوا على ذلك واجتمعوا بدون مخالف أو معترض، وانظروا في جريمتهم التي ارتكبوها بحسب قولهم، يقولون: إن لوطاً ومن آمن معه يتطهرون، ويعتنون بأنفسهم ولا يأتون أدبار الرجال، ولا يفعلون ما نفعه من اللواط والشذوذ وإتيان الأدبار، قبحهم الله ومن على شاكلتهم.

إن سعيهم لطرده جاء بعد أن توعدوه بذلك، وبعد أن هددوه بإخراجه والتخلص منه إن لم يترك دعوته، وهو ما يفعله المفلسون دوماً، الذين لا يملكون علماً ولا فكراً، والذين ليست لهم قدرة على الحوار والمحااجة. قال الله تعالى: " قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ " [الشعراء: 167].

ولعلنا نعيش في زمن نرى فيه كيف ينكر المفسدون على الصالحين صلاحهم، وكيف يغمز أرباب الرذيلة بالعاملين لدينهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكيف يسخرون منهم وينتقصون، وكيف يتَنَدَّرُون بهم، وهكذا النفوس عندما تنحدر في الرذيلة وتنغمس في المنكر، وعندما تكرر الفاحشة وتصبح مألوفة لها وتصبح هي الأصل، وعندما ينتكسون وتقلب أذواقهم إلى نقيض الفطرة، أقول: إذا وصلت النفوس إلى هذا الحدِّ فإنها تُعادي من يدعوها إلى الفضيلة والطهر والعفاف، وتريد من الناس أن يروا المنكر معروفاً.

لم يفعل قوم لوط فاحشتهم على استحياء، ولم يستتروا من غيرهم، ولم يخشوا كلام الأمم والقبائل من حولهم عنهم، بل أعلنوا بفاحشتهم، وجأهروا بأذيتهم ورذيلتهم، وأصبروا على كل ذلك. ولا تظنوا أن أذيتهم لنبيهم توقفت عند ذلك، بل إنهم منعه من استقبال الناس، وحرموه من ضيافة من يمرون به في طريق أسفارهم، ولعلمهم هددوه بفعل الفاحشة مع ضيوفه إن لم يستجب لهم. قال الله تعالى: " قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ " [الحجر: 69].

ثم إنهم تبادوا في طغيانهم وعتوهم، وسألوا نبي الله عليه السلام أن يأتيهم بعذاب الله الذي لا يخافونه ولا يعملون له أي حساب. قال الله تعالى: " فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " [العنكبوت: 29]، أي استهزاء وتكذيب وعناد هذا !

ثبت نبي الله عليه السلام ومن آمن من أهله أمام كلِّ هذا، واستعانوا بالعظيم القوي العزيز جل جلاله في دوام الإنكار عليهم وعدم التسليم لهم بشيء، حتى أظهر نبي الله عزة المؤمن أمامهم وخاطبهم بلسان الواثق بدينه الذي لا يهتز أمام وعيدهم، وقال: " قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ " [الشعراء: 168]. أي: من التاركين والهاجرين، ومن المبغضين الكارهين المنكرين.

ثم استعان بسلاح يستهين به كثير من الناس مع أنه لا يخطئ، سلاح لا نعلم نبياً إلا ولزمه في ضعفه وقوته، وفي سرِّه وعَلَنه، وفي خلوته وجلوته، وهو سلاح الدعاء الذي يحبه الله ويرضاه، فقال عليه السلام: " رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ " [الشعراء: 169]، يقول: يا رب، نجني من عقوبة صنيعهم، ونجني من عمل هذه الخبائث ورؤيتها ومخالطة أهلها، ونجني من أن أكون عوناً لهم أو ساكناً عنهم أو راضياً.

- { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } -

أخرج الله نبيه عليه الصلاة والسلام من بينهم سالماً، وأخرج معه أهله الذين آمنوا به واتبعوه، إلا زوجته التي كانت تدل قومها بإشارات بينها وبينهم على أضياف لوط عليه السلام من الرجال، والتي كانت مناصرة لقومه عليه، فأصابها ما أصابهم.

لقد كانت زوجته من الغابرين، أي: من الباقين في القرية بعد خروج لوط عليه السلام ومن معه من أهله، ثم هلكت مع الهالكين.

وأهل لوط هم البيت الوحيد الذي آمن بدعوته وخالفوا القوم وما كانوا عليه، قال الله تعالى: " فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " [الذاريات: 35-36].

ما أصعبه من بلاء يوم يُبْتَلَى الرجل في زوجته، ويوم لا تكون مصدر طمأنينة له، ولا تكون معينة له على الخير والهدى، ويوم تخونه بإخراج أسرار بيته كما فعلت زوجة لوط التي وصفها القرآن بأنها من الخائنين، ولذلك جاء التحذير من أقرب الناس إلينا إذا كانوا يشغلوننا عن آخرتنا، ويصدوننا عن عمل الخيرات، ولا يريدون منا أن نأمر بمعروف أو ننهي عن منكر، ولا يريدون منا أن نجاهد لئلا يصيبنا أيُّ أذى وإن كان في سبيل الله. قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ " [التغابن: 14].

وما أصعبها يوم تكون الخائنة التي باعت آخرتها عجوزاً، أي: كبرت سنّها واقتربت من الرحيل عن الدنيا، ولكنها غفلت غفلة عجيبة عما ينتظرها فساء خلقها، وفسدت طويتها، ونطق لسانها بما يسخط خالقها. قال الله تعالى: " فَانْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ " [الشعراء: 170-171]، ولذلك كانت من أهل النار الخالدين فيها بعد أن ماتت على الكفر وعلى الخيانة. قال الله تعالى: " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ " [التحریم: 10].

وفي تفصيل نجاته نبي الله لوط عليه السلام وأهله من العذاب، اعلّموا أن الملائكة نزلت من عند الله تبارك وتعالى، ومَرَّتْ بسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لتبشّره بغلامٍ عليمٍ يأتيه بعد أن بلغ هو وزوجه حالاً لا يولد لمثلهما، وهو نبي الله إسحاق عليه السلام، ثم إنها أخبرت سيدنا إبراهيم عليه السلام بأنها في طريقها إلى قوم لوط لتقلب عليهم قراهم فإنهم طغوا وأفسدوا وأجرموا، فخشى عليه الصلاة والسلام على ابن أخيه لوط عليه الصلاة والسلام، وجادل الملائكة وخاصمهم حتى أخبروه بنجاة لوط عليه السلام مما أُرسلوا به، وبأنه لن يصيبه سوء أو أذى. قال الله تعالى: " وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ " [العنكبوت: 31-32].

وصلت الملائكة بعد ذلك قري قوم لوط، وجاءوا نبي الله لوطاً عليه السلام على هيئة ضيوف رجال يتمتعون بالجمال، فأصابه الحزن والغم لذلك، وضاق ذرعاً وأصابته الحيرة في أمره وماذا يفعل، فهؤلاء ضيفه الذين وجب إكرامهم وتقديرهم، وهؤلاء قومه الذين يتربصون بكل ضيف نزل به أو بهم، فكيف لو كان هذا الضيف ممن أوتي جمالاً.

أرسلت زوجة نبي الله لوط إلى قومها تحبرهم عن ضيفه، أرسلت إليهم دون علم زوجها فكانت من الخائنين، أرسلت إليهم فأسرعوا بالجيء وهرعوا إليه، وجعلوا يراودون نبي الله عن ضيفه، ويطلبون منه الوصول إليهم، فحاورهم ودعاهم وذكرهم وأرشدهم إلى الزواج من النساء والاستعفاف بهن، كما في قول الله تعالى: " وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ " [هود: 78]، وبناته هنا هنّ نساء قومه لأن النبي بمثابة الوالد وفي مقامه بالنسبة لأمته.

أرشدهم إلى الزواج ودعاهم إلى خشية الله والخوف منه، والحذر من عقابه، وسألهم ألا يخزوه في ضيفه فيفضحوه بين من حولهم من القبائل والقرى والبلاد، كما في قوله سبحانه: " قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ " [الحجر: 67-68]، فأجابوه بأنهم لا يريدون إلا ضيفه، وليس لهم إلى نكاح النساء من حاجة، كما في قوله سبحانه: " قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ " [هود: 79].

صحيح أن نبي الله لوطاً كان قد دعا الله من قبل ولا زال يدعوه، ولكنه في هذه اللحظة غفل وسها عن الركن الشديد الذي كان دومًا يستعين به ويتوكل عليه ويدعوه، والذي يعلم أنه من اعتصم به فلا يخاف ولا يحزن، أقول: في هذه اللحظة غفل عن حفظ الله. قال الله تعالى حكاية عنه: " قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ " [هود: 80]، فتمنى عليه الصلاة والسلام في هذه اللحظة لو كانت له عشيرة، أو كان له أنصارٌ يستعين بهم على هؤلاء الكفرة الفجرة، أو كانت له قوة يدفعهم بها.

وقد استغفر نبينا صلى الله عليه وسلم لنبي الله لوط عليه السلام عن ذلك، كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ». وفي رواية: " يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد ". أي: يغفر الله له كيف غفل عن الله في هذه اللحظة، مع أنه كان دومًا يأوي إلى الله وحده، وكان يلتجئ ويستعين به، وهو الركن الشديد القوي المتين الذي لا يخذل من صدقه في الفرار إليه.

وكأن الآية والحديث يقولان لنا: وجود العشيرة والأنصار والرجال وال سلاح كلها أسباب مهمة لا نستغني عنها في مدافعتنا لأعداء الله ونصرة الحق والعدل، ولكننا لا نركن إليها، بل نوقن أنها لا تملك لنا حولًا ولا قوة، فضلًا عن أنها لا تملك ذلك لنفسها، وأن الحول والقوة والنصر الحقيقي إنما هو من عند الله، فلا ينبغي لقلب المؤمن أن يغفل عن هذا المعنى. قال الله تعالى: " وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ " [آل عمران: 126].

ولا زالوا يراودونه عن ضيفه حتى قالت الملائكة كلمات أنزلت السكينة على قلب نبي الله لوط عليه السلام، وبشّرتَه وأخبرتَه أنها رسل من الله جاءت بالعذاب، وأنه سينجو بمن آمن معه من أهله من هذا العذاب، ثم إن الله طمس أعين الذين جاؤوا من قومه لأضيافه، وكان هذا العمى مقدمة العذاب الذي أصابهم. قال الله تعالى: " قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ " [هود: 81]، وقال سبحانه: " وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ " [القمر: 37].

ما أجمل لطف الله بالعبد لما يأتي في وقت يستتيئس فيه من الحال، يأتيك لطف الله ويربط على قلبك، يأتيك بالبشريات التي صَبَرْتَ لتراها، وبذلت ما بذلت من أجلها، يأتيك من حيث لا يخطر لك على بال، أعني: يرسل الله لنبیه عليه السلام ملائكة من السماء على صورة البشر لتثبته وإنزال الطمأنينة على قلبه، يقولون له: نحن رسل ربك إليك فلا تجزع، واعلم أن بأس الله سيحل صباح يوم غد بمن خالفوا

الفطرة والعقل، ومن خالفوا شريعة نبيهم، فخرج بأهلك لئلا يصيبك ما سيصيبهم. قال الله تعالى: " فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ " [هود: 81]، وقال سبحانه: " وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْعَاكِرِينَ " [العنكبوت: 33].

لا تلتفت، هكذا أخبروه بوحي من الله، لا تلتفت لئلا ترى ما يحصل مع قومك، لتكون في هجرتك إلى الله صادقا لا مترددا، لتمضي في طريق عبوديتك ونشرك للخير في مواطن أخرى بكل ثقة وعزيمة.

نجى الله لوطاً عليه السلام ومن معه لتجري سننه سبحانه كما وعد، فالصراع بين الحق والباطل، والفضيلة والرذيلة، والخير والشر، لا بد أن ينتهي بارتفاع راية الحق والفضيلة والخير، ولا بد أن تكون خاتمته التمكين لأهل الله وحملته دعوته في الأرض، وذلك إذا أخذ أهل الله وأوليائه بسنن الله في الأرض، وجاؤوا بشروط تمكينهم واستخلاصهم. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ " [الأنبياء: 105]، وقال سبحانه: " وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ " [الصفافات: 171-173].

- { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } -

هذا المطر هو مطر العذاب الذي نزل بهؤلاء المجرمين بعد خروج لوط عليه السلام وعياله وقت السحر، مطر من حجارة لحقهم ولحق قراهم بعد خسفها وقلبها على رؤوسهم، بعد أن جاءتهم الصيحة، وهي الصوت المخيف القوي الشديد من السماء، ولعل الأرض انقلبت عليهم بسبب الصيحة، مطر جاءهم وقت شروق الشمس في الصباح. قال الله تعالى: " فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ " [هود: 82-83]، وقال سبحانه: " فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ " [الحجر: 73]، أي: وقت شروق الشمس وطلوعها.

فهذه حجارة من سجيل، أي: طين متحجر. وهذا السجيل منضود، أي: يتبع بعضه بعضاً عليهم. ثم هي مسومة، أي: معلومة مخصصة لهم، ومعلّمة لا تخطئهم.

قوم لوط، أعرضوا عن هَدْيِ السماء واستخفوا برسالة الأنبياء وكذبوا بهم فكانوا من المجرمين كما في ختام الآية، وهم بذلك ظلموا أنفسهم بل ظلموا العالمين جميعاً بباب الشر الذي فتحوه على البشرية.

قوم لوط، اقتطفوا أحطَّ أنواع الرذيلة فكانوا من الفاسقين الخارجين عن أمر الله وشريعته، كما في قول الله تعالى في وصفهم: " إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ " [العنكبوت: 34]. والرجز هو العذاب.

قوم لوط، ما قدروا الله حق قدره فكانوا من الجاهلين، كما في قول الله تعالى في وصفهم: " بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ " [النمل: 55]. تجهلون عظمة الله ونعمته وحقه عليكم، تجهلون القيامة وما فيها من أهوال عظيمة، تجهلون طريق سعادتكم ونجاتكم وفوزكم.

قوم لوط، تجاوزوا ما أباحه الله لهم، وتجاوزوا حدود الشرع والعقل والفطرة والعلم، وأحلوا من الشهوات ما حرمه الله، فكانوا من المعتدين. قال الله تعالى: " بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ " [الشعراء: 166].

وصدق قول ربنا فيهم إذا قال: " لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ " [الحجر: 72]، فالله عز وجل يقسم بحياة نبيه صلى الله عليه وسلم على قول عند أهل التفسير، يقول: إنهم لفي غيهم وجهلهم يترددون، ويعيشون الحيرة كأنهم سكارى لا يدركون ما يقولون ولا ما يفعلون.

نزل عذاب الله بقوم لوط، وعذابهم هنا بقلب القرى عليهم لم يمثله عذاب لقوم آخرين فيما بلغنا، ثم إن الله تعالى أبقي ذكرهم في العالمين ليكونوا آية لمن يعتبر، وليتعض كل من سولت له نفسه بأن يفسد في الأرض إفسادهم، وكل من حمل راية الفجور والفحشاء والإجرام، وسعى في بلاد المسلمين لحماية أهل الشذوذ في القوانين، ومنع إقامة حكم الله فيهم.

دَمَّرَ الله عليهم قراهم ومساكنهم فهلك من هلك منهم بالكذيب، ونجا من نجا منهم بالتصديق. قال الله تعالى: " ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ " [الشعراء: 172-173].

مساكين أولئك الذين استولت عليهم أهواؤهم، وغلبتهم شهواتهم، فلم ينتفعوا من قصة قوم لوط بشيء، ولم تحرك فيهم آيات ربنا شيئاً، ولم ينظروا ويتأملوا فيما حلَّ بهم، بل ظلوا في غيهم يعمهون، وفي سكرتهم يمشون.

يا أيها الناس، ويا أيها المؤمنون، جاءتكم قصة قوم لوط لتعينكم على فهم مراد الله من خلقكم، ولتتقذك من اتباع الهوى وطرائق الحرام في تحصيل الشهوات، ولتكونوا على بصيرة من أمركم، ولذلك أمر الله تعالى في ختام الآية بالنظر والتفكير والانتفاع. وقال سبحانه: " وَلَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " [العنكبوت: 35]، فأهل العقل والبصيرة هم الذين يعتبرون بمن مضى من القرون، ويأخذون أهبة الاستعداد لما بعد الموت، ويرابطون على حصون الأمة العقديّة والفكرية ولا يسمحون لغيرهم بالعبث بما وإن كان هذا الغير كثيراً أو كان قوياً. قال الله تعالى: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ " (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ " [الشعراء: 174-175]، فالله عزيز في انتقامه ممن كفر به وكذب رسله من أعدائه، ومن تعدى حرّمات الله وحدوده، رحيم بمن أنجى من رسله وأتباعهم وبما أعده لهم من كرامة في الدار الآخرة.

هذه مهمتنا، ندعو إلى الله مخلصين له الدين، ولا نستأكل بقرآننا ولا بسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ولا نتخذ علمنا ودعوتنا للسمعة والرياء وطلب الدنيا.

وهذه دعوتنا، نبذل لها أرواحنا وأموالنا وأهلينا وأوقاتنا، ونطرق كل باب لإصلاح أقوامنا وإخراجهم من غياهب الظلمات وطرائق الباطل إلى عز الدنيا والآخرة وسعادتهما.

ختاماً: يسعى أهل الضلال والإفساد في إخماد صوت الفضيلة والطُّهر، وتراهم يضيّقون على حملة الدين والدعوة، ويسعون في حصار كلماتهم وأقلامهم، ويسعون في سجنهم أو إخراجهم وطردهم من البلاد، ويمكرون بهم الليل والنهار كما مكر قوم لوط بنبيهم، وكما هموا بإخراجه وطرده لأنه يتطهر، ولكن ختام الأمر دوماً إلى خير، ونهايته دوماً إلى فرح المؤمنين الصادقين الصابرين ونجاتهم.

لا نريد من وقوفنا مع أحداث القصص القرآني أن نمر عليها مرور الكرام لمجرد التسلية، أو لطلب الأجر والثواب فقط مع أهميته، ولكننا نريد أن نأخذ منها العبر لواقعنا، وننتفع من مواعظها فيما نعيشه من

تحديات في زماننا. قال الله تعالى: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ " [الحجر: 77]، فلا ينتفع ولا يعتبر إلا أهل الإيمان الذين عظموا ربهم، واستحضروا أنهم مقبلون عليه وواقفون بين يديه للحساب.

وقال سبحانه: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ " [الحجر: 75]، أي: فليعتبر قومك يا محمد صلى الله عليه وسلم مما حل بمن كفر وعصى، فإن ما قصه القرآن عليهم يحمل آية عظيمة للمتوسمين الذين عندهم فراسة وحسن إدراك للعواقب، وعندهم نظر وتأمل وحرص على الانتفاع والاعتبار.

وقال جل وعلا: " وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ " [الحجر: 76]، أي: هذه أماكن سكنهم تعلمونها يا قريش وتمرون بها في رحلتكم إلى الشام، وهذه أرضهم التي كانوا يسكنون واضحة ظاهرة بينة تعرفونها أيها الناس، فإذا مررتم بها فمروا مسرعين متباكين ولا تغفلوا عن التدبر والتفكر والانتفاع مما أصابها. قال الله تعالى: " وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " [الصفات: 137-138].

- { وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ }

عاشت أمة من قبلنا قرونًا ممتدة، وأرسل الله لكل أمة منها رسولًا يبلغها دين الله، ويأمرها بما ينفعها وينهاها عما يُتعبها ويشقيها، وكان لكل أمة ما يخصها من الأوامر والنواهي مما يناسب حالها، ومما ابتلي به أهلها.

والناظر في أحوال الأمم ممَّا قصه علينا كتاب الله، وأخبر به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم، يجد أنها تشترك في غياب التوحيد من بنائها العقائدي والفكري والسلوكي، وتنطلق في مجالات الحياة من قاعدة الشرك بالله واتباع الهوى، ومن قاعدة ما وجدوا عليه الآباء من قبلهم، ويجد كذلك أن الذنوب والمعاصي التي انتشرت فيهم تنوعت واختلفت، فمنهم من غاب عنه تحكيم الشريعة في سياسته، ومنهم من غاب عنه تحكيم الشريعة في حياته الاجتماعية، ومنهم من غاب عنه تحكيم الشريعة في حياته الاقتصادية، ومنهم من غاب عنه تحكيم الشريعة في حياته الاجتماعية.

ومن رحمة الله بأمة حبيبه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم أن جاءتنا قصص الأنبياء من قبلنا مع أقوامهم، لنكون على دراية بجميع أمراض الأمم من قبلنا، ولتحقق شمولية هذه الشريعة وهيمنتها في جميع جوانب الحياة.

يعني: اذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم لقومك قصة شعيب عليه السلام مع قومه، اذكرها لهم ليعلموا أن الله حق، وأنه لا إله إلا هو، وليعلموا أنك مرسل من عند الله، وليتعضوا ويعتبروا وينتفعوا قبل أن يحل بهم ما حل بالأقوام من قبلهم، اذكرها لهم واصبر على تكذيبهم كما صبر المرسلون من قبلك على أذية أقوامهم. قال الله تعالى: " وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ " [الحج: 42-44].

اذكرها للدعاة إلى الله من أمتك ليكون طريقهم إلى الله بيّنًا واضحًا معلومًا، واذكرها للمؤمنين الصادقين ليقنوا أن العقابة لهم، وأن النصر صبر ساعة، واذكرها كذلك للمنافقين لعلهم يتركون الكذب وروغان الثعالب ويصدقون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى: " أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " [التوبة: 70].

قوم شعيب عليه الصلاة والسلام أشركوا بالله كما هو حال الأمم من قبلهم، وقد كانوا يعبدون الشجر، وكانوا يعبدون شجرة من الأيكة، فسموا بأصحاب الأيكة.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أنهم كانوا يعبدون الأصنام كغيرهم من الأمم.

ثم إنهم عُرفوا بالتطيف في الميزان، وقطع الطريق على الناس لأخذ أموالهم وأكلها بالباطل، وكذلك صدوا الناس عن الدين الحق دين التوحيد ومنعواهم من الإيمان.

أما لفظة (مَدْيَن) فتُطلق على القبيلة التي أرسل إليها عليه السلام، وتُطلق كذلك على مكان سكنهم وإقامتهم، وقد ذهب غير واحد من أهل التاريخ إلى أن إقامتهم كانت في جنوب الأردن وشمال أرض الحجاز.

وقد وصفهم ربنا جل وعلا في محكم التنزيل في أكثر من موضع بأنهم أصحاب الأيكة، كما في قوله سبحانه: "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ " [ص: 12-14]. والأيكة هي الشجر الكثير الملتف المجتمع.

أما نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام، فهو واحد من أنبياء الله العرب كما يقول المؤرخون، وقد أرسله الله تبارك وتعالى بعد أن أرسل نوحًا وهودًا وصالحًا، أرسله إلى قوم مدين وإلى أصحاب الأيكة ليدعوهم إلى التوحيد والعبودية لله جل وعلا.

ونبي الله شعيب عليه السلام معروف عند أهل العلم والتفسير بـ " خطيب الأنبياء "، وذلك لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته، وعمق فكرته، كما يظهر بتتبع وعظه ونصحه وتبليغه، وهو ما سيظهر معنا في السياق القرآني هنا، وقد جاء في بعض الآثار التي لم يصح إسنادها عن نبينا صلى الله عليه وسلم وكذا عن السلف بوصفه بذلك.

دعا نبي الله شعيب عليه السلام قومه أول ما دعاهم إلى التوحيد كما في الآية هنا، وأمرهم بأن يصرفوا عبادتهم ورغبتهم ورهبتهم للواحد الأحد جل جلاله، ودكّرهم بأنهم ليس لهم إله غيره، فإذا أصابتهم مصيبة وانقطعت الأسباب من حولهم فلا ملجأ لهم من الله إلا إليه، فليستحضروا ذلك وليقبلوا على خالقهم مستسلمين له، وليتركوا تعظيم غيره من الأشجار والأحجار. قال الله تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " [العنكبوت: 36].

وكان مما أمرهم به تقوى الله عز وجل، وأخبرهم أنهم مقبلون على اليوم الآخر الذي لا ينفعهم فيه إلا الخوف من الله مع رجاء رحمته مع العمل بما أمر، وقال لهم: إني رسول من الله، صادق فيما أقول، ولا أرجو من دعوتي هذه أي مغنم دنيوي، إنما أرجو الله والدار الآخرة. قال الله تعالى: " كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ " [الشعراء: 176-180].

{ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } يقول عليه السلام لهم: قد جاءكم الحجج والبيّنات على أني مرسل من عند الله، وعلى أني صادق فيما أدعوكم إليه، وأنتم تعلمون في قرارة أنفسكم أنه لا يأتي بشر بمثل ما جئت به، إلا أن يكون من عند الخالق القادر على كل شيء.

وهذه البينة التي ذكرها عليه الصلاة والسلام إما أن تكون معجزة سكّت عنها كلام الله ولم يبينها، وإما أن يكون المقصود بها ما جادلهم به وأقام عليهم به الحجة من الكلام والخطاب الذي يوافق العقل والفطرة، وعلى كلا الحالين، قامت عليهم الحجة وأرسل الله إليهم من يدعوهم وينقذهم مما هم فيه. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ».

{ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ } هذه موعظته الأولى لهم بعد أن دعاهم للتوحيد، وهذا نداؤه الذي كرّره عليهم، وهذا ما أمرهم به وحذّرهم منه؛ أمرهم بأن يتقوا الله في الكيل والميزان بعد أن فشا فيهم خلافه، وأن يعدلوا ويؤدوا الحق كما هو، لا أن يوفوا إذا اشتروا، ويُنقصوا إذا باعوا.

ثم نهاهم عن أن يبخسوا الناس أشياءهم، والبخس هو نقص الشيء وتعمّد الخط من قيمته وحقه في صفته أو في مقداره، يقول لهم: لا تخونوا ولا تخدعوا في التعامل في الأموال والحقوق، ولا تأخذوها على وجه البخس ونقص المكيال والميزان خُفْيَةً وتدليسًا وغشًا وخداعًا. قال الله تعالى: " أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " [الشعراء: 181-183]. قال بعض أهل العلم: التطفيف يكون من البائع والتبخيس يكون من المشتري.

يبعث الله نبيًا لأقوام من أجل أن ينهاهم عن التطفيف في الميزان، ومن أجل أن يأمرهم بتوفية الحق وأدائه إلى أصحابه بدون غش أو خداع أو تبخيس، مع أن هذا الأمر في ظاهره هين يسير عند بعض الناس، وقد يستهينون فيه ويلعبون في الموازين والمكاييل والمعدودات والمذروعات، ويظنون أن هذا من التمييز والإبداع في التجارة.

والتطفيف والتوفية إنما يكونان في المكيال والميزان ونحوهما، وقد جاء التحذير من التطفيف في شريعتنا، وهذا التحذير ارتبط بالتذكير باليوم الآخر والبعث بعد الموت، وارتبط بالويل والخسار والهلاك، وجاءت سورة كاملة باسم سورة المطففين، وهذا إن ذلك على شيء فإنما يدل على عظم الاعتداء على أموال الناس وخيانة الأمانة في التعامل معهم. قال الله تعالى: "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" [المطففين: 1-6].

أخرج ابن ماجه بسند حسنه غير واحد من أهل العلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: " لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبت الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه { وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ } فأحسنوا الكيل بعد ذلك ".

ولكم أن تتأملوا في عظمة قول الله تعالى، وكل قول الله عظيم: "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" [الرحمن: 7-9]. وأخرج ابن ماجه بسند حسن، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين⁵⁴ وشدة المؤونة⁵⁵ وجور السلطان عليهم " الحديث.

ومن أهل العلم من حذر من كل تطفيف في الحقوق والواجبات، وفي الأموال والالتزامات على وجه العموم، وفي كل قول وعمل، فجعل تقصير المدرس والعامل والمدير والزوجين في الحقوق والواجبات من التطفيف، وجعل أكل مال الغير بأي طريقة غير مشروعة من التطفيف والتبخيس، وغير ذلك من أنواع أكل أموال الناس بالباطل، حتى جعلوا التطفيف في الصلاة وفي الطاعات. أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله: « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعط أجره ».

⁵⁴ أي: بالقسط.

⁵⁵ أي: صعوبة تدبير ما يحتاجونه من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك، بسبب غلاء الأسعار.

قلت: إن أداء الأمانة إلى أصحابها بيعًا وشراءً، وكيلاً ووزناً، وقولاً وفعلًا، أصل عظيم من أصول قيام هذه الأمة وعلوّها على الأمم، ولا أظن قائمتها تقوم بدون ذلك، فلينبته المشتغلون بالتجارة لذلك، ولينبته القائمون على أداء الحقوق وإيصالها.

ولذلك جاءت شريعة ربنا وبينت لنا عقود البيع والشراء التي يرتضيها الشرع ويكونُ الكسب المتولد عنها حلالاً طيباً، وجاءت كذلك ببيان أسباب الكسب المحرم، وجاءت كذلك وأخبرتنا أنه لا تزول قدم أي واحد من عباد الله حتى يُسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق، وأخبرتنا أن المال الحرام مانع من موانع استجابة الدعاء، وأن بركته محوقة. أخرج أحمد والترمذي واللفظ لأحمد، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه وعن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عُجرة رضي الله عنه: يا كعب بن عجرة، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت⁵⁶، النار أولى به."

{ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } إن التطفيف في الميزان نوع من الإفساد في الأرض لا يرضاه الله تعالى ولا يحبه، وقد توعد أصحابه بأشد أنواع العقوبة. قال الله تعالى: "وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" [هود: 85].

هذه موعظته الثانية لهم، يقول فيها: يا قوم، إن هذه الأرض أمانة في أعناقكم من عند الله، وإن الله استخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فلا تفسدوا على الناس عيشهم، ولا تكونوا سبباً في إشاعة البغضاء والكراهية بين سكانها، ولا تدخلوا الحزن والشقاء على قلوب من تعيشون بينهم وفيهم.

يا قوم، لا تقطعوا الطريق على الناس، ولا تصدوا عن الإيمان والعمل الصالح، ولا تعينوا على المنكرات والمحرمات، فهذا هو الإفساد الذي ليس بعده إفساد.

وكان الآية تعلمنا أسباب الفساد، وتعطينا معالم الإصلاح، فقوم شعيب أفسدوا دنياهم ودينهم، أفسدوا دنياهم بالتطفيف والتبخيس وقطع الطريق ونحو ذلك، وأفسدوا دينهم وآخرتهم بالشرك والكفر بالله العظيم.

⁵⁶ يعني: من حرام.

إن الذي يريد الإصلاح في بلاد المسلمين بل في العالم كله، لا بد أن ينطلق من قاعدة توحيد الله تعالى والعيش مع أسمائه وصفاته، ثم لا بد له من العمل الصالح الذي يشمل الأعمال الظاهرة والباطنة، ويشمل الأقوال والأفعال والأحوال، ثم لا بد له من سياسة الدنيا وإصلاحها وعمارتها على أحسن حال.

{ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } الإيمان بالله ليس بالتشهي ولا بالتحلي، ولا تُقبل فيه مجرد الدعوى، لأنه في حقيقته شيءٌ وقَرَّ في القلب وصدَّقه العمل، ولأنه في حقيقته لا يكون إلا كما أمر الله تعالى وشرع، فإن الله لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شرٍّ.

الإيمان بالله هو أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وأن تسارعوا في الخيرات، وتسابقوا في طاعة رب الأرض والسموات، وتستعدوا لموقف بعثكم وإقبالكم عليه، جل جلال ربي.

يقول لهم: اتبعوا ما أقوله لكم لتحقيقوا الإيمان وتصدقوا في دعواكم، ولتكون حياة الناس قائمة على الأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، وعلى المحبة والمودة، وعلى القوة والتآلف والتعاقد، فضلاً عما ينتظركم من خير عظيم في الدار الآخرة، في جنة الله تعالى.

وكان مما أخبرهم به أن ما أبقاء الله لهم من الرزق حال عدلهم وأدائهم للحقوق، خيرٌ لهم من المال الحرام الذي يأخذونه بالتطفيف وأكل حقوق الناس وإن بدا لهم في ظاهره كثيراً، فالمال الحرام تذهب بركته ويُحَقَّق، ويرى أكله أثره في كل شيء حوله، ولا يسلم من إثمه وعقوبته بعد موته. قال الله تعالى: " بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ " [سورة هود: 86].

- { وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }

يعطيك هذا النصح والتوجيه من نبي الله شعيب عليه السلام ما كان عليه قومه من أنواع الفسق والظلم والعداء للدين وحملته، ولذلك جاءت موعظته الثالثة بأن يتركوا الناس ليهتدوا ولا يتعرضوا لهم في إيمانهم وتوحيدهم.

كان قومه يقعدون بكل صراط، أي: يقطعون الطريق فيوعدون المارين به بالقتل إن لم يدفعوا إليهم أموالهم. ومن أهل العلم من قال: كانوا يقفون في الطرق المؤدية إلى شعيب عليه السلام فيمنعوا كل من قصده ليؤمن ويهتدي، ويمنعوا كل من أراد الذهاب إليه ليستمع كلامه، وكانوا يتوعدون المؤمنين بالقتل، وكانوا يُحذرون من شعيب عليه السلام ويتهمون به بالكذب.

وكانوا كذلك يصدون المؤمنين عن اتباع شعيب عليه السلام ودينه، يصدونهم بالتعذيب والتهديد والتخويف، يريدون من قومهم ومن الناس أن يعيشوا حياة الاعوجاج عن منهج الله وهديه، وأن يزيغوا ويضلوا ويميلوا ميلاً عظيماً عن الصراط المستقيم الذي فيه فلاح الدنيا ونجاة الآخرة.

قلت: وهذه عادة رؤوس الفسق والفجور، كما قال الله تعالى: " وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا " [النساء: 27].

ألا تذكرون معي في سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم مع قومه، كيف كانوا يصدون الناس عن طريق تشويه شخص رسولنا عليه الصلاة والسلام واتهامه بأنه ساحر وشاعر وكاهن وكذاب، وكيف وصفوا رسالته بأنها إفك قديم، وأنها أساطير الأولين، ثم كيف سخروا من القرآن وعارضوه بأساطير الأولين، وغير ذلك من الحيل التي أرادوا بها أن يصدوا الناس عنه وعن دعوته بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

ولا زال أهل الكفر والشرك في الأرض يصدون عن سبيل الله، عن طريق تشويه صورة الإسلام عند شعوبهم، وعن طريق نسبة ما لا ينبغي لقرآننا ورسولنا صلى الله عليه وسلم ولأصحابه وقادة الإسلام، ولا زالوا يفتنون شعوبهم عن دين الحق بأساليب ووسائل مختلفة ومتنوعة.

{ وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ } يُذكّرهم بنعمة من نعم الله عليهم لعلهم يستحون من الله ويدينون له بالوحدانية والانقياد، فإن المرء يستحي ممن أحسن إليه وأكرمه، فكيف لو كان المنعم هو الله، الذي نرى فضله وكرمه وجوده في كل صغيرة وكبيرة في حياتنا وأبداننا وأهلينا.

كان قومه قليلين عددًا، وكانوا مستضعفين بين الأمم، فأنعم الله عليهم وكثّرهم وبارك في ذرياتهم وأمدّ في أعمارهم، وصرف عنهم الأوبئة والأمراض، حتى أصبحوا أعزة تخافهم الأمم.

ولا أظن ظلال مثل هذه الآيات تخفى عليكم، ولعلكم تستحضرون معي لماذا أرشد الشرع هذه الأمة بتكثير النسل والتناكح والعناية بالأنساب، وما ذاك إلا لمنافع كثيرة هذه واحدة منها.

انظروا في زماننا كيف تطل علينا فكرة تحديد النسل بأوسع صورها وأبشعها، زاعمة أن الاقتصار على مولود واحد في حياة الزوجين أو على اثنين سيوفر لهما حياة أرغد وأجمل، وأن الزيادة على ذلك مدعاة لمزيد من الفقر والجوع، وهذه فكرة تتعارض مع عقيدتنا التي علمتنا أن الرزق بيد الله، وأن المولود يُكتب رزقه أول ما تُنفخ فيه الروح، وأن إنجابه سبب من أسباب سعة الرزق.

بل إن وفرة الأولاد في حياة الوالدين سبب لراحتهما عند الكبر، وسبب لكثرة من يدعو لهما بعد وفاتهما، وسبب لكثرة الأجور عند الله إذا كانوا من الصالحين، وسبب لقوة الأمة اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، ولذلك دعا صلى الله عليه وسلم للزواج من المرأة الولود، وعلمنا بأن نكثر من نسلنا فإنه مباح بنا الأمم يوم القيامة.

وليست هذه النعمة الوحيدة التي ذكّروهم بها نبينهم عليه الصلاة والسلام، بل طلب منهم أن يذكروا نعم الله عليهم من خير وعافية وصحة، وسعة في الرزق، ووفرة في زينة الدنيا ورغدها. قال الله تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ " [هود: 84].

{ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } اعتبروا بمن سبقكم من الأمم الخالية والقرون الماضية ممن حولكم كقوم لوط وقوم صالح عليهما السلام، ممن ترون آثارهم وديارهم، وتعلمون حالهم ومآلهم، وتعلمون ما

نزل بهم من العقاب والعذاب والتنكيل بما اقترفته أيديهم، وبما كذبوا رسل الله وخالفوا الشرائع، فلا تكونوا مثلهم مفسدين فيصيبكم ما أصابهم من الصيحة والغرق والرجم بالحجارة.

- { وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } -

انقسم قومه إلى طائفتين، إحداهما آمنت بما جاء به، والأخرى لم تؤمن، فوعظهم هنا موعظة تحمل وعيداً لهم وتهديداً، موعظة تقوم على تذكيرهم بيوم سيفصل الله فيه بين الخلائق، وسيحكم بين أهل التقوى وأهل الفجور، وبين أهل الكفر وأهل الإسلام، وبين أهل النفاق وأهل الإيمان، وستكون العقابة فيها للمسلمين المؤمنين المتقين، وسيكون الدمار والبوار على الكافرين المنافقين الضالين.

وقد يحصل الحكم أولاً في الدنيا قبل الآخرة، فيرى أهل الكفر والشقاق والنزاع والنفاق ما سيحل بهم، فيؤمنون يوم لا ينفع الإيمان، ويندمون يوم لا ينفع الندم، ويعلمون حينها من الصادق ومن الكاذب، ومن الذي اتبع الصراط المستقيم ومن الذي أرادها عوجاً.

- { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } -

يتصدر المشهد هنا عليّة القوم وكبرائهم، وهم الذين يظهرون أمام الأتباع والعوام بمظهر الحكمة والفهم والحرص على المصالح، وهم الذين يعلمون تمام العلم أن عقيدة التوحيد إذا ملأت القلوب، وتغلغلت إلى سويدائها، فإنها ستغير وجه العالم، وستكشف للقاصي والداني عن حقيقة هؤلاء المستكبرين الذين يصدون الناس عن الإيمان، والذين يقعون في الرسل وأتباعهم ويسارعون في أذيتهم.

يخاطب الملأ نبي الله شعيباً عليه السلام، ويقولون له: أمامك أنت ومن معك من المؤمنين خياران لا ثالث لهما، إما أن ترجع إلى ملتنا وعبادة ما نعبد، وإما أن تُخرجك ونطردك من مدينتنا ومكان عيشنا واجتماعنا، أنت ومن معك ممن صدقوك واتبعوك، ونقسم على ذلك؛ عُدموا الحجة فصاروا إلى العدوان

والشَّرِّ والأَذْيَةِ، ولا أظن كلامهم وإقسامهم إلا علامة إفلاسهم، وانعدام حيلتهم، وشعورهم بالخطر العظيم، واستكبارهم عن اتباع الحق كما وصفتهم الآية.

قام عليه الصلاة والسلام فيهم بدعوته، وبذل لها الغالي والنفيس، وصبر هو ومن معه من أهل الإيمان على مكر أهل الكفر وحيلهم في الصد عن دين الله، حتى قال المكذبون كلمات يظهر منها صعوبة إيمانهم، واستحالة إسلامهم، واليأس من هدايتهم. قال الله تعالى: " قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ " [هود: 91].

يقولون: يا من تزعم أنك نبي، لا نفهم منك ما تريد فكلامك يخالف كلام العقلاء، ولا نرى في دعوتك ما يستحق الاهتمام والتأمل، ولولا عشيرتك وقربتك لتخلصنا منك ومن معك، فإنك ضعيف لا تزن عندنا شيئًا.

أجابهم على كلامهم بجواب فيه تذكير بعظمة الله وخشيته، وفيه دعوة أخيرة لهم ليعلموا من هو خالقهم، ومن الذي يستحق الرغبة والرغبة، ومن الذي ينبغي أن يكون العمل من أجله لا من أجل عشيرة أو فرد. قال الله تعالى: " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رِيبِي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ " [هود: 92].

أقول: هكذا يفعل المלא في كل زمان ومكان، يزعمون أمام من خفت عقولهم أنهم يريدون عيشًا مشتركًا وتقبلاً للآخر، وأنهم يريدون توحيد الناس وإبعاد المخربين عنهم، ولكن الذي يتأمل حالهم ويعلم حقيقتهم يجد أنهم يُبغضون شرع الله ويستكبرون عنه، ولا يأخذون منه إلا ما يوافق أهواءهم ومصالحهم، وأنهم ييغونها عوجًا، ويهدفون إلى أن يأتمر الناس بأمرهم وينتهوا بنهيهم، وإن كان أمرهم ونهيهم على خلاف منهج الله وشريعته.

ولذلك نراهم يضيّقون على مفاتيح الخير والدعوة والعلم في بلادهم، ويهددوهم في أرزاقهم وأهليهم، ويسجنوهم بلا حسيب ولا رقيب، ويدبرون لهم ليخرجوهم من بلادهم وأرضهم ذليلين مهانين؛ يرفعون زورًا وبهتانًا في ذلك كلّهِ راية حرصهم على البلاد والعباد. قال الله تعالى حكاية عن فرعون: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ " [غافر: 26].

ومن سوء صنيعهم أنهم يُقْصُونَ المصلحين عن منابرهم، ويحولون بينهم وبين الناس، ويجتهدون في إسكاتهم ومحاصرتهم، ويراقبون ما يقولون وما يكتبون، يخافون من بلوغ دعوتهم وقوتها، وترونها يحسبون كل صيحة عليهم.

ومن سوء صنيعهم كذلك أنهم يعطون مساحة للحوار والنقاش أول الأمر، يظنون أنهم قادرون على مجارة الحق وأهله، ويُخِيلُ إليهم أن باطلهم سينتصر على الهدى ويقضي عليه، ولكنهم يُهْزَمُونَ سريعاً أمام الحجة الدامغة والحق الأبلج، ويغلب على ظنهم أن هذا الدين ماضٍ في الناس لما يحمله من موافقة العقل والفطرة، فيعمدون إلى إغلاق أبواب الحوار ويبدؤون في التهديد والوعيد، ثم القتل والتعذيب والتشريد.

{ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } هذا جواب الواثق بما يعتقدده ويحمله في قلبه، جواب الواثق بدعوته وطريقه الذي اختاره، جواب من لا يضعف أمام التهديد والوعيد وإن كان صادراً ممن يقدر عليه ويملكه، يقول لهم: أنا أكره طريق الضلال والكفر، وأبغض الشرك بالله وحملته والدعاة إليه، ولن أكون معكم بحال من الأحوال، فلکم دينکم ولي دين.

يقول لهم: كيف أتابعكم في ملة أعلم علم اليقين أنها باطلة، وأن طريقها إلى سخط الله وغضبه، ثم النار !؟

إن كره المعصية وبغضها طريق عظيم لهجرانها واجتناب طرائقها، وهذا البغض يعين في ذهاب لذتها، وفي العزم على عدم الرجوع إليها، وفي هجران كل ما يُذَكِّرُ بها.

ولا تظنوا أن كراهته عليه السلام وكراهة المؤمنين هنا مقتصرة على الرجوع في الكفر بعد إذ أنقذهم الله منه، وإن كان هذا ظاهر الآية، وإن كان هذا الأمر هو الأعظم والأعلى والأولى، بل إن الكراهة ممتدة كذلك لما هددوا به من إخراجهم من القرية، فنبى الله ومن معه لا يحبون ترك الديار التي نشؤوا فيها وعاشوا تفاصيل حياتهم في جنباتها، وأوطانهم غالية عليهم بما فطروا عليه من حبها، وأوطانهم فيها أهلهم وأحبائهم، وأوطانهم أمانة في أعناقهم يسعون في هداية من فيها، ويبدلون ما يستطيعون لتحكيم دين الله وشريعته في أهلها، وهم لا يخرجون من أوطانهم إلا إذا لزم الأمر، وسُدَّتِ الطرق، وانعدمت الحيلة في إقامة شعائر الله. قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: " فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي

إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " [العنكبوت: 26]، وأخرج الترمذي وابن حبان عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة حينما خرج منها مهاجراً إلى المدينة: « ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك ».

- { قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ }

يجهل كثير من أهل الكفر قيمة ديننا في حياتنا، هم لا يعلمون أنه هواؤنا وماؤنا، هم لا يعلمون أنه سرُّ سعادتنا وفلاحنا، هم لا يعلمون أن دماءنا وأولادنا وأموالنا دونه، هم يظنون أن الدين مجرد طقوس اعتدنا عليها، وقد نتخلى عنها بسهولة، أو يمكن أن نكفر بها خوفاً منهم، أو أن نجاريهم في رذائلهم وشركهم للنجاة من وعيدهم وآلات بطشهم، ما أجهلهم !

يمضي سيدنا شعيب عليه السلام في طريق الثبات ولا يلتفت، ويقول لهم: ليس سهلاً أن نترك دين الله وعبادته وتوحيده، ونطيعكم فيما تريدون، فإن هذا من أعظم الفرية والكذب على الله، وأنا رسول الله لا أكذب عليه ولا أفترى، والمؤمنون معي صدقوا الله وعاهدوه على الثبات حتى الممات.

يقول لهم: إن نعم الله علينا كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصى، ولكن أعظمها وأنفعها نعمة التوحيد والإيمان والتقوى، تلكم النعمة التي فيها حفظ الله للعبد، وفيها السعادة والطمأنينة التي نعيشها في الدنيا، ثم النجاة من سخط الله وعذابه في الآخرة.

ولقد نجانا الله من الوقوع في حبائلكم وطرائقكم وفسادكم، ولقد نجانا الله من التخبط في العيش، ومن الضلالة واتباع الهوى، وأرشدنا وشرح صدورنا إلى الهدى، وهو مولانا وناصرنا وحافظنا، فكيف نرجع إلى ملتكم ودينكم الباطل أيها الأشقياء !؟

أقسم بالله، إن هذه الكلمات هي لسان حال القابضين على دينهم في هذا الزمان الذي ارتفعت فيه رايات المجرمين والمضلين، والذي ارتفعت فيه كلمة رؤوس أهل الفسق والفجور، والذي اشتد الحال فيه

على الدعاة المخلصين الذين جمعوا بين العلم والتقوى، أقول: لسان الحال: لن نطيعكم أيها الأشقياء، ولن نترك دعوتنا ورسالتنا، ولن نكون ممن باع آخرته من أجل دنيا حقيرة دنيئة لا تعدل عند الله جناح بعوضة.

{ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا }

يقول عليه الصلاة والسلام كلمات يريد منها تبيسهم من الرجوع إلى الكفر، ويريد أن يُظهر صلابته في الدين، فهو يعلم أن من أعظم ما يعين في الدعوة إلى الله، وفي انتفاع الغير منك أن تُظهر صلابتك وقوتك في الحق.

يقول لهم: أحاط ربنا بكل شيء علماً فلا يخفى عليه شيء كان أو يكون، ولا يكون في خلقه إلا ما أراد، وإرادته ومشيئته نافذة في خلقه، وهو الحكيم العليم، وهو العليم بصدقي معه و يقيني به وحيي له فأعطاني هذا الدين، فلا تظنوا أنني تارك ديني ما حييت إلا أن يشاء الله شيئاً، وإني أدعوه وأسأله الثبات حتى الممات، فأنا أعلم أن القلوب بيديه يقبلها كيف يشاء، سبحانه.

{ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا } لا أخاف منكم، ولن أهتز أمام جبروتكم، فقلبي وقلوب المؤمنين معي معلقة بالله فيما نأتي وفيما نذر ونترك، وقد فوضنا أمرنا إليه جل جلاله. قال الله تعالى: " وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " [آل عمران: 101].

اعتمدنا على الله في ثباتنا على الصراط المستقيم، اعتمدنا عليه وحده مع أخذنا بالأسباب، وفَوَّضْنَا أمرنا إليه وحده، وتعلقت قلوبنا به وحده؛ لأنه من توكل على الله كفاه، وَيَسِّرْ له أمر دينه ودنياه. قال الله تعالى: " وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ " [الطلاق: 3].

{ رَبُّنَا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } يفرع عليه السلام بعد أن أيس منهم إلى دعاء من بيده النفع والضرر والموت والحياة، ويسأله أن يفصل بينه وبين قومه، وأن يحكم بينهم ويقضي، ويسأله

أن ينصره عليهم ويحفظه ومن معه من المؤمنين، وأن يُظهر الحق ويدمغ الباطل، متوسلاً إلى الله بأسمائه وصفاته، ومستحضرًا حِكْمَةَ الله وعدله وعونه، ومستحضرًا أن الله تعالى هو القوي العزيز الذي لا غالب له ولا راد لأمره وهو خير الفاتحين والناصرين.

دعا نبي الله شعيب عليه السلام ربه بعد سجال طويل مع قومه، وبعد مدافعة استفرغ الفريقان وسعهما في تقديم أدواتهما، وبذلا كل ما يستطيعان بذله، فريق يسعى في الهداية ونشر التوحيد، والدعوة إلى ترك المنكرات والفواحش، وتذكير الناس بآخرتهم، وفريق يريد لها عوجًا، ويعيش لدنياها كأنها دار القرار، أقول: بعد كل هذا قال لهم نبيهم: اعملوا ما تريدون، وكونوا كما شئتم فإننا ماضون في طريقنا، ولكم دينكم ولنا ديننا، وقريبًا، ستعلمون من الذي عرّض نفسه للعذاب الأليم في الدنيا والآخرة من أجل أكل الحرام وسماعه والنظر إليه ونشره في العالمين، ومن أجل المكابرة والإصرار على دين الآباء وضلالهم. قال الله تعالى: "وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ" [هود: 93].

انظروا معي وتأملوا كيف تلهج ألسنة أنبياء الله بالدعاء في كل صغيرة وكبيرة في طريق عبوديتهم ودعوتهم، وفي طريق مدافعة أعداء الله من أهل الكفر ومن ناصرهم وأعوانهم، فهؤلاء هم قدوتنا وأسوتنا، وهؤلاء من يَعْلَمُونَ حقيقة الدعاء وأثره وثمرته حق العلم، وكأنهم يقولون لمن بعدهم من الأمم جميعًا ممن آمن منهم: الزموا تعظيم الله بدعائه، واطرقوا باب الكريم، واجعلوه دومًا مع أخذكم بالأسباب وإعداد العدة، فوالله ما أفلح عبد هجر الدعاء، ولا انتصر قوم غفلوا عنه.

ثم انظروا معي وتأملوا في القلب الذي يحمله نبي الله شعيب عليه السلام، إنه قلب عبد الله تعالى كأنه يراه، قلب حوى تعظيمًا لله وخضوعًا ورهبة ورغبة لا يسعد مؤمن إلا بها، قلب حوى الأنس كله بالله، وحوى الفرح كله بالله، وحوى الغدوة والروحة والقيام والقعود بالله، فاللهم أكرمنا بما أكرمته به.

- { وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ } -

لم يكتف الملاء بخطاب المؤمنين وتهديدهم ووعيدهم، ولكنهم التفتوا إلى الذين لا زالوا على الشرك، وخاطبهم بكلمات أرادوا منها تثبيتهم على ما هم عليه، وأرادوا تحذيرهم من الهدى والإيمان، وقالوا لهم:

يا أيها الناس، اصبروا على آهتكم، واحذروا دعوة شعيب إلى لا إله إلا الله، فإنها دعوة إلى الخسران والبور، ستخسرون مجدكم وشرفكم إذا تركتم ملة آبائكم، وستخسرون أموالكم وأولادكم وعافيتكم لأن الآلهة ستدخل عنكم، ولن تكونوا من السعداء.

الإعلام والحرب النفسية من أبرز أسلحة شياطين الإنس في الصد عن طريق الاستقامة، وهو ما يفعله عليّة القوم من أهل الكفر هنا، يوم يقسمون على أن الخسران في اتباع التوحيد، وعلى أن مخالفة الهدى هي الطريق إلى السعادة، ما أشدّ عتوّهم وتمردهم وكفرهم ! وما أفسد قلوبهم وأحرصها على الضلال ! ثم قالوا وعملوا كما قالت الأقوام من قبلهم وعملت؛ اتهموه بالسحر، وعجبوا أن جاءهم رسول من البشر، وقالوا عنه كذاب، كما دل على ذلك قول الله تعالى: " قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ " [الشعراء: 185-186].

واعلموا أنهم تهكموا بنبي الله وسخروا منه، وسعوا في إسقاطه وإسقاط هيئته ومكانته قبل نزول العذاب بهم، وذلك في قولهم: " أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَاأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ " [هود: 87]، يعني: نحن نفعل في أموالنا ما نريد، ونصرفها بالشكل الذي نريد، ونَبْخَسُ وَنُطَقِّفُ كما نريد، فلا تنهانا عما نفعل أيها الحليم الرشيد، يقصدون بذلك أيها السفیه الجاهل. ومن أهل العلم من قال: بل قصدوا أن يقولوا: لقد كنت فينا حليماً رشيداً، وعلى كلا التقديرين قصدوا الاستهزاء به والانتقاص من قدره.

ثم إنهم أصروا على كفرهم واستكبروا، ثم استعجلوا عذاب الله لهم، واستفتحوا على أنفسهم وطلبوا منه أن يأتيهم الوعيد الذي سمعوه، وبلغ من استهزائهم بوعيد الله وبما يخوفهم به نبيهم أن طلبوا منه أن تَسْقُطَ على رؤوسهم قطع من السماء لتكون عذاباً عليهم، يقولون ذلك استخفافاً بكلام نبي الله وتهديده، وليخبروه أنهم لا يخافون من عذاب الله، وأنهم لا يصدقونه في وحي السماء. قال الله تعالى في حكاية قولهم: " فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " [الشعراء: 187].

وهذا العناد والكبر والعتو والتحدي لا زال في أهل الكفر مما نسمعه إلى زماننا، وما أخبرنا القرآن عنه في الأقوام السابقين كما مر معنا، بل هو مما تكرر على ألسنة صناديد قريش وكُبَّارهم لما دعاهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى عبادة الواحد الأحد. قال الله تعالى عنهم: " وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا

أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِهِمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " [العنكبوت: 53]، وقال سبحانه: " وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ " [ص: 16]، وقال جل وعلا: " وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " [الأنفال: 32].

ولكن رحمة الله بهم سبقت، وإمهال الله لهم حصل، فأمنهم سبحانه من أن ينزل بهم العذاب ومحمد صلى الله عليه وسلم فيهم، أو وهم يستغفرون الله ويتوبون إليه، وذلك في قول الله: " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " [الأنفال: 33].

- { فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }

نزل عذاب الله بهم، وكان عذابهم كعذاب عدد من الأمم ممن سبقهم، رجفت الأرض من تحتهم واهتزت، وجاءتهم صيحة من فوقهم وهو الصوت العظيم، وأظلمت سحابة فيها صواعق وشرر ونار ولهب ووهج عظيم. قال الله تعالى: " فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ " [الشعراء: 189].

اجتمع عليهم عذاب السماء وعذاب الأرض؛ سحابة فيها نار، وصيحة من السماء ارتجفت بسببها الأرض وتحركت واضطربت وتزلزلت، فأصبحوا في قراهم جاثمين، أي: جثثاً لا تتحرك، صرعى ميتين هامدين على وجوههم، قد زهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام.

وسبحان الله، كيف هددوا نبيهم بالإخراج من الأرض والطرده من البلاد والديار، ولكن مشيئة الله أعظم، وقدره للمؤمنين أسعد، وكان أعداؤهم هم المطرودين والمبغضين، فكان العذاب من جنس ما هددوا به وظنوا أنهم يملكونه، فيا لحبيبتهم لما نسوا أن الملك أولاً وآخرًا لله العظيم، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

هم سعوا في إخافة شعيب والمؤمنين، وفي إلقاء الرعب والرهبه فيهم، وأنعبوا قلوبهم، فجاءتهم الرجفة والزلزلة في الأرض التي يسكنون، حتى خافوا ورجفت قلوبهم وارتعدت.

هم سخروا من نبيهم وأطلقوا ألسنتهم فيه، فجاءتهم صيحة أخرستهم وأسكتتهم وقضت عليهم، فكان الجزء من جنس الجرم.

هم سألوا نبيهم استخفافاً أن يسقط عليهم كسفاً من السماء، فجاءهم عذاب يوم الظلة من جنس ما سألوا، والظلة سحابة أطبقت عليهم وغشيتهم، فأظلم الجو من فوقهم، وجاءتهم بالشر واللهب والصواعق.

واعلموا أن الله تعالى أكرم عباده المؤمنين ونبيه عليه السلام بالنجاة قبل نزول العذاب بهم، قال الله تعالى: " وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ " [هود: 94].

وهنا مسألة علمية تكلم فيها كبار أهل التفسير وغيرهم، وهي في عدد الأقوام الذين أرسل إليهم نبي الله شعيب عليه السلام، فذهب جمهور أهل التفسير إلى أنه أرسل إلى أمة واحدة، وهم الذين جاء وصفهم مرة بأنهم أصحاب الأيكة، وجاء وصفهم مرة أخرى بأنهم أصحاب مدين، فهؤلاء من مدين في النسب وقد عبدوا الأيكة وهو الشجر الملتف، فدعاهم فلم يستجيبوا فنزل بهم العذاب المذكور هنا.

وذهب بعض أهل التفسير إلى أنهما أمتان مختلفتان مشتركتان في الكفر والمعاصي، وأنهما كانتا تعيشان في زمن واحد في مكانين مختلفين، فأصحاب مدين كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل إليهم ودعاهم فكفروا، فجاءهم العذاب بالرجفة والصيحة المصاحبة لها، وقد كان شعيب عليه السلام أخاً لهم في النسب وهو من قرابتهم، ولذلك جاء قول الله بذكر الأخوة في إرساله إليهم كما في السورة هنا. قال الله تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا " [الأعراف: 85].

وأما أصحاب الأيكة فقد عبدوا الشجر فدعاهم فكذبوا، فأخذهم عذاب السموم وشدة الحر الذي انتهى بظلة من السحاب فزعوا إليها يتبردون بظلمها، فأطبقت عليهم، وهؤلاء لم يكن شعيب أخاً لهم من نسبهم، ولذلك لم تذكر الآيات أخوته لهم. قال الله تعالى: " كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ " [الشعراء: 176-177].

وأياً ما كان الأمر، فإن الدروس هي الدروس، والعبر هي العبر، والسنن هي السنن، مهما اختلف المؤمنون زماناً ومكاناً، وتغاير خصومهم من الكافرين زماناً ومكاناً، فإنه سبحانه قائمٌ على كل نفس بما كسبت، وخلِّقُ الناس عنده وبعثهم كنفس واحدة.

- { الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ }

أين عظماءكم يا قوم شعيب ؟ وأين كبراءكم والملا منكم ؟ وأين من كانوا يتوعدون ويستكبرون ؟ وأين من ظننتم أن عزكم بنصرهم ؟ وأن سعادتكم باتباع رأيهم ؟ خابوا وخسروا وخبتم وخسرتم، خابوا وجاءهم هادم اللذات كأنهم لم يغنوا فيها، أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم ولا تمتنعوا بما فيها من ظلال وثمار وأنواع أرزاق أجراها الله عليهم في الدنيا، وكأنهم لم يعيشوا فيها العيشة الهنية الرضية التي كانت فيها نعم لا تُعدُّ ولا تُحصى، قد ذهب النعيم العاجل وجاءهم العذاب المقيم بغتة فنقلهم إلى دار الشقاء والعقاب.

خسر المكذبون الجاحدون خسارةً عظيمة، وكان عاقبة أمرهم ناراً تلظى لا يحيون فيها حياة كريمة، ولا يموتون فيها فيستريحون من العذاب، نسأل الله العافية.

زعم الملا المكذبون من قوم شعيب عليه السلام أن الخسارة في اتباع الهدى وسلوك طريق التوحيد، فظهر لهم بعد هلاكهم من الخاسر الحقيقي الذي خسر خسراناً لا ربح بعده أبداً.

ولا يفوتنا هنا أن نَحذر كلام كثير من الناس ممن حولنا، ممن يدعون إلى أكل الحرام والنظر إليه وسماعه ومجالسة أهله، ومن يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، زاعمين أن السعادة في الحرام، وأن الخسارة في هجرانه، أقول: احذروا كلامهم، وأشعوههم كلمة الإيمان والتقوى، وعلموهم وأقيموا الحجة عليهم بأنه لا عيش إلا عيش الآخرة، وأنه لا راحة في الدنيا ولا طمأنينة إلا بالطاعة، وأن المعاصي لا تأتي بخير، وأن شؤمها ممتد من الدنيا إلى أرض المحشر.

- { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ }

هذه كلمات التبرؤ من القوم ومن فعالهم، وكلمات التوبيخ والتقريع التي قالها نبيهم لهم بعد أن تمادوا في الكفر والطغيان عنادًا وجحودًا، فأصابهم العذاب والنكال ومضى قدر الله فيهم، وبعد أن انتهى كل شيء فلا عودة ولا رجعة، يقول لهم: لا أسف عليكم وقد كفرتم بما جئت به، وقد صدقتم عن الدين، وقد أعرضتم عن جميع رسالات ربي وآياته التي أتيتكم بها، وأعرضتم عن جميع نصحي وتذكيري الذي كررته عليكم، ولقد أيقنتم في قرارة أنفسكم أنني رسول من عند الله، ثم استكبرتم وأصرتم على ما أنتم عليه.

يا أيها الدعاة إلى الله، والمبلغون عنه، والماضون في طريقكم مع صعوبة التحديات وكثرتها: لا تأسوا على أهل الكفر، ولا تحزنوا على ما أصابهم، ولا تتوجعوا على هلاكهم، فإنهم شرُّ البرية وأسوأهم حالًا ومآلًا. قال الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ " [البينة: 6]، وقال سبحانه مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام: " وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " [المائدة: 68]، وقال جل جلاله: " فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ " [فاطر: 8].

وإتمامًا للفائدة حول مشروعية الحزن على من مات على الكفر، أنقل إليكم توجيه أهل العلم في هذه المسألة، وبيان ما هو مشروع فيها وما هو غير مشروع، فقد بينوا أن الحزن على من مات على غير دين الإسلام مشروع إذا كان من باب الشعور بالتقصير في دعوته، وكذلك إن كان من باب الشفقة الإنسانية على قريب أو على صاحب أعمال نافعة للناس أو على صاحب خلق حسن، ما لم يكونوا معادين للدين مناصرين للباطل وأهله.

وقد أصاب الحزن نبينا صلى الله عليه وسلم لما مات عمه أبو طالب على غير الإسلام، بل إنه بكى عليه الصلاة والسلام لما زار قبر أمه وقد استأذن ربنا في أن يستغفر لها فلم يأذن له سبحانه. أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: « زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه، فبكى، وأبكى من حوله فقال: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور، فإنها تذكّر الموت ». »

أما إذا كان الحزن عليهم محلاً بالبراءة من المشركين وعقيدتهم التي ماتوا عليها، وكان يحمل إقراراً لهم على باطلهم ورجاء أن يدخلوا الجنة، فهذا حزن مردود على صاحبه، منافع لعقيدة الحب في الله والبغض في الله التي هي أوثق عرى الإيمان بنص الحديث.

وقيسوا على ذلك مسألة الحزن على أهل الفسق والفجور، وأهل البدع والأهواء والضلالات من أبناء المسلمين، فلا نحزن عليهم حُزنًا يحمل إقراراً لهم على باطلهم وجريمتهم في حق أنفسهم وفي حق الإسلام والمسلمين.

بطريقة أخرى: على الداعية أن يدرك أن الأسى المنهي عنه والمقصود هنا هو الأسى على من هلك من أعداء الله بعد قيام الحجة عليه وتبليغه للرسالة، أما الأسى الذي هو الحزن والألم والتوجع على أحوالهم وهم يتقلبون في الكفر وفي الرذيلة ظهراً لبطن، وبسببه يفقدون آدميتهم وفطرتهم، فإن هذا الحزن يُعدُّ دافعاً عظيماً تجاه دعوتهم وصدق البيان والإخلاص لله فيه، وهو من أعظم الحوافز التي تجعل الداعية يطور من أساليبه ويزيدها تأثيراً ليصل إلى قلوبهم وينقذهم من خطر الموت على الكفر، والعياذ بالله.

يا أهل الإيمان والتقوى، ويا أهل القرآن والدعوة والتوحيد، هذه قصة نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه مبثوثة في آيات الله، جاءكم لتنتفعوا، وفصلها خالقكم لكم لتأخذوا زادكم منها في الطريق، لتعلموا أن سلعة الله غالية، ولتصبروا وتتقوا وتمضوا في طريقكم حتى يأذن الله بالفرج.

ولقد أقام الله الحجة على كل من علم، وكل من رأى آثارهم وقراهم، كما في قول الله تعالى: " وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَايِمٌ مُبِينٌ " [الحجر: 78-79]. أي: وإن قرى قوم لوط، وقرى قوم شعيب، لمعلومة ظاهرة بينة يعرفها السائرون في هذه البلاد، وطريقهم طريق يؤمُّ ويُقصد، وهو بَيِّنٌ واضح.

- { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ } -

انتهت خمس قصص من قصص الأنبياء والحضارات والأمم التي جاءت بها سورة الأعراف، وقد حملت كثيراً من المواعظ والعبر التي لا تكاد تنتهي، ثم تأتي بعد تسع آيات قصة نبي الله موسى عليه الصلاة

والسلام مع قومه، فتأملوا ما جاءت به هذه الآيات التسعة قبل قصة نبي الله موسى عليه السلام، وانظروا في روعة القرآن كيف يُعقَّب على ما جرى مع رسل الله وأقوامهم، وكيف يربي فينا الكثير قبل أن يُرجعنا إلى القصص الذي نحب، وكيف يحیی فينا المعاني التي ربما تفوتنا ونحن نعيش مع قصص الذين مضوا من قبلنا.

تأتي الآية هنا لتبين لنا مظهرًا من مظاهر عدل الله ورحمته بالعالمين، وهو أنه سبحانه لا يجازي أمة إلا بعد أن يرسل إليها رسولًا، ولا يعذب أحدًا من خلقه إلا بعد إقامة الحجة عليه، وبعد أن يكذب بالرسول ويكفر بالحجج، وهذا الأمر من سنن الله في خلقه كما دل على ذلك قول الله تعالى: " وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا " [الإسراء: 15].

ومن ذلك أنه يتلى الأقوام والناس في الدنيا بضيق العيش، وبما يُدخل الهمَّ والغَمَّ عليهم، لعلهم يفزعون إلى الملك العظيم الكريم الذي دَهَمَ عليه نبيهم، أو ذَكَّرهم به دعائهم، أقول: يتلى عليهم ويأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يستجيبيون ويؤمنون، ولعلهم يفردون الله تعالى بالدعاء والابتغال والتضرع والعبادة ليرفع عنهم ما هم فيه.

قال أهل العلم: بالبأساء، أي: بالفقر والشدة والجذب والحاجة وضيق العيش، وبالضراء، أي: بالأمراض والأسقام والآلام والضعف.

الإنسان بطبعه ينسى نعم الله عليه إذا غاب البلاء، ويركن إلى الدنيا إذا كان كل حالها على خير، وينسى ضعفه وحاجته إلى خالقه إذ أشغله الرخاء، ولذلك كان من رحمة الله بنا أنه يتلى لنا نصحو من غفلتنا، ونصلح ما أفسدنا، ومن رحمته أنه يضيق علينا فيما نحب ويتلى لنا الشدائد لنعلم أن نعم الله لا تدوم مع المعاصي والذنوب، وأن جنة الله لا تُنال بمجرد الأمنيات، وأن السعادة والطمأنينة لا تكون بعيدًا عن الصلاة والصيام والذكر والدعاء، ولا تكون بعيدًا عن تعلق القلب بالله والرضا بما أعطى ومنع.

يخبرنا الله تعالى في الآية عن نعمته على الأمم الماضية، ويعطينا الحجة تلو الحجة على أهل الكفر والفسق والفجور الذين يغمزون في عقائدنا، ويلمزون في شريعتنا، والذين لا ينتفعون من هذه البلايا التي تأتيهم كثيرًا، ولا يفتحون عقولهم وقلوبهم للدين الذي أكرمنا الله به وحملنا أمانته.

فهلا إذا نزل بهم البلاء تابوا وألحوا على الله بالدعاء والاستكانة والإنابة، وهالاً كانوا كحال العقلاء من الناس الذين تربيههم الشدائد والصعاب فيكفوا عن فجورهم وغرورهم، ولكنهم لم يفعلوا لأن قلوبهم كانت قاسية وعلاها الرأى فما رقت ولا خشعت ولا أفلحت، بل كابت وأطاعت الشيطان في تحسين دين الآباء من الشرك والكفر والصد عن سبيل الله، وأطاعت الشيطان في تحبيب الفسق والفجور إليهم، وإيهامهم بأنهم على الحق، وأنهم يُحسنون صنعا في بقائهم على عقيدتهم الباطلة.

أقول: ويا ليتهم فعلوا وفازوا بسعادة الدارين.

وأقول: لو تأملنا حال من فسد وابتعد عن طريق الاستقامة لوجدنا أن القسوة أحاطت بقلبه فلم يعد ينتفع بموعظة ولا تذكرة، ولم يعد يتأثر بموت قريب أو حبيب، وما كانت قسوة قلبه إلا لإصراره على الذنوب والمعاصي، وانصرافه عن الصلاة والقرآن والذكر وصحبة الصالحين، ثم أوقعه الشيطان في أوهام وشبهات، وحسن إليه ما يفعله، وتلاعب به كما يشاء، نسأل الله السلامة والعافية.

يخبر الله تعالى أنه أنزل بهم ذلك، وكأنه يطلب من نبينا صلى الله عليه وسلم أن يذكر قومه بما يعلمونه من وقوع العذاب بالذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وبأن يداوم على إنذارهم وتخويفهم من الاستئصال، بل توعدهم بذلك وخاطبهم صراحة في آيات أخر كما في قول الله تعالى: " وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " [السجدة: 21].

- { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } -

عفا الشيء إذا كثر وزاد، ومعنى عفوا هنا، أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، وجاءتهم النعم من حيث لا يدرون.

هؤلاء هم الغافلون عن الدين، والكافرون بالله العظيم، الذين ابتلاههم الله أولاً بضيق العيش والشدّة وذهاب النعم لعلهم يؤمنون، ولكنهم ازدادوا كفرًا وطغيانًا، ثم فتح الله عليهم أبواب الرزق من السماء، وآتاهم من أنواع النعيم ما الله به عليهم، وعافاهم في أبدانهم وعيالهم وأموالهم، لعل هذه النعم تكون مفتاحًا

لقلوبهم، ولعلمهم يُقبلون على ما فيه سعادتهم وهناؤهم. قال الله تعالى عن قوم موسى: " وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " [الأعراف: 168].

وقد مرَّ معنا كيف أن الله أنعم على قوم هود وقوم صالح وقوم شعيب بنعم القوة وأنواع الخيرات بعد أن كانوا ضعفاء، ولكنهم لم يزدادوا بنعم الله إلا كفرًا وبطراً فأصابهم ما أصابهم. ابتلاهم ربنا بالشدة فما آمنوا، وابتلاهم بالرخاء فما آمنوا، وحوَّل حالهم من الفقر إلى الغنى، ومن المرض إلى الصحة، ومن العسر إلى اليسر فما آمنوا، وهذا شأن أهل الكفر؛ إذا أصابهم الشر يئسوا وقنطوا، وإذا مسهم الخير استكبروا وبطروا.

يخبرنا الله هنا أنهم قالوا قد مسَّ آباءنا الضراء والسراء، أي: أُصيب آباؤنا بالضرراء والسراء قديماً قبلنا، وحصل معنا كما حصل معهم، فلم تكن الضراء جزاء كفرهم ولا السراء جزاء أعمال خير قاموا بها، فهذا حال الدنيا وهذا من صنيعها بأهلها، وليس له علاقة بما نحن عليه من عبادة غير الله، وليس له علاقة بالموعظة والتذكير، ولا بالاستدراج والنكير، وكأنهم يقولون: لن نترك ما نحن عليه ونقبل على طاعة الله وإن ابتلينا بالضيق أو بالسعة، ولم يدروا أن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ولذلك جاءهم العذاب فجأة فأخذهم على حالٍ لا تسر، ولم يُنظروا ولم يُمهلوا ليتوبوا أو يرجعوا.

قال الله تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقَطَّعَ دَائِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " [الأنعام: 42-45].

قارنوا كلامهم هذا بكلام أهل الإيمان وحالهم مع السراء والضرراء، كيف يشكرون الله عند السراء، ويصبرون عند الضرراء، وكيف يذوقون حلاوة الإيمان بتسليم الأمر لله، وكيف يتوكلون على حُسن اختيار الله لهم، وكيف امتلأت قلوبهم بالرضا عن الله لأنهم يعلمون أن كل شيء يحصل معهم إنما هو ذخر لهم يوم القيامة إذا آمنوا وصبروا وشكروا. أخرج مسلم عن صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ».

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في جسده، وفي ماله، وفي ولده، حتى يلقي الله وما عليه من خطيئة ".

وهنا فائدة لا تفوتكم، وهي ما ينبغي أن يكون عليه حال السائرين إلى الله من الحذر، ومن ضرورة الانتفاع من جميع الحوادث المفرحة والمؤلمة، ومن دوام مجاهدة النفس وعدم الاغترار بالنعم، فالمؤمن إذا رأى رزق الله متتابعاً عليه أقبل على المنعم، وسأله الثبات على طاعته، وحرص على أن يكون في ديوان الصادقين معه، الشاكرين لأنعمه.

وكان الآية تقول لنا: إذا رأيت الله يوسع عليك وأنت مقيم على المعاصي فاحذر أن يكون استدراجاً لسوء خاتمة وغضب من الرب العظيم، وإذا رأيت الله يضيق عليك فاعلم أنه يدعوك إلى التوبة من ذنب، أو يدبر لك، وتديره خير من تدبيرك.

بل تقول لنا: لا تغتروا بإنعام الله على أهل الكفر، ولا تظنوا أن هذه النعم علامة الرضا عنهم، فالدنيا يعطيها الله للجميع، ويختبر بها الجميع، والآخرة لمن اتقى وآمن ورضي.

وفائدة أخرى تقوم على الانتفاع من منهج القرآن في دعوة أهل الكفر ورؤوس الشر في الأرض، ولعلكم لاحظتم أنه منهج يقوم على الوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، وذكر الجنة والنار، وعذاب القبر ونعيمه، وسوء الخاتمة وحسنها، وهذا التنوع فيه مراعاة لطبائع النفوس التي ينتفع بعضها بالشدة، وينتفع بعضها باللين، بل قد تتقلب النفس على صاحبها فيحتاج إلى التخويف تارة، وإلى التحبيب تارة أخرى، ثم إن لغة الخطاب مع العاصي المستكبر تختلف عن لغة الخطاب مع العاصي المعترف بذنوبه وتقصيره، وكذلك تختلف لغة الخطاب مع الطائع المنكسر عن لغة الخطاب مع الطائع المغرور، ولا تنسوا أن السامة لا تكون مع التنوع والاختلاف في الوعظ والإرشاد.

- { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } -

المقصود بأهل القرى تلكم الأمم التي قص الله علينا ما حصل معها، وكيف أن الله تعالى أنذرهم وأرسل رسله إليها، وأنزل كتبه عليها، فما آمنتم ولا اتقتم، ولا صدقتم ولا استسلمتم، ولا صلت ولا صامت، ولا تركت الفواحش والمنكرات، ولو أنها فعلت ذلك لأكرمها الله إكرامًا عجيبيًا، ولفتح عليها من خزائنه ما لا يعلمه إلا هو سبحانه، ولأعطاها وأعطى أهلها كل أسباب الحياة المطمئنة في الدنيا من قَطْر السماء ورزق الأرض، وهما جماع كل خير، فضلًا عن رضوان الله عليهم في الدار الآخرة وما كان يمكن أن يكون لهم فيها. قال الله تعالى: " مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " [فاطر: 2].

كذَّب أهل القرى وصدوا عن السبيل فأنزل الله عليهم بأسه الذي أخبرنا عنه في كتابه، وأهلكهم باقترافهم الآثام والمحارم.

جاءت الآيات السابقة تخبرنا أن الله تعالى لم يعذبهم إلا بعد أن أنذرهم، وبعد أن ابتلاهم بالضراء موعظة لهم وإنذارًا، وابتلاهم بالسراء مكرًا بهم واستدراجًا، ولو أنهم أرادوا النجاة والفلاح لاستقاموا.

يا أهل مكة، يا من أعرضتم عن دعوة نبيكم، وبذلتكم كل شيء لاستئصال شأفة هذا الدين وإخراجه من قريتكم، يا من آذيتكم خير البشر صلى الله عليه وسلم وآذيتكم أصحابه، يا من خفتكم على ملككم ومكانتكم ومصادر رزقكم: آمنوا برازقكم إلهًا واحدًا، واتركوا شرككم وأصنامكم، واعتبروا بسنن الله فيمن مضى، والتفوا حول نبيكم ودعوته تغنموا وترجوا، وتأتيكم خيرات الأمم وتكونوا سادتها.

ولقائل أن يقول: وهل جميع القرى كفرت برسلها كما فعلت مكة مع نبينا صلى الله عليه وسلم، وكما فعل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ؟

والجواب أن الله تعالى أخبرنا أن أكثر الناس ليسوا حريصين على الإيمان، وأن أهل القرى قلما يؤمنون جميعًا، وأن الدنيا تتلاعب بأهلها وتعثرهم وتصرفهم عن سبيل الاستقامة. قال الله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ " [سبأ: 34]، وقال سبحانه: " فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " [العنكبوت: 40].

ومما أخبرنا به ربنا جل وعلا أن قوم يونس عليه السلام آمنوا بعد كفرهم، وأنهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذابه ونجّاهم، وأمدّ في أعمارهم ومتّعهم بالصحة والعافية والرزق الوافر. قال الله تعالى: " فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِينَةً آمَنَتْ فَأَفْعَفَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْتَسَّرُونَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ " [يونس: 98].

أشعر أن الآية تخاطبنا وتحيي فينا الكثير، وإن جاءت في بيان حال أهل الكفر الذين كذبوا، تخاطبنا لأن صنفًا منّا يتجرأ على الذنوب والمعاصي ولا يتوب منها، ويرى شؤمها في كل شيء حوله ويصرُّ عليها، بل قد يستصغرها ولا ينظر إلى عظم من عصي، بل قد يجاهر بها غافلاً عن جزاء من جاهر واعتدى. قال الله تعالى: " وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا " [الطلاق: 8-11].

نرى صنفًا من أبناء أمتنا يتهاون في أكل الحرام وظلم الناس وغشهم وخداعهم، أو يتهاون في غيبتهم والوقوع في أعراضهم والتحريش بينهم، أو يتهاون في أكل الربا والاقتراب من الزنا، أو يقطع رحمًا، أو يؤذي جارًا، أو يترك العمل لأتمته ودينه، أو يرى استضعاف المسلمين والدعاة ولا ينصرهم، وهؤلاء لم يظلموا أنفسهم وأهليهم فقط، ولكنهم ظلموا أمتهم، وحرّموا البلاد والعباد من بركات السماء والأرض، ومُنّعنا بسببهم نصر الله لنا وتوفيقه، وتسلّط علينا أمم الأرض من غير المسلمين.

ولا يفوتكم هنا جُرم الأمة الأكبر، أعني: ترك تحكيم الشريعة في بلاد المسلمين في مجالات متعددة، كالنظام الاقتصادي والسياسي ونظام العقوبات وغير ذلك، وتفضيل شرائع بلاد الكفر على الإسلام وهدّيه، فضلًا عن التقصير والإهمال الذي نجده في نشر العقيدة والعلم الشرعي في أبناء الأمة وبناتها، وإلى الله المشتكى.

وقد مرَّ معنا آنفًا جزءٌ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وإليكُم تمامه، فقد أخرج ابن ماجه بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أَقْبَلْ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: " يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى

يعلنوا بما إلا فشأ فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم".

جاءت الآية تخاطبنا وتذكرنا وتحذرنا من الاعتزاز بستر الله علينا وإمهاله لنا، مع أننا نرى بؤس الحال وشقاءه مع كثير منا، ونرى الفساد كيف يزداد ويحاصرنا، ونرى كيف تسلطت علينا شعوب الأرض ومكرت لنا وبنا، ووالله لولا الله وفضله وحفظه لهذه الأمة، ولولا بقية من الصالحين المصلحين القائمين على ثغور هذه الأمة، وأخص منهم الشباب ذكورًا وإناثًا، لكان حالنا أصعب وأشدَّ تعقيدًا.

أقول: ثبات هؤلاء المصلحين من العلماء والدعاة في دعوتهم، وإحيائهم لما مات في أمتنا، هو أملنا ورجاؤنا، وهو النور الذي يضيء لنا الطريق، ويبقى أملنا بالله معقودًا وقد وعدنا بالنصر والتمكين ما رجعنا إليه، فاللهم قوة.

- { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ } -

هنا تخويف وتحذير لعموم أهل القرى والبلاد والحضارات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو لأهل مكة وما حولها، وهم الذين نزلت فيهم هذه الأخبار والآيات لينصروا دين محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتجرؤوا على الله وأوامره ونواهيه، وليتركوا اغترارهم بما هم عليه من الكفر، واغترارهم بالأمن والرزق الذي أعطاهم الله.

يا أيها الناس في كل زمان ومكان، لا تأمنوا من نزول سخط الله عليكم بياتًا، أي: ليلاً وأنتم تبيتون وتنامون وترتاحون، وأنتم في غفلة عظيمة، وأنتم غير مستعدين، وأنتم مقيمون على الكفر والعداء والمكر لهذا الدين وهذه العقيدة.

ولقد رأينا أقوامًا من أبناء جلدتنا أغناهم ربي من فضله، وفتح عليهم بأنواعٍ من الرزق، فاغتروا ومكَّنوا في أرضهم لأهل الكفر ورؤوس الفسق، وضيقوا على أهل العلم والدعوة، وأمنوا غضب المنتقم القادر العليم جل جلاله.

يا أيها العصاة ممن يمضي ليله في الرقص والغناء، وفي مخادنة النساء والاقتراب من الزنا، وفي رؤية الحرام وسماعه ومجالسة أصحابه، ويا من تبيتون وقد أكلتم حقوق قرابتكم وغيرهم، واعتديتم على أموالهم وأعراضهم: احذروا أن يأتيكم بأس الله وعذابه ونكاله وأنتم غافلون، واحذروا أن تفجعكم سكرة الموت وأنتم نائمون.

والمطلوب: آمنوا يا أهل الكفر، وتوبوا إلى الله أيها العصاة وأرجعوا الحقوق إلى أربابها، وأقبلوا على توحيد الله وطاعته وتعظيمه.

- { أَوَّامِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ } -

لا تظنوا أن بأس الله لا يأتيكم إلا ليلاً وأنتم نائمون، بل قد يأتيكم وأنتم منهمكون في نشاطكم قبل خروجكم إلى شغلكم وتجارتكم، وذلك بعد طلوع الشمس وقت الضحى حين يبدأ النهار، فيأتيكم وأنتم تلعبون وتأنسون وتلذذون وقد ظننتم أنكم أسعد الناس وأن سعادتكم لن تنقطع.

وقيسوا على ذلك كل وقت يكون الناس فيه في غفلة عن الدار الآخرة، ويطيب لهم الضحك واللعب والنوم وهم مضيعون لحقوق الله أو حقوق العباد. قال الله تعالى: " وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ " [الأعراف: 4].

والمقصود: ننام ونغدو في أعمالنا وتجارتنا وهونا ونحن على حذر، ونحن نخاف من الموت على معصية، ونحن مبادرون في الخيرات وترك المنكرات، ونحن نحمل قلوبًا سليمة من الشرك والحقد والضغينة.

ونقول للقوي: لا تغتر بقوتك، ونقول للغني: لا تغتر بغناك، ونقول للعالم: لا تغتر بعلمك، ونقول للعابد: لا تغتر بعبادتك، واسألوا الله دومًا أن يصرف قلوبكم وأعمالكم وما أنعم به عليكم إلى طاعته،

واسألوهُ أن يكتب لكم الثبات وحسن النيات. قال الله تعالى: " رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ " [آل عمران: 8].

وكذلك، نحسن الظن بخالقنا، ونستحضر أن أولياء الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن عذاب الله لن ينزل بهذه الأمة ما دام الاستغفار فيها حاضرًا كثيرًا كما مر معنا.

- { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } -

من أعجب العجب أن نرى ما حل بالأمم من قبلنا، وأن تأتي آيات الله تترًا، وأن نرى كل ما حولنا يُذكرنا بالآخرة وبالإقبال على الله، ويزكرنا بأن الله سريع العقاب وأنه غفور رحيم، ثم بعد كل ذلك لا نعتبر ولا نتعظ.

تصف الآية حال أهل الكفر وأهل الفسق والفجور الذين أحاطت بهم خطاياهم وقست قلوبهم، تصف حالهم وخسارتهم في الدنيا والآخرة، ذاك أنهم آمنوا مكر الله فكانوا هم الخاسرين، أي: ظنوا أن نعمة الله لن تحل بهم، وأن قدرته عليهم وأخذه لهم بعيد عنهم، وأن إمهال الله لهم ومزيد نعمه عليهم وهم مقيمون على الكفر والفجور إعراضٌ عنهم أو رضا بما يصنعون.

وربنا جل وعلا أخبر أنه يخدع المنافقين ويمكر بالكافرين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويدبر لهم ما يزيدهم طغيانًا وكفرًا ويقربهم من نزول العذاب بهم بما فعلوه، كما في قول الله تعالى: " إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ " [النساء: 142]، وقوله سبحانه: " وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ " [الأنفال: 30]، وهذه الأفعال من الله تعالى ذكرت جزاءً على خداع المنافقين ومكر الكافرين، فهي من باب المقابلة على صنيعهم، ومن باب المجازاة بأفعالهم، فكانت من الله عدلاً وكمالاً.

واعلموا أن المكر والخداع من الناس قد يكونان في الخير وقد يكونان في الشر، وقد أذن بهما الشرع حال الحاجة إليهما كما في الحرب، ولكن المكر والخداع من الله تعالى لا يكونان إلا في الخير.

ولأن الأمن من مكر الله يُعدُّ من خصال الكافرين والمنافقين والخاسرين فلا ينبغي لنا أن نتشبه بهم، ولا يليق بنا أن نكون مثلهم، وإليكم مزيدٌ من البيان والاستطراد في التفريق بين أهل الإيمان وغيرهم لنكون على دراية من حالنا ومآلنا.

أقول: إن أهل الإيمان لهم علامات وسيِّمٌ تتبَّعها أهل العلم وذكروها ليحيا من حيٍّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، قالوا فيها:

1- من علامات الإيمان أن أهله خائفون مشفقون وجلون، مع أنهم للطاعات فاعلون، بخلاف أهل الكفر والفجور والنفاق فإنهم لا يخافون، ولا للدار الآخرة يستحضرون، مع أنهم على المعاصي مقيمون. أهل الإيمان يراقبون الله تعالى على جميع أحوالهم ويستحيون منه حق الحياء، ويعلمون أن الله تعالى معهم بعلمه وسمعته وبصره، يرى مكائهم، ويسمع سرهم ونجواهم، ولا يخفى عليه شيء من حالهم.

2- المؤمن لا يحرص على المعاصي في خلوته ولا يخطط لها ولا يُصرُّ عليها، ولكنها قد تقع منه على غفلةٍ فيسارع للتوبة والاستغفار، ويجدد العهد مع الله وإن تكرر منه الذنب، بخلاف أهل النفاق فإنهم يتجرؤون عليها في خلوتهم ولا يتوبون، ولا تتمعر وجوههم أو تضطرب قلوبهم إذا رأوا ذنباً أو اقتربوا منه، وإن كان كبيراً.

3- المؤمن حريص على إخفاء عمله وقد يُظهره لمصلحة معتبرة، بخلاف المنافق الذي يحرص على طلب الثناء من الناس ولا يعمل بدون ذلك.

4- أهل الكفر والنفاق يمكرون بالعلماء وطلبة العلم والدعاة ويسخرون منهم ليصدوا الناس عنهم، وقد يستهزؤون بشعائر الإسلام لإسقاط هيبتها من القلوب والعقول.

أما المؤمنون فيعظمون الشعائر، ويوقرون أهل العلم، ويمسكون ألسنتهم عن الشر.

- { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } -

تذهب أقوام وأمم عن الدنيا وترحل، من بعد أن كانوا أهلها وعمروها وتنافسوها، وتأتي أقوام وأمم ترث الأرض من بعدهم وتُستخلف، ولا تُعتبر ممن مضى ولا تنتفع مما جرى معهم إلا قليلاً.

ذهب قوم عاد وحلّ محلهم أقوام، وذهبت ثمود ومدّين وحلّ محلّهما أقوام، وورثوا ديارهم وسكنوها وعلموا تمام العلم ما نزل بأهلها، فكيف لهم ألا يكونوا على حذر؟!

طبع الله على قلوبهم، وعلاها الران وحيل بينهم وبين الهداية لما نادى عليهم رسلهم ودعتهم للإيمان فلم يؤمنوا، ولما ذُكِّروا فلم يتذكروا، ولما عَلِّمُوا وفُهِمُوا فلم يتعلموا أو يفهموا. قال الله تعالى عن اليهود: " فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا " [النساء: 155].

نداء من الله لكل من ورث الأرض وتمكّن فيها، نداء يحمل بياناً لحال من سبقونا، ويحمل تذكيراً لنا لئلا يصيبنا ما أصابهم، ولئلا يحلّ بنا ما حل بهم، ولئلا يعاقبنا الله بإسرافنا على أنفسنا بالحرام كما عاقبهم، ولئلا يحرّمنا هدايته وتوفيقه وإعانتته كما حرّمهم، نداء يقول لنا: لا تكونوا مثلهم. قال الله تعالى: " وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ لِحُبِّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ " [إبراهيم: 44-45]، وقال سبحانه: " أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ " [السجدة: 26].

ما أعظمه من خطاب لأصحاب القلوب التي فيها بقية خير، القلوب التي تنتفع من هذه الآيات وإن كانت في سياق بيان حال أهل الكفر، القلوب التي تخاف أن يطبع الله عليها فلا تبصر الحق ولا تهتدي بنوره، ولا تستمع لآيات الله ونداءاته استماع من يبحث عن الحق وينقاد له، استماع تفقه وتدبر واتعاظ. قال الله تعالى: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " [الحج: 46].

- { تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَعْيَتْ عَنْهُمُ الرُّسُلُ فَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ كَارِهُونَ } -
قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ {

يا محمد صلى الله عليه وسلم، ويا أيها المؤمنون الدعاة إلى دين الحق وإلى الخيرات: قصصنا عليكم من أخبار قوم نوح وعاد وثمود، ومن أخبار قوم لوط وشعيب وغيرهم من أنبياء الله عليهم السلام، قصصنا عليكم سيرتهم التي تجهلون تفاصيلها، وذكرنا أخبارهم التي بعدت عنكم زماناً؛ إغذاراً من خالقكم إليكم، وبياناً للحق من الباطل، ورجاء تبليغها للعالمين ليتحقق الانتفاع منها وبها.

قصصنا عليكم أخبار الأمم من قبلكم لتعلموا أن الله ناصركم وحافظكم، وليعلم قومكم أن دائرة السوء ستدور عليهم ما أقاموا على الكفر وأصرّوا عليه، وما أخذتم أنتم بالأسباب وراعيتم سنن الله في التمكين والاستخلاف.

{ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ } هذه الأمم الهالكة سارعت في تكذيب الرسل وردّ الحق، ثم لما جاءتهم البينات والدلائل على صدق النبوة لم يؤمنوا كما لم يؤمنوا أول ما بلغتهم الدعوة، وتصلّبوا في الكفر وكذبوا بهذه البينات كما كذبوا أول ما دعاهم رسولهم إلى الحق والهدى. قال الله تعالى: " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " [الصف: 5].

ومن أهل العلم من قال: إن التكذيب الأول قد حصل منهم لما عاهدوا الله تعالى على أن يعبدوه، وكانوا في ذلك يكذبون، وذلك حين استخرجهم ربنا من صلب أبيهم آدم عليه السلام قبل أن يخلق الخلق، وقد ظهر كذبهم بكفرهم بالرسول لما جاءتهم، وقد سبق علم الله فيهم بما يكون منهم. قال الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ " [يونس: 96-97]. وسيأتي مزيد بيان في ذلك في تفسير الآية التالية.

{ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } تكذيبهم من خذلان الله لهم، ومن حرمانهم من أنواره جلّ جلاله، كل ذلك بما كسبت أيديهم وبما امتلأت به صدورهم من الكفران والبغض للدين وأهله.

ختم الله على قلوبهم وطبع عليها، وأغلقها فلم تفقه رسالة الأنبياء، ولم تسارع في الاستجابة إليها، ولم تنظر في آيات الله الكونية والشرعية، وبقي الحال هذا فيهم حتى أصبح الكفر بآيات الله تعالى طبعاً لهم وحياة، واختفى نور الإيمان من معيشتهم ففسدت، وعادت عليهم بما يشقيهم.

هنا تسلية من الله لنبيه عليه الصلاة والسلام وللدعاة جميعاً ممن لا يجد من قومه إلا الصدود والاستهزاء والعداء والإيذاء، تسلية تقول لهم: إن ما تلقونه من أقوامكم ليس لتقصيركم، ولا لضعف الحق الذي تحملونه، ولكنه لفساد قلوب المعرضين، ولحرمانهم من فضل الله وكرمه ونوره، فاحرصوا على دوام الدعوة إلى الله وابدلوا ما تستطيعونه في نشر الخير، واستحضروا أن الهداية أولاً وآخرًا بيد الله تعالى خالق القلوب ومالكها، وله الحكمة في كل ذلك والعلم والقدرة، سبحانه ما أعظمه.

- { وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ }

أي: وما وجدنا لأكثر الأمم السابقة التي هلكت من عهد يلتزمون به ووعد يوفون به، بل وجدناهم يكذبون ويخونون ويخلفون، وإن وجدنا أكثرهم لخارجين عن طاعة الله والامتثال لأوامره، يفعلون ذلك عن عمد وقصد وحرص.

وهذا العهد كان يصدر من الأمم المكذبة حين تطلب من نبيها معجزة، تقول له: لو أتيتنا بما طلبنا لنكونن من المؤمنين، فلما تأتاهم الآية يحدون ويفسقون.

ومن أهل العلم من جعل العهد هنا ما أخذه الله تعالى على جميع الناس وهم في صلب أبيهم آدم قبل أن يُخلقوا، يوم أشهدهم على وحدانيته فشهدوا وأعطوا العهود والمواثيق على العبادات والتوحيد، ثم لما خلقهم وبلغتهم الدعوة في الحياة الدنيا ارتد كثير منهم، وهذا حال من مات على الكفر وأبى الإسلام. قال الله تعالى: " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " [الأعراف: 172].

ومعلوم لديكم أن كل مولود يولد على الفطرة الطيبة النقية الصافية، الفطرة التي تقوده إلى التوحيد وتعظيم من خلق، ولكن بيئته التي ترعرع فيها قد تودي به إلى المهالك وتصرفه عن الجادة والطريق المستقيم، أو قد يستحوذ عليه الشيطان فيضلُّه ضالًّا بعيدًا. أخرج مسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته، حكاية عن الله تعالى أنه قال: " وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم ⁵⁷ عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً " الحديث.

وهذا حال أكثر الناس، أكثرهم في غفلة وفي ركون إلى الدنيا ولذائدها، ولا تراهم يطيعون خالقهم إلا حين الحاجة، وتراهم لا يثبتون على ما عرفوا إلا قليلاً، فاللهم اشرح صدورنا لما تحب واجعلنا هداة مهتدين.

- { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }

تقدّم معنا ذكر قصص أنبياء الله نوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين، ثم إن الله تعالى أرسل بعدهم وبعد غيرهم نبيّه وكليمه موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه الأشراف والكبراء، أرسله إلى قوم عتاة جبابرة، فكذبوا بالآيات ولم ينقادوا لها، وأعرضوا عنها عناداً بعد أن أيقنوا بصحتها، وظلموا أنفسهم بعدم الإيمان بها، وجحدوا الدلائل وأفسدوا في الأرض، فعاقبهم ربنا وأغرقهم، فاعتبروا يا أولي الأبصار بما فعلناه بهم، وأنظروا يا من جاءكم آيات الله وحججه، وتأملوا كيف أهلكهم الله وأتبعهم الدّم واللعة في الدنيا ويوم القيامة. قال الله تعالى: " فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ " [النمل: 13-14].

أجملت الآية هنا قصة نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وكانت كالمقدمة التي لا يسع من قرأها إلا أن يقول: وما تفصيل القصة ؟ فيأتيك الجواب في الآيات بعدها.

⁵⁷ أي: صرفتهم وذهبت بهم إلى الباطل والكفر.

ونبي الله موسى عليه الصلاة والسلام هو موسى بن عمران، وهو من بني إسرائيل وليس من قوم فرعون، وللعلماء اجتهادات في الفترة الزمنية بين مبعثه ومبعث نبيينا عليهما الصلاة والسلام، وأكثر أقوالهم تدور حول ألفي سنة تقريبًا، وليس في المسألة نص ثابت.

أرسله الله تعالى إلى فرعون وقومه من جهة، وإلى بني إسرائيل من جهة أخرى، ومن رحمة الله تعالى ببني إسرائيل أن أرسل إليهم موسى عليه الصلاة والسلام، وكان إرساله مفتاح نجاتهم من فرعون وملئه الذين استعبدوا بني إسرائيل وقتلوهم، واستحيوا نساءهم في الخدمة والمذلة.

أرسله ربنا ليخرج قومه من الظلمات إلى النور، وليدعوهم إلى دين الله الذي هو الإسلام، وليعرفوا ربهم ويعبدوه وحده. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ " [إبراهيم: 5].

وأرسل معه أخاه هارون عليه السلام نبيًا ليكون عونًا لسيدنا موسى عليه السلام كما طلب من ربنا جل جلاله.

وقد أوحى الله إلى أمه أن تلقيه في البحر وهو طفل رضيع، لينجو من فرعون الذي كان يقتل الأولاد الذكور في ذلك العام وفي غيره خوفًا على ملكه، وذلك أن السحرة والمنجمين أخبروه بأن ملكه سيزول على يد من سيولد في هذه الفترة الزمنية كما قال أهل التفسير والتاريخ.

ألقت أمه في البحر استجابة لوعي الله، وطلبت من أخته أن تتبّع أثره وتبحث عنه، ففعلت حتى علمت أن آل فرعون التقطوه، وأنه الآن في قصره، وأنهم يلتمسون له مرضعًا فكانت أمه هي مرضعته.

فرحت به زوجة فرعون آسية ونهتهم عن قتله، ولما بلغ أشده آتاه الله حكمًا وعلمًا.

واعلموا أن ذكر نبي الله موسى عليه السلام في القرآن باسمه وتفاصيل قصته مع قومه، لم يكن لغيره من الأنبياء، حتى زاد ذكر اسمه عن مائة مرة، ونجد في كل سورة جانبًا من سيرته يخدم أغراض السورة وأهدافها، ويناسب السياق الذي جاءت فيه، وهو ما نراه في كثير من السور التي فصلت في بيان قصته كما في سورة الأعراف هنا، وكما في سورة طه والشعراء والقصص وغيرها.

ولقائل أن يقول: ولماذا كان كل هذا البيان في القرآن لنبي الله موسى عليه السلام في سيرته مع قومه، مع أن القرآن استطرد في قصص غيره من أنبياء الله كما في قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم وعيسى وغيرهم، ولكن ليس كسيدنا موسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام؟

والجواب كما ذكر أهل العلم أن ثمة تشابهاً كبيراً بين حال نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام وحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة العظمى خاتمة الرسالات، فموسى عليه السلام أوتي شريعة دينية دنيوية، فيها من بيان الحلال والحرام الكثير، كما هو الحال في شريعتنا، ولذلك وجدنا النصارى مثلاً يؤمنون بالعهد القديم وهو التوراة، ويؤمنون بالشريعة التي فيها لأن أناجيلهم خالية من الشرائع. وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يُؤذَى، وكان مما يقوله إذا أُوذِيَ كما أخرج البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم: "يرحم الله موسى، قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر".

ثم إن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام إلى أمة عظيمة، كانت في زمانها خير الأمم والعالمين، وأعطاه الله ملكاً عظيماً، وجعل منها أنبياء وملوكاً، وهي التي جاء ذكرها وبيان فضلها في قول الله تعالى: "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلَيْ فُضِّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" [البقرة: 47]، وقوله سبحانه: "وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" [الدخان: 32].

والله تعالى اصطفى أمة محمد صلى الله عليه وسلم لتكون خير الأمم مطلقاً، وجعل فيهم من أنواع الخيرات ما تعلمون، حتى إن مُلِكَ هذه الأمة وخيرها والنور الذي معها بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وهي موعودة من خالقها بمزيد من السَّاء والتمكين.

ثم إن هذه الأمة، أعني بني إسرائيل، موجودة إلى أيامنا وممتدة في شعوبها ونسلها، ومنتشرة في البلاد، ولها كتاب سماوي يزعم أصحابه أنه الكتاب الذي أنزل على موسى، وهذا يجعل بيننا وبينهم صولات وجولات في بيان الحق وإبطال الباطل، وفي الوصول إلى الأمم وهدايتها، وفي الهيمنة على الأرض وتحكيم أمر الله ونهيه، ونشر عقيدة الحق والأخلاق.

ومن أوجه التشابه كذلك أن الله تعالى لم يعامل بني إسرائيل بالاستئصال والهلاك العام، كما عامل من قبلهم وكما عامل فرعون وقومه، بل أمد في أعمار بني إسرائيل، وجعل لهم نسلًا وذرية إلى أيامنا، مع أنهم

أفسدوا وتردد كثير منهم بين الكفر والإيمان، ومع أنهم قتلوا عددًا من أنبياء الله وكذبوا آخرين، ومع أنهم قابلوا نعم الله تعالى عليهم بما لا تستحق.

وكذلك لأن الذين اتبعوا سيدنا موسى عليه السلام كانوا فريقًا كثيرًا، وكذلك الذين كفروا به، وهذا حال أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذي آمن به كثير وكفر به كثير.

أما فرعون فهو ملك مصر، وهو من القبط وليس من بني إسرائيل، ولفظة (فرعون) لفظة تُطلق على ملك مصر، كما يطلقون على ملوك الفرس لقب (كسرى) وعلى ملوك الروم لقب (هرقل)، وعلى ملوك الحبشة لقب (النجاشي)، وعلى ملوك اليمن لقب (تُبَّع)، وقد اختلفوا في اسم فرعون وليس ثمة ما يثبت اسمه يقينًا.

وقد كان فرعون مستكبرًا في نفسه، يظن أنه الرب القادر، ويخاطب الناس بلغة تدل على عظم عتوه وغطرسته، وتدل على تلك الذلة والمهانة التي بلغها قومه وبنو إسرائيل.

والغريب أنهم كانوا يصدقونه ويطيعونه، ويخافون منه ويعبدونه، وهذا لم يتحقق له إلا بعد أن استخف عقولهم وملأها بالجهل والخرافة، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: " فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ " [الزخرف: 54].

انظروا في خطاباتهِ التي كان يوجهها للناس، وانظروا في كلماتهِ التي كان يحاصر فيها عقولهم وقلوبهم، ثم انظروا فيما يفعله بعض فراغة هذا الزمان الذين استخفوا عقول كثير من أقوامهم، وخيلوا إليهم أنهم يرزقون ويحيون ويميتون، وإلى الله المشتكى.

بل انظروا فيما تفعله بعض فرق الضلال والبدع ممن جعل صفات الربوبية في بشر ماتوا، واعتقدوا فيهم صفات لا تكون إلا لرب العالمين جل جلاله، سواء كان الميث من أولياء الله أو من الدجالين المفترين. قال الله تعالى حكاية عن فرعون في خطابه لقومه: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ " [القصص: 38]، وقال سبحانه عنه: " فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى " [النازعات: 23-24].

كان فرعون في أعلى درجات الكفر والباطل، فقد كان ينكر وجود الرب ويعتقد أنه هو رب الناس، بخلاف من كفر من الأمم والأقوام الذين اعتقدوا وجود الرب ولكنهم اتخذوا الأصنام وغيرها آلهة معه وشريكة له.

ولذلك يقدم قومه يوم القيامة سابقاً لهم في الدخول إلى النار. قال الله تعالى: " يَفْقَدُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ " [هود: 98].

- { وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

قتل نبي الله موسى عليه السلام رجلاً بالخطأ، ثم خرج من مصر نحو مدين هارباً من قرابة مَنْ قتله، ثم يسّر الله له زواجه من إحدى ابنتي الرجل الصالح في مدين، وأقام عشر سنين عند أبيها يعينه وفاء له وأداء لمهر زوجته، ثم خرج من مدين فرأى ناراً في الوادي المقدس، وعندها أمره الله أن يذهب إلى فرعون ويدعوه، بعد أن أراه معجزات في العصا التي كان يحملها، وفي يده.

هنا في الآية بدأت دعوة نبي الله موسى عليه السلام لفرعون الذي يخافه كل الناس، وكانت دعوته تقوم على الوضوح والبساطة ولين الخطاب، يقول له كلاماً واضحاً: إني رسول من الله صادق فيما أقول، أرسلني إليك وإلى قومك لأخرجهم من الظلمات إلى النور، ولأعيد الناس إلى فطرتهم وإلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، ولأدلهم على طريق التطهر من دنائس الكفر ورذائل الشرك، ولأعينهم على سلوك صراط الله الذي هو مستقيم وليس عوجاً.

ناداه عليه السلام باسمه الذي يدل على الملك والسلطان، ولم يترفع عليه، بل أنزله منزلته استجابة لأمر الله لما قال له: " فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى " [طه: 44]

وانتبه يا فرعون، أنا رسول من رب العالمين الذي خلق ورزق وأحيا وأمات، والذي يقلب الليل والنهار كيف يشاء، والذي خلق الشمس والقمر والنجوم، ولست أنت رب العالمين فإنك لا تملك من الأمر شيئاً.

- { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ }

هنا ثلاث مسائل:

1- يخاطب نبيُّ الله موسى عليه السلام فرعونَ وملائه، ليطمئنوا بما يقول وليتقينوا من صدقه، يقول لهم: حقُّ عليَّ ألا أكذب على الله، يعني: حريُّ بي وجدير ألا أبتغى على الله وأفتري عليه، ووجب عليَّ وثبت في حقي أن أبلغ رسالات ربي بأمانة، فأنا الرسول الذي أراي الله تعالى من عظمة سلطانه وعزِّ جلاله وملكوته، وأنا الذي اصطفاني بالمعجزات من عنده، وأنا الذي شرح صدري لأن أكون مفتاحاً للهدى والنور، وأنا الذي لو افتريت على خالقي ورازقي ومالك أمري لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر. قال الله تعالى: " وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ " [الحاقة: 44-47].

2- يقول عليه السلام لهم: لا تستغربوا من دعوتي لكم ومن لغة الثبات التي أتكلّم بها في ديني، ولا تتعجبوا من ثقتي بما معي من الحق، فقد جئتم من عند الله ببينة تُثبت صدقي، ولا يسعكم مع هذه الحجة القاطعة التي ستعلمون أنها معجزة من عند خالقي وليست من عند البشر، لا يسعكم إلا أن تتبعوني وتؤمنوا بما جئت به، وسأريكم إياها لعلكم ترشدون.

3- { فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } أدعوك يا فرعون أولاً إلى الإيمان بالله أنت وقومك، ثم أطلب منك أن تطلق بني إسرائيل من أسرك وقهرك، وأن تأذن لهم بالخروج من مملكتك وسلطانك إلى دار غير دارك، وأن لا تحول بينهم وبين عبادة ربك وربهم، وأن تتركهم يُدبرون شؤونهم، ويختارون طريق التوحيد والإيمان، فهؤلاء ممن اختارهم الله واصطفاهم من ذرية إسرائيل، وهو النبي يعقوب بنُ إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، الذين اصطفاهم الله تعالى وأكرمهم بالنبوة من قبلي.

- { قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }

يقول له فرعون بعد أن استمع إليه، ودارت الحوارات بينهما: هات حجتك التي زعمت، وبين لنا معجزتك التي تُثبت ما ادّعت، فلَسْنَا نصدقك فيما تقول، ولا نراك نبياً مرسلًا من عند أحد.

وهذه الحوارات جاءت في عدد من آيات الله تعالى في سور أخرى، والتي دلت على أن فرعون ناقش نبي الله موسى عليه السلام في كلامه عن رب العالمين، واستفصل منه عن صفات خالقنا جل جلاله، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما يليق بالله، وأعطاه مزيداً من البيان عن صفات الربوبية وعظمتها، ليعلم هو وقومه أن فرعون ليس ربّاً ولا خالقاً ولا رازقاً، فما قابل فرعون ذلك إلا بالتكذيب والاستهزاء والسخرية، بل والتهديد والوعيد. قال الله تعالى: " قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَهُمُ مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَهُمُ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَعِنَ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ " [الشعراء: 23-29]، وقال سبحانه: " قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى " [طه: 49-53].

وقد كان هذا الحوار بين فرعون وموسى عليه السلام بعد حوار آخر دار بينهما أول ما دخل عليه، وفيه أن فرعون ذكّر موسى بأنه تربي في قصره وأنه قتل نفساً من قومه، فأجابه عليه السلام بأن قتله للنفس كان خطأ منه وليس عمداً، وأنه هرب منهم خوفاً مما كانوا يعزمون عليه، ثم إن الله تعالى أوحى إليه وأرسله. قال الله تعالى: " قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ " [الشعراء: 18-21].

وكان كذلك بعد أن بادر فرعون وقومه بالتكذيب أول ما دعاهم عليه الصلاة والسلام، معتردين عن قبول دعوته بأنه واحد من البشر، كما فعلت الأقوام من قبلهم. قال الله تعالى: " ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ " [المؤمنون: 45-47].

- { فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } -

لما أوحى الله إلى نبيه موسى عليه السلام في الوادي المقدس وأمره بدعوة فرعون وقومه، كان مع نبي الله عصا يتوكأ عليها ويستعملها في رعاية غنمه، فأمره الله أن يلقيها، فصيرها خالطها حيَّةً تزحف، فخاف موسى عليه الصلاة والسلام أول الأمر ثم ناداه الله وأخبره بأنه من الآمنين، فعلم موسى عليه الصلاة والسلام أن هذا الأمر لا يقدر عليه البشر، ولا يكون إلا من عند الخالق القدير الذي يقول للشيء كن فيكون.

هذه العصا ألقاها عليه السلام على الأرض أمام فرعون وملئه من السحرة والكهنة ومن يدير أمر دولته وأمته، فتحولت إلى حية عظيمة كما يقول المفسرون، فدعر منها فرعون ومن معه، وعلموا أن هذا لا يكون سحراً، وأن تحولها إلى ثعبان كان بيتاً حقيقياً ظاهراً وليس خداعاً للبصر وتحايلاً.

- { وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ }

كان نبي الله عليه السلام يميل إلى السُّمرة، وكانت يده كذلك، فلما أخرجها من جيبه⁵⁸ صارت بيضاء منيرة بإذن الله دون أن تظهر عليها علامات السوء من برص ونحوه، فكان يبايضها طبيعياً مصحوباً بالسلامة من كل علة، وذلك أمام أعين الملأ وأبصارهم، ثم عادت كما كانت بعد أن أرجعها إلى كُمه أو جيبه، فكانت آية أخرى وعلامة على أنه رسول من عند الله. قال الله تعالى: " وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِذْ هُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ " [النمل: 12].

- { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ }

هذه المقولة قالها أولاً فرعون لما شعر أن دعوة نبي الله موسى عليه السلام تُهدد عرشه وملكه وربوبيته المزعومة، ولما غلب على ظنه أن المعجزات التي رآها من حَوْلِهِ ربما تحرك شيئاً في صدور القوم، فأطلق كلمته في موسى عليه الصلاة والسلام ووصفه بأنه ساحر، مع أنه نشأ فيهم وبينهم ولم يكن قد اقترب من السحر ولا علمه. قال الله تعالى: " قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ " [الشعراء: 34-35].

⁵⁸ والجيب فتحة اللباس من عند الصدر.

ولا تظنوا أن فرعون اتهمه بالسحر فقط، بل وصفه بالجنون كذلك، وهي عادة الأمم المكذبة برسليها وأنبيائها، فإنها تصفهم بأوصاف كثيرة لإسقاط دعوتهم وتنفير الناس منهم. قال الله تعالى: " فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ " [الذاريات: 39].

وافق السادة وأهل المشورة والرأي فرعونَ في كلامه ورأيه كما في الآية هنا، ورددوا ما قاله؛ فهو سيدهم وقائدهم، وهو ربهم بحسب زعمهم، وقالوا: إن الذي فعله إنما هو سحر، وسحره هذا يدل على أنه عليم راسخ متفوق في فنون السحر، وهذا النوع مما لم يصل إليه مَنْ في هذا القصر وهذا المكان.

وهكذا يفعل الأتباع دومًا في تعاملهم مع أسيادهم؛ يرددون كلامهم بدون تمحيص، بل يرددونه وهم يعلمون أنه زور وبهتان، بل يقبلون الحق باطلًا والباطل حقًا من أجل أن تكون كلمة أسيادهم هي الأعلى.

أراد فرعون والملا أن يوهما أنفسهم أن هذا مجرد سحرٍ وليس أكثر من ذلك، وأن انبهارهم منه وخوفهم إنما هو لرؤيتهم لونًا جديدًا من ألوان السحر لا عهد لهم به، يمارسه شخص ماهر في التخيل والإيهام والكذب، ولكن سيدنا موسى عليه السلام أجابهم وردَّ عليهم وبيَّن لهم أن ما جاء به ليس من السحر، وأن أهل السحر لا يفلحون. قال الله تعالى: " فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ " [يونس: 76-77].

- { يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } -

ما أعجب قولهم هنا ! وما أغربه من كلامٍ ليس له صلة بالدعوة ولا بحقيقتها ! غاية ما فيه استشارة مشاعر المستمعين وتحييئتهم وتهيجهم ليقفوا في صف الباطل وينصروه، وليجتمعوا على كلمة واحدة ولا يتفرقوا، وكلامهم هذا يذكرنا بما قاله فرعون قاصدًا ما قصدوا يوم ظهر موسى عليه السلام عليه وانتشرت دعوته في البلاد. قال الله تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ " [غافر: 26]، فحرَّض على سيدنا موسى زاعمًا أنه يفسد في الأرض ويريد تبديل الدين.

هنا في الآية زعموا أن غاية سيدنا موسى عليه السلام من دعوته إخراج قوم فرعون من أرضهم التي ترعرعوا فيها وسادوا وصالوا وجالوا، وكأن القلق من دعوته يزداد لحظة بعد لحظة، فجعلوا يتشاورون ويطلبون الرأي السديد والرشيد من أجل إخماد الدعوة وإطفاء نورها في القلوب، ومن أجل أن يُثبتوا لكل من سمع منه وعنه أنه ليس نبيًا، بل كاذبًا ومفتريًا، صلى الله عليه وقبحهم الله.

إن غاية الدعوة إلى الله التي يريد بها أنبياء الله ورسله، ويريدها الدعاة إلى الله تعالى، أن تُخرج الناس من ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان وروعته، وكذلك الإعذار إلى الله تعالى الذي أمر بتبليغ الناس الحق وتحذيرهم من الباطل، وكذلك أن تعلق كلمة الله في الأرض كلها ويظهر التوحيد على غيره.

والمقصود: آمنوا يا قوم فرعون تنالوا عِزَّةَ الدنيا والآخرة، وتتمكنوا من أرضكم زيادة وزيادة، وتصبحوا أسياد الدنيا، ويأتيكم رزق الله وفضله من فوقكم ومن تحت أرجلكم.

وسبحان الله العظيم، كانوا حذرين من أن يُخرجهم موسى بدعوته من أرضهم، فعاقبهم ربنا بالخروج من أرضهم يوم لحقوا موسى عليه السلام والمؤمنين ليقتلوهم، ثم غرقوا في اليم ولم يرجعوا إلى أرضهم. قال الله تعالى: " وَثُرِيَ فِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ " [القصص: 6].

وكأني بهم وهم يناقشون أمر موسى عليه السلام ودعوته، قد خافوا من ظهور بني إسرائيل عليهم، وشعروا أنه سيكون لهم ملك إذا آمنوا بموسى عليه السلام وصدقوا، فجعلوا يطلبون الرأي والمشورة بقولهم: { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ }، أي: كيف ندفع ضرره القريب منا؟ وكيف نحول بينه وبين استمالة الناس إليه؟

انظروا وتأملوا في آيات آخر، كيف تنقل لكم مزيدًا من المدافعة بين أهل الحق وأهل الباطل في الحجة والبيان. قال الله تعالى حكاية عن ملائكة فرعون: " قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ " [يونس: 78].

بل انظروا في آيات آخر تنقل لكم شيئًا من الحالة النفسية التي عاشوها، والتي جعلتهم يتشاورون جهريًا ويتنازعون فيما يفعلون، ثم يتشاورون سرًا ليتفقوا على لغة إعلامية واحدة يخرجون بها إلى جمهور الناس. قال الله تعالى: " قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ

أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى " [طه: 61-64].

- { قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ }

اتفق فرعون وعلية قومه بعد مشاورات على أمرين اثنين:

1- أرجه وأخاه، يعني أجزه واحبسه وأمهله ولا تجعله يذهب ويرحل، ولا تستعجل في الفصل في أمره، وكذلك الأمر بالنسبة لأخيه هارون عليهما السلام.

2- ابعث وأرسل في كل الأقاليم والبلاد التي تخضع للملك والتي تعرفها، واطلب منهم أن يأتوا بأفضل السحرة وأمهرهم، ممن عندهم دراية ودربة وخبرة بجميع أنواع السحر وكيفية إبطاله، احشروهم واجمعوهم في مكان واحد لنعارض سحر موسى بسحر مثله، ولننتصر عليه أمام الجميع.

وكان مما قاله الملأ لموسى عليه السلام: هل تظن أنك ستخدعنا بجعل العصا ثعباناً ؟ وبإخراج يدك من جيبك بيضاء بخلاف حقيقتها ؟ فلترينك ما تعلم به من الأقوى، ومن الأعلم والأمهر، فاختر أي يوم تريده لنبطل سحرك وليعلم الجميع حقيقتك، فأجابهم عليه الصلاة والسلام بأن موعدكم يوم الزينة وقت الضحى، وهو يوم يجتمع الناس فيه ويتزينون لعيدهم أو لمناسبة قههم، وجعل اجتماعهم وقت الضحى في أول النهار ليكون أبعد عن الريبة وأظهر في رؤية الحق بخلاف الليل. قال الله تعالى: " قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى " [طه: 57-60].

وسبحان الله، كيف يُستدرج هؤلاء من حيث لا يعلمون، فهم لم يبادروا إلى قتله أو سجنه، لأنهم يعلمون أنهم لو فعلوا ذلك لتحقق الناس أن موسى عليه السلام قد أظهر عجز فرعون، وبطل دينه وعقيدته التي أمر الناس بها واستخف عقولهم باتباعها.

ومن استدراجهم كذلك أنهم جعلوا ينادون في الناس أن اجتمعوا لتشهدوا هذا اليوم العظيم الذي سينتصر فيه الرب فرعون على موسى الذي يزعم أن هناك رباً غير فرعون. قال الله تعالى: " وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ " [الشعراء: 39-40].

عجيب أمر هذا الرب ! يستشير كل من يثق به للقضاء على دعوة التوحيد، ثم يستنجد بالسحرة لتعلو رايته، فأين قدرته ؟! وأين عظمته ؟!

- { وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ }

كان السحر في زمن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام غالباً، وكانوا يعتقدون في السحرة ما يدل على تعظيمهم وارتفاع مكانتهم، وكان فرعون يقرهم ويستعين بهم في التمكين له وفي تعبيد الناس وتركيعهم، ولذلك جاءت معجزة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام من جنس ما ظنوه شيئاً عظيماً، ومن جنس ما يعلمون ويتقنون، لعلهم يؤمنون بعظمة الخالق وقدرته ووحدانيته، ويكفرون بفرعون وما أمرهم به.

أقبل السحرة الذين طلبهم فرعون من القرى والبلاد، وجاؤوا بحماسة وثقة كاملتين، وسألوا واستفصلوا عن سحر موسى عليه السلام بزعمهم، واشتروطوا على فرعون العطاء الجزيل الواسع المكافئ إن هم غلبوا موسى عليه السلام. قال الله تعالى: " فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ " [الشعراء: 41].

جاؤوا والدنيا تملأ قلوبهم وعقولهم، ووقفوا مع الباطل ونصروه معظمين لفرعون، وراحين المال والمنصب.

وهكذا حال أهل الدنيا، وهكذا الملأ الذين نراهم في زماننا في كثير من بلادنا، يلتفتون حول الباطل ويحمونه، ويأتون بشريعة أهل الكفر وينصرونها، ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ويمكرون بأهل العلم والمصلحين، يفعلون كل ذلك من أجل أن ينالوا حظهم من الدنيا، من أجل أن يزيد مالهم، ويعلو شأنهم، ويضمنوا لعيالهم وأهليهم حياة كريمة كما يزعمون.

اعلموا أن الدنيا تُذل أهلها ولا ترفعهم، وتستدرجهم بالأمانى والغرور، وتُحيل إليهم أن مناصبهم لا تفي، وأن أعمارهم تبقى، وأن أنصارهم في الباطل لن يخذلوهم.

- { قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ }

وَعَدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِإِعْطَائِهِمْ مَا يَرِيدُونَ، وَمَنَّا هُمْ وَأَغْرَاهُمْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ فِي مَجَالِسِهِ، وَالْقُرْبِ مِنْهُ فِي سِيَاسَةِ دَوْلَتِهِ وَقِيَادَةِ أَهْلِهَا، وَجَمَعَ لَهُمُ بَيْنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَهُ وَيُطْلُونَ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَعَلَّهُمْ يَبْذُلُونَ كُلَّ مَا بَوَسَعَهُمْ لِيَغْلِبُوهُ. قُلْتُ: وَهَذَا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مَنْ تَسَلَّلَ الْخَوْفُ إِلَى قَلْبِهِ، وَصَارَ يَعْيشُ هَشَاشَةً دَاخِلِيَّةً وَإِنْ زَعَمَ مَا زَعَمَ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ تَخَاطَبُنَا لِنَفْقَهُ حَقِيقَةَ مَا يَعْيشُهُ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي دَاخِلِهِمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا خِلَافَ ذَلِكَ.

- { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ }

يُتَقَوْنَ بِأَنْفُسِهِمْ ثِقَةً عَظِيمَةً، وَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَكَّمَ فِي طَرِيقَةِ بَدْءِ هَذَا التَّحْدِي، وَهَذَا إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَشْكُوا فِي انْتِصَارِهِمْ عَلَيْهِ وَهَزِيمَتِهِ، وَأَنَّهُمْ رَاسَخُونَ فِي السَّحَرِ وَفَنُونِهِ، وَأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ مَجْرَدُ سَاحِرٍ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنَافِعَهَا.

وَيَدُلُّ كَذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يُظْهِرُوا هَذِهِ الثِّقَةَ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَالْمَلَأِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَعْدُّوا عَصِيَّتَهُمْ وَحِبَالَهُمْ وَتَجَهَّزُوا كَمَا يَنْبَغِي.

قَالُوا لَهُ: ابْدَأْ إِذَا شِئْتَ وَأَلْقِ قَبْلَنَا، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ الَّذِي يَرْمِي أَوَّلًا يَكُونُ تَأْثِيرُهُ أَقْوَى غَالِبًا، وَكَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ تَخْوِيفَهُ وَاسْتِرْهَابَهُ بِهَذَا الْخَطَابِ، وَيَرِيدُونَ إِظْهَارَ عَدَمِ الْمُبَالَاهَةِ بِهِ وَبَصْنِيْعِهِ.

- { قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ }

أَجَابَهُمْ أَنَّ يَبْدُؤُوا هُمْ بِالْقَاءِ مَا بِأَيْدِيهِمْ، فَيَسْبِقُوهُ إِلَى النَّاسِ الَّذِينَ حَضَرُوا، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْبَهَرَ الْجَمْعُ أَوَّلًا بِسِحْرِهِمْ، وَيَفْرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ، وَيَسْتَبْعِدُوا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَقْوَى مِنْ فِعْلِهِمْ، وَأَرَادَ كَذَلِكَ أَنْ يَحِيطَ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُمْ وَيُبْصِرَ تَفَاصِيلَهُ.

استجابوا لأمره، وألقوا ما في أيديهم، وأقسموا بعزة فرعون إنهم لغالبون، كما في قول الله: " فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ " [الشعراء: 44]، فصارت عصيُّهم تتلوى وتتحرك، وتقبل وترجع، وكانت كثيرة يركب بعضها بعضاً في الظاهر، وخيلوا للناس أن ما فعلوه له حقيقة، وأنهم استطاعوا أن يقلبوا العصا والحبل إلى حية حقيقية تتحرك بإرادتهم، فاسترهبوهم، أي: فأدخلوا الرهبة والتعظيم والخوف إلى قلوبهم مما رأوا.

والصحيح أنهم سحروا أعين الناس، أي: أوهموهم وخدعوهم بعد أن جعلوا العصي والحبال تتحرك بخفة أيديهم وباستعانتهم بالشياطين والشعوذة، وجاؤوا بسحر عظيم أبهرهم وفتن عقولهم وقلوبهم وزيادة، وخوَّفهم من شدته وقوته وكثرته، حتى إن سيدنا موسى عليه السلام لما رأى ذلك دخل الخوف إلى قلبه خشية ألا ينتصر عليهم، وألا تعلق كلمة الله في هذا الموطن وبين كل هذا الحشد، فأنزل الله سكينته عليه، وأمره بأن يمضي بلا خوف أو حزن، كما سيأتي في تمام الآيات. قال الله تعالى: " فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَتَمَّا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى " [طه: 66-69].

قال بعض أهل السير والتاريخ والتفسير: صفٌ خمسة عشر ألف سحر، مع كل ساحر حباله وعصيته، وخرج موسى عليه السلام وليس معه إلا أخوه والعصا التي يتكئ عليها. وقال بعضهم: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل. وقال بعضهم: جمع فرعون سبعين ألف سحر. ولعله من نقلهم عن أهل الكتاب وليس في ديننا ما يثبت أو ينفيه، ولكن القرآن وصفه بأنه سحر عظيم استرهب الناس.

واعلموا أن السحر الذي قدَّمه هؤلاء السحرة هو ضرب من ضروب السحر فإنه أنواع، منه سحر التخيل والإيهام الذي ليس له حقيقة في الواقع ولكن يسحر العين ويوهمها أن هذا الشيء على خلاف حقيقته.

والسحر في اصطلاح الشرع عَرَفَهُ ابْنُ قُدَّامَةَ بِأَنَّهُ: "عَزَائِمٌ وَرُقَى وَعُقَدٌ يُوَثَّرُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، فَيُفْرِضُ وَيَقْتُلُ، وَيَفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ".

وأهل السنة والجماعة على أن السحر له حقيقة، قال الإمام النووي: "والصحيح أن السحر له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء"، وقال الإمام القرطبي: "ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة".

وتأثير السحر إنما يكون بإذن الله الكوني والقدري، وهو من عمل الشياطين، وكثير منه لا يتوصل إليه إلا بالشرك والتقرب إلى الجن والشياطين بما تحب، ولذلك جاء التهي عنه في الأذيان السماوية، وتعددت النصوص الشرعية في التحذير منه ومن أهله، فإن فعله والإعانة عليه علامة على حباثة نفس، وفساد دين، ولذلك كان من الموبقات المهلكات، وكانت عقوبته القتل عند كثير من أهل العلم.

ومن ابتلي بضر من السحر في بدنه وأهله، فعليه بالرقية الشرعية من المعوذتين وآية الكرسي وغيرها من كلام الله العظيم، ففي ذلك عمارة للقلب باليقين بالله وحسن التوكل عليه والثقة به، وليحرص على استخراج السحر إن أمكن.

ويوصي بعض أهل العلم بالحجامة وبعض الأدوية النافعة كالتمر وورق السندر وغيرهما مما يعلمه الثقات من أهل التخصص.

وقد صح عند البخاري أن اليهودي لبید بن الأعصم سحر النبي صلى الله عليه وسلم، وأن هذا السحر أثر على بدنه لا على عقله، بل لما ولد الصحابي الجليل عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، وكان أول مولود يولد للمسلمين في المدينة فرحوا به فرحاً شديداً، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم.

- { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } -

ربط الله على قلب نبيه عليه الصلاة والسلام، فقال لهم كلمات تدل على يقين هذا النبي بالله وتوكله عليه. قال الله تعالى: " فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ " [يونس: 81].

أوحى الله إلى نبيه في ذلك الموقف العظيم، وبين ذلك الجمع الرهيب، أن ألق عصاك لتعلو راية الحق، وليعلم أهل الباطل أنهم ليسوا على شيء وإن بدا لأول وهلة أنه شيء.

ألق يا موسى العصا التي يمينك، واعلم أن الله معك ولن يخذلك أو يضيعك، وارفع رأسك بالحق الذي تحمله واجعل يقينك بالله وحده، فلما ألقاها استجابة لأمر الله انقلبت ثعباناً فيه حياة، وجعلت تلقف إفكهم، أي: تأكل وتلتقم وتبتلع كل حباهم وعصيتهم التي هي من الإفك والكذب المصطنع والممّوءة، والذي لا يوافق الواقع ولا ينفع شيئاً أو يضر.

قال أهل التفسير: ثم رجعت بعد أن أكلت كل شيء إلى عصا يحملها موسى عليه السلام بيده.

ما أجمله من سياق قرآني يربط على قلوب المؤمنين، وكأنني برسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه هذه الآيات قد طار بها فرحاً، فإنها تنادي عليه لتربط على قلبه، وتقول له: امض يا محمد على ما أنت عليه، ولا يحزنك الذين يعادونك ويسارعون في أذيتك ويمضون في الكفر، واعلم أن الله محيط بهم وسينصرك عليهم، وسيخرجك من بينهم سالماً ومن الخير غانماً.

- { فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } -

قال الله تعالى: " وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا " [الإسراء: 81]، وهذا وصف عظيم لقوة الحق وضعف الباطل، مع أن الحق في لحظة ما قد يبدو ضعيفاً، وأن أهله لن يكون لهم التمكين والاستخلاف، ومع أن الباطل في لحظة ما قد يبدو متمكناً لا غالب له، وقد يبدو أهله أنهم قادرون على الدنيا ومن فيها، ولكن أمر الله إذا جاء، وقع الحق وظهر وانتصر وتمكن من القلوب والعقول، وبطل الكفر والفسوق والضلال، وزالت شوكة أهله وتقهقرت. قال الله تعالى: " وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ " [يونس: 82].

- { فَعَلُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ } -

صاغرين، أي: ذليلين حقيرين، وهذا وصفٌ لحالهم يوم ظهرت حقيقة السحر، ويوم ظهرت معجزة نبي الله موسى عليه السلام، والتي كانت مدعاة لأن يؤمن الناس جميعًا، وعلى رأسهم فرعون وجنوده.

ظهر صدق سيدنا موسى عليه السلام لمن شهد وحضر، وظهرت معجزته التي أيقن السحرة أنها معجزة وليست سحرًا، وذهبت هيبة الباطل وأهله وفُضحوا وظهر عجزهم، ورجعوا بالخيبة والخسران المبين.

وسيطهر صدقك يا محمد صلى الله عليه وسلم للناس جميعًا، وسيبلغ دينك ما بلغ الليل والنهار، فاطمئن أنت ومن معك من المؤمنين، وامضوا في دعوتكم وخذوا بالأسباب، وأخبر من حولك من أهل الكفر بما حصل مع فرعون وجنوده ليعتبروا وينتفعوا ويتعظوا قبل فوات الأوان.

- { وَالْقِيَّ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } -

علم السحرة الذين هم أدرى الناس بالسحر وخیالاته، أن ما حصل من نبي الله موسى عليه السلام لم يكن سحرًا، وليس فيه أمارات الشعوذة واتباع الشياطين، وأنه ليس له إلا تفسير واحد، وهو أنه معجزة من عند الله الخالق القادر، وأن هذا لا يكون إلا بأمر حكيم خبير عليم، فسجدوا لذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، الذي خلق فرعون وهامان والناس أجمعين، والذي خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، والذي أمر عباده بتوحيده وعبادته ليظفروا بالخيرات.

علم السحرة أنه تأييد من الله لنبيه عليه السلام، وأيقنوا بالحق الذي جاء به، فسجدوا من دون جميع الحاضرين، سجدوا بدون تردد أو تريُّث، وبدون استئذانٍ من فرعون الذي زالت عظمته من قلوبهم، سجدوا تعظيمًا لله رب العالمين.

- { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } -

سبحان الله كيف تغلغل الإيمان إلى قلوبهم، وكيف جهروا به أمام من كانوا يحلفون بعزته قبل لحظات، ثم كيف فزعوا إلى ربوبية خالق الأرض والسماوات ومدبر أمرهما، وذلك بعد أن كان يزعم فرعون أنه هو الرب.

بل إنهم أعلنوا إيمانهم بالله وحده، أعلنوه حال سجودهم لئلا يظن الناس أنهم سجدوا لفرعون، وقد كان من عادتهم فعل ذلك، ثم إنهم بينوا ذلك أكثر وأكثر يوم أعلنوا أن سجودهم لرب موسى وهارون عليهما السلام لا لفرعون الذي كان يقول لهم أنا رب العالمين.

ليس سهلاً أن يستيقظ المرء بعد أن كان قلبه ميئاً، ليس سهلاً أن يترك الكفر الذي تربى عليه وعاشه وناصره وكان رزقه وفرحه فيه، وليس سهلاً أن يترك معصية الزنا وشرب الخمر وأكل الربا واللعب بحقوق الناس بعد ما ذاق لذة هذه الكبائر، ولكن العبد إذا استحضر الشقاء الذي كان فيه بسبب الكفر أو الحرام زالت عن بصره الغشاوة، وإذا دبَّ الخشوع لله في قلبه صار حيّاً، وإذا ذاق سعادة عبادة الله والصلاة له، ثم ذاق حلاوة ذكره والأنس به وحده، أدرك الحرمان الذي كان يعيشه يوم اتبع هواه.

قال السحرة: آمنا برب العالمين كلهم، وهو الرب الذي دعانا لعبادته وتوحيده موسى وهارون عليهما السلام، وهو الرب الذي نجده في فطرتنا، ونرى عظيم خلقه بأعيننا، ونستدل على مُلكه وتديره بكل شيء حولنا إذا سلمت عقولنا وتجردت نياتنا.

آمنوا بموسى عليه السلام وما جاء به لأنهم يعلمون أن السحر الذي معهم لا يُغلب، وأنه يستحيل أن يقف أمامه أحد، فظهر لهم يقيناً أن حية موسى عليه السلام معجزة من عند الخالق العظيم، فتفتحت عقولهم، وزال ما عليها من عمى، وذهب الرّان عن قلوبهم، وشرح الله صدورهم لما يحب ويرضى.

واعلموا أن عددًا من بني إسرائيل آمنوا بنبي الله موسى عليه السلام وإن كانوا قلة بالنسبة لأعدادهم الكثيرة، آمنوا وفي قلوبهم خوف من فرعون أن يفتك بهم ويبطش، وأن ينتقم منهم ويصرفهم عن دينهم. قال الله تعالى: "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ" [يونس: 83].

- { قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لُتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }

انتهت لغة الحوار المزعوم والتحدي عند فرعون، انتهت لغة الإنصات الزائف، والموضوعية المدّعاة، وانقضت ساعات الثقة بما عنده، وترك طريقته في مناقشة الفكرة والدعوة، وتحول إلى لغة الانتقام والتهديد والوعيد، وانتقل إلى العمل على استئصال دعوة نبي الله موسى عليه السلام بالقضاء على حملتها، والتخلص من كل من آمن بها ليكونوا عبرة لكل معتبر، وكما قال أهل العلم: أَعْجَزَتْهُ الْحُجَّةُ فصار إلى الجبروت.

يُنْكَرُ عليهم إيمانهم بما جاء به موسى من التوحيد قبل استئذانه، ويظهر شدة غضبه من سجود من كان يرجو نصرهم، ويتوعددهم بأشد أنواع العقوبة وأصعبها، وهذا يدل على الاستبداد الذي كان يمارسه عليهم في الأبدان والأقوال والأفكار، إذ كيف يتجرؤون ويتجاوزون حدودهم بالالتفاف حول أهل الإيمان دون إذن منه، قَبَّحَهُ اللهُ وَقَبَّحَ أَمْثَالَهُ.

وهذا حال كل من حمل الباطل ودافع عنه ونصره في جميع الأزمان، يبدأ أولاً بإظهار قبوله للآخر والتحاور معه ومناقشته، ثم يتبدل الحال بعد أن يرى قوة الحق وسرعة تأثيره، وبعد أن يدرك هشاشة ما يحمله ويعتقده، يتبدل الحال ويبدأ بإظهار أسوأ ما عنده، من سجن للمصلحين، وتضييق عليهم في أرزاقهم، وتهديد لهم في أهليهم وأعراضهم، وقتلهم واغتياهم إذا لزم الأمر؛ يرفع في ذلك كله شعار حماية شعبه وإنقاذهم من هؤلاء المخربين بزعمه.

وهكذا تنهزم الأمم وتصبح في القاع، وهكذا تنحط في العلم وتضعف، وهكذا تحف العقول وتعلق بالتفاهات ويسهل استعبادها.

والعجيب هنا أن فرعون انقلب على سحرته الذين كان يتفاخر بهم آنفاً، والذين رفعوه وعظّموه وبذلوا له من كلمات الطمأنينة والثقة بالنصر ما بذلوا، ولكنهم لما خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، ولما ذاقوا شيئاً من سعادة عبودية مَنْ خَلَقَ وَرَزَقَ وأحيا وأمات صاروا له أعداء، فهدّدهم وخاطب الناس زاعماً أن الذي حصل معه كان بخدعة ومكر من السحرة ومن موسى عليه السلام، وأنهم تشاوروا واتفقوا عليه في المدينة قبل أن يأتوا هنا، اتفقوا عليه بزعمه ليضروا بالناس ويفسدوهم، ولينالوا زعامة بني إسرائيل وقيادتهم، ثم ليخرجوهم من تحت ملكه وسلطانه وتكون لهم دولة.

بقي فرعون لعنه الله يدلّس على الجماهير، ويخاطبهم بروايته التي انطلقت من وصف نبي الله تعالى بالسحر، وأنه ساحر عظيم تأثر السحرة به فتعلموا منه واتبعوه، وسوف ترى الجماهير وتعلم ما هو صانع بهم، وسوف ينتقم. قال الله تعالى حكاية عنه: " قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " [الشعراء: 49].

زعم أن موسى عليه السلام ساحرٌ مع أنه رأى المعجزات من أول ما دعاه، ومع أنه يعلم تمام العلم أن موسى عليه السلام لا يعرف السحرة ولم يلتق بهم، ومع أنه أعطى سحرته وعودًا كبيرة يستحيل معها أن يتخلوا عنه ويتركوه، وقد ظهر له سعيهم للقرب منه وحرصهم على الظفر برضاه.

- { لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ }

يقول ماضيًا في تهديده ووعيده: لأقطعن من كل ساحر يداً ورجلاً من خلاف، أي: مختلفة الجهة وعكسها، بمعنى: يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يده اليسرى ورجله اليمنى، ثم لأجعلنكم بهذه الهيئة المشوّهة على جذوع النخل على هيئة الصليب⁵⁹ ليعتبر الناس بكم، وينظروا في جزاء من خالف فرعون ورفع راية التحدي له. قال الله تعالى: " فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى " [طه: 71].

- { قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ }

أجاب السحرة فرعونَ جوابَ الواثق بخالفه، والمطمئن بنصره وحفظه، والعالم الموقن بأن ما عند الله خير وأبقى، وقالوا له: أكثر شيء يمكن أن تفعله بنا هو قتلنا، وهو ما نرجوه من أجل أن نلقى سيدنا ومولانا وهو راض عنا، ومن أجل أن يُكفّر عنا خطايانا التي عَرَفْنَا فيها من قبل. قال الله تعالى: " قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ " [الشعراء: 50-51].

⁵⁹ أي: واقفين على خشبة تمدون أيديكم بجانبكم.

وقالوا له: بعد الموت سنقلب ونرجع إلى ربنا الذي نخافه أكثر مما نخافك، ونخشى عذابه أكثر مما نخشى عذابك، ونرجوه أكثر مما نرجوك. قال الله تعالى: " قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ " [طه: 72-75].

- { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ }

بمضون في كلام العزة والثقة بموعود الله وصدق الاستعانة به، ويقولون له: نحن آمنة بالله، وصدقنا برسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذا ما جعلك تنقم منا وتُبغضنا وتكرهنا وتعلن عداوتك لنا، وتتوعدنا بالقطع والقتل والصلب.

ثم فزعوا إلى من يفرح بتوبة عبده، ولجؤوا إلى من يحيط بالكفر وأهله، وتوجهوا بخالص الدعاء إلى من يقول للشيء كن فيكون، وسألوه الصبر على هذا البلاء وعلى صعوبة قادم الأيام، وأن يثبتهم على الإسلام، ويميتهم على الإيمان بما جاء به الأنبياء، وأن يجعل خاتمهم خاتمة أهل التوحيد والعمل الصالح، وسبحان الله كيف كانوا في أول يومهم سحرة، وفي آخره يرجون أن يكونوا شهداء برة.

- { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ }

يصف الملأ نبي الله موسى عليه السلام ومن آمن به من بني إسرائيل بأنهم مفسدون، فقد جاؤوا بدين ليس فيه عبادة فرعون واعتقاد فرعون ودين فرعون، وجاؤوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال التي لم يأمر بها فرعون ويرتضيها، والناس تتبعهم في ذلك ويزداد المؤمنون به ولا ينقصون، فيطلب الملأ من فرعون ألا يتركهم أحراراً آمنين يخاطبون الرعية والعبيد والخدم ويخاطبونهم ويؤثرون فيهم.

اعلموا أن إطلاق وصف الفساد والإفساد على دعوة الإسلام والتوحيد التي حملها نبي الله موسى ونبي الله هارون عليهما السلام لم يكن خاصاً بالملأ من قوم فرعون، بل هو وصف أطلقه فرعون أولاً، ثم ردّد الملأ ما قاله سيدهم ورحمهم المزعوم كما مرّ معنا. قال الله تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ " [غافر: 26].

وكأن هؤلاء الملأ أرادوا أن يتقربوا من فرعون أكثر وأكثر ليعطيهم من الدنيا، وكأنهم رأوا منه تراخيًا في اتخاذ ما يلزم من عقوبة موسى عليه السلام ومن معه فأثاروه وهيّجوه.

أجابهم إلى طلبهم بأنه سيُنذَلُ بني إسرائيل زيادةً وزيادة، وسيقهروهم أكثر مما كان، وسيعمد إلى تقتيل الأبناء الذكور لئلا يبقى فيهم رجالٌ، وسيعمد إلى استحياء النساء، أي: إبقائهن على قيد الحياة للعمل في الخدمة والمهن الحسيسة المهينة، وما ذاك إلا ليُحَكِّمَ قبضته عليهن، ويجعلهن تحت قهره وسلطانه، ويمنعنهم ويمنع رجالهم من أن يرفعوا رؤوسهم وينطقوا بالحق، فإن الولد والعرض من أغلى ما يملكه المرء. قال الله تعالى: " فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ " [غافر: 25].

ولقائل أن يقول: ذكر الملأ هنا في الآية آلهة فرعون، فما هي الآلهة التي كان يعبدونها مع أنه كان يدّعي أمام الناس أنه الرب وأنه الإله ؟

والجواب أنه جاء في قراءة أخرى للآية بلفظ " إِلَاهَتَكَ " أي: عِبَادَتَكَ، فيكون معنى الآية: كيف تتركه يأتي بدعوة يكون فيها تركك وترك عبادتك، وهكذا يستقيم تفسير الآية مع الآيات الأخرى، ولكن هذه القراءة شاذة لا يقرأ بها أصحاب القراءات الصحيحة المتواترة وإن كانت مروية عن ابن عباس رضي الله عنهما ومروية عن إمام التفسير من التابعين مجاهد.

ومن أهل العلم من قال: كان لفرعون إله يعبد في السِّرِّ ولا يعلم به إلا المقربون.

ومن أهل العلم من قال: كان قوم فرعون يعظمون الأصنام ويرون أن الصنم الأكبر عندهم قد حلّ في فرعون فهو إلههم الأكبر والأعلى.

- { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }
{

نادى موسى عليه السلام على قومه الذين بلغهم تهديدُ فرعون ووعيدُه، نادى عليهم وأعطاهم سيفًا لا يُقهر ولا يُغلب، وهو سيف التوكل على الله والاستعانة به، مع الصبر على هذا البلاء الصعب إلى أن يأذن الله بالفرج. قال الله تعالى: " وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ " [يونس: 84].

وقال لبني إسرائيل الذين هم قومه: ستكون العاقبة في الدنيا والآخرة لكم إذا آمنتم وعملتُم الصالحات، وابتعدتم عما يسخط الله عليكم، ستكون هذه الأرض ملكًا لكم تحكمون فيها بشرع الله ودينه إذا صبرتم أمام جنود فرعون وأعوانه، وإذا كانت عظمة الله في قلوبكم أكبر، فإن الذي أعطى فرعون هذا السلطان هو الله الخالق المعطي والمانع، وهو القادر على زوال ملكه وهيمته وهيئته.

وفي هذا تطمين لهم، وصرفٌ لليأس والخوف من قلوبهم، وهذا عمل القدوات ومفاتيح الخير في الأمم، فتأملوا.

وفي هذا دعوة لهم ليصدقوا الله تعالى في إقامة دينه وشرعه، ولتتوحد كلمتهم وتجتمع، وليعتصموا بالحق ويقىموا العدل.

جاءت هذه الآية ببيان شيء من أسباب التمكين لأولياء الله في الأرض واستخلافهم فيها إذا أرادوا ذلك في كل زمان ومكان، جاءت توصي بالصدق مع الله في التوكل عليه، والاستعانة به وحده لا شريك له، مع الصبر على انتفاش الباطل ووقاحة أهله وحملته والمدافعين عنه، والصبر على ما يصيبنا في أنفسنا وأموالنا وأهلينا في طريق جهاد أعداء الله. قال الله تعالى: " إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " [آل عمران: 160].

- { قَالُوا أَوِذْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ }
{

أجابه قومه بأن الأذية هذه ليست جديدة عليهم، بل كانوا يعيشونها قبل أن يأتيهم موسى عليه السلام بدعوة التوحيد، فقد كان فرعون يتوعدهم دوماً ويُسيئهم ألواناً من العذاب والمذلة والهوان، وكان يُقَتِّل أبناءهم من قبل خوفاً من مجيء من يسلب ملكه منه، وكان يستحيي نساءهم كذلك.

ولكن نبي الله موسى عليه السلام الذي امتلأ قلبه بمعرفة الخالق القادر الحافظ الناصر، والذي امتلأ قلبه بمعاني التوكل على الله والتعلق به وحده، بشرهم بما يسرهم، وقال لهم كلمات من شأنها أن تُنزل السكينة على قلوبهم في أصعب المواقف وأشدّها، وأخبرهم أن نصر الله قريب، وأنه لا يفصلهم عن هلاك فرعون وجنوده إلا القليل، وأنهم سيكونون خلفاء الله في هذه الأرض لبيتليهم، أيشكرون أم يكفرون ؟ أيحكمون بشرع الله أم ينتكسون ؟ أيثبتون على التوحيد أم إلى الشرك ينصرفون ؟

ويظهر أن فرعون لم يقتل الأبناء كما توعد، ولم ينفذ وعيده فيهم، بل عدل عن ذلك لمصلحة رآها، قد تكون في حرصه على بقاء من يعمل في الشاق من الأعمال التي لا يصلح لها غير الرجال من بني إسرائيل، وقد فهم بعض أهل العلم ذلك من قول الله تعالى مُطْمَئِنَّا مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: "بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْعَالِيُونَ" [القصص: 35]. أي: ستغلبونه ولن ينفذ وعيده فيكم.

- { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } -

فزع موسى عليه السلام وقومه إلى خالقهم وصدقوا، فما خيَّبهم ولا ردَّهم، بل أجابهم سبحانه وتلطَّف بهم، وبدأت التذكرة تأتي قوم فرعون من عند الله عن طريق ابتلائهم واختبارهم بما لا يسرهم، وبدأت المصائب تأتيهم من كل حَدَبٍ وَصَوَّبَ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ويرجعون عن غيِّهم وإصرارهم واستكبارهم، ولعلمهم يستحضرون عَجْزَهُمْ وَعَجْزَ مَلِكِهِمُ الْجَبَّارِ الْمُتَغَطِّسِ الذي رأى بعينه المعجزة الكبرى يوم جمع السحرة فما آمن ولا اهتدى.

أخذهم ربُّنا بالعقوبة جميعاً؛ فرعون وأعوانه، وجميع من اتبعه وإن كانوا من الضعفاء، فضعفهم ليس عذراً لوقوفهم مع الباطل، ولولاهم ما استطاع أن يظلم ويُفسد.

أخذهم ربنا بالسنين، أي: امتحنهم بالجذب وقلة المحاصيل التي أُوْرثتهم الجوع وقلة الغذاء، وذهاب الصحة والعافية.

ثم اختبرهم بنقص الثمرات، وهي التي تكون على الغالب للتفكُّه والتلذُّذ ورغد العيش، فلم يعد نخيلهم ولا شجرهم يثمر كما كان، وصار قليلاً على نَحْو لم يعتادوه، وهذا يدل على شدة ضيق الحال.

وكان الآية تنادي علينا وتقول لنا: إذا رأيتم المصائب تأتاكم تباعاً، وإذا وجدتم ذهاباً للبركة في رزقكم وطعامكم وأموالكم، ورأيتم قلة في الزرع والثمر فإنما هو نداءٌ من خالقكم إليكم لترجعوا إليه بصدق، ولتأخذوا على يد أهل الظلم والفسق فيكم فتردعوهم عن طريقهم.

- { فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } -

ابتلاهم ربنا بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون، فلم ينسبوا الفضل في الحسنات لله، ولم يشكروه ويحمدوه ويُفردوه بالتوحيد، وكذلك فعلوا مع السيئات التي جعلوها بسبب موسى عليه السلام وما جاء به، وبسبب هارون عليه السلام، وبسبب من اتبعهما، فهؤلاء: لم ينتفعوا بالنعم ولا بالنقم، فأما النعم فزادتهم غروراً وإسرافاً في الظلم، وأما النقم فغفلوا عن أسبابها وغايتها.

جاءتهم نعم الله تعالى، وجاءهم ما يحبون في ذريتهم ورزقهم وصحتهم وزرعهم وثمرهم، فظنوا أنهم قادرون على هذه الدنيا، وأن هذه الحسنات لهم وقالوا: لنا هذه، كما في الآية، أي: هي حق لهم لأنهم جديرون بالنعمة، وقد جاءتهم بسبب حسن تدبيرهم، وبسبب فرعون الذي له الملك، ونسوا من له الفضل أولاً وآخرًا، وجحدوا نِعَم من بيده الخيرُ كُلُّهُ، وتنكروا لمن خلقهم من العدم وأسبغ عليهم نعمه تَتَرَّاء، وازدادوا غرورًا وفجورًا.

ثم لما ابتلاهم ربنا بالسيئة كما في الآية السابقة مِنْ أَخَذَهُم بالسنين ونقص الثمرات تطيَّروا بموسى ومن معه، أي: قالوا لهم: إن المصائب التي نعيشها ونراها وتصيبنا إنما هي بسبب دعوتكم التي فَرَّقَتْنَا وَأَتَعَبَتْنَا،

وبسبب ما تدعون إليه من التوحيد والفضائل، فهذه المصائب لم تكن في حياتنا ولا رأيناها إلا في هذا الوقت، فنحن متشائمون منكم ومُبتَلون بسببكم.

والتَّطَيُّرُ كما تعلمون هو التشاؤم بمسموع كصوت الغراب، أو بمعلوم كشهر مخصوص أو يوم مخصوص، أو التشاؤم بمبرئي كأن يرى شخصاً فيتشاءم، أي: يظن أن صوت الغراب أو رؤية فلان سببٌ من أسباب الضر وقلة الرزق وغير ذلك، مع أن الله تعالى لم يجعل هذه الأمور سبباً لجلب منفعة أو دفع مضرة، فكان التشاؤم بها منافياً للتوحيد الخالص الصادق. أخرج أحمد وابن ماجه وغيرهما عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الطَّيْرَةُ شِرْكٌ "، قال ابن مسعود: " وَمَا مِنَّا إِلَّا وَبِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ ".

ومعنى قول ابن مسعود رضي الله عنه هنا، أنه لا أحد من الناس يسلم تقريباً من التشاؤم الذي يقع في نفسه لسبب ما، فإن التشاؤم شعور يهجم على الإنسان، وقد لا يملك دفعه أول الأمر، ولذلك أرشدنا صلى الله عليه وسلم إلى الدعاء، وأرشدنا ابن مسعود رضي الله عنه إلى إعمال التوكل على الله واستحضاره، وإلى أن يمضي في العمل والرأي ولا يصده التشاؤم عن حاجته التي يريد.

وقد أرشدنا الشرع إلى ما نقوله إذا حصل معنا شيء من الطيرة والعياذ بالله، كما دل على ذلك ما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ من حاجة فقد أشرك "، قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك ؟ قال: " أن يقول أحدهم: اللهم لا خَيْرَ إلا خَيْرُكَ، ولا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ، ولا إله غيرُكَ ".

وهنا في الآية فائدة بلاغية لطيفة تعطيكم موعظة أظنها نافعة، فتأملوا كيف جاءت لفظة (الحسنة) مُعرفةً بـأل التعريف ومسبوقة بـ (إذا) التي تدل على حصول الشيء يقيناً، وهذا يدل على أن النعم التي جاءتكم كانت كثيرة معروفة لديهم، وقد تحققت وعاشوها بتفاصيلها، بخلاف لفظة (سيئة) التي جاءت نكرة بدون أل التعريف، وجاءت مسبوقة بـ (إن) التي تدل على التشكيك بالشيء لقلته وندرة حصوله وعدم تحققه دوماً، وهذا يدل على قلة البلاء الذي تعرضوا له في حياتهم، فالنعم كثيرة والبلاء قليل، ومع ذلك نجدهم ينسبون كل هذه النعم إليهم، ويتشاءمون بأهل الدعوة والتوحيد إذا حصل معهم بلاء مع ندرته.

وهذا حال صنف يعيش معنا وبيننا، لا يستحضر في حياته إلا البلاء، ويتشائم بما يراه ويسمعه، ويضيق ذرعاً إذا فقد نعمة من نعم الله، مع أن هذا البلاء قليل مقارنة بالنعم التي يراها في كل كلمة يقولها، وفي كل نظرة وسماع ونفس، ومع كل خطوة وحركة، ويراها في بيته وأهله ورزقه. قال الله تعالى: " إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكْ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ " [العاديات: 6-8]، والكنود هو الذي يعد المصائب وينسى النعم، فهو قليل الشكر شديد الاعتراض على ربه وخالقه.

ولعلكم تذكرون معي ما قالته الأقوام لرسلها من قبل من ألفاظ التشاؤم والتطير، وهو ما جاء معنا في السورة في قصة نبي الله صالح عليه السلام، وما جاء في قصة القرية التي جاءها المرسلون، بل ما قاله أهل الكفر لبنينا صلى الله عليه وسلم كما جاء البيان في قصة نبي الله صالح عليه السلام في هذه السورة. انظروا وتأملوا في سلوك أهل الكفر ورؤوس الفسق والفجور في زماننا، كيف يغمزون بالدعاة والقابضين على دينهم، وكيف يفترون عليهم ويظهرونهم في إعلامهم وكلامهم بأنهم سبب البلايا والخسران، يريدون بذلك أن يصدوا الناس عنهم ليدوم حظهم القليل من الدنيا.

{ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ما أجهلهم وأبعدهم عن الحق ! وما أضيق تفكيرهم يوم ابتعدوا عن العقيدة التي فيها الفهم والعلم !

تُبَيِّن الآية أن هؤلاء القوم كغيرهم، لا يفقهون أن الخير والشر الذي يصيب أهل الدنيا إنما هو من الله، وإنما قدره سبحانه ليبلو الناس ويظهر خيرهم من شرهم، وأنه لا يكون في خلق الله إلا ما كتبه وقضى به، بل إن الله تعالى جعل الكفر والمجاهرة بالذنوب والإصرار عليها سبباً من أسباب حصول البلايا ونزول سخط الله وعذابه. قال الله تعالى في الرد على قوم صالح عليه السلام: " قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ " [النمل: 47].

جهل أكثرهم أن ما أصابهم من شرٍّ إنما هو بكسبهم وضلالهم، وأنه نداء من الله لهم ليرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم بأنبياء الله، وليرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل، وليس بسبب موسى عليه السلام ودعوته والمؤمنين، وهذا حال أكثرهم كما في ختام الآية، أي: هناك قلة منهم علموا الحق ولم يعتقدوا ما اعتقده

أكثرهم، ولكن الحق الذي علموه بقي حبيسًا في صدورهم، وبقوا على الكفر، وسكتوا عن نصره الدين والإيمان، فكان علمهم حجة عليهم لا لهم، وكانوا في الإثم والعقوبة مع أكثرهم سواء.

ويمكننا أن نقول: إنه قد آمن بموسى عليه السلام فريقٌ من قوم فرعون ممن كان يعظمه ويطيعه، فلم يتطبروا كما تطير قومهم، وكانوا قليلًا، وهم المقصودون على قولٍ عند أهل التفسير بقول الله تعالى: "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ" [يونس: 83].

وقد صحت الآيات والأحاديث بإيمان زوجة فرعون وماشطة بنته، والرجل المؤمن الذي جاءت قصته في سورة غافر، فضلًا عن إيمان السحرة.

وكان الآية تُنبئ قريشًا الذين كانت الطيرةُ فيهم كثيرةً، وكان التشاؤم معمولًا به في حياتهم، وقد اطيروا بنبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما مرَّ معنا، أقول: وكان الآية تنادي عليهم بألا يفعلوا ذلك، وأن يعتبروا بما حل بالأمم من قبلهم ممن قال مقولتهم واعتقد اعتقادهم.

بل إن الآية تنادي علينا وعلى المسلمين في كل زمان ومكان، وتقول لهم: انظروا في طريقة تفكير أعدائكم من أهل الكفر، وتأملوا في قُدركم عندهم إذا كنتم مفتخرين بدينكم داعين إليه، واعلموا أيها الدعاة أن طريقكم فيه من أذية أعدائكم الكثير، وهذه واحدة منها.

- { وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ }

يشتدُّ عنادهم، وتظهر مكابرتهم للحق، ويقولون كلماتٍ تُعبرُّ عن شدة إصرارهم على الباطل، وعظم رسوخهم في الجحود والإنكار، وكمال غرورهم بما معهم من الكفر.

يخاطبون نبي الله عليه السلام بعد ما حل بهم من بلاء الجذب والقحط ويقولون: لن نؤمن بما جئت به وإن أتيتنا بحجج كثيرة، وآيات واضحة، ولن نتبعك أو نصدقك مهما حصل معنا من بلاء، ولن نقبل منك أي شيء تفعله أو تقوله وسنرده عليك.

ولا زالوا يكررون تهمتهم له بالسحر، ويعتبرون كل هذه المعجزات ضرباً من ضروب الشعوذة والصَّرف والتأثير الخفي الساحر، ويطلبون منه ألا يُتعب نفسه بدعوتهم وإتيانهم بالآيات.

- { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ }

جاءتهم أربع آيات من قبل، هي: العصا واليد وأخذهم بالسنين وأخذهم بنقص الثمرات، ثم جاءتهم خمسٌ أخرى كما في الآية هنا لعل قلوبهم تحيا بالإيمان، فكانت الآيات تسعاً، وهي المقصودة بقول الله تعالى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا " [الإسراء: 101].

تتابعت عليهم آياتُ الله وعقوباتُهُ لتكون لهم تذكرة، وأراهم الله شيئاً يسيراً من بأسه ليخافوه ويطيعوه، وضيَّق عليهم في حياتهم من حيث لا يحتسبون لعلهم يرشدون، ولعلهم يُصدِّقون برسالة نبي الله موسى ونبي الله هارون عليهما السلام، فإن هذه الآيات ليست من مقدور البشر، ولا تقع إلا بقدَرٍ من عند مَنْ بيده الخلق والأمر، وَمِنْ عِنْد مَنْ يَمْلِكُ النِّفْعَ وَالضَّرَّ، ومن عند من استقرت معرفته في فطرته لو كانوا منصفين.

وانتهوا إلى أن هذه الآيات نافعةٌ كذلك لبني إسرائيل، ليزداد من آمن منهم إيماناً، وليسارع من لا زال على الكفر إلى اتباع الهدى والنور، وليكون من الناجين المفلحين.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن العقوبات والبلايا التي حلت بفرعون وقومه إنما اقتصر ضررها عليهم ولم يتضرر بنو إسرائيل منها، مع اشتراكهم في المسكن والملبس والمشرب والمأكل مع قوم فرعون، وهذا الذي دعا قومَ فرعون إلى أن يفزعوا إلى موسى عليه السلام كلما ضاق بهم الحال، فكان في هذا مزيدٌ اصطفاءً لبني إسرائيل، ومزيد تثبیت لهم على التوحيد، ومزيد إقامةٍ للحجة عليهم.

{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ } أرسل الله عليهم الطوفان، أي: الماء الكثير الذي يجري بقوة ويطغى على المنازل والأرض ويضُرُّ بها، ويكون من نزول المطر الغزير الكثير الذي لا يتوقف، وهذا الطوفان أغرق مزروعاتهم وثمارَ شجرهم وأتلفها، وحرّمهم من الانتفاع بها حتى أجهدهم الجوع، فسألوا موسى أن يدعو ربه ليرفع الطوفان عنهم على أن يرسلوا معه بني إسرائيل ويرجعوا عن غيِّهم، فدعا موسى عليه السلام خالقنا وسيدنا ومولانا فرفعه عنهم، فأخلفوا الوعد وانتكسوا.

وسياقي معنا في الآية التالية الدليل على أنهم كانوا يطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو ربه ليكشف عنهم ما هم فيه مع كل بلاء ينزل بهم ويحل عليهم.

{ وَالْجَرَادَ } أرسل الله عليهم بعد أن أخلفوا العهد جرّادًا كثيرًا، يُتلف زرعهم وأشجارهم ويهلكها، ويعتدي على بيوتهم ويُحدث فيها ضررًا، ولا يستطيعون دفعه عنهم أو القضاء عليه، حتى سألوا نبي الله موسى عليه السلام ما سألوه عند حصول الطوفان، فاستجاب الله لنبيه ومنع عنهم الجراد المهلك، فأخلفوا وعدهم مرة أخرى بعد أن أعطوا العهود والمواثيق.

{ وَالْقُمَّلَ } القُمَّل المعروف عندنا هو نوع من الديدان ينبت في الرأس، ويبيض ويتكاثر فيه، وسبب وجوده فيه الإهمال وقلة النظافة، ويُطْلَق عليه البعض لفظة السيبان، وقد يعيش في الملابس والمفارش.

أرسل الله تعالى عليهم القُمَّل عقوبةً أخرى، ونذيرًا لهم بين يدي عذاب شديد إن لم يتوبوا ويؤمنوا، أرسله عليهم بكثرة يعيش معهم في كل شيء حولهم، حتى منعهم النوم لكثرة وجوده في رؤوسهم وملابسهم وحاجاتهم، ففزعوا من جديد إلى من يعلمون في قرارة أنفسهم أن الحق معه، وأنه مرسل من عند من بيده الفرج، فزعموا إلى موسى عليه السلام وسألوه أن يدعو ربه ليمهلهم ويرفع عنهم العذاب ليؤدوا ما أمرهم به، وعاهدوه على ذلك ثم إنهم غدروا وخانوا.

{ وَالضَّفَادِعُ } أرسل الله عليهم الضفادع لما أخلفوا عهودهم مرة بعد مرة، أرسلها عليهم بكثرة حتى جاء في بعض الروايات أن واحدهم كان إذا فتح فمه ليتكلم دخل فيه ضفدع من كثرتها وإحاطتها بالناس، وكان الواحد منهم لا يكشف ثوباً أو طعاماً أو يخرج إلى فناء إلا وجد الضفادع لغلبيتها عليهم، وكانت تَثْبُتُ في قدورهم فتطفئ نيرانهم وتفسد عليهم طعامهم، فوجدوا بذلك عنثاً شديداً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الضفادع برّية، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت، فجعلت تُغرق أنفسها في القدور وهي تغلي، وفي التناير⁶⁰ وهي تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها بَرَدَ الماء⁶¹.

جاء فرعون وقومه إلى موسى عليه السلام فسألوه مرة أخرى أن يرفع الله عنهم العذاب، فيؤمنوا ويستجيبوا لجميع أمر الله، ولكنهم كعادتهم أخلفوا بعد أن رُفِعَ العذاب عنهم.

وقد جاء نهي النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن قتل الضفدع، وأخرج عبد الرزاق في مصنفه أثراً عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت الضفدع تُطفئ النار عن إبراهيم عليه السلام، وكان الوَزْغُ⁶² ينفخ فيه، فنهى عن قتل هذا، وأمر بقتل هذا".

بل جاء كذلك أن صوت الضفدع هذا تسبيح لله، كما دل عليه ما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني في الأوسط والبيهقي في السنن، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: "لا تقتلوا الضفادع، فإنَّ نقيقها الذي تسمعون تسبيحٌ".

{ وَالْدَّمَ } ثم إن الله ابتلاهم بالدم يملاً أنهارهم وآبارهم وأوعيتهم، فلا يستقون من بئر ولا من نهر ولا يملؤون وعاء ماء إلا صار دماً، حتى قلَّ شرابهم وشعروا بخطورة الحال، ففزعوا إلى موسى عليه السلام كما فعلوا في كل مرة، فلما كُشف عنهم رجعوا إلى استكبارهم وكفرهم وإجرامهم وحقدهم على الدين وأهله. قال الله تعالى: "وَمَا نُزِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" [الزخرف: 48].

⁶⁰ جمع تنور، وهو المكان الذي يخبزون في ناره.

⁶¹ المقصود أن مكان عيشها هو الماء.

⁶² حيوان زاحف يعيش في المناطق الحارة، يكثر نشاطه بالليل، وهو نوع من أنواع السحالي، ويُسمى عند الكثير ب (أبو بريص).

{ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ } أرسل الله كل هذه الآيات التي لا شبهة في كونها من عند الله لتكون دلالة على صحة نبوة موسى عليه السلام، وصدق ما جاء به وما دعاهم إليه، ولتكون دلالة على غضب الله عليهم لما عاندوا وأصروا على الكفر.

وجعلها لهم مفصلات، أي: متتابعات يتلو بعضها بعضًا، وفصل بينها في الزمن ليأخذوا وقتهم ويلتزموا بما عاهدوا الله عليه، وقد جاء في بعض الآثار عند أهل التفسير أن الآية الواحدة كانت تمكث فيهم أسبوعًا، وأنه كان بين كل آية وآية شهرًا كامل، ولكنهم كانوا يستكبرون ويمجرون، أي: تعاضموا في أنفسهم عن الانقياد للحق والتصديق بالآيات، وكانوا راسخين في الإجرام والتَّمرُّد، منغمسين في الضلالة والغواية والشقاوة والخذلان.

- { وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } -

ذهب عددٌ من أهل التفسير إلى أن المقصود بالرجز هنا تلکم العقوبات المذكورة في الآيات السابقة من أخذهم بالسنين ونقص الثمرات، ومن إرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فإنهم كلما أسقط في أيديهم، وظهر عجزهم أمام هذه الآيات البينات والعقوبات الواضحات، لجؤوا إلى موسى يرجونه ويطلبون منه أن يدعو من أرسله ليكشف عنهم ما هم فيه من الغم والهَم، آخذين على أنفسهم العهود والمواثيق بأن يؤمنوا بدعوته، ثم يرسلوا معه قومه بني إسرائيل لينشر الدين فيهم، وليخرجوا من مصر ويعبدوا ربهم في مكان آخر، وليمضي معهم فيما كتبه الله عليهم من الدعوة والجهاد.

ومن أهل التفسير من ذهب إلى أن الرجز هنا معناه الطاعون، وقد أصابهم من عند الله بعد أنواع العذاب الواردة في السياق القرآني، ومات بسببه الكثير منهم فأعطوا العهود والمواثيق كما في الآية. أخرج مسلم عن أسامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن هذا الطاعون رجز سُلِّطَ على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارًا منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها ».

وتأملوا خطابهم له بقولهم: { بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ } يعني: بما عَرَّفَكَ وأطلعك عليه من قدرته ومن علم الغيب، وبما علمك من كيفية دعائه ورجائه، وكأنهم يعيشون صراعاً في داخلهم بين التكبر على الحق وبين الإذعان له.

بل تأملوا كيف نادوه هنا باسمه موسى عليه السلام، وفي آية أخرى نادوه بما يدل على الاستكبار الكامن في صدورهم، لا يتزحزح ولا يتحرك. قال الله تعالى: " وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ " [الزخرف: 49]، وكأن صنفاً منهم كان خطابه الإعلامي للجماهير بأن البلاءات التي نزلت بهم ما هي إلا من تفوق موسى عليه السلام عليهم في السحر والشعوذة مما لم يعلموه ويعهدوه. ويمكن أن يُقال: كانوا إذا حمي البلاء واشتد عليهم، يطلبون منه أن يدعو ربه، كأنهم يقولون: لا نؤمن برسالتك ولا بربك، ولكننا نخاطبك بناءً على ما التزقته.

- { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ } -

إخبار من الله تعالى عن كرمه وجوده عليهم، كيف فَرَّجَ لهم عنهم، وكيف نَفَسَ الكرب رحمة بهم وإمهالاً لهم لعلهم يهتدون، ولكنهم نكثوا وأخلفوا وغدروا وفجروا ولم يتأخروا في عادتهم هذه، وكأنهم أضمرُوا في أنفسهم الخيانة، واتفقوا على أن يرجعوا عن وَعْدِهِمْ. قال الله تعالى: " فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ " [الزخرف: 50].

كشف الله عنهم عقوبته وعذابه إلى أجل هم بالغوه، أي: إلى الأجل الذي قَدَّرَهُ الله ليعيشوا ثم يأتيهم الهلاك، فكان كشف العذاب عنهم مؤقتاً، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، ورجعوا إلى جهلهم وحياتهم التي كانوا عليها حتى جاءت تلكم اللحظة التي لن تُقبل فيها توبة ولا أوبة ولا دعاء ولا استغفار.

وقد جاءت آيات أخرى تدل على أنهم لم يكتفوا بنقضهم العهد وإخلافهم الوعد، بل جعلوا يهدمون بيوت العبادة والبيع والكنائس التي كان بنو إسرائيل يتعبدون فيها، حتى أوحى الله إلى نبيه أن يقيموا الصلاة في بيوتهم، وأن يجعلوها عامرة بالذكر والإيمان والتوحيد، كما دل على ذلك على رأي عند أهل

التفسير قول الله تعالى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " [يونس: 87].

انظروا في وقاحة فرعون واعتدائه على مقام الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، يوم خطب في قومه وأعلن أنه الإله الوحيد في هذا العالم، ثم طلب من هامان أن يرفع له بناء شاهقًا ليقابل رب هذا الكون ويتحقق منه. قال الله تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ " [القصص: 38-39].

ومن خطاباته التي تدلّكم على الحال التي وصل إليها، ما زعمه أمام الناس بأنه خالق الأنهار، وأن دليل ذلك جريانها من تحته وتحكمه فيها، وأنه خيرٌ من نبي الله موسى الذي يعتبره أدنى منه منزلة ودرجة، وأن في لسانه عقدة تمنعه من أن يُبين حديثه وتدل على نقصانه، وأنه يريد منه ملائكة يراها ليصدقوه، ويريد أن تمطر السماء عليه ذهبًا، فما أشد كفره واستكباره. قال الله تعالى: " وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ " [الزخرف: 51-53].

ثم إن نبي الله لما رأى كل هذا الصدود وقد أوحى إليه ربه أنه سيهلك عدوه وينجي المؤمنين، دعا على فرعون ومن أعانه ونصره، دعا عليهم أن يُحرموا من أموالهم بتغييرها واندثارها وزوالها، ودعا عليهم بأن يُطبع على قلوبهم ويموتوا على الكفر، فاستجاب الله له دعاءه، وأرشد قومه إلى تحقيق الاستقامة والثبات على الطريق. قال الله تعالى: " وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ " [يونس: 88-89].

ثم إن فرعون وملاه استنفروا جنودهم ومناصريهم، وأخرجوهم في جيش عظيم كبير للقضاء على بني إسرائيل وقتلهم والتخلص منهم، وقد ذكر بعض المفسرين نقلًا عن مرويات بني إسرائيل أن عدد فرعون

ومن معه يفوق المليون ونصف، وأن بني إسرائيل كانوا قريبًا من نصف مليون، وليس في ديننا ما يثبت ذلك أو ينفيه.

- { فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ }

تأتيهم الآية بعد الآية فما ازدادوا بكل واحدة منها إلا كفرًا، وما ظهر منهم إلا الجحود والتمرد والإنكار، فجاءتهم العقوبة التي ليس بعدها رجوع ولا إمهال، وأغرقهم الله في البحر الذي فرقه موسى عليه السلام بعصاه، بأمر من الله، يوم هرب من فرعون وجنوده، أغرقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله واستكبارهم عنها وغفلتهم، أغرقهم وهو الله القدير العزيز الذي لا يُمانع ولا يُغالب، أغرقهم وقد اشتد غضبه عليهم فلم يُفلت منه أحدًا.

وفي تفصيل ما جرى معهم، أقول: أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى عليه السلام أن يسريّ بني إسرائيل ليلاً ويهرب من فرعون وجنوده، وذلك بعد أن أرسل فرعون في مملكته يستنفر الجميع لأمر جلل، يستنفرهم للتخلص من موسى وهارون عليهما السلام، والتخلص من قومهما بني إسرائيل ومن كل من آمن معهما، يستنفرهم ويخاطبهم بعبارات تثيرهم، ويقول لهم: إن هؤلاء شِرْذمة مُهانون قليلون أغاظونا وأفسدوا علينا حياتنا وجعلونا نعيش بخوف وضيق، فهللّوا إلى قتلهم وإخائهم عن الوجود. قال الله تعالى: " فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ " [الشعراء: 53-56].

انطلق فرعون ومن معه صباحًا وقت الشروق بعد أن انتهوا من تجهيز ما يلزم من العَدَد والعَتَاد، وأدركوهم وتراءى الجمعان، وغلب على ظن قوم موسى أن هلاكهم ونهايتهم اقتربت، فكيف تكون النجاة والبحر أمامهم وفرعون بجيشه الكبير والعظيم من ورائهم، فخطب فيهم نبي الله عليه السلام بكلمات الموقن بوعد الله، وصبرهم وبشرهم بالنجاة، واستحضر معية الله للمؤمنين الصادقين المخلصين، وترقّب وحيّ الله له وأمره. قال الله تعالى: " فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ " [الشعراء: 61-62].

أوحى الله إلى نبيه أن اضرب البحر بالعصا التي تحملها، فاستجاب لأمر الله وضربه فانفلق البحر وانشق، ومضى موسى ومن معه هارين إلى الجهة المقابلة. قال الله تعالى: " فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ " [الشعراء: 63]. أي: أصبحت كل جهة من جهات البحر بعد انقسامه كالجبل الكبير.

حتى إذا تبعهم فرعون بجيشه ومضى في الطريق الذي انشق في البحر، أمر الله الماء فأغرقهم وانطوت صفحاتهم ملعونين مطرودين من رحمة الله، معذبين بأنواع العذاب في البرزخ، فضلاً عما ينتظرهم في الدار الآخرة. قال الله تعالى: " وَأَرْزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ " [الشعراء: 64-65]، وقال سبحانه: " النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ " [غافر: 46].

غرق فرعون وجعل يعلن إيمانه بإله بني إسرائيل بعد أن عاين الدار الآخرة وأيقن الهلاك، يظن أن هذا ينفعه، ولكن هيهات وقد أمهله الله كثيراً، ثم جعل الله بقاء بدنه في العالمين آية أخرى لهم ولنا ولكل من له قلب يعتبر، بل جعل بقاء بدنه آية على صدق القرآن وأنه ما أنزل إلا من عند العليم الحكيم، إذ كيف لنبي أميٍّ صلى الله عليه وسلم أن يعلم أن بدن فرعون موجود؟ وكيف لهذا البدن أن يبقى إلى أيامنا؟ قال الله تعالى: " وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ " [يونس: 90-92].

سيأتي فرعون يوم القيامة في قومه ليكون معهم في مقدمة من يدخلون النار كما كان رأساً في الكفر وقائداً للمجرمين، وكما كانوا سيقاً سليطاً على المؤمنين، سيدخلونها جميعاً بعد أن أحاطت بهم لعائن الله في الدنيا والآخرة، فكانوا من المحرومين من رحمته، الخاسرين لأنفسهم وأموالهم. قال الله تعالى: " يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ " [هود: 98-99]، وقال سبحانه: " وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (41) وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ " [القصص: 41-42].

ذهب القوم المعاندون الجاحدون الصادون عن الصراط المستقيم، ذهب الذين أنكروا وجود الخالق وتعلقوا
بواحد من البشر ونسبوا إليه صفات العظمة والكبرياء، ذهب الذين عطّلوا عقولهم وملؤوها بالسحر
والخرافة، ذهب الذين أكثروا من ظلم الناس واستعبادهم وإهانتهم والانتقاص من قدرهم ومكانتهم، ذهبوا
وما أغنى عنهم ما كانوا يُمتنعون، ذهبوا واستؤصلوا كأن لم يكونوا، ذهبوا بلا عمل صالح ينفعهم أو يشهد
لهم في الأرض أو في السماء. قال الله تعالى: "فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ"
[الدخان: 29].

ونجى الله أهل التقوى الذين صبروا وضحوا وصدقوا الله، وحفظهم الله بعد سنين طويلة من البلاء العظيم،
الذي كان فيه القتل والتهديد والخوف واستحياء النساء للخدمة والأعمال الخسيسة.

والمطلوب ممن سمع عنهم وعلم حالهم، وعاش مع آيات الله فيهم أن يحذر من خصالهم واعتقادهم لئلا
يصيبه ما أصابهم، والمطلوب أن تبلغ كل طاغية بقصتهم لعله يعتبر ويتعظ، والمطلوب أن يستبشر
المؤمنون خيراً بإهلاكهم والتمكين لبني إسرائيل، وأن يلتفتوا حول أنبيائهم ومصلحيهم ودعائهم الأخيار،
وأن يوقنوا أن نصر الله قريب إذا صبروا وصدقوا وآمنوا، وإذا أخذوا بأسباب التمكين والاستخلاف. قال
الله تعالى: "فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ"
[الزخرف: 55-56]، وقال سبحانه: "فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ
يَخْشَى (26)" [النازعات: 25-26].

إن اليوم الذي أهلك الله فيه فرعون يوم عظيم من أيام الله، جاء تعظيمه في ديننا، وأرشد الشرع إلى
صيامه شكراً لله تعالى على نعمته فيه، وكتب لمن صامه مغفرة ذنوب سنة كاملة، فله الحمد أولاً وآخرًا.
أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَدِمَ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، فرأى اليهود
تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم،
فصامه موسى عليه السلام. قال صلى الله عليه وسلم: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه.

وأخرج مسلم من حديث أبي قتادة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث: "وصيام يوم
عاشوراء، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله".

- { وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } {

طُويت صفحة من صفحات دعوة نبي الله موسى عليه السلام مع أشد من عرفت البشرية في الجحود والعداء والكبر، وبدأت صفحة من صفحات الدعوة إلى الله مع بني إسرائيل الذين هم قومه، والذين أرسل إليهم عليه الصلاة والسلام ليقم فيهم التوحيد والعبودية، والذين سنعيش معهم في الآيات القادمة فصولاً من التقلب بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والشجاعة والخوف، واليسر والعسر.

بدأت هنا نعم الله عليهم بتمكينهم في الأرض واستخلافهم فيها، بعد أن كانوا مهانين مستعبدين، مستضعفين بألوان من التضييق والقهر والإذلال، فبنو إسرائيل هم القوم المستضعفون الذين جاء ذكرهم هنا في الآية وفي غيرها. قال الله تعالى: " وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ " [القصص: 5-6]، وقال سبحانه عن فرعون وقومه من القبط: " فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْثَرْنَاهَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ " [الشعراء: 57-59].

ولقائل أن يقول: ما هي الأرض التي أورثهم الله إياها فكانوا حكامها، وكان الأمر والنهي لهم فيها ؟ والجواب أن الأرض التي بارك الله فيها هي الشام، وهي الأرض التي أورثها الله لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر هارين، فهم لم يرجعوا إليها، ولكنهم مضوا في طريقهم نحو الشام، وحصلت معهم أحداث متعددة أخبرنا بها كلام الله كما سيأتي في الآيات.

والمشارك والمغرب هنا في الآية هي مشارق أرض الشام ومغاربها، وهذا يدل على أن ملكهم عليها كان ممتدًا وعظيمًا، فيكون معنى الآية: إن الله تعالى أورثهم مشارق أرض الشام ومغاربها، وهي الأرض المباركة شرقًا وغربًا.

ومن أهل العلم من قال: إن مشارق الأرض ومغاربها هنا هي مشارق أرض مصر ومغاربها، وقد ملكهم الله إياها بعد غرق فرعون وجنوده، ثم أمرهم الله بالتحرك نحو بيت المقدس، والقول الأول عليه أكثر أهل العلم.

ولقائل أن يقول: كيف بارك الله في أرض الشام؟ وما هي معالم هذه البركة في نصوص الشريعة وفي واقعها؟

والجواب أن البركة في الشام تشمل أمور الدين والدنيا كما قال أهل العلم، أما البركة في الدين فقد جاءت في عدد من الأحاديث التي تدل على أن الإيمان والتوحيد سيكون حاضراً في أهل الشام وإن فسد كثير ممن حولهم، كما دل على ذلك ما أخرجه أحمد والبرّار عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتُمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهبٌ به، فأتبعته بصري، فعمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام ". يعني: سيأتي زمن يكون أهل الشام فيه حملة الدين، وحراس العقيدة والتوحيد، وهم الذين يحمونه وينشرونه في العالمين، مصداقاً للحديث الذي أخرجه أحمد بسند حسن، والذي جاء فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " ألا إن عُقر دار المؤمنين الشام ".

ومما يدل على حلول بركة الدين في الشام، ما أخرجه أحمد والترمذي عن معاوية بن قُرة عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، ولا يزال أناس من أمتي منصورين، لا يُبَالون من خَدَّهم حتى تقوم الساعة ". والمقصود: التحذير من فسادهم، وبيان أثره العظيم على الأمة.

والمقصود: الإخبار بأنه ستبقى طائفة فيها ظاهرين على الحق، ثابتين على العقيدة الصحيحة، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم.

وجاء كذلك في الآثار أن هذه الأرض هي أرض المحشر والمنشر، أي: الأرض التي سيَحْشُر الله الناس فيها للحساب يوم تبدل الأرض غير الأرض، وكذلك السماوات.

وهي الأرض التي اجتمع فيها الأنبياء، وفيها المسجد الأقصى قبله المسلمين الأولى، وأحد المساجد الثلاثة المعظمة التي تُضاعف فيها أجور الصلوات وتُشدُّ إليها الرحال.

وجاء كذلك أن الله حافظها بحراسة الملائكة لها، وهو ما يُفسر بقاءها دار إسلام وبقاء الخير فيها عظيمًا مع شراسة الحملات الصليبية والصهيونية، وحملات المغول والتتار، والتي أرادت إسقاطها وإسقاط الدين

فيها. أخرج أحمد وابن حبان وغيرهما عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، قال: "طوبى للشام، طوبى للشام" قلت: ما بال الشام؟ قال: "الملائكة باسطو أجنحتها على الشام".

وأما بركتها في أمور الدنيا فهو ظاهر في عيونها وأثمارها، وفي بركة أرضها وخصوبة تربتها، ووفرة ثمارها وزروعها، والخير الدائم الذي لا ينقطع عن أهلها، وكذا في تاريخها وآثارها والحضارات التي قامت فيها. ولا يغرنكم أننا نرى الشام في بعض الأوقات والأزمان قد ضعفت وضعف أهلها، فإنهم على مر التاريخ ما يلبنون إلا أن تقوم قائمتهم في العلم والجهاد ورفع راية التوحيد ونشرها في الأرض، ولا زالوا عبر التاريخ حصناً حصيناً أمام طمع الأعداء وغزوهم للإسلام والمسلمين كما فعلوا مع الصليبيين والتتار من قبل، وكذلك لا زال العلم فيهم منتشرًا مبثوثًا وإن كانت العوائق والتحديات كثيرة وصعبة. ولقائل أن يقول: إذا كان الله تعالى أورث الأرض المقدسة لبني إسرائيل، فهل هم أولى بها منا؟ وهل هي ميراثهم كما يزعمون في أيامنا؟ وهل سكنوها قبل العرب والمسلمين؟

والجواب أنهم كاذبون مفترون في كل ما يقولون، وإليك البيان:

1- أرض فلسطين والشام هي أرض الأنبياء والرسل، وفيها صلى محمد صلى الله عليه وسلم إمامًا بالأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام عند المسجد الأقصى يوم أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقبل أن يُعرج به إلى لقاء خالقنا وإلهنا ومُدبّر أمرنا في السماء السابعة، فكان الأحقّ بهذه الأرض ورثة الأنبياء وليس قتلثهم، وكان الأحقّ بها من أفردوا الله بالتوحيد وآمنوا بكتبه ورسله جميعًا وليس من كفروا بكثير من الكتب والرسل، وكان الأحقّ بها من اصطفاهم ربنا ليكونوا خير أمة أخرجت للناس جميعًا سابقهم وحاضرهم، لا خير أمة لزمانها فقط.

انظروا في زماننا كيف انتزع اليهود الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، وكيف عاثوا فيها فسادًا وإفسادًا، وكيف مارسوا كل أنواع الاستكبار والبطش والتشريد والتقتيل، وما هو بغريب عنهم، فهؤلاء كما أخبرنا القرآن أشدّ الناس عداوة لله وللذين آمنوا، وهم قتلة عدد من أنبياء الله ورسله، وهم من نسبوا لله ما لا يليق من صفات وأفعال، وهم من حرفوا التوراة وتلاعبوا بالدين، وهم من عبدوا العجل، وأخلفوا العهود

كثيراً، وهم من يقفون وراء كثير من الإفساد في الأرض كلها من كشفٍ للعورات ونشرٍ للفاحشة والخمور والمخدرات والتعامل بالربا، وغير ذلك.

2- الصراع الموجود بيننا وبينهم حول المسجد الأقصى ليس تاريخياً كما يحاولون أن يقدموا روايتهم ويقنعوا العالم بها، ولكنه صراع عقيدة ودين وإيمان، فهذه أرض مقدسة لا يرثها إلا المؤمنون حقاً، ولا حكم فيها لأهل الكفر والشر والإفساد.

حتى تاريخياً لا نسلم لهم أنهم أول من سكن أرض فلسطين، بل التاريخ الصحيح يقول: إن أول من سكنها هم اليبوسيون والفنيقيون والكنعانيون وغيرهم من قبائل العرب، ولم يدخلها بنو إسرائيل إلا بعد موت نبي الله موسى عليه السلام، على يد يوشع بن نون النبي الكريم ومن معه من المسلمين الصادقين منهم، وذلك بعد أن أمرهم يوشع بن نون عليه السلام بدخول الأرض المقدسة فامتنعوا أول الأمر، ثم استجابوا على ما سيأتي بيانه في الآيات، فالذين دخلوا الأرض المقدسة هم المسلمون الصادقون من بني إسرائيل، ومعلوم لديكم أن الإسلام هو دين كل الأنبياء، وأن المسلمين هم أتباع كل الأنبياء، وقد دخلها نبي الله داود وأنبياء الله سليمان وزكريا ويحيى وعيسى وكثير من الأنبياء من غيرهم عليهم جميعاً صلوات ربي وسلامه.

ثم اعلّموا أن سيدنا موسى عليه السلام قد أمرهم بدخول الأرض المقدسة قبل نبي الله يوشع عليه السلام فأبوا، وحرضهم على الجهاد ودعاهم إلى القتال فامتنعوا وجبنوا، وقال لهم: " يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ " [المائدة: 21-22]، فهو يبشرهم بأن الله كتبها لهم لأنهم مؤمنون، وكتبها، أي: أمرهم بدخولها وقضى أن تكون إرثاً للصادقين المتقين لا للمتجبرين الفاسقين.

ومختصر القول في ذلك: أرض بيت المقدس وما حولها أرض اصطفاها الله، وجعلها ساحةً لصدق الصادقين من الأمم عبر التاريخ، ولا أظن التخلي عنها وخذلانها والتقاعد عن نصرتها وتحريرها إلا علامة سوء ونفاق وخذلان. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ " [الأنبياء: 105].

أرض بيت المقدس لا تتوارثها الأجيال على أساس التملك من السلف إلى الخلف، ومن الآباء إلى الأبناء، بل الحق فيها لمن أقام دين الله، وآمن بشرعه وكان مؤمناً موحداً، صحيح الانتساب إلى الأنبياء، لا منتسباً إليهم بالزور والكذب والتزوير والدَّجَل.

3- ثم إن اليهود في زماننا يزعمون أنهم جميعاً من نسل بني إسرائيل لغايات متعددة، منها: استعطاف النصارى الذين يؤمنون بالعهد القديم الذي جاء بالثناء على أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام ونسله، ولكن الصحيح أن اليهود الجاثمين الآن على أرض فلسطين هم من أجناس مختلفة وملل شتى، وليسوا جميعاً من بني إسرائيل، ثم إنهم بكفرهم لا يُنسبون لأهل الإيمان والتقوى من بني إسرائيل الذين أثنت عليهم آيات ربنا في مواضع مختلفة.

ومعلوم لديكم أن فكرة إقامة دولة لليهود لم تكن في بدايتها موجهة لأرض فلسطين، وإنما كانت موجهة لترشيح عدة بلاد في أفريقيا وأمريكا الشمالية، ثم إنهما تحولت إلى أرض فلسطين، فلو كان هذا الحق مقدساً عندهم فلماذا اختاروها أخيراً لا ابتداء.

4- أسوق إليكم آيات متعددة ذكرت أرضاً مباركة، والمقصود فيها جميعاً أرض الشام، والغريب أن هذه الآيات جميعاً جاءت في سُورِ مَكِّيَّة، أي: نزلت قبل الهجرة وقبل قيام دولة الإسلام، وقبل أن تصبح أرض الشام أرضاً إسلامية خالصة يسكنها أهل التوحيد.

ولعلكم تتفقون معي بأن في هذا إشارة ظاهرة للنبي صلى الله عليه وسلم وللصحابة رضي الله عنهم، بأنه لا يجوز أن تبقى هذه الأرض تحت سيطرة الروم أو الفرس، وأنه يجب فتحها والقضاء على مظاهر الشرك فيها، وقد بشر صلى الله عليه وسلم بفتح بيت المقدس قبل أن يُفتح، وذلك في حديث عوف بن مالك رضي الله عنه عند البخاري: " اعدُّدْ سِتًّا بين يدي الساعة: مَوْتِي، ثم فتح بيت المقدس " الحديث.

بل فيها إشارة لنا بأنه لا ينبغي بحال من الأحوال أن تخرج هذه الأرض عن سيطرة المسلمين ومُلكهم، ولا ينبغي بحال من الأحوال أن يُمكن فيها لأعداء الله والمشركين به، فتأملوا.

وهذه الآيات هي: قول الله تعالى: " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " [الإسراء: 1]، وقوله سبحانه: " وَنَجِّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ " [الأنبياء: 71]، وقوله عزَّ من قائل: " وَلِسُلَيْمَانَ

الرَّيْحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ " [الأنبياء: 81]، وقوله جل جلاله: " وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيُبَيِّنَ لَكُمْ آيَاتِنَا فَتَحْتُمُورُونَ " [سبا: 18].

{ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا } لا يسعنا هنا إلا أن نقف مع قيمة الصبر وثمرته على النفس والأهل والدين، ولا يفوتنا أن نُظهر أثره في النصر والتمكين، قال الله تعالى: " وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ " [السجدة: 24].

ولا تظنوا أن هذا الصبر يكون ليوم أو يومين، أو لشهر أو شهرين، بل هو صبر امتد سنين كثيرة حتى جاء أمر الله وتحقق وعده سبحانه بالاستخلاف، وهذا ينفعنا في صبرنا على عدونا وصبرنا على جميع أنواع البلاء، لأننا نجد صنفاً من الناس لا يطبق الصبر ولا يستحضر فضله وأجوره الممتدة إلى يوم القيامة، ويضيق ذرعاً وقد يتسخط لأن دعوته لم تُستجب على الفور ولم يُرفع البلاء سريعاً. قال الله تعالى: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ " [البقرة: 214].

تمت كلمة ربنا على بني إسرائيل بالحسنى، أي: تمت حسنة ومُبَشِّرة ومُفْرحة لبني إسرائيل، أو تمت منزلة عن الإخلاف بالوعد.

وكلمته الحسنى سبحانه كانت في حفظهم ونجاتهم ونصرهم واستخلافهم، وهي الكلمة التي وعدهم الله إياها على لسان نبيه عليه السلام في قوله في الآيات السابقة: " قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ " [الأعراف: 129]، وهي الكلمة التي جاءت في آيات سورة القصص التي وردت في تفسير صدر الآية هنا.

ويا لروعة كلمة (رَبِّكَ) هنا في الآية، فهي تعطي قارئها طمأنينة عجيبة بأن النصر لا يكون إلا من عنده، وأنه آت لمن عظمه واتبع هداه، وأنه بكلمة (كن) يحول حالنا إلى أحسن حال.

واعلموا يرحمكم الله أن الله تعالى أورثهم الأرض المقدسة في ذلك الزمن لما آمنوا وصدقوا، وأنهم في آخر الزمان سيجتمعون فيها ويأتون إليها من بلاد ومنابت شتى، ليكون اجتماعهم ثم زوال دولتهم وملكهم علامة على قرب الساعة، وذلك على رأي في التفسير في قول الله تعالى: " فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرِفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا " [الإسراء: 103-104].

{ وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } ذهب مُلك فرعون في لحظة بأمر من الملك العزيز القهار، ذهبت قصوره وأرضه وسلطانه، وذهب حرسه وخدمته والملا، وذهب جنوده الذين هم أعوانه على الكفر والظلم، وسيقف بين يدي الله فردًا ثم النار مأواه خالداً فيها، وكذلك حال قومه الذين نصره وسكتوا عنه.

ذهب وأصاب ما كان يعرشه خرابٌ عظيمٌ، أي: ما كان بينيه ويُشيدُه ويرتفع في بنائه كأنه خالد مخلد في الدنيا، وكذا جناته التي رفع كرومها ونخلها. قال الله تعالى: " فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " [النمل: 52]. قلت: والحمد لله رب العالمين.

- { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }

تمت العبرة بما حصل بين موسى عليه السلام وفرعون، وانتفع بذلك كل من علم بحالهم وبما جرى، وارتفعت راية الدين، وانتكست راية الباطل، وتمَّ نور الله.

رأى بنو إسرائيل آيات الله وعاشوها بتفاصيلها، وكأني بالفرحة التي تعمّر قلوبهم بعد أن نجاهم الله من فرعون وجنده، وكأني بتعظيم الله وإجلاله الذي ينبغي أن يحضر بقوة في عقولهم وجوارحهم، فمن أكرمه الله وأراه جبروته وقدرته وملكوته لا يُعقل أن يكون دينه رقيقاً، ولا تُقبل منه زلة القدم سريعاً.

لما خرج بنو إسرائيل من البحر الأحمر، ولما يسر الله لهم اجتيازه إلى الجهة الأخرى، ومضوا باتجاه الأرض المقدسة، وجدوا قومًا يعبدون الأصنام وقيمون على تعظيمها ويتبركون بها، فلم ينكروا شركهم بألسنتهم ولا بقلوبهم، ولكن انبهروا بهم وابتهجوا بفعلهم وتأثروا، وسارعوا إلى نبيهم يطلبون منه أن تكون لهم أصنام يتخذونها واسطة بينهم وبين خالقهم كما يفعل هؤلاء القوم.

ودعائهم هذا وسرعة تأثيرهم يدلنا على خفة دينهم وعقيدتهم، ويشير إلى أنهم في مدة استعباد فرعون لهم وسيطرته عليهم قد أذهب عنهم دينهم، ونشر فيهم الجهل حتى ابتعدوا عن معالم شريعتهم ووصية أنبيائهم لهم من قبل.

ويدلنا كذلك على أن معظمهم من عامة الناس الذين لم يتشربوا العلم ولم تعمر قلوبهم بالإيمان كما عمّرت قلوب السحرة، وذلك أن السحرة علموا من هو الله لما رأوا المعجزة، وصبروا على القتل والعذاب من أجل العقيدة التي ملأت جوارحهم وجوارحهم.

وهذا حال الأمم الكافرة إذا استعبدت أهل التوحيد وتمكنت من ديارهم وأرضهم، وتمكنت من تعليمهم وثقافتهم، وتمكنت من قياداتهم وحكامهم، فإنها تغير فيهم الكثير، وتضعف فيهم معالم هويتهم وعقيدتهم وتمييزهم، وتجعلهم أذلاء بليدي الفهم، وهو ما نرى شيئًا منه في زماننا، ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله.

وسبحان الله كيف جاء التعبير القرآني عن الأصنام هنا في الآية، فقد أخبر سبحانه وتعالى أن الأصنام لهم، يعني: هم صنعوها وملكوها ثم عبدوها، ليدلك ذلك على جهلهم العجيب، وخفة عقولهم وغوايتهم التي يصعب وصفها، ويشير كذلك إلى خفة عقل من يتخذ مع الله وليًا يعبد أو يجعله واسطة بينه وبين الله.

قال بعض أهل التفسير: كانت هذه الأصنام على هيئة البقر، وكانت رؤيتها بداية وقوع تعظيمها في قلوب عامتهم حتى أخرج السامريُّ لهم عجلًا جسدًا ليعبدوه كما سيأتي.

{ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } أجابهم نبي الله موسى عليه السلام وأغلظ عليهم وقال لهم: لا يجوز اتخاذ الشريك مع الله في العبادة والدعاء والقربة، فالله ليس له مثل، والله قريب منكم يسمعكم ويصركم ويستجيب لكم.

كيف تجهلون ما يجب أن يُنزّه عنه الخالق وقد علمتم ما لم يعلمه غيركم؟! وكيف تطيش عقولكم وتتعلق قلوبكم بغير سيدكم ومولاكم؟!

كيف تجهلون أن تقليد أهل الكفر في شعائرهم وعقائدهم مخرجٌ من الملة، ومسببٌ لإحباط العمل؟!

ولذلك تجدون في ديننا نصوصاً كثيرة نعت عن التشبه بأهل الكفر في هيئاتهم وزيهم الذي يخصهم، وأمرت بمخالفتهم في عقائدهم ودينهم وشريعتهم، ولكن صنفاً من أبناء أمتنا لا يُلقني بالأمر لله ونهيه، ونجده يتبعهم ويقلدهم في أعيادهم ولباسهم، ويحرص على تحكيم قوانينهم في بلاد المسلمين، وغير ذلك.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ تَبَعْتُمُوهُمْ ". قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: " فمن "، وأخرج أبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من تشبه بقوم فهو منهم ".

وأخرج أبو داود والبيهقي في السنن الكبرى عن ثابت بن الضحاك، قال: " نذر رجل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلاً ببوانة (اسم مكان أسفل مكة)، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا. قال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. قال النبي صلى الله عليه وسلم: أوف بنذرِك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم ".

ومما جاء في سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، أنه بعد فتح مكة سار بجيشه إلى حنين، وكان في هذا الجيش حديثو عهد بإسلام، فسألوه أمراً فيه تقليد لأهل الكفر وبقية مما كانوا عليه. أخرج أحمد والترمذي عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى حنين مرَّ بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط⁶³ يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات

⁶³ هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين، وسميت بذلك لأنهم كانوا يُنْطِون بها سلاحهم، أي: يعلقونه بها.

أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " سبحان الله هذا كما قال قوم موسى { اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ }، والذي نفسي بيده لتركبن سنّة من كان قبلكم ".

فهذه الشجرة كان المشركون يتبركون بها، ويعتقدون فيها نفعًا، ويخصونها بتعليق أسلحتهم عليها، فلما مرّ جيش المسلمين بها، طلب بعض حديثي الإسلام منهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم شجرة يعلقون بها أسلحتهم للتبرك، فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن طلبهم، ودكّرهم بما قاله بنو إسرائيل، مع أن الصحابة لم يطلبوا إلهًا، وإنما طلبوا شجرة يتبركون بها وتكون سببًا لانتصارهم، ولكن هذا الأمر لم يجعله الله سببًا للنصر بل هو من جنس الشرك المحرم.

وهذا إن دلکم على شيء فإنما يدل على أن التعلق والتبرك بالأشجار والأحجار فيه خطر عظيم على التوحيد، وأن من أسلم حديثًا قد يبقى في قلبه نوع تعلق بما عهده، ومثله يُعلم ويؤجّه ويضبر عليه في دعوته.

- { إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } -

يقول عليه الصلاة والسلام لهم: اعلّموا يا قوم أن من يعبدون الأصنام مُتَّبَرِّ ما هم فيه، أي: هالك ومُدْمَر وخاسر ليس فيه أي نفع، فاحذروا أن يفسد حالكم كما فسد حالهم، واحذروا أن تُهلكوا أنفسكم وتوردوها المهالك، وتُعْرِضوها لسوء العاقبة وسخط الله وناره.

سيظهر التوحيد في هذه البلاد وستعلو كلمته، وسيزول ملك هؤلاء وتذهب معهم آلهتهم التي عبدوها، فلا يغرنكم ما أقاموا عليه، ولا تتشبهوا بهم.

ثم هو من الباطل الذي لا يقبله الله ولا يرضاه، وليس لصاحبه فيه أي أجر أو ثواب، ولن يغني من الله شيئًا إذا نزل بأسه وعذابه.

يوجبهم عليه السلام وينكر عليهم أشد إنكار، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية يوم يرى الناس تسارع في المنكرات وتجاهر بها، ينبغي أن يوجههم ويبين لهم الدين، ويذكرهم بحق الله عليهم، وأنهم راجعون إليه وموقوفون بين يديه.

انظروا كيف ينصبون التماثيل في عدد من بلاد المسلمين، وكيف يجعلون لعدد من ملوك الدنيا ورؤسائها أصنامًا تشبههم، يقصدون بذلك إدخال عظمة هؤلاء في القلوب والعقول، فهم يعلمون ما لرؤية هذه التماثيل من أثر على القلب الضعيف الذي لم يمتلئ بالإيمان.

ونظير هذا ما تفعله بعض الطوائف من تعظيم القبور والأموات فيها عند أتباعهم، ودعوتهم إلى الاستغاثة بهم ودعائهم وخدّهم، أو جعلهم واسطة بينهم وبين الله، وكلّ هذا مما لا يخفى عليكم بطلانه وضلال أصحابه، ولا يخفى عليكم أنها فتكت بقلوب الكثير، ولا زالت.

ومن هنا نفهم لماذا جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تتكلم عن ضلال عبّاد الأصنام وكفرهم، كما هو حال قوم نوح وهود وصالح عليهم السلام، وكما هو حال المشركين الذين أرسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونفهم كذلك لماذا أمرت كثير من الأحاديث بهدم التماثيل ووجوب التخلص منها، فلنحذر منها سواء كانت شركًا أو ذريعة إلى الشرك أو تقليدًا لأهل الكفر في المشرق والمغرب، وسواء كانت هذه التماثيل رموزًا دينية أو كانت من باب عادات الناس وأمور دنياهم.

أخرج مسلم عن أبي الهيثاج الأسديّ، قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سوّيته ".

وأخرج مسلم عن عمرو بن عبّسة رضي الله عنه، أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: وبأي شيء أرسلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم: " أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يؤخّد الله لا يُشرك به شيء ".

- { قَالَ أَعِزَّ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } -

بعد أن زجرهم ووبخهم، جعل يحيي في قلوبهم الخير من جديد، ويُدكّرهم بما أكرمهم الله به من تفضيلهم على أهل زمانهم بالهداية للتوحيد، وجعل الدين والرسالة فيهم، وكما أسلفنا من قبل، فضّلهم على أهل زمانهم لا على العالمين جميعًا، لأن خير الأمم جميعًا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول لهم: لا أرضى لكم أن تشركوا مع الله شيئًا، ولا يليق بقلوبكم أن تأله إلهًا غير من اصطفاهم وأنعم عليها بنعم لا تُعد ولا تحصى، واحذروا ثم احذروا من أن تتعلق بغيره جل وعلا، فهو وحده من بيده النفع والضرر والموت والحياة والرزق.

يقول لهم: كيف يغمركم الله بنعمه هذه كلها، ويفضلكم على العالمين ومنهم هؤلاء عبّاد الأصنام، ثم تطلبون مني عبادة من لا يُنعم ولا يملك من أمره وأمر غيره شيئًا؟! وتريدون وأنتم أفضل أهل زمانكم بتوحيدكم أن تقلدوا من هو أقل منكم رتبة ومنزلة بشركه؟! إن هذا لعجب عجاب !

- { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }

لا زلتم يا بني إسرائيل حديثي عهد بنجاتكم من قهر فرعون، فرعون الذي قَتَلَ أبناءكم واستحيا نساءكم وأبقاهن في العمل المتعب المذل، فرعون الذي ابتلاكُم الله به بلاء عظيمًا حتى نصركم عليه، فانظروا إلى ما صرتم فيه من العزة، وانظروا كيف انتقم الله لكم منه وشفى صدوركم، انظروا وتأملوا واثبتوا على التوحيد ولا تشركوا.

يا قوم، كان الأجدر بكم أن تنتفعوا من إنعام الله عليكم بعد ما أصابكم من البأساء والضراء، وكان الأجدر بكم أن تخلصوا دينكم لمن رأيتم آياته في الآفاق، وكان من السهل عليكم أن تدركوا خِسة هذه الأصنام وعجزها عن أي شيء.

- { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ }

لما ذكّرهم موسى عليه السلام ووعظهم انتهوا عن ذلك، ورجعوا إلى رشدهم وما كانوا عليه، فأكرمهم الله بفضل واسع جليل عظيم، وآتاهم نعمةً من نعمه الممتدة والكثيرة في الآيات، وهي نعمةٌ متعلقة بمهاديتهم

وإنزال التوراة على نبي الله موسى عليه السلام لتكون لهم نوراً وبرهاناً وهداية وعزاً، ومتعلقةً بتكليم الله جل جلاله لنبيهم عليه السلام، ومتعلقةً بمزيد اصطفاء لهم وإكرام.

لما خرج بنو إسرائيل من عند القوم الذين كانوا يعبدون الأصنام، ومضوا في طريقهم إلى أرض فلسطين، أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى عليه السلام أن يذهب هو وقومه إلى جبل الطور، وهو الجبل الذي أمره أن يصعده ويغيب عن قومه ثلاثين يوماً يمضيها في مناجاة الله وعبادته هناك، ثم إن الله تعالى زاده عشراً لتكتمل زكاة نفسه، ويشتاق للقادم أكثر وأكثر، فإن ما ينتظره ليس يسيراً، ينتظره أن يُكَلِّمَهُ الله، ويؤتِيَهُ التوراة، وهي شريعته سبحانه التي ارتضاها لبني إسرائيل، والعقيدة الصافية النقية التي تُسعدهم في الدنيا وتُنَجِّيهم في الآخرة. قال الله تعالى: " وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ " [البقرة: 51]، وقال سبحانه: " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى " [طه: 80].

وقد استعمل القرآن هنا لفظة (لَيْلَةً) مع أنها تشمل الليل والنهار، ليشير إلى روعة الليل وجمال العبادة فيه، وكيف أن النفس تصفو فيه وتتخلّى عن الشواغل التي تكون بالنهار.

ثم لتذكرنا بفضل قيام الليل، ولزوم هذا الباب الذي لا تكاد تنقضي منافعه، والذي جاءت فيه آيات وأحاديث كثيرة، ويكفيها فيه أن ربنا ينزل إلى السماء الدنيا في ثلثه الأخير ليستجيب دعاء الصادقين الذين تجافت جنوبهم عن فراش النوم، يدعون حبيبهم خوفاً من ناره وطمعاً في ستره وجنته ورضاه.

{ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ }

أوصى نبي الله موسى عليه السلام أخاه هارون عليه السلام قبل أن يخرج إلى الطور، وأوصاه بأن يكون خليفة له في قومه، يسوسهم ويحكمهم بشرع الله القائم على التوحيد والطاعة، وأوصاه أن يمضي في دعوته وتعليمه لبني إسرائيل.

ثم إن نبي الله موسى عليه السلام يَعْلَمُ أن في بني إسرائيل من هو مفسد، وفيهم من لم يدعن قلبه للدين مع كل ما رآه وعاشه، ومن لا يريد من هذه الدنيا إلا أن يتمتع بالفواحش والمنكرات، وأمثال هؤلاء يعيقون الدعوة وسيرها، وينشرون الفسق والفجور في الناس، فحذّرهم وأمرهم بمخالفتهم واجتنابهم.

ومعلوم لديكم أن الله تعالى جعل نبي الله هارون عليه السلام وزيراً لنبي الله موسى عليه السلام، مع أن نبي الله هارون كان أكبر من موسى عليهما السلام، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: " وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي " [طه: 29-32]، فنبى الله هارون عليه السلام كان داعية في بني إسرائيل قائماً بأمر الله ووحيه إليه فيهم، وكان من إصلاحه أن منعهم من عبادة العجل وأنكر عليهم فيما بعد كما سيأتي، ولكن وصية نبي الله موسى له إنما هي من باب التذاكر والإيصاء بالخير، وهو ما لا يستغني عنه داعية في الدنيا كلّها، وهو من باب حرص نبي الله موسى وشفقته على قومه، وهو من باب مراعاة خصال نبي الله هارون عليه السلام التي كان فيها اللين والاحتياط، فكأنه يوصيه ألا يستطرد معهم كثيراً في ذلك لئلا يُسرّع الفساد إليهم، وسيأتي معنا قوله عليه السلام: " قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي " [الأعراف: 150].

يوصي عليه السلام أخاه هارون عليه السلام بأن يمضي في دعوته في بني إسرائيل مدة الشهر الذي سيغييه، وقلنا مدة الشهر لأن الأيام العشرة التي زادت عنها أوحى الله بها إلى موسى وهو على الطور، وليس قبل خروجه، حتى إن بعض أهل التفسير نقلوا بأسانيدهم عن الصحابة بأن الفساد الذي حل ببني إسرائيل كان في هذه الأيام العشرة، وقد زعموا أن موسى عليه السلام مات ولن يرجع إليهم بعد أن تأخر.

وانتبهوا كيف جمع في وصيته بين الإصلاح وبين التحذير من الإفساد، فالإصلاح هو الخير الذي ننشره في ديارنا وأهلينا وشعوبنا، وهو الدين الذي نُعلّمه إياهم وندعوهم إليه، ومعه ندافع المفسدين الذين يتبعون أهواءهم ويبغضون الدين، والذين يفتنون الناس عن طريق الاستقامة، فسياسة الأمم وقيادتها لا تكون إلا بالإصلاح ومدافعة الفساد، فتأملوا.

- { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }

يا لها من لحظات يتمناها كل مؤمن أحب خالقه وسيده ومولاه، وتعلق قلبه وامتلأ بتعظيمه والشوق إليه، ومضى في طريق الجهاد والعلم والدعوة وصبر عليه لينال مراده من لذة النظر إلى وجهه الكريم، سبحانه.

سارع نبي الله موسى عليه السلام إلى جبل الطور استجابة لأمر الله، ووصل إلى الميقات والمكان الموعد، وعبد ربه كما أمر وأتم أربعين ليلة، وكلمه رب العزة بدون وحي ولا واسطة.

هنا طمع موسى عليه السلام برؤية الله بعد أن سمع كلامه، طمع ليزداد معرفة بمن رأى من عظمته ما رأى، طمع برؤية من أحبه ومن اشتغل قلبه ولسانه وكل جوارحه به، طمع في أن يجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية، فسأل الله أن يكرمه برؤيته، وطلب من ربنا أن ينظر إليه.

{ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } قال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام في هذا المشهد المهيّب: لن تراني في الدنيا فلا تطلب ذلك مرة أخرى ولا تلحّ في مسألتك، ولكن انظر إلى الجبل الذي بجانبك، وهو أشد منك خلّقًا وأكبر منك، لترى شيئًا من العظمة يغنيك عن رؤية البصر في الدنيا.

فإذا كان الجبل العظيم والكبير لا يثبت لحظة إذا تجلّى الله عليه، فكيف لبشر أن يطبق رؤية الخالق في الدنيا ! أما في الآخرة فإن الله يعطي أبصارنا قوة لتراه وتسعد بقلياه، وإن كانت لا تحيط به ولن تحيط، جل جلال ربي.

استحضروا معي هنا ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة من رؤية المؤمنين لله يوم القيامة، ورؤيته سبحانه في الجنة، والأدلة على ذلك كثيرة وموفرة في الكتاب والسنة، وإليكم شيئًا من البيان:

1- صحيح أننا لا نرى الله في الدنيا، ولكن رؤيته غدًا يوم القيامة مما وعد المؤمنين به، فهم ينتظرونها لتسعد قلوبهم بمحبوبهم الذي اشتاقوا للقاءه، وقد كانوا في الدنيا يقرؤون كلامه، ويقومون بين يديه في الليل يناجون، ويحسنون في صلاتهم وصيامهم وجميع أعمالهم، وكانوا يتسابقون في كفالة الأيتام وإطعام المساكين والقيام على حاجات المحتاجين ليرضى عنهم، وكانوا يجتنبون الظلم والفواحش ويفرون منها ومن لذائذها الفانية، وكانوا يحسنون إلى والديهم وأزواجهم وعيالهم وقرباتهم، لا يرجون من كل ذلك إلا أن يرضى عنهم حبيبهم سبحانه، فهلاً تأملتم كيف يكون اللقاء، وهلاً استحضرت تلك الحلاوة التي ستُنسينا بؤس الدنيا كله. قال الله تعالى عن أهل الإيمان: "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" [القيامة: 22-23]، وقال سبحانه عن الكافرين: "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ" [المطففين: 15].

وأخرج النسائي وابن حبان وغيرهما، عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما، يذكر دعاءً كان صلى الله عليه وسلم يدعو به، وقد جاء فيه: "وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراءٍ مُمضرة، ولا فتنةٍ مُضلة، اللهم زيننا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين".

بل إن أعظم نعيم يعيشه أهل الجنة في الجنة هو رؤية خالقهم جل وعلا، كما صحت بذلك الأدلة وتواترت الأخبار. أخرج مسلم عن صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ قال: فيُكشَفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل".

2- قال غير واحد من أهل العلم: صحيح أن رؤية الله حاصلة، ولكنه لا يلزم من رأى ربنا أن يحيط به، أي: يرويه ولا يحيط بصرفهم بالله تعالى من عظمتهم، وذلك كما يرى أحدنا السماء ولا يحيط بها جميعاً، وكما نعلم أن الله تعالى يعلم ولا نحيط بعلمه جل جلاله. قال الله تعالى: "لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" [الأنعام: 103]، وقال سبحانه: "يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا" [طه: 110].

3- ولقائل أن يقول: وهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه في رحلة معراجهِ إلى السماء يوم فُرِضَت الصلاة؟

والجواب جاء فيما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدّثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربّه فقد كذب، وهو يقول: { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } . ومن حدّثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: (لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وأخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال: نورٌ أتى أراه . » .

وقد خالفها في ذلك ابن عباس رضي الله عنهما وأثبت الرؤية في رحلة المعراج، ولكنه حملها على الرؤية القلبية لا الرؤية بالعين، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: " { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى } ، { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى } قال: رآه بفؤاده مرّتين . "

أخرج مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات، فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُوحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ . "

ولعل المتأمل في كلام أمنا عائشة وكلام ابن عباس رضي الله عنهما، يجد أن الرؤية بالعين لم تحصل ليلة المعراج، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم رأى نوراً، وهو كلام أكثر أهل العلم من السلف والخلف، ويجد أن الرؤية التي حصلت إنما هي رؤية القلب على كلام ابن عباس رضي الله عنهما، وعليه فلا خلاف بين ابن عباس وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما، ورضي الله عن ابن عباس وعن أبيه .

4- اهتم أهل العلم بمسألة رؤية الله كثيراً، وعقدوا لها أبواباً في كتبهم عامة وفي كتب العقيدة خاصة، وسبب ذلك أن طائفة المعتزلة زعموا أن الله تعالى لا يرى في الدار الآخرة، فخالفوا أهل السنة في كلامهم الذي بنوه على أصول عقلية مزعومة أنكروا بها حصول الرؤية كما أنكروا عذاب القبر، والشفاعة، والحوض، وكما جعلوا مُرتكب الكبيرة خالداً في النار إذا لم يتب منها، وكما نفوا بسببها صفات الله .

{ فَلَمَّا بَلَغَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا } ثم إن ربي جل جلاله، وتقدست أسماؤه تجلّى للجبيل، أي: ظهر له بنوره سبحانه، كما يليق بجلاله وعظمته، فلما تجلّى سبحانه للجبيل لم يتمالك الجبل، بل صار ترابًا وانهار مُفْتَتًّا على الأرض مستويًا معها، فإذا حصل هذا للجبيل، فكيف لمن دونه ! هنا خَرَّ موسى عليه السلام صَعِقًا، أي: وقع على الأرض مَغْشِيًّا عليه كمن أخذته الصاعقة.

وهذه الصعقة التي صعقها موسى عليه السلام في الطور، أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في معرض حديثه عن أهوال يوم القيامة وما ينتظرنا فيه، وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الناس يُصْعَقُونَ يوم القيامة، فأكون أول من يُفِيق، فإذا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جُوزي بصعقة الطور ".

{ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } فلما أفاق عليه السلام من غشيته، عرف أنه سأل أمرًا وألح فيه وما كان ينبغي له، فأطلق كلمات تدلنا على ما حمله في قلبه في تلك اللحظات من التقديس والتعظيم والتنزيه والإجلال، قال عليه السلام: أنزهك يا رب عن كل نقيصة، وقد تبّت إليك من طلبي هذا فلا أعيده، وتبّت إليك من كل ذنوبي وتقصيري في طاعتك، وأنا يا رب أول مؤمن من بني إسرائيل بأنه لا يراك أحد إلى يوم القيامة، وأنا أول من آمن بجلالك وعظمتك وصفاتك التي لا شبيه لها، وأنه ليس كمثلك شيء.

- { قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ }

تخيّل أن يصطفيك الله بشيء يتمناه الخلق كلّهم، وأن يقربك منه ويكتبك في ديوان المقبولين، وأن يكلمك بدون واسطة ويوحى إليك من أمره وعلمه، وأن تعلم أنه راضٍ عنك.

وقد اصطفى ربنا من الناس أنبياء، واصطفى مجاهدين، واصطفى أهل القرآن، واصطفى من يدعو لدينه ويعلم الناس الخير، واصطفى من ينفق في السراء والضراء، وكلّ ميسر لما خُلق له.

يكرم الله نبيه موسى عليه الصلاة والسلام، وينادي عليه نداءً فيه التأنيس وإزالة الرُّوع، ويخبره أنه فضله واجتباؤه واختاره وآثره، وأنه اصطفاه على جميع الناس من أهل زمانه بالرسالة، وأنه اختاره ليدعو فرعون وقومه إلى الإيمان، وليبلغ بني إسرائيل الدين، وليكون بشيرًا لهم ونذيرًا بين يدي يوم عظيم.

ومما أكرم الله به نبيه كذلك أنه اصطفاه بكلامه، أي: بتكليمه الله جل وعلا، وتكليم الله له من وراء حجاب كما في الآية السابقة، وكما كلمه عند النار يوم اصطفاه وأخبره أنه رسوله إلى فرعون وقومه، تكليمًا يليق بجلال الله وعظمته. قال الله تعالى: "وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" [النساء: 164].

هنا تشریفٌ عظيم لنبي عظيم من أنبياء الله سبحانه وتعالى، واصطفاءً له من بين كثير من إخوانه الأنبياء بتكليم الله له عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، حتى إن سيدنا إبراهيم عليه السلام وصفه بأنه كليم الله، كما جاء في حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري ومسلم، وهو حديث يصف ذهاب الناس إلى الأنبياء ليشفعوا عند الله في بدء الحساب والتخلص من أهوال وقوفهم في أرض المحشر، وقد جاء فيه: "فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ" الحديث.

وجاء في رواية ابن حبان: "فينطلقون إلى موسى، فيقولون: يا موسى، أنت نبيُّ اصطفاك الله برسالاته، وكلّمك تكليمًا، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه من الشر؟".

ومعلوم لديكم أن الأدلة الشرعية جاءت بإثبات التفاضل بين الأنبياء، وأن بعضهم أعلى مقامًا من بعض وإن كانوا جميعًا أعلى الناس قدرًا ومقامًا، وأن من أوجه هذا التفاضل حصول التكليم كما دل على ذلك قول الله تعالى: "تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ" [البقرة: 253].

هذا التفاضل قدره كذلك ربنا بين الرُّسل، مع اشتراكهم في حَصْلَةِ أَهَمِّ خَيْرِ الْبَشَرِ؛ فإبراهيم عليه السَّلَامُ فَضِّلَ بِالْحُلَّةِ، وموسى عليه السَّلَامُ بِالتَّكْلِيمِ، وداود عليه السَّلَامُ بِالزُّبُورِ الْحَافِلِ بِالتَّسَابِيحِ وَالْحَمْدِ وَالْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ، وسليمان عليه السلام بِالْمُلْكِ مِنْ تَسْخِيرِ الْجِنِّ وَالرِّيحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بِمَغْفَرَتِهِ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وأنه سيد ولد آدم، وبخصال كثيرة جاءت بها النصوص. قال الله تعالى: "وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا" [الإسراء: 55].

أما في الآخرة فقد جعلت الشريعة ميزان التفاضل ورفعة الدرجات قائماً على التقوى والخشية، والإيمان والعمل الصالح، وذلك بخلاف الدنيا التي قامت أحكام شريعة الله فيها على التساوي في أحكام، والاختلاف في أحكام أخرى، نظراً إلى طبيعة الخلق، وحرصاً على التكامل المنشود لعمارة الأرض وصلاح الإنسانية. قال جل وعلا: " انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا " [الإسراء: 21].

وتكليم الله لأنبيائه لم يكن لسيدنا موسى عليه السلام فقط، بل ثبت في كتاب الله تعالى أن الله كلم نبيه آدم عليه السلام، وثبت في الصحيحين أن الله تعالى كلم نبينا عليه الصلاة والسلام في رحلة المعراج لما سأله أن يخفف عن أمته من الصلاة، فخفف عنها في الأداء، وأبقى الأجر كما هو والحمد لله.

ولقائل أن يقول: إذا كان التكليم ثابتاً لغير سيدنا موسى عليه السلام، فلماذا كان هو تكليم الله وليس غيره؟ والجواب أن تكليم الله لغيره من الأنبياء كان في السماء ولم يتكرر كثيراً، بخلاف تكليم نبي الله موسى عليه السلام الذي تعدد في الأرض. قال الله تعالى: " فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي " [طه: 11-14].

ثم إن شهرة العبد بأمر ما لا يدل على انتفاء هذا الأمر عن غيره، ولا يكون بما انفرد به دوماً، فسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام يُضرب به المثل في العفة مع أن كل أنبياء الله ورسله عفيفون، ونبينا صلى الله عليه وسلم اكتملت فيه أوصاف البشر من الجمال والعفة والصدق، حتى فضله بعض الصحابة على القمر في الجمال، وبعضهم كان لا يملأ عينيه من وجهه الشريف، وما ذاك إلا لأن جماله اندفن في هيئته وعظمته في القلوب، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

ولا تظنوا أن تكليم الله تعالى مقصور على من ذكرنا من النبيين، بل إن الله تعالى كلم الملائكة ويكلمهم، وقد ذكر القرآن ما حصل في كلامه سبحانه مع الشيطان في قصة الأمر بالسجود لآدم عليه السلام.

ومن كرم الله تعالى على عباده المؤمنين أنه كلم أحدهم في حياة البرزخ بعد قبض روحه، وكذلك يكلمهم في أرض المحشر، وقد دلَّ على ذلك ما أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، يقول: « لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟

قلت: يا رسول الله، اسْشْهَدْ أَبِي⁶⁴، وترك عيالاً ودينًا، قال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا⁶⁵، فقال: يا عبدي تمرّ عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون. قال: وأنزلت هذه الآية: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا } [آل عمران: 169].

ودلّ على تكليمه لهم في أرض المحشر ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يُدْني المؤمن، فيضع عليه كَنَفَهُ ويستُرُهُ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافقون فيقول الأَشْهاد: { هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } [هود: 18].

بل ومن روعة حياة أهل الجنة في الجنة أن الله يكلمهم فيها ليكون كلامه معهم أعظم نعمة لهم في دار الكرامة على الإطلاق. أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبّيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا".

وقد صحّ في كلام ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام أن ثمة أصنافًا يحرمها الله تعالى لذة كلامه معهم، كما في الذين يشترّون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، وكالفقير المستكبر، وكالكبير في العمر الذي يقترب الزنا، وكالذي يحلف كذبًا، وغير ذلك من الأصناف. أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالطريق يمنع منه ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنياه، إن أعطاه ما يريد ونفّ

64 أي: في غزوة أحد.

65 أي: مواجهة بدون حجاب، وهذا لأنه خرج من دار الدنيا.

له وإلا لم يف له، ورجل يبايع رجلاً بسلعة بعد العصر، فحلف بالله لقد أُعطي بها كذا وكذا فصدقه، فأخذها، ولم يعط بها⁶⁶.

وعند مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم. قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار. قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمتن، والمنفق سلعته بالخلف الكاذب".

وعند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومملوك كذاب، وعاتل مستكبر".

واعلموا أن تكليم العبد لخالقه إنما يكون على الوجه الذي يليق بعظمته وجلاله، وأن كلام الله الذي يسمعه عباده يكون على الوجه الذي يليق بعظمته وجلاله وليس ككلام البشر. قال الله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" [الشورى: 11]، وقال جلَّ وعلا: "فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" [النحل: 74].

واعلموا كذلك أن تكليم الله لأنبيائه وملائكته إنما هو من وراء حجاب، كما دل على ذلك قول الله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ" [الشورى: 51]، وذلك بخلاف تكليمه لهم في الآخرة فإنهم يرونه كما يرون الشمس في واضحة النهار، وكما يرون القمر وسط سماء صافية.

{ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } يأمره الله تعالى أن يأخذ ما آتاه من الأوامر والنواهي في وحيه إليه، وكلامه معه، وفيما أنزله عليه في التوراة، وأن ينتفع بذلك ويتخذة نوراً له، وأن يسارع فيه ويتعلمه ويتقبله، ثم ينقاد إليه ويبلغه، ثم يكون من الشاكرين على نعمة الاصطفاء والتكليم والتفضيل، ونعمة الهدى والنور، وسائر نعم الله، وما أكثرها.

⁶⁶ يعني: يحلف كذباً.

- { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ }

يخبرنا ربنا جل وعلا عما كان في الألواح التي آتاها الله نبيه وكليمه موسى عليه السلام يوم لقيه على جبل الطور، وهذه الألواح إما أنها من أخشاب أو أحجار، وهذه الألواح هي التوراة عند كثير من أهل العلم، وعند بعضهم هي الوصايا العشر التي سبقت نزول التوراة.

كانت في هذه الألواح المواعظ النافعة المباركة، والتي تنفع أهل الإيمان وأصحاب الفطرة السليمة والقلوب الطيبة، والتي تكفي حياة جديدة وميلاد جديد للعاصي والمذنب.

والموعظة هي الإرشاد والنصح الذي يكون فيه الترغيب والترهيب، وفيه جلب المنافع ودفع المضار، وفيه سعي لإحياء القلب وتذكير صاحبه، والحرص على هدايته واستقامة أمره، وهي غاية من غايات إنزال القرآن العظيم، وطريق من طرق دعوة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وكذا الصالحين كما أمر رب العالمين، وهي التي قام عليها تفسيرنا هذا. قال الله تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " [النحل: 125].

وقد جاء وصف القرآن كله بأنه موعظة، وذلك في قول الله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ " [يونس: 57].

ولكم أن تنظروا في آيات كتاب ربنا كم حَوَتْ من ذِكْرِ لليوم الآخر وما فيه من النعيم والجحيم، ولكم أن تستحضروا وعظنا بحقيقة الدنيا وأن الموت خاتمة أمرنا فيها، ولكم أن تتأملوا قصص القرآن التي تُربي فينا الكثير وتُبصِّرنا بحقيقة الطريق، فضلاً عن الآداب والأخلاق التي طفحت نصوص الشريعة بهما، والحمد لله.

ومما كتبه الله في الألواح تفصيل كل شيء يحتاجه بنو إسرائيل مما فيه صلاح دينهم ودنياهم، من أصول العقائد والأحكام والأخلاق، مما لو أخذوه بحقه واجتهدوا فيه بنفوس زكية لكان كافياً لهدايتهم وسعادتهم

ورضا الله عنهم. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " [القصص: 43].

وكأن هذه الهداية التي جاءت في الألواح كانت تعويضًا لنبي الله موسى عليه السلام عن الرؤية التي طلبها ولم يتحصل عليها، وتعويضًا عن الصعقة التي أصابته من عظمة ملك الملوك وجبار السماوات والأرض لما تجلّى للجبل. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيًا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى)؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى. »

{ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } انظروا وتأملوا وأعملوا العقل في أمر الله هنا لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام، كيف أنه طلب منه أن يأخذ الشريعة بقوة، وأن يبلغها للناس ولا يخشى في الله لومة لائم، وأن يكون على ثقة تامة في الطريق الذي سبقه إليه أنبياء ورسل، وأن يمضي في البلاغ والتغيير والإصلاح لا يضره من خالفه، وأن يصبر على الطريق فإنه عسير.

لا يليق بشرع الله أن يكون ضعيفًا في يد حملته، ولا يليق بهم أن ينجلوا من إيصاله للعالمين، ولا يليق بهم ومعهم دين الله أن يعلو أهل الفسق عليهم وينشروا كلمتهم ويكونوا أصبر عليها.

أظن أن حامل القرآن والسنة، ومن آتاه الله شيئًا من العلم في هذا الدين العظيم، ومن أيقن بصدق هذه الرسالة المحمدية ورفعتها وصلاحتها لتكون سيدة العالم، ومن شرح الله صدره ليكون من الدعاة أو من المجاهدين أو من العابدين، أقول: أظن أنهم فقهوا عن الله أمره في هذه الآية، وكأنها تخاطبهم جميعًا وتقول لهم: خذوا وحى الله إليكم في الكتاب والسنة بقوة، واطلبوا فهمه واحفظوه، وجدّوا واجتهدوا في طلبه، ثم

ارفعوا رؤوسكم به، وبلغوه للقاصي والداني، وادعوا كل من تعرفون لتطبيقه وجعله دستوراً، وادعوا كل من حولكم لهداياته ومواعظه.

يا قادة أمتنا وحراس شريعتنا، خذوا القرآن والسنة بعزمٍ وجدٍّ وحرصٍ وإتقان، واعملوا بما فيهما واجتهدوا في تبليغهما، واحذروا السامة والملل والانقطاع وحيل النفس، واحذروا الجبن والكسل والمداهنة، واعلموا أن أمتكم لن تقوم لها قائمة ما قادها ضعيف العزم، فاسد التدبير، فاقد العلم والفهم والبصيرة، مؤثّر الدنيا على الآخرة والسلامة على التضحية. قال الله تعالى: " يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْخُكْمَ صَبِيًّا " [مريم: 12].

{ وَأُمِرَ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا } بَلِّغْ يَا نبي الله قومك ما في هذه الألواح، واطلب منهم أن يأخذوها بما فيها، فإن ما فيها حوى أحسن الخطاب والكلام، وأحسن الأمر والنهي، وأحسن البيان والبلاغ.

وسياأتي معنا في قادم الآيات خطاب الله تعالى لقوم موسى عليه السلام أن يأخذوا شريعتهم وتوراتهم بقوة، وذلك في تفسير قول الله: " وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " [الأعراف: 171].

وكأن خطاب الله لبني إسرائيل هنا يريد أن ينقلهم إلى الثقة بالطريق، وإلى العزة التي كانوا يفتقدونها يوم كانوا تحت سلطان فرعون، وإلى التضحية والصبر لما ينتظرهم في قادم الأيام من أحوال صعبة، ومن أمر بجهاد القوم الجبارين، وغير ذلك.

وهكذا حال كل أمة تتطلع إلى أن تكون صدارة العالم لها، وتعمل للاستجابة لأمر الله لها بأن تهيمن على الأرض، أقول: هذه الأمة لن تصل إلى ذلك بدون تربية حقيقية على الإيمان والتقوى ومعالي الأمور ورفيع الأخلاق، ولن تحقق مرادها بدون بذل النفس والمال، وبدون الإعداد والاستعداد.

{ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } وقل لهم يا موسى كلامًا فيه تهديد ووعيد وتحذير، قل لهم: ستعلمون غدًا عاقبة من خالف أمر الله، وجزاء من خرج عن طاعته وفرط في أحكام التوراة، وسترون ما ينتظره من عذاب النار، وما فيه من الخسران والندامة ؛ أيُّ وعيد هذا !

ومن أهل العلم من قال: ختام الآية هنا وعدُّ من الله لبني إسرائيل إذا أخذوا التوراة بقوة وعملوا بها وبلغوها لقومهم، فإنه سيربهم أرض الشام ويعطيهم إياها ليحكموها، وهي الأرض التي يسكنها الفاسقون من الجبابرة والعمالقة ممن عبدوا غير الله وأشركوا به في ذلك الزمان.

- { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ }

ما أصعب أن يُجرم العبد هداية الله وتوفيقه ! وأيُّ خسران بعد خسارة عون الله وحفظه للقلب والعقل عن الشبهات والشهوات والملهيات والمغريات ! وكيف يكون رنجٌ بعد أن يتخلى الله عنك ويستدرجك من حيث لا تدري ! وكيف بأقوام يقدّمون على الله يوم القيامة ويبدو لهم من أعمالهم ما لم يكونوا يحسبون !

يقول الله هنا: سأمنع هؤلاء المتكبرين من فهم شريعتي وأحكامي، ومن الاهتداء بأنوار التوحيد والعمل الصالح، فإنهم تكبروا على الدين وعلى الناس بغير حق، وتعاضموا في أنفسهم وحسبوا أنهم يملكون نفعًا أو ضرًا، وأعجبوا بباطلهم فلم ينتفعوا من موعظة ولم ينقادوا لأمرٍ، فهم يعتقدون أنهم سادة الناس وكبرائهم وأغنيائهم وأقويائهم، فكيف يتبعون من هو أقل منهم حظًا وثروة وقوة ؟

المتكبرون في الأرض يترفعون عن آيات الله في الأنفس والآفاق، ويأنفون من طاعة مالك الملك ومدير أمر الكون كله، ويفرّون من سماع كلام الله الذي أنزله في كتبه وأوحاه إلى رسله، وهم الذين عاقبهم ربنا بأن صرفهم عن الانتفاع من آياته، وهم الذين طبع الله على قلوبهم لما فسدت، وطبع على أبصارهم وأسماعهم لما أعرضت، وحرّمهم خيرًا عظيمًا وفضلاً واسعًا بما قدّمت أيديهم وكسبت. قال الله تعالى: "

فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً [المائدة: 13]، وقال سبحانه: " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ " [الصف: 5].

يا من تقرؤون كتاب الله وتتدبرون آياته، احذروا الكبر فإنه منقصة في العبد، وسبب عظيم من أسباب الحرمان من الدين والعلم وصالح العمل. قال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر.

هنا خطاب لأمتنا، جاء بصيغة المستقبل، ليحذروا طريق بني إسرائيل في التعامل مع نبيهم وكتابتهم وآيات ربهم، وليكونوا على بصيرة بأمراض النفوس التي لا يلتفت إليها كثير من الناس، وليستشعروا فضل الله عليهم أن شرح صدورهم لهذا الدين، واصطفاهم للإسلام وكرامة أهل الإسلام.

هنا خطاب لكفار العرب الذين عاش صلى الله عليه وسلم فيهم وبينهم، ثم إنهم استكبروا عن دعوته ورسالته، ولم يصدقوا في طلب الحق ويتجردوا له، وعاندوا وجحدوا ونصبوا رايات العدا، ثم آذوا وأفسدوا، خطاب يطالبهم بالألا يستكبروا ويعرضوا ويغترؤا، فإن عذاب الله قريب.

{ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا } وصلوا إلى مرحلة لا ينتفعون فيها من كل آيات الله التي ما انقطعت عنهم ولن تنقطع، فإن كل شيء حولنا يخبرنا عن الله وعظمته ووحدانيته وعلمه وحكمته، جل جلال ربي. قال الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ " [يونس: 96-97].

{ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } ظهر لهم سبيل النجاة والرشاد والفلاح والهدى، وعلموا وأيقنوا أن طريق توحيد الله وإفراده بالعبادة هو المطلوب منهم في الحياة الدنيا ليسعدوا، وأنه مع العمل الصالح موصل لمرضاة الله ودار كرامته، ولكنهم مع كل ذلك لم يتخذوه سبيلاً لغلبة الهوى وخبت الطباع، بل وصفوا نبيهم بالسحر والكهانة والكذب.

{ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَخَذُوهُ سَبِيلًا } وإن ظهر لهم طريق البوار والخسران والهلاك والضلال والغي سارعوا فيه وأقبلوا عليه وأحبوه، مع أن عاقبته إلى دار الشقاء.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } غفلوا عن قيمة ما آتاهم الله وأزدرؤه واحتقرؤه، وكذبوا بالحق لما جاءهم، فصرفوا عن العلم والرشد والصراط المستقيم، ومضوا في سلوك طريق الغي والضلال المبين.

وسبحان الله، كيف يصبحون ويمسون بنعمة الله ورزقه، وكيف أعطاهم عافية في أبدانهم وأهليهم، وكيف يحييهم كل يوم بعد مماتهم في نومهم، وكيف يمهلهم ليتوبوا ويرجعوا، ولكنهم كانوا من الغافلين عن إصلاح أنفسهم، اللاهين المنشغلين المعرضين عن رحمة الله بهم. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " [الأعراف: 179].

- { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } -

هنا قاعدة من قواعد العمل الصالح الذي يقبله الله ويرضى عن صاحبه، فرب أعمال طيبة في ظاهرها، ولكن قام عليها من كذب بالأنبياء والمرسلين وما جاؤوا به من الكتب والهدايات، ورب فكرة نافعة للبشرية، ولكن قام عليها من كفر بالآخرة ولم يؤمن بقاء الله فيها، ورب نصر للمستضعفين، ولكن قام عليه من يزعم أن الله شريكاً في الخلق والأمر، فهؤلاء جميعاً لا يقبل الله منهم صرّاً ولا عدلاً، وأعمالهم حبطت وذهب ثوابها لأنها لم تكن لله، ولم تكن على منهج الله الذي أمر به، وأعمالهم هذه يُعَجِّلُهَا اللهُ لهم طيبات في الدنيا يتمتعون بها، وربما تكون سبباً لأن يكونوا أقل عذاباً في النار من غيرهم. قال الله تعالى: " وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " [المائدة: 5].

{ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ربنا جل وعلا ليس بظلام للعبيد، ولا يظلم سبحانه وتعالى أحداً، ولذلك جاءتهم آياته سبحانه مبثوثة في كل شيء حولهم، وجاءتهم آيات التوراة وآيات الإنجيل وآيات القرآن، ولكن خاتمة أمرهم كانت إلى الكفر والجحود، والنكران والصدود حتى ماتوا على ذلك، فكان جزاؤهم ما أخبرت عنه الآيات.

- { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ }

تقدم معنا أن نبي الله موسى عليه السلام ذهب إلى جبل الطور استجابة لأمر الله ومناجاته، وأنه استخلف أخاه هارون في قومه وأوصاه بما أوصاه، وأن هارون عليه السلام قام فيهم بالدعوة والتذكير، ولكن بني إسرائيل لم يصبروا على طريق الاستقامة، ولم يثبتوا على التوحيد الخالص، وأحدثوا مصيبة من مصائبهم التي تعددت، والتي بدأت يوم جاوزوا البحر ورأوا قوماً معتكفين على أصنامهم، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم أصناماً آلهة مثلهم كما مر معنا.

قصة بني إسرائيل مع العجل بدأت يوم قام السامري فيهم، وأفسد عليهم قلوبهم وعقولهم، ونشر فيهم أن موسى عليه السلام لم يرجع إليهم في الموعد الذي أعطاهم إياه، وأنه ربما يكون قد هلك.

وقد تقدم معنا أنه وعدهم أن يغيب عنهم ثلاثين يوماً، ولكن الله تعالى أمره بعد خروجه أن يجعلها أربعين، ولم يعلم قومه بذلك.

في هذه العشرة بعد الثلاثين طلب السامري منهم أن يجمعوا له من خُلِيِّهِمْ وذهب نسائهم ليلقيها في النار ويصنع لهم عجلاً يكون آيةً تبهرهم، والعجل هو ولد البقرة، فصنع العجل، وصار هذا العجل يُخرج خُواراً، وهو صوت البقر، فلما رأوا ذلك فُتِنُوا فتنة عظيمة وتنادوا بعبادة هذا العجل الذي ما رأوا مثله من قبل، ثم عكفوا عليه عابدين، وجعلوا يقيمون له طقوساً تدل على أن قلوبهم أُشربت عبادته وتعظيمه، والله المستعان. قال الله تعالى: " { قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا } أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ " [طه: 87-88].

وقد جاء في بعض الروايات عن المفسرين أن الذهب الذي صنع منه السامري العجل كان من حلبي قوم فرعون من القبط، وأن بني إسرائيل استعاروه منهم وحصلوا عليه يوم خرجوا هرباً من فرعون وجنده، ثم سلموه للسامري بعد أن احتال عليهم وأوهمهم بأنه سيحفظه عنده حتى يرجع موسى عليه السلام من ميقات ربه لينظر كيف يعملون به.

وجاء في بعض آثار أهل التفسير كذلك أن السامري كان قد قبض قبضة من أثر جبريل لما نزل بالعذاب على قوم فرعون، وأن هذا السامري رأى سيدنا جبريل عليه السلام على خيل فأخذ تراباً من مكان أثر الفرس، فاحتفظ بها ثم ألقاها على العجل لما صنعه فصار يخرج صوتاً كصوت العجل.

اتخذ قوم موسى من بعد مغيبه عنهم جسداً على صورة عجل، وجعلوه إلهاً معبوداً، فأنكر عليهم نبي الله هارون عليه السلام وأمرهم ونهاهم، فردوا عليه كلامه وأغلظوا له، وأخبروه بأنهم باقون على عبادة هذا العجل حتى يرجع موسى عليه السلام من ميقات ربه. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى " [طه: 90-91].

ومعلوم لديكم أن ربنا جل وعلا أخبر نبيه موسى عليه السلام وهو على الطور بأن قومه ضلوا من بعده، وأن السامري نجح في إضلالهم. قال الله تعالى: " قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ " [طه: 85].

{ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا } كيف تذهلون يا بني إسرائيل عن خالقكم ورازقكم وسيدكم ومولاكم، ومن هو قريب منكم يسمع كلامكم ويعلم سركم ونجواكم، ومن أمركم بأن تدعوه وحده بلا واسطة ولا شريك؟ أين خصائص الألوهية والربوبية التي رأيتموها في هذا العجل حتى صرفتكم عن مالك الملك؟!

إنكار من الله تعالى عليهم، وتوبيخ لهم لأنهم عبدوا العجل من دون الله، وهو عجل لا يكلمهم ولا يبصرهم، ولا يدهم على خير، ولا يصرف عنهم الشر! قال الله تعالى: " أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا " [طه: 89].

ولقائل أن يقول: كيف يُعبدُ عجل من دون الله؟! والجواب جاء في كتاب الله الذي بين لنا أن هؤلاء يصلون إلى مرحلة يَخْلصُ المعبود فيها إلى قلوبهم، ويصل إلى أعماق نفوسهم، فيحبونه محبة عظيمة، ويتعلقون به ويعتقدون فيه ما لا يصح ولا يليق، ويصعب انفكاكهم عنه، كما قال ربنا عنهم: " وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ " [البقرة: 93].

وهذا حال صنف من الناس نراه في زماننا كيف تعلق بالبشر وأطاعهم فيما فيه معصية، أو تعلق ببعض أنواع المعاصي حتى إنه لا يُحَدِّثُ نفسه بتوبة، ولا يخطر له ببال ما ينتظره بعد موته، فاللهم اربط على قلوبنا واصرف عنا ما يشغلنا عنك.

{ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } اتخذوا العجل إلهًا مع الله، اتخذوه جهلاً منهم وتقليدًا لبيئة نشؤوا فيها كان فرعون هو الإله، اتخذوه فوأسفًا عليهم كيف يسرع فيهم الضلال حتى كانوا ممن ظلم نفسه ظلمًا عظيمًا وأوردها المهالك، وعرضها لسخط الله وعقوبته. قال الله تعالى: " وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ " [البقرة: 51].

- { وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } رجعت إليهم عقولهم وزالت الغشاوة عنها، ونادى في نفوسهم منادي الإيمان أن قد ضللتهم فارجعوا وتوبوا، فسقط في أيديهم، أي: ندموا على ما فعلوا، وعلموا أنهم كانوا في غواية الشيطان وإضلاله، وأنهم كانوا مخطئين، ظالمين لأنفسهم وأقوامهم وأنبيائهم، ففزعوا إلى ربهم وطرقوا بابه ليرحمهم ويتجاوز عنهم ويغفر لهم، وإلا كانوا من الخاسرين الخالدين في النار.

ولقائل أن يقول: وكيف رجعوا بعد كل هذا الضلال والغى والتصلب في الباطل والإصرار عليه؟ والجواب يأتيكم في تنمة السياق القرآني في السورة، وفيه أن موسى عليه الصلاة والسلام لما رجع إليهم ووجدهم منحرفين عن الصراط المستقيم بيّن لهم عاقبة أمرهم ووبخهم، وأظهر لهم أنه ما مات، وإنما أنظره الله عشرة أيام أخرى بعد الشهر، ودار بينه وبين السامري حوار وكلام انتهى بحرق العجل والتخلص منه

كما سيأتي بيانه في تنمة الآيات، فعلموا أنهم انحرفوا عن سبيل المؤمنين، واعترفوا بذنبهم وندموا، ورجعوا وتابوا واستقاموا بعد ما تبين لهم الهدى.

- { وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيَّانَ الْقَوْمَ اسْتَضَعِفُونِي وَكَادُوا يُقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

لما علم موسى عليه السلام أن قومه اتخذوا العجل من بعده كما أخبره ربنا جلَّ جلاله، رجع إليهم غضبان من فعلتهم التي هي من أعجب العجب، ورجع إليهم أسفًا، والأسف هنا هو الحزن على فساد حالهم، وهذا يدلنا على عظم الغيرة التي دبَّت في قلب نبيه يوم علم أن الشرك تغلغل إلى قلوب قومه، ويدلنا على الحال التي ينبغي للداعية إلى الله أن يكون عليها، يوم يرى المنكرات العظيمة تنتشر في الناس ولا ينكرها إلا القليل، خاصة فيما يتعلق بالتوحيد والشرك.

يا أيها المحبون لدينكم الرافعون للوثة في الناس: إن الغيرة على هذا الدين من معالم إيمانكم الصادق، وإن بَذْلَكُمْ النصيح والتوجيه والوعظ فيمن حولكم علامة خير فيكم، وإن إنكار المنكرات هو عمل الأنبياء والرسل ومن هم على طريقتهم، وهو عمل المصلحين الذين يرفعهم ربي بدعوتهم الدرجات العلا. يقول لهم نبي الله عليه السلام: بثست الحال التي صرتم إليها بعد أن تركتكم وأجبت نداء ربي وذهبت لمناجاته، وبثس ما صنعتكم من اتخاذكم العجل معبودًا ومألوهًا، وبثست القلوب التي تنتكس سريعًا ولا يثبت الإيمان والتوحيد فيها، وبثست الأفعال التي تُهلككم وتُشقيكم ولا تُسعدكم أبدًا.

{ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ } أي: هل أردتم أن أرجع إليكم سريعًا وهو ما لا يكون إلا بإذن ربي وأمره، فلما تأخرت عنكم عشر ليالٍ ظهرت رقة دينكم وعقيدتكم فبدلتكم وغيرتكم!؟

ويمكن أن يُقال: أعجلتم نزول سخط الله عليكم وغضبه وعذابه، فأشركتم وارتددتم عن الدين؟! قال الله تعالى: " فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي " [طه: 86].

{ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } هنا مشاهدان عجيبان يحتاجان إلى تأمل ووقف:

الأول: مشهد إلقاء الألواح وانكسارها، والألواح هذه هي التوراة كما أسلفنا أو هي الوصايا العشر التي نزلت عليهم قبل نزول التوراة، وإلقاؤها على الأرض فيه دلالة على أن غضبه على حال قومه كان شديدًا وعظيمًا، مع أن سيدنا موسى عليه السلام لم يفعل ذلك لما أخبره ربنا على جبل الطور بأن قومه اتخذوا العجل من بعده، ولكنه لما رأى بعينه ضلالهم وردّتهم ألقى الألواح. أخرج أحمد والطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس الخبر كالمعاينة؛ إن الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يُلْقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت ".

ولكم أن تستحضروا مشهد وصوله إليهم ورؤيتهم وقد أقاموا حول العجل يعظمونه، ويتقربون إليه بأنواع النذور والقرب، وقد سمع كلامهم وأصواتهم قد غفلت عن خالق السماوات والأرض، ما أفضعه من مشهد !

وقد يقول قائل: وكيف حدث ذلك منه وألقى ما تلقاه عن الله، وهو نبيّ معصومٌ عليه صلاة ربي وسلامه؟ كيف وإلقاء الشيء يعني نبذه والاستخفاف بقيمته وحرمة كما هو متعارف عليه في آداب الناس؟

والجواب أن هناك حقيقة لا بدّ أن نتذكرها ونستحضرها، وهذه الحقيقة لطالما نصّ عليها القرآن الكريم وكرّرها، وهي حقيقة بشرية الرسل والأنبياء، تلك الحقيقة التي لا بدّ أن نراها بجوار حقيقة عصمتهم، فإن العصمة عن الكفر وعن كبائر الذنوب، والعصمة عن الكذب في تبليغ وحي رب العالمين، لم تُخرج الأنبياء عن حدود بشريتهم ورسومها وخصائصها.

إذا تذكرنا ذلك، فلنتذكر معه أيضاً أن الله تعالى يُرِيّ الأنبياء بالوحي والإلهام والمواقف العملية، ويصنعهم على عينه بالتدرج، ويهيئهم للنبوّة وحقوقها ومقتضياتها، قبلها وفي أثنائها حتى يبلغ بهم الكمال الذي يكونون به خير بني آدم.

وموسى عليه الصلاة والسلام لفرط غضبه من الجريمة العظيمة التي أتاها قومه، بارتكابهم أبشع ما يمكن أن يرتكبه إنسان في حق خالقه، فمن يتخيل أن قومًا شقَّ الله لهم البحر ونجَّاهم، وعاشوا الآية محسوسة ملموسة، يُفْتَنُونَ بعِجَلِ صُنْعٍ على أعينهم؟! ولذلك اشتدَّ غضب نبي الله موسى عليه السلام عليهم إلى حدِّ الدهول والدَّهْشَةِ التي يعرفها البشر، حتى نسي أنه يحمل في يديه شيئًا له حرمة خاصة كما هي تلك الألواح، فألقاها من غير قصد، ودون أن يشعر بحدوث ذلك منه لفرط غضبه، وإنه لموقف حقيق بالغضب⁶⁷.

الثاني: مشهد إمساك أخيه من رأسه وتقريبه منه، وأخوه هو هارون عليه السلام وهو أكبر من سيدنا موسى عليه السلام كما ذكر أهل العلم، وكان سيدنا موسى عليه السلام شعر بأن سيدنا هارون عليه السلام قصَّر في أداء الأمانة التي أوصاه بها، وأنه لم ينكر عليهم صنعهم هذا. قال الله تعالى: " قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي " [طه: 92-93].

يعاتب سيدنا موسى سيدنا هارون عليهما السلام على عدم حزمه معهم وأخذهم بالشدّة، وعلى اقتصاره على الإنكار بالقول، وعلى ضعف سياسته فيهم.

{ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
{ قال سيدنا هارون عليه السلام ردًّا على ما قاله سيدنا موسى عليه السلام، يا ابن أُمِّي ويا أخي، لا تَخْلُطْنِي معهم وتعاملني معاملتهم، فإنني دعوتهم وبيّنت لهم وأمرتهم وحيثهم وأغلظت عليهم، ولكنهم اشتدوا في الباطل وعاندوا وكابروا حتى همُّوا بقتلي والتخلص مني بعد أن ظنوا ضعفي لقلة من معي. قال الله تعالى مبينًا إنكار هارون عليه السلام عليهم شركهم، ودعوته إياهم إلى إخلاص التوحيد لله: " وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي " [طه: 90].

⁶⁷ منقول عن فضيلة الشيخ شاکر العالم حفظه الله (بتصرف).

يقول عليه السلام: ثم إنني آثرت الصبر عليهم والسكوت عن فعلتهم لئلا يؤدي إنكاري عليهم إلى اقتتال بني إسرائيل بين بعضهم، وهي مفسدة أعظم وأكبر، فإنه لو حصل ذلك أنكرت عليّ لأني لم أراع وصيتك لي قبل ذهابك للطور بأن أحرص على وحدة الصف وتأليف القلوب. قال الله تعالى: " قَالَ يَا ابْنُ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي " [سورة طه: 94].

يا ابن أُمِّي ويا أخي: لا تُظهر أمامهم أي خصومة وجدال بيننا فيشمت بنا من يتربص بدعوتنا ويريدنا أن نموت، فإن هذه الدعوة وإن قويت وكانت شوكتها غالبية وظاهرة، وكانت علاماتُ صدقها كثيرةً، أقول: فإنه سيبقى من يتربص بها ويحتملها ودعاتها، وسيبقى من يشمت بمصائبنا وسقطاتنا. وقوله يا ابن أُمِّي مع أنه ابن أبيه وأمه، إنما هو لتذكيره بأن الموقف يحتاج إلى مزيد شفقة وعطف ورأفة منه على أخيه، ومزيد عاطفة وصبر، وهو ما نلاحظه في قلب الأم أكثر وأكثر.

- { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } -

يعلم العبد المؤمن أنه في السراء وفي الضراء لا ملجأ له إلا الله، وأن التوكل عليه في جميع العمل مفتاح الفلاح والقبول، وأن تسليم الأمر إليه بعد است فراغ الوسع في الأخذ بالأسباب سبب لطمأنينة القلب والرضا بالقضاء.

يفزع موسى عليه السلام إلى ربه بعد أن تحقق من براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير، ويطلب من الله منكسراً منطرحاً بين يديه أن يغفر له ولأخيه ويدخلهما في رحمته.

وكأنني به عليه الصلاة والسلام لا زال يشعر أنه مقصر في دعوة قومه وبذل الوسع، وكأنني به يرى أن ما قدّمه لا يليق بعظمة الرب الخالق القادر، وكأنني به ينسب ما حصل إلى تقصيره وتقصير أخيه، وكأنني به يخشى أن ينزل سخط الله به وبأخيه ويقومه.

تعالوا لنعيش قليلاً مع ختام الآية الذي يذكرنا بمن هو أرحم بنا من أهلينا وأمهاتنا وأنفسنا، وبمن نعيش مع رحماته تحيط بنا من كل جانب، تحفظنا وتُحَصِّننا وتُنِير لنا الطريق، فاللهم يا أرحم الراحمين أكرمنا برحمتك الواسعة.

- { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ }

قال الله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " [النساء: 48]، فالشرك لا يُغفر، وأصحابه مغضوب عليهم من الواحد الأحد الفرد الصمد، وصنيعهم ليس له إلا الخلود في النار في الدار الآخرة إذا ماتوا على ذلك، بعد أن ينالوا عقوبة الله لهم في الدنيا إذا شاء.

اتخذ قومٌ من بني إسرائيل العجل وجعلوه لله نِدًّا، وردُّوا على هارون عليه السلام إنكاره ونصحه وهُمُّوا بقتله، وجحدوا نعم الله عليهم مما لا عدَّ لها ولا حصر، وعلى رأسها تنجيتهم من فرعون وقومه على نظرهم وعلمهم، فكانت عقوبة الله شديدة عليهم.

نالهم غضب من ربهم كما أغضبوه واستهانوا بأمره، فلم يقبل لهم توبة حتى يأتروا بأمره، وكان مما قضى به جزاء وفاقاً أنه أمرهم أن يقتل كل واحد منهم كلَّ من لقي من ولد ووالد وغيرهما، ولا يبالي من قَتَلَ في ذلك الموطن، فاستجابوا لربهم وفعلوا ما أمروا به حتى أذن الله لهم بالقاء السلاح، فغفر الله للقاتل والمقتول. روى ابن جرير بإسناد جَوْدِه بعض أهل العلم أن موسى عليه السلام حزن هو وبنو إسرائيل للذي كان من القَتْل فيهم، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قُتِلَ منكم فحيٌّ عندي يرزق، وأما من بقي فقد قُبِلَت توبته، فبَشَّرَ بذلك موسى بني إسرائيل. قال الله تعالى: " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " [البقرة: 54].

قال كثير من أهل التفسير: إن أمر الله لهم بأن يقتل بعضهم بعضاً إنما كان بعد خروج سبعين رجلاً مع نبي الله موسى عليه السلام إلى لقاء الله ليطلبوا مغفرته ورضوانه فأمرهم بذلك، وستأتي قصتهم في تمام الآيات هنا.

ثم إن الآية هنا ذكرت أن هؤلاء الذين اتخذوا العجل سينالهم ذلة وصغار في الحياة الدنيا، ولن تقوم لهم قائمة بين الأمم، وأن هذا الجيل لا يصلح لفتح البلاد ونشر التوحيد فيها، خاصة الأرض المقدسة التي لا زالت تحت حكم عبّاد الأصنام والأوثان، وسيبقى هذا الجيل فيهم مغلوبًا ذليلاً، مسلوبًا جرأته، محرومًا من الشجاعة.

{ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } ابتدعوا لأنفسهم دينًا ما أنزل الله به من سلطان، وكذبوا على الله ورسوله وحملة دعوته، وأرادوا أن يعبدوا إلههم على طريقتهم التي تخالف ما أمر به الرسل، فكان افتراؤهم على الله عظيمًا، وكان الجزاء كذلك عظيمًا. قال أهل العلم: " هي والله لكل مفترٍ إلى يوم القيامة "، فالحذر الحذر.

أقول: ختام الآية يحمل تحذيرًا لمن كذبوا على الله من أهل مكة ومن حولهم يوم اتخذوا الأصنام واسطة بينهم وبين الله، ويحمل تحذيرًا لكل من يكذب على شرع الله ودينه في كل زمان ومكان.

- { وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوْرٌ رَحِيْمٌ }

ينادي الله تعالى على من أشركوا وكفروا ممن اتخذ العجل ومن غيرهم، ينادي عليهم ويدعوهم إلى أن يتداركوا أمرهم قبل فوات الأوان، يدعوهم ويفتح لهم أبواب رحماته وغفرانه، ويعدّهم أنه إذا سارعوا في التوبة من الشرك، وأقبلوا على تعظيم خالقهم وسيدهم ومولاهم وحده، ولزموا باب الإيمان والتوحيد الذي لا ينفع غيره، يعدّهم أن يغفر لهم ويرحمهم ويكرمهم، ويستتر عليهم ذنوبهم ويمحوها.

وهذه الآية ليست لخطيئة الشرك فقط، بل هي عامة لكل من تجرأ على الله واعتدى على حرّماته واقتترف شيئًا من كبائر الذنوب وصغائرها، ولكل من ضعفت نفسه أمام شهوة محرمة فاستخفّ بنظر الله إليه ثم تاب بعدما أشرق نور الإيمان والعبودية في قلبه.

هنا ترغيب للعصاة بأن يرجعوا ويبادروا، وطرّد للقنوط من أنفسهم وإن عظمت ذنوبهم، وامتنان من الله عليهم أن أمدّ في أعمارهم وأنفاسهم لعلهم يرجعون.

والمقصود، الزموا باب التوبة إلى الله دومًا وافرعوه، فإنه كريم لا يخيب عبده، ولا يردُّ يديه إذا دعاه بالمغفرة صفرًا، جل جلال ربي وتقدّست أسماؤه.

- { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }
ما أجمل كلمة الهدى والرحمة في الآية هنا، وما أجمل وصف من ينتفع من آيات الله ووحيه بأنهم لربهم يرهبون.

أقول: سكن غضب نبي الله موسى عليه السلام على قومه، وهذا روعه بعد أن أنكر عليهم وعلى أخيه عليه السلام، وأخذ الألواح التي ألقاها غيره لله وغضبًا له، أخذها بعد أن جمعها من تكسرها.

هذه الألواح فيها هدى يهديهم إلى الصراط المستقيم، ونورٌ يضيء لهم الطريق، وبيانٌ للحق والباطل، وبيانٌ لأحسن الأخلاق والأعمال، وفيها رحمة لهم إذا اتبعوها وأطاعوا أمر الله فيها.

هذا الهدى وهذه الرحمة نجدها في كتاب ربنا الذي لا نكاد نمر بآية منه إلا ونستشعر فضل الله علينا أن أكرمنا بالقرآن، ونجد حلاوة ولذة يصعب وصفها، بل نجد طمأنينة عجيبة، فاللهم بارك لنا في قرآننا واملاؤ صدورنا بحفظه وفهمه، ثم أعنّا على تبليغه.

ولقائل أن يقول: وهل ينتفع بأحكام التوراة أو الألواح أو القرآن كل الناس؟ والجواب جاء في ختام الآية هنا، والذي بيّن أنه لا ينتفع بها إلا من كان في قلبه رهبة لله جل وعلا، أي: خوف وخشوع وتعظيم، وخضوع وانقياد واستسلام.

ولقائل أن يقول: وهل اكتفى نبي الله عليه السلام بموعظة أخيه وقومه وطلب المغفرة من الله؟

والجواب أن نبي الله موسى عليه السلام سأل السامري عن أمره وخطبه وما يريد، وأنه بعد أن أجابه السامري أخبره بعقوبة الله له بأن لا يمسه أحدٌ ولا يمسَّ أحدًا، فكان عزله عن الناس وإقصاؤه، ثم إن نبي الله عليه السلام حرّق العجل وجعله ذرات تطير مع الريح كأن لم يكن، فأنكر عليه الصلاة والسلام المنكر قولًا وعملاً، وكان قويًا في دين الله كما يحب ربنا ويرضى، فلنتأمل. قال الله تعالى: " قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ

سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ
وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا " [طه: 95-98].

- { واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل
وإيائي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا
فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ }

ذهب كثير من أهل التفسير إلى أن هؤلاء السبعين الذين اختارهم نبي الله موسى عليه السلام كانوا من
خيرة قومه وصالحيهم ووجهائهم، وأن اختيارهم كان استجابة لأمر الله للاعتذار إليه وإعلان براءتهم مما
حصل، وأخذ العهود عليهم ألا يرجعوا، وليتوبوا إلى الله مما صنعوا، ويسألوه الرضا عنهم وعمن وراءهم
من قومهم، فلما جاؤوا للميقات والمكان الذي وعدهم الله إياه طمعوا في رؤية الله تبارك وتعالى، وقالوا:
لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فرجفت بهم الأرض وزلزلت، وأصابتهم الصاعقة فماتوا، والصاعقة نار
محرقه كالتي تكون مع السحب والأمطار والرعود.

فرع موسى عليه السلام إلى خالقنا، وناداه ورغب إليه وقال له: يا رب، لو شئت أهلكتهم وهم بين
أهلهم وفي قومهم من قبل أن تأتيك، فماذا أقول لقومي لو رجعت إليهم بدون هؤلاء السبعين الذين هم
خيار القوم.

دعا موسى ربه وألح عليه بالدعاء بأن لا يعاقبهم جميعاً بما فعله هؤلاء سفهاء منهم واستخفافاً بمقام الله
تعالى، وظناً منهم أنهم بكلامهم هذا سيظفرون بما يريدون، وكأنه استشعر من الرحمة أن العذاب سينزل،
وأن الهلاك سيحل.

ومن أهل العلم من قال: إن السفهاء هنا هم الذين عبدوا العجل، وهم الذين خشي نبي الله موسى عليه
السلام أن ينزل العذاب بسببهم.

تأملوا في شدة حرص نبي الله موسى عليه السلام على اجتناب غضب الله وسخطه، والخوف من بطشه، وخشيته ومراقبته.

وقد كان من فضل الله وكرمه على نبيه عليه السلام وعلى من معه أن أحياهم بعد صعقتهم، أحياهم ليكملوا آجالهم المكتوبة ويستوفوها، معجزة أخرى لنبيه ولهم. قال الله تعالى: " وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " [البقرة: 55-56].

{ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ } يا رب، كل ما حصل مع قومي ومَن معي إنما هو بلاء منك لي ولقومي، واختبار وامتحان ليمتاز الخبيث من الطيب، وإنما هو من واسع علمك وعظيم قدرتك فالطف بنا بما جرت به المقادير، فالأمر أمرك، والمملك ملكك، والحكم حكمك، ولا يكون فينا إلا ما شئت، سبحانه، تضل من تشاء فلا هادي له، وتهدي من تشاء فلا مضل له.

{ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } يا رب، أنت من نتولاه لجميع أحوالنا فيعيننا وينصرنا، فاستر علينا ذنوبنا وجرأتنا عليك، ولا تؤاخذنا أو تعاقبنا بذنوبنا وما يفعله سفهاؤنا، وارحمنا يا خير من رحم، ارحمنا وجنّبنا ما يُسخطك عنا، وأكرمنا يا كريم، والطف بنا يا حلیم يا جواد يا لطيف، واغفر لنا مغفرة واسعة تغننا بها عمن سواك.

- { وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ }

ومن تمام دعاء نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام ومن معه أن يكتب الله لهم ويعطيهم حسنة في هذه الدنيا، وحسنة الدنيا هي العلم والصحة والعافية والرزق والولد والأهل والقوة والتمكين، وكل ما كان معيناً على القيام بأمانة العبودية ووظيفة الطاعة، وأما حسنة الآخرة فهي مغفرة الذنوب وسترها، والرضا

من الجليل العظيم، والحياة الطيبة في جنات عرضها السماوات والأرض، وهاتان الحسنتان فيهما الفلاح والنجاح في الدارين، ولذلك كان نبينا صلى الله عليه وسلم يدعو بهما ويسأل الله تعالى من واسع فضله في الدنيا والآخرة. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن قتادة أنه سأل أنس بن مالك رضي الله عنه: أي دعوة كان يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم أكثر؟ قال: كان أكثر دعوة يدعو بها يقول: " اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار ".

ما أجمل أن يجمع العبد في دعائه بين حسنتي الدنيا والآخرة، فإن هذا الجمع من تمام الفقه، وفيه توجيه لمن يطلب الفقر في الدنيا ولا يريد الغنى، ولمن يطلب المرض في الدنيا ولا يريد الصحة كما نسمع من أحدهم أحياناً في دعائه يوم يسأل الله أن يعجل له العقوبة في الدنيا ويدعو على نفسه أو أهله وماله، فالمؤمن لا يفعل ذلك ويسأل الله العافية دوماً، ويسأله من واسع فضله وكرمه وعطائه، فإن ابتلي بالمنع رضي وصبر، ثم داوم على الدعاء والأخذ بالأسباب لعلها تُفرج.

وبالتأمل تجدون في هذا الدعاء توجيهاً كذلك لمن يدعو الله بأن يؤتبه من واسع فضله في الدنيا، ولا يلتفت إلى الآخرة في دعائه، وتجدون رغبته فيما عند الله ضعيفةً وليس كرجبته بمتع الدنيا ولذائدها والتوسُّع فيها، فليحذر أمثاله من التقصير في جناب الله، ومن أن تكون الدنيا قد عمّرت قلوبهم جملة وتفصيلاً، وأورثتها أمراضاً متعبة صارفة عن الهدى. قال الله تعالى: " فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200) وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ " [البقرة: 200-202].

ثم أقول: تأملوا ثمرة دين الأنبياء؛ إنها سعادة الدارين، والارتقاء فيهما، وتحصيل السلامة والطمأنينة والسعادة.

{ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ } يقول سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام: هُدنَا يَا رَبِّ إِلَيْكَ، أي: تُبِنَا مما فعله سفهاؤنا من طلب الآلهة وعبادة العجل، وتُبِنَا من تقصير الصالحين منا في الإنكار على قومهم وضلالهم، ورجعنا وأنبنا إليك لترضى عنا، ولعلك تقبلنا فيمن قبلته من التائبين العابدين. قال الله تعالى: " وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى " [طه: 82].

وهذا فيه توسل بالعمل الصالح الطيب المبارك الخالص، وهو من فقه الدعاء، يجعل الداعي بين يديه تعظيمًا للرب، واستحضارًا للأعمال الصالحة لعل الله يتقبل الدعاء بها، ولا تخفى عليكم قصة النفر الثلاثة الذين دخلوا الغار ليبيتوا فيه، فنزلت صخرة على باب الغار فأطبقت بابه عليهم، فجعل كل واحد منهم يسأل الله تعالى بصالح عمله حتى انفرجت الصخرة وخرجوا، وهي قصة حصلت في بني إسرائيل وأخبرنا عنها نبينا صلى الله عليه وسلم ليحرص كل واحد منا على أن يتقن الدعاء فإنه العبادة وربي.

{ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } { سَمِعَ اللَّهُ نِدَاءَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلِمَ مِنْهُ الصِّدْقَ وَالْإِنَابَةَ، وَرَأَى فِيهِ التَّسْلِيمَ لِمَا قَالَ: { إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ } كما في الآية السابقة، فأخبره الله تعالى أن الملك له سبحانه، وأنه يتصرف بعباده كيف يشاء، ويحكم فيهم كيف يشاء، وأنه يصيب بعذابه في الدنيا والآخرة من يشاء، ويصيب بعقوبته من تعرض لأسبابها وكان شقيًا، وله في ذلك الحكمة البالغة والقدرة والعلم والعدل، فإنه المطلع على الدقائق، العالم بالخفايا، وكل القلوب أمام علمه الكامل مكشوفة، وكل النيات والمقاصد عارية.

ثم إن الله تعالى بكرمه أعقب كلامه عن العذاب بكلامٍ عن سعة رحمته، ليطمئن موسى عليه السلام والصالحون من قومه، والصالحون في كل زمان ومكان، ليطمئنوا من نزول عذاب الله بهم ما داموا مصلحين، وإن نزل العذاب بالضالين المضلين من أقوامهم، فليس المصلح كالمفسد، وليس المسلم كالمجرم. قال الله تعالى: " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " [الجاثية: 21]، ولذلك قال الله في تنمة الآية:

{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } { هذا موضع من القرآن يحبه أهل القرآن ويرددونه عند قراءته، والقرآن كله محبوب لديهم ولكن القلب يجد عند هذا الموضع طمأنينة عجيبة تجعله يشواق للقاء الله، ويسأله من واسع فضله ورحمته، وتجعله يستحضر الذنوب التي تجرأ فيها على الله من قبل ويرفع لها شعاره الذي يردده دومًا: لي رب يغفر، ورحمة الله وسعت كل شيء. قال الله تعالى إخبارًا عن حملة عرش ربنا ومن حوله أنه

من دعائهم: " يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ " [غافر: 7].

وسعت رحمة الله كل شيء، وسعت الإنسان والجان والحيوان والنبات والجماد، وسعت السماوات والأرض، وسعت المسلم وغير المسلم، ومظاهرها في الخلق مما لا يمكن حصره واستيعابه، فله الحمد أولاً وآخرًا.

يا أيها المبلغون عن الله تعالى، بشّروا المؤمنين من حولكم بسعة رحمة الله تعالى، وشمولها لكل من أناب إليه ورجع، ولكل من هجر الحرام وأصحابه وأقبل. أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لَمَّا فَصَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي ".

ويا أهل الكفر: استحضروا منة الله عليكم ورحمته أن أمدّ في أعماركم ورزقكم وأعطاكم الصحة والولد، مع أنكم تحددون آياته وتكفرون به، واعلموا أن الله أخبركم أن رحمته وسعت كل شيء لعلكم تؤمنون، فأسلموا وأحسنوا في عبوديتكم فإن رحمة الله واسعة.

ولقائل أن يقول: قد علمنا كيف بلغت رحمة الله الكافر في الدنيا، فالله يرزقه ويعطيه من النعم الكثير مع أنه مقيم على الكفر والشرك ومحادة الله ورسله، والتكذيب بكتبه وآياته، وإنكار أن يكون واحدًا في عيائه، فهل تبلغ رحمة الله الكفار يوم القيامة ؟

والجواب هنا في تمام الآية معنا، والتي تدل على أن رحمة الله في الآخرة لا تكون إلا لمن مات على التوحيد، ولمن مات على الإيمان بالرسول والكتب واليوم الآخر، أما من ماتوا على الكفر فهم من الخالدين في النار، والجنة عليهم حرام، وإن كانوا في النار على مراتب وأحوال. قال الله تعالى في بيان هذا المعنى:

{ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } استدلل أهل العلم بهذه الأوصاف على أن المقصود بالرحمة هنا الرحمة الخاصة التي تكون للمؤمنين، تلكم الرحمة التي لولاها لأهلكتنا ذنوبنا وخسرنا بسببها خساراً عظيماً.

دلت الآية هنا على أن رحمة الله مكتوبة لمن يتقي الله ولا يشرك به شيئاً، ولا يقترب الكبائر وعظائم الذنوب، ولا يُصِرُّ على الصغائر، بل هو تَوَّابٌ منها ورجَّاع، وهو مقبل على طاعة الله فيما أمر من إيتاء الزكاة الواجبة في ماله، ومن الإيمان بآيات الله وكل ما أمر الله به، مع كمال الطاعة والانقياد لما أوجب. ومن تمام رحمة الله بعباده المتقين أنه قال في الآية (فسأكتبها)، من لفظة (كتب)، ومعناها أوجب، وربنا له أن يوجب على نفسه ما يشاء سبحانه، ولا يوجب عليه أحد شيئاً، وإيجابه للرحمة على نفسه إنما هو مِنَّةٌ منه على عباده وإحسانٌ لهم. قال الله تعالى: " كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ " [الأنعام: 54].

وانتهوا هنا إلى أن الآيات جاءت في معرض الحديث عن بني إسرائيل ممن سبق، وعن دعوة موسى عليه السلام فيهم ودعائه لخالقه، ثم يأتينا وعد ربنا لكل من اتقى وآمن، وكأنَّ كلام ربنا هنا يصف حال اليهود والنصارى بعد بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يصف حال من أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم وآمن به وسارع في نصرته دينه، حتى صار واحداً من المسلمين، وواحداً من أمة التوحيد والانقياد، الأمة التي اصطفاه الله وجعلها أكرم الأمم عليه، ووعداها برحماته إن استقامت واستجابت لما في الآية هنا من وصايا، فتعالوا للعيش مع الآيات وكأنها تخاطبنا وترتقي بنا إلى معالي الأمور، وتعالوا نفقه عن الله ما يريد منا ونحن نقرأ الآيات، أقصد: أن نعمل على دعوة اليهود والنصارى وإقامة الحجة عليهم وتبليغهم هذا الدين بقوة.

وأقول استطراداً في بيان عظيم هذه الرحمة الخاصة: ومن مظاهر رحمة الله بالمؤمنين:

1- أن الله تعالى شرح صدور أهل الإيمان لهذا الدين، وحَبَّبَ إليهم الصلاة والقرآن واللباس الشرعي، وبَغَّضَ إليهم الخمر والكذب وسماع الحرام والنظر إليه.

2- أن الله تعالى فتح لهم باب التوبة من الذنوب والمعاصي، ووعدهم بقبول توبتهم إذا استوفت شروطها. أخرج أحمد والترمذي بسند حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال: " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُعزَّغر ". يعني: ما لم تبلغ روحه التُّقوة أسفل الرقبة لتخرج. والمقصود: لا تقنط من رحمة الله ولا تيأس.

3- أن شريعتنا علَّمتنا أن من علامات الإيمان الحرص على اجتناب الذنوب، والابتعاد عن مواطن الفتن، والمصارعة إلى التوبة إذا حصل البلاء بذنب يُسخط الربَّ جل وعلا.

وأن من علامات أهل التقوى عدم اغترارهم بستر الله، وعدم اغترارهم بشبابهم أو صحتهم أو تتابع نعم الله عليهم مع إقامتهم على المعاصي، هم يعلمون أن الموت قد يفجأ صاحبه ويحول بينه وبين التوبة. الآيات والأحاديث التي جاءت في قبول توبة التائبين وسعة رحمة الله لهم، تفتُح أبواب الرجوع إليه عند من شرح الله صدورهم لمراقبته، ولا تفتح عليهم أبواب التجرؤ على المعاصي، يعني: من الغرور بالله أن تتفنن بالمعاصي تحت شعار: لي رب يغفر، ومن الغرور أن تستخف بسخط الله وعقوبته حال إقبالك على المعصية، فالمؤمن يجري حاله بين الخوف من العقوبة وبين رجاء الرحمة والمغفرة.

4- أنه أبقى لهم من واسع رحمته الكثير الكثير إلى يوم القيامة، حتى إنه لا يبقى في النار أحدٌ ممن كان في قلبه مثقال ذرة من خير.

ولكم أن تنظروا وتتأملوا فيما أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار ".

وفي لفظ مسلم: " إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ".

- { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

ومن صفات من سيكتب الله لهم رحمته ورضوانه وجنته، أنهم يتبعون الرسول النبي الأمي، وهو سيدنا وقودتنا وإمامنا وهادينا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، والأُمِّيَّةُ صفة ذمٍ ونقص في الناس إلا في حق نبينا صلى الله عليه وسلم فإنها صفة مدح وكمال، لأنها تدل دلالة ظاهرة لمن كان له عقل على أنه نبي مرسل من عند الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، إذ كيف لإنسان أن يأتي بعلوم الأولين والآخرين ؟ وكيف له أن يقص عليهم كل هذه القصص ؟ وكيف له أن يأتيهم بكل هذه الأخلاق والتشريعات وهو لا يقرأ ولا يكتب ؟! ألا يدل ذلك على أنه لا ينطق إلا عن وحي من الخالق البارئ المصور ؟ قلت: بلى.

تأتيكم أيها المسلمون هنا صفات نبيكم نبي الرحمة الذي اصطفاه ربكم ليكون رحمة للناس جميعاً، اصطفاه ورفع له ذكره في العالمين قبل أن يُولد، حتى جاء ذكره ووصفه في التوراة والإنجيل فلا يشكون أنه هو، كما جاء ذكر صحابته ووصفهم رضوان الله عليهم في التوراة والإنجيل ⁶⁸.

وقد بشر أنبياء بني إسرائيل أقوامهم برسولنا صلى الله عليه وسلم، ويئنون صفاته لهم فعرفها أبحارهم ورهبانهم، حتى كانت سبباً في إيمان عدد منهم بعد بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام. أقول: لا يقبل الله إيمان أحد ودخوله في الإسلام بدون أن يشهد أن محمداً رسول الله، وبدون أن يتبعه ويؤمن بالكتاب والسنة وما جاء فيهما، فقد يقول القائل من اليهود أو من غيرهم: إنا نؤمن بالله ونتصدق ونعمل عدداً من أعمال الخير ونؤمن بالله ووجوده، فهل نحن مسلمون ؟ وهل ندخل في واسع رحمة الله في الآخرة ؟ والجواب: إن إسلامكم لا يصح مع الكفر بخاتم النبيين، ولا تدخلون في رحمة الله وفضله وجنته مع الكفر بالقرآن العظيم، واعلموا أن ما تعتقدونه إنما هو من الضلال المبين، ومن لعب الشيطان بكم، ومن التعصب والتشهي والافتراء، ومن القول على الله بغير علم.

⁶⁸ وذلك في قول الله: " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " [الفتح: 29].

{ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ } يا الله ! هذه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية التي نزلت على أهلها، صفته أنه عامل لدين الإسلام وباذل كل ما يملك من أجل أن يأمر بكل خير، وينهى عن كل شر، من أجل أن يعلم الناس التوحيد والتعظيم الذي يحبه الله ويرضاه، من أجل أن يعلمهم الصلاة والزكاة والصوم والحج، من أجل أن يأمرهم ببر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الناس، من أجل أن ينظم لهم أمور معاشهم في البيع والشراء، والنكاح والطلاق، والحدود والقصاص، من أجل أن ينهائهم عن الشرك والزنا والربا وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وعن شرب الخمر وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم، والاعتداء على حقوق المستضعفين وظلم الناس.

يا أهل الكتاب، هل رأيتم هذه الصفة في نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، وفيمن حمل لواءه من بعده ممن اقتفى أثره واتبع هديه ؟ إذا رأيتموها فهذا النبي الذي بشر به أنبياءكم من قبل، فأقبلوا على دعوته، وأسلموا لله رب العالمين، ولا تُصِرُّوا على الكفر وطرائقه.

{ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } ومن صفات هذا النبي عليه الصلاة والسلام أنه جاء ليحدد لبني إسرائيل دينهم الذي ابتدعوا فيه وغيروا، جاء ليحل لهم طيبات حرموها على أنفسهم كما فعل النصارى في زواج الرهبان الذي حرموه عليهم، وكما فعل اليهود في أكل بعض أنواع اللحوم، بل جاء ليحل لأهل الجاهلية طيبات حرموها على أنفسهم وضيقوا عليها، كتحریمهم البحيرة⁶⁹ والسائبة⁷⁰ والوصيلة⁷¹ والحامي⁷²، وهي من أنواع الأنعام التي أباحها الله للناس وجعلها من الطيبات. قال الله

⁶⁹ وهي الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان البطن الخامس ذكراً ذبحوه للآلهة وأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى فإنهم يبحرون أذننها، أي: يقطعوها ويشقوها شقاً واسعاً، ثم يقولون: هذه بحيرة، فلا تُركب ولا تُنَحَرُ ولا تُنْعَمُ عَنْ مَاءٍ وَلَا عَنْ مَرْعَى، وَيَكُونُ لَبْنُهَا وَقَفَاً لِأَصْنَامِهِمْ يَنْتَفِعُ بِهَا الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا وَكَذَا عَابَرُوا السَّبِيلَ.

⁷⁰ كان الرجل منهم إذا فُضِيت حاجته، أو غُوفي من مرض، أو كثر ماله، أو بنى بناءً، أو قدم من سفره؛ سَيَّبَ شيئاً من الأنعام للأوثان والآلهة، أي: أخرجها من ملكه وجعلها وفقاً على الآلهة، وكان يُسَلِّمُهَا إلى سدنة البيت وحراسه والمسؤولين عنه. وكان من أحكامها أنها ترعى حيث شاءت، ولا يُحمل عليها شيء، ولا يُجزر وبرها، ولا يُخْلَبُ لَبْنُهَا إلا لضييف، وكان صوفها وأولادها للرجال دون النساء.

⁷¹ هذه من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن؛ فإن كان الولد السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم، وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن كانت عناقاً (أي: أنثى)، كانوا يستعملونها بمنزلة سائر الغنم، وإن كان جدياً وعناقاً في بطن واحد، قالوا: إن الأخت قد وُصِلَتْ بأخيها، فَيَحْرُمَانِ جميعاً ولا يذبحون الذكر للآلهة، وكانت المنفعة للرجال دون النساء، وإن ماتا تشارك الرجال والنساء في أكله.

تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا " [البقرة: 168]، وقال سبحانه: " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ " [سورة المائدة: 4-5].

جاء هذا النبي ليحرم عليهم خبائث تساهلوا فيها وتعاملوا معها، كما تساهل اليهود في الربا مع غير اليهودي، وتساهل النصارى في أكل لحم الخنزير، بل جاء ليحرم خبائث على أهل الجاهلية جعلوها من الأمور المباحة الطبية كبعض أنواع الزيجات التي هي من الزنا، وكالميتة.

أقول: هذا الموضوع من الآية ينتفع منه أهل الفقه والاجتهاد كثيراً في ميدان تقرير الأحكام الشرعية، فيجعلون كل طيبٍ تستسيغه الطباع السوية، وتقبله الأذواق السليمة من أنواع الطعام والشراب، مباحاً للأكل والشرب والبيع والشراء وسائر وجوه الانتفاع، وهذا غالب حال أنواع الطعام والشراب، ويجعلون كل ما تستخبثه الطباع السليمة، وتنفر منه النفوس السوية محرماً أكله وشربه، ويمنعون من الانتفاع به. قلت: هذا واحد من أسباب وقواعد التحريم والإباحة في باب الأطعمة والأشربة عند الفقهاء، ويُعملونه فيما لا يكون فيه نص شرعي من تحريم وإباحة بالأكل أو الشرب أو البيع، كما أن عدداً من أهل العلم ذهب إلى تحريم أكل كل حيوان نذّب الشرع إلى قتله كالحية والفأرة، وتحريم أكل كل حيوان نهى الشرع عن قتله كما في الضفدع والهدهد والنملة.

{ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } أي: ويضع نبينا صلى الله عليه وسلم عن أمته وعن آمن به الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل.

والإصر هو التشديد والتكليف الشاق، والمقصود به ذلكم العهد الذي أخذه الله عليهم بأن يعملوا بما في التوراة، وقد كان فيها من الأغلال والقيود مما كان مفروضاً على بني إسرائيل حتى جاء نَسْخُهُ في حق هذه الأمة، وجاء رَفْعُهُ عنها فلم تُكَلَّفْ به.

⁷² وأما الحامي فهو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون: حمى ظهره فلا يُحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومن أهل العلم من قال: هو الفحل من الإبل إذا كبر ولده وصار يركب. قالوا: قد حمى ظهره فيُحمل ولا يحمل عليه ولا يركب، ولا يمنع من المياه، ولا عن المراعي، فإذا مات أكله الرجال والنساء. وفي تفسير بعض هذه الألفاظ خلاف عند العلماء، لكنها لا تخرج عن فكرتها.

فالعنائم مثلاً كانت محرمة عليهم، وكانوا بعد انتصارهم على عدوهم يجمعونها فتأتي نار من السماء فتحرقها وتأكلها، بخلاف شريعتنا التي أباحت لنا الغنائم وجعلت أربعة أخماسها للمجاهدين، وجعلت الخمس الباقي موزعاً على المصالح العامة وقرابة النبي صلى الله عليه وسلم واليتامى والمساكين وابن السبيل.⁷³

والعقوبة بالقتل كانت عندهم موجودة على معاصٍ متعددة منها العمل يوم السبت، ولم تكن الدية والعفو في القتل العمد مشروعين عندهم بل كان القصاص متعيناً لا يجزئ غيره، وكان من أنواع توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً، بخلاف ديننا الذي فتح لنا أبواب التوبة، وحَبَّبها إلينا ويسرَّها، وخفف عنا العقوبات كثيراً فشرع لأولياء الدم أن يقتصوا أو أن يأخذوا الدية أو أن يعفوا.

ومما كان عندهم أن النجاسة إذا أصابت ثوب أحدهم فإن الثوب لا يطهر إلا بقطع المكان الذي أصابته النجاسة، وكانت المرأة إذا حاضت لا يؤاكلونها ولا يساكنونها في بيت واحد حتى تطهر، وكانوا يعدونها نجسة، حتى جاء الإسلام ونسخ كل هذا، وبين الحق فيه من الباطل. أخرج النسائي عن شريح أنه سأل أمنا عائشة رضي الله عنها: "هل تأكل المرأة مع زوجها وهي طامث ⁷⁴؟ قالت: نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوني، فأكل معه وأنا عارك ⁷⁵، وكان يأخذ العرق ⁷⁶، فيقسم عليّ فيه ⁷⁷، فأعترق منه، ثم أضعه، فيأخذه فيعترق منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من العرق، ويدعو بالشراب فيقسم عليّ فيه قبل أن يشرب منه، فأخذه فأشرب منه، ثم أضعه، فيأخذه فيشرب منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من القدح".

وأخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: (

⁷³ قال الله تعالى: "وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ" [الأنفال: 41].

⁷⁴ يعني: حائض.

⁷⁵ أي: حائض.

⁷⁶ هو العظم الذي عليه لحم.

⁷⁷ يعني: يحلف أن أكل قبله.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ (إلى آخر الآية [البقرة: 222]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اصنعوا كل شيء إلا النكاح ⁷⁸ " الحديث.

هنا في الآية التي معنا شعار عظيم من شعارات ديننا، وقاعدة جليلة في شريعتنا، وغاية نفيسة من غايات إرسال نبينا عليه الصلاة والسلام، هنا التيسير والسماحة، والتجاوز والعفو، والرحمة والتخفيف.

كانت الأمم من قبلنا قد ضيقت على نفسها فضيق الله عليها، ولذلك جاء توجيهنا في دعاء ربنا، أن نرجوه وندعوه ألا يُحْمِلَنَا ما لا طاقة لنا به، وأن لا يحمل علينا إصرًا كما حمله على الذين من قبلنا. قال الله تعالى: " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " [البقرة: 286].

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به »، وأخرج ابن ماجه وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ».

قال الله تعالى: " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " [البقرة: 185]، وقال سبحانه: " يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ " [النساء: 28]، وقال جل وعلا: " مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ " [المائدة: 6].

ومن الأغلال التي كانت عليهم تلکم القيود التي جعلها الله فيهم فمنعتهم من العزة والرفعة والسُّؤدد، وأبقت عليهم الذلة أينما حلُّوا، وأبقت عليهم تسلُّط الظلمة أينما كانوا، حتى جاء دين محمد صلى الله عليه وسلم ليقيم العدل ويمنع الظلم، ويرحم الضعفاء من بطش الجبابة والظلمة الأقوياء. قال الله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " [الأنبياء: 107].

ولقائل أن يقول: ولماذا كل هذا التشديد عليهم ؟ والجواب جاء في كتاب الله تعالى في قوله سبحانه: " فِظْلُمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (160) وَأَخَذَهُمْ

⁷⁸ أي: الجماع.

الرَّبَّاءَ وَقَدْ تُهْمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " [النساء: 160-161].

هؤلاء: ظلموا أنفسهم بطرائق الشرك والكفر التي اتبعوها، ثم صدوا عن الصراط المستقيم وحالوا بين الناس وإقبالهم على دين الله تعالى، فقتلوا الأنبياء وعاندوهم، وكنتموا عددًا من أوامر شريعتهم وحرّفوها، وجعلوا يُبْثِنُونَ الشبهات حول الدين، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وسيُغفر لنا.

وصدودهم هذا وصفه القرآن بأنه كثير، أي: لا تُحصى طرائقه وأسبابه، ولا يتوقف في زمان، ولعلكم تستحضرون ما بذلوه مع الناس لصددهم عن اتباع خير البشر صلى الله عليه وسلم، ولعلكم تفقون مع ما يبثون في عالمنا المعاصر من الشبهات والشبهات التي فتنت كثيرًا من الناس في دينهم، وصرفتهم عن طريق الجادة.

ومما فعلوه أنهم أكلوا أموال الناس بالباطل، فتعاملوا بالرشوة والخيانة والغش والخداع والكذب، مع كثرة من يفعلون ذلك منهم وقلة المنكرين فيهم.

عاقب الله بني إسرائيل على أفعالهم وجرمهم وتشديدهم على أنفسهم، فحرم عليهم أنواعًا من الطعام جاء ذكر بعضها في قول الله تعالى: "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " [الأنعام: 146].

{ قَالَذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

آمنوا به، أي: صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا، وهاديًا إلى الصراط المستقيم، كما حصل مع ورقة بن نوفل رضي الله عنه الذي آمن به نبيًا، وكعبدالله بن سلام رضي الله عنه الذي شهد شهادة الحق وآمن.

وعزروه، أي: عظّموه ووقّروه وأجلّوه، ومنعوه وحمّوه من أعدائه، وأنزلوه المنزلة التي أرادها الله له.

ونصروه، أي: نصروا دينه ونشروه وأظهروه، وجاهدوا معه وأعانوه حتى حصل التمكين وبلغ الدين مشارق الأرض ومغاربها.

واتبعوا النور الذي أنزل معه، أي: اتبعوا القرآن والسنة، وما فيهما من الحكمة، اتبعوهما عن رضا ومحبة ويقين، وعن كمال استسلام وانقياد.

ولعلكم تتفقهون معي بأن تشبيه القرآن والسنة بالنور فيه دلالة واضحة على أنهما دليل الحيارى، وأنهما مفتاح النجاة، وأنهما سبيل إنارة الكون بالحق والهدى.

هؤلاء هم أهل الفلاح والسناء والرفعة، وهؤلاء هم الذين يرتقون الدرجات ثم الدرجات، ويظفرون بالرضوان والرحمات حتى يهنؤوا بعيش لا شقاء بعده أبداً، وذلك بعد فلاحهم في الدنيا بما قدّره الله لهم من حفظٍ وطيبٍ عيشٍ وصلاحٍ بال، بخلاف حال من كفر به وعانده وعاند دينه ورسالته.

وكأن الآية تصف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، الذين كانوا خير من آمن ونصر وبذل النفس والمال والولد، وخير من صبر وثبت، وخير من عظموا نبينا صلى الله عليه وسلم واتبعوه وأحبوه وجاهدوا معه.

- { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } -

كان قومٌ من اليهود يؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي، ولكنه مبعوث للعرب فقط، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن صياد: "أتشهد أني رسول الله؟" فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين". أي: رسول العرب الذين عُرِفوا بأنهم أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ في ذلك الزمن.

قل يا محمد صلى الله عليه وسلم لكل الناس، وقلوا أيها الدعاة إلى الله لكل العالمين بلا تردد ولا كلل ولا ملل، قولوا لهم: إن محمداً صلى الله عليه وسلم اختاره ربنا من بين الرسل، ومن بين الناس، ليكون خاتمة رسله إلى الخلق، وهو رسوله إلى الأحمر والأبيض، والعربي والعجمي، والإنس والجن، والكبير

والصغير، والذكر والأنثى، والحاكم والمحكوم. قال الله تعالى: " قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ " [الأنعام: 19]، وقال سبحانه: " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " [الفرقان: 1].

وأخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي؛ كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعثَ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَبِيعَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا فَأَتَمُّمَا رَجُلٌ أَدْرَكَتَهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ".

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ".

{ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ } قل لهم يا نبي الله صلى الله عليه وسلم: إن الذي أرسلني هو الذي خلق السماوات والأرض، ودبر أمرهما، وهو مالك كل شيء، وهو الله الذي لا معبود بحقٍ إلا هو، وهو الذي بيده الحياة والموت، وله الحكم.

ومن لوازم حكمه وملكوته وألوهيته جل جلاله، أنه يرسل من يشاء إلى من يشاء، ويخص قومًا بنبي، ويرسل رسولًا للعالمين جميعًا، ويؤتي نبيه شريعة ثم ينسخها بشريعة أخرى.

{ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

ادعواهم إلى الإيمان بوحداية الله، وأمرهم باتباع النبي الأمي الذي يعرفون نشأته وحياته التي كان الصدق فيها عنوانًا، وكانت الأمانة فيها رفيقًا، وقد عُرفت صفاته وخصاله في الكتب السماوية السابقة وعرفها أحبارهم ورهبانهم.

هذا النبي يؤمن بالله خالقًا ومعبودًا لا شريك له، ويؤمن بكلمات الله التي أنزلت عليه من ربه وأوحاها إليه، ويصدق قوله عمله، صلى الله عليه وسلم.

اتبعوه واقتفوا أثره في الأقوال والأعمال لتتهتدوا إلى الصراط المستقيم، والطريق القويم الذي لا ينفع المرء غيره.

- { وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } -

يخبرنا الله عن قوم من بني إسرائيل لم يعبدوا العجل، ولم يضلوا كما ضل أكثرهم، ولكنهم ثبتوا على دعوة موسى وهارون عليهما السلام، وكانوا من المنكرين على أقوامهم، يهدون إلى طريق الحق، ثم به يعدلون، أي: يحكمون بدين الله وبالحق حكمًا عدلًا لا جور فيه ولا ظلم، ولو كان على أنفسهم. وقد كانوا أمة، أي: عددًا كثيرًا وليس قليلًا.

ولا تظنوا أن هؤلاء القوم كانوا موجودين فقط زمن نبي الله موسى عليه السلام، بل وجد منهم في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم من اهتدى إلى الحق وكان من أهل العدل والإنصاف والتجرد، فأمن بديننا وأقبل على الأعمال الصالحة وسارع فيها، وإن كانوا قليلًا.

بل إن هذا العدل امتد في تاريخ أمتنا إلى أيامنا، ووجدنا منهم أقوامًا يسارعون في الدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم أول ما يتبين لهم الحق ويعرفوه. قال الله تعالى: " لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ " [آل عمران: 113-115].

هؤلاء فارقوا أقوامهم حتى أخذوا حظهم من إيماننا وصلاتنا وقيامنا في الليل، وسجدت جباههم خضوعًا للرب جل وعلا وإذعانًا، وصاروا من الآمرين والناهيين كما أمر الله حتى شهد لهم ربنا بأنهم صالحون، وما أعظمها من شهادة. وقد جاءت أكثر من آية تذكر فضل من آمن منهم، وتبشرهم بالثواب العظيم، كقول الله تعالى: " وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا

يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " [آل عمران: 199]،
وقوله سبحانه: " الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ " [القصص: 52-54].

- { وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ
وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

الأسباط جمع سِبْطٍ، والسَّبْطُ: الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد. قال أهل العلم: الأسباط في
بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل، والتقطيع بمعنى التفريق.

فُتِّقُوا أسباطاً وأمماً عددُها اثنا عشر، بعدد أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام، يعرف كلُّ منها نَسبه
وأصله وفصله، وهذا التفريق إنما حصل لهم في التيه في الصحراء بعد أن تاب الله عليهم وقبل توبتهم
واستغفارهم.

وهذا التفريق إلى قبائل وعشائر وأسباط قد يكون عقوبة لهم، وقد قال بذلك كثير من أهل العلم، وقد
يكون من النعم التي يحتاجها الناس في حياتهم لتنظيمها وسياسة أمورهم فيها، خاصة مع كثرتهم
وانتشارهم.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ
عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ }

نعم متجددة لا تنقطع عنهم، وإكرامٌ جديد لهم، إذ قلَّ الماء فيهم وهم تائهون في الصحراء، ففزعوا إلى
نبي الله موسى عليه السلام يطلبون منه أن يسأل الله لهم من واسع فضله، وأن يسقيهم الماء الذي تقوم
به حياتهم، فاستجاب الله له ولهم، وأوحى إلى نبيه أن يضرب بالعصا التي معه حجرًا معلومًا له ولهم،

فأخرج الله جل في علاه منه ثِنْتِي عشرة عَيْنًا من الماء جارية سارحة بعدد أسباطهم، انبجست وانفجرت يشربون منها وينتفعون بمائها بسائر وجوه الانتفاع، أخرجها الله لهم معجزةً جديدةً يرونها بأعينهم ويعيشونها في ليلهم ونهارهم. قال الله تعالى: " وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ " [البقرة: 60].

ومن جملة نعم الله عليهم أنه سبحانه أعلم كل سبط من أسباطهم بالعين الخاصة بهم ليشربوا منها؛ حتى لا يختلفوا ويتزاحموا ويتدافعوا ويتخاصموا وربما يقتتلوا.

وهذه العصا هي عصا موسى عليه السلام التي كانت في يده لما كلمه الله وأوحى إليه، وهي التي ألقاها في مجلس فرعون وتلقفت ما ألقاه السحرة.

{ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ } أسبغ الله عليهم من النعم ما يحتاجونه، وما يرفع عنهم الحرج والمشقة، وكان من ذلك أنه جعل السحاب الأبيض ينتشر في السماء ليقيههم حرَّ الشمس وهم في التيه، مع بقاء نورها وحرِّها المعتدل فيهم، إذ لم يكن هنالك شجرٌ يستظلون به.

{ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى } وكذلك أنزل الله عليهم المن، والمنُّ هو الطَّلُّ الذي يسقط على الشجر فيُجمع ويأكل، فإن أُكِلَ وَخِده كان حلو الطعم كالعسل، وإن مُزِجَ وَخُلِطَ مع الماء صار شرابًا طيبًا.

أما السلوى فهو طائر سمين لذيق اللحم مثل الحمام، يعرفه أهل التفسير بأنه طائر السمَّان، وهو أكبر من العصفور وأصغر من الحمام قليلًا، أكلوا منه ومن المنِّ بلا كلفة ولا تعب في تحصيلهما، فجمعوا عددًا من أسباب الراحة والطمأنينة من اللحم والحلوى فضلًا عن الظلال.

ومن عجائب حالهم أنهم بعد إنعام الله عليهم بالمن والسلوى بلا تعب أو مشقة ضَجَرُوا واعترضوا، وطلبوا طعامًا أدنى من هذا الطعام مما اعتادوه، طلبوا أن تُخْرَجَ لهم الأرض من أنواع البقول⁷⁹ والقثاء⁸⁰ والفوم

⁷⁹ وهي سائِرُ أنواع الخُضار كالجزر والبطاطس ونحوهما.
⁸⁰ وهو الخيار ونحوه.

⁸¹ والعدس والبصل، كأنهم كرهوا ما رزقهم الله ولم يصبروا عليه. قال الله تعالى: " وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ " [البقرة: 61].

ولكن الله تعالى لم يستجب لهم ما طلبوه لأنهم جناء لا عزيمة عندهم لجهاد أعدائهم وفتح الأرض المقدسة وتخليصها من الشرك، ولأنهم كثيروا الثقل في مزاجهم، سريعو الرجوع إلى الكفر والفسق، وليس لهم إلا أن يجتهدوا ويسارعوا في الطاعة، وإلا أن يبذلوا أنفسهم من أجل الدين والعقيدة.

{ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } الأمر هنا أمرٌ بإباحة وإرشاد وامتنان، لعلمهم يستحضرون قيمة هذه النعم ويسارعون في الخيرات والاستجابة لأمر الله ولا يُخلفون العهد والوعد، ولعلمهم يشكرون النعم فإن كثرتها تُنسي كثيراً من الناس شكر المُنعم جل وعلا.

كلوا يا بني إسرائيل من فضل الله وعطائه من المن والسلوى، واشربوا من الماء الذي لا ينقطع عنكم، ولا تظلموا أنفسكم بالشرك أو بالمعاصي، ولا تتماذوا في إفسادكم، ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. قال الله تعالى: " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى " [طه: 80-81].

ثم إنهم قصّروا في شكر الله وطاعته، وأقبلوا على المعاصي ولم يرتدعوا، وما ظلموا خالقهم بذلك، فإنه لن يبلغ أحدٌ نفع الله فينفعه، ولن يبلغ أحدٌ ضرره فيضره، ولكنهم ظلموا أنفسهم ظلماً كبيراً بمخالفتهم أمر الله.

قارنوا ما فعله بنو إسرائيل مع نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام بما كان عليه حال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم معه، يوم كانوا معه في غزواته وأسفاره، وكانت تمرُّ بهم أحوال صعبة من الفقر وشدة العيش وصعوبته، فما كان يزيدهم ذلك إلا صبراً وتوكلًا وثباتًا، ففي غزوة تبوك مثلاً كان سفرهم طويلاً، والحرُّ شديداً، وبلغ الجهد منهم مبلغه، فما سألوا خرق عادة، ولا تذرّوا من حالهم أو اعترضوا، ولكن

⁸¹ وهو الثوم.

نبينا صلى الله عليه وسلم لما رأى ما بهم، دعا الله أن يبارك في الطعام وأن يُكرم بالماء، فكانت معجزة تكثير الطعام وسقيا الماء تكريماً من الله لهم رضي الله عنهم، وكرامةً لنبينا صلوات ربي وسلامه عليه. قلت: رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعلنا حتى الممات على خطاهم.

- { وَإِذْ قِيلَ لَهُم اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ }

أمر الله بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة لتكون لهم وطناً ومسكناً، الأرض المقدسة التي هي أرض الأنبياء والرسل، وهي الأرض التي لا ينبغي أن يرثها المشركون المجرمون، أمرهم أن يدخلوها وأن يتنعموا بثمارها والخيرات الكثيرة فيها من عنب ورمّان وتين ولبن وعسل، فهذه أرض بركة وزرع وخير كثير، أمرهم أن يُخرجوا منها العمالقة الكنعانيين الجبارين وأن يجاهدوهم ويقاتلوهم، ووعدهم بالنصر والتمكين. جاء وصف الأرض المقدسة هنا بالقرية، والقرية هي المدينة مكان اجتماع الناس وكثرتهم.

{ وَقُولُوا حِطَّةٌ } ادخلوا عليهم وجاهدوهم وقولوا: يا رب، حُطَّ عَنْنا الخطايا واغفرها لنا، وعاملنا بإحسانك وسعة فضلك ورحمتك فإننا مُقِرُّون بتقصيرنا وكثرة غفلتنا.

{ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ } ادخلوا عليهم الأرض المقدسة خاضعين لله، راكعين مُنحنيين معظمين شاكرين لله الذي اصطفاكم وأنعم عليكم بكل هذه النعم.

إنكم إذا فعلتم ما أمرناكم به واستجبتم غفر الله لكم الخطيئات، وضاعف لكم الحسنات، وزادكم من خيري الدنيا والآخرة.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه كل من أكرمه الله بالسناء والتمكين، ووفقه ونصره، وأيده بمدد من عنده، ينبغي له في لحظات النصر أن يشكر الله ويخضع له، وأن يتذكر نعمة الله عليه ويحسن شكرها، كما كان حال نبينا صلى الله عليه وسلم في فتوحاته وغزواته.

{ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } لا ينتظركم فقط أن تُغفر ذنوبكم، ولكن تنتظركم نعم كثيرة في الدنيا والآخرة إذا أقبلتم على الطاعة بقلوبكم وجوارحكم، واستجبتكم لأمر الله وسارعتهم فيه.

- { فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ } {

عصى كثير منهم أمر الله تعالى، وضعفوا عن مجاهدة أعداء الله وجئوا أن يقاتلوهم، وخافوا القوم الجبارين وامتنعوا من الدخول، ورددوا كما قال الله حكاية عنهم: " قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ " [المائدة: 24]، فباؤوا بغضب من الله، وعاقبهم بالتشريد والضياح، وحرّمهم من دخول الأرض المقدسة أربعين عامًا يتيهون في الصحراء. قال الله تعالى: " قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ " [المائدة: 26].

ولقائل أن يقول: هل كل قوم موسى بدلّوا أمر الله وعاندوا أوامر شريعتهم ؟ والجواب أنه ليس كل قوم موسى بدلّوا أمر الله ولكن أكثرهم، فقد جاء في الآيات من قبل أنه كان من قومه أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصلحون ما أفسد قومهم، وكانوا كثيرين ولكنهم قلة بالنسبة لعدد بني إسرائيل.

وبعد مرور فترة العذاب وخروجهم من التيه الذي توفّي الله فيه نبيه موسى عليه الصلاة والسلام، وكان نبي الله هارون عليه السلام قد توفّي قبله كما ذكر أهل التاريخ والتفسير، أقول: بعد ذلك أخرج الله من ذريتهم وأصلابهم من تربّي على العزة والإيمان والتقوى، فأمر الله نبيّه يوشع بن نون عليه السلام بأن يقودهم ويقود من تبقي من الصادقين من الجيل الأول لقتال هؤلاء الجبارين، واستئناف القتال لفتح

الأرض المقدسة وهزيمة من فيها، وهو ما حصل فقد أطاع يوشع بن نون عليه السلام ومن معه من المؤمنين الصادقين أمرهم، وقاتل بهم أعداء الله حتى تحقق لهم النصر، ومن الله عليهم بالفتح.

ولقائل أن يقول: ولماذا ذمهم الله هنا وقد فتحوا بيت المقدس، وكيف بدلوا أمر الله وعصوه فيما أمر؟ وهل جاء تفصيل ذلك؟

والجواب أن الله تعالى لما أكرمهم بالنصر وفتح بيت المقدس، جعل كثير منهم ينسبون فضل ذلك إليهم، ويستخفون بما أمرهم الله أن يقولوه ويفعلوه، فدخل كثير منهم الأرض المقدسة دخولاً يوحى بدناءة أخلاقهم، وقلة حيايتهم، وفساد باطنهم، دخلوا دخول المعاند المستهزئ المستخف بدين الله وأمره، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قيل لبني إسرائيل: { ادخلوا الباب سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ }، فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم (أي: أدبارهم)، وقالوا: حبة في شعرة".

يعني: بدلوا في القول والفعل سُخرية وتلاعباً؛ أما الفعل فقد أمرهم الله بأن يدخلوا الباب سُجَّدًا فدخلوه مستكبرين رافعي رؤوسهم يزحفون على أدبارهم، وأما القول فقد أمرهم الله أن يقولوا حِطَّةً، ويدعوه بأن يحطَّ عنهم خطاياهم فقالوا: حبة في شعرة، وفي رواية: " حِطَّة "، قالوه استهزاءً ولعباً، فأبى كفر هذا ! وكأنَّ الدَّلة التي عاشوها في مصر تحت حكم فرعون، بقيت ملازمة لهم ولم ينفكوا عنها، مع كثرة المواقف التي تعرضوا لها ليكونوا أعزاء، ومع كثرة ما حرص نبي الله موسى عليه السلام ليُحيي فيهم القوة والعزيمة والثبات على الأمر.

انظروا في خصالهم: أُشربوا حب الأوثان والأصنام من أيام فرعون فكانوا يرجعون إليها سريعاً، وورثوا الذلة والمهانة والاستعباد، وكانوا يكثر من الشكوى والاعتراض، ويستبطلون وعد الله، ويفسقون ويظلمون. بينت الآية هنا أن الله تعالى عاقب من استهزأ منهم بأوامره، ومن ظلم نفسه بالانتقاص من قدر الدين والشرعية، وأنزل عليهم عذابه الأليم الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين، فالعقوبة كانت للذين ظلموا منهم لا لجميعهم.

فسرَّ غيرُ واحد من أهل التفسير هذا الرجز بالطاعون، مستدلين بما أخرجه البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الطاعون رجسٌ، أُرسل على طائفة من بني إسرائيل، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدّموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه ".

ومن أهل العلم من قال: الرجز هو العذاب، والآية لم توضح حقيقته، فنسكت عما سكت عنه القرآن ونأخذ العبرة، والطاعون الذي أصاب بني إسرائيل كما في الحديث لا يُشترط أن يكون لهؤلاء القوم، بل قد يكون لغيرهم في وقت مختلف.

ولنا أن نسأل بعد بيان ما فعله أولئك في أوامر شريعتهم: هل وُجد في زماننا من أبناء أمتنا وجلدتنا من استخفَّ بالشرع وأوامره، ومن استهزأ ببعض الأحاديث وبالعلماء والدعاة؟ ومن غيرَ وبدل دين الله تحت شعار الحرص والعقل والتجديد؟ ومن يجاهر بالمعاصي عتوًّا واستعلاءً واستكبارًا؟ والجواب لكم يرضى الله عنكم.

صحيحٌ أنَّ السياقَ القرآنيَّ جاء مُذكِّرًا لليهود من بني إسرائيل في زمن النبوة بما حصل مع أجدادهم حتَّى لا يسلّكوا طريقَهُمْ، ولكنَّ الآياتِ هذه وما فيها، تحملُ تحذيرًا لنا من أن نتبعَ خطاهم، فنهلك كما هلكوا.

بطريقة أخرى: إن هذا القصص الذي يقصه علينا ربنا، وقد أنزله في محكم التنزيل إنما هو لنا لا لهم، وكأن القرآن يعطينا مواعظه وهداياته عن طريق إخبارنا عن بني إسرائيل لنكون على حذر منهم في صراعنا معهم، ولنتعرف على خصالهم وشروطهم الكامنة في صدورهم، ولنتحذر من أسباب سخط الله عليهم، ونؤدي أمانة هذا الدين بصدق وإخلاص ويقين.

وكذا سائر القصص القرآني، فإن أهم غرض لذكرها هو وجود الموعظة والتذكرة لنا كمسلمين، فتلك أمم بادت واندثرت في غالبها ولم يبق لها إرث.

- {وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } -

إليك يا محمد صلى الله عليه وسلم خبراً جديداً من أخبارهم التي تدلك على صفاتهم، فتأملها أنت وأمتك، واسأل اليهود عنها ليعلموا أنك نبي، ولتقيم الحجة عليهم زيادة وزيادة، ولتفضحهم أمام أنفسهم حيث تناسوا كثيراً مما فعله أجدادهم ومن سبقهم من قومهم.

يا محمد صلى الله عليه وسلم، اسأل هؤلاء اليهود الذين يعيشون حولك عن قصة أجدادهم الذين اعتدوا على حرمة الله وخالفوا أمره فيما أمرهم به من منع الصيد يوم السبت، واسألهم عما حلَّ بهم لمخالفتهم، ثم حدِّرهم من التحايل على دينك، وكتمان صفتك، وخداعك ومعاداتك لئلا يحلَّ بهم ما حل بمن سبقهم.

هذه قرية من قرى بني إسرائيل متصلة بالبحر قريبة منه⁸²، ممن عصى أهلها أمر الله وتحايلا على شريعته، وذلك لما أمرهم الله أن يتفرغوا للعبادة والطاعة يوم السبت، ولما حرَّم عليهم أن يصطادوا فيه وأحلَّ لهم ذلك في باقي الأيام، فصاروا يحبسون الحيتان التي ابتلاهم الله بكثرتها يوم السبت، وصاروا يبتكرون طرائق لإبقائها تحت سيطرتهم في الماء، ثم يأخذونها بعد يوم السبت.

ولذلك وصفهم ربنا هنا في الآية بأنهم يَعْدُونَ في السبت، أي: يعتدون على أوامر الله ويحتالون عليها مما يتعلق بيوم السبت.

ثم أخبرنا ربنا بأن حيتانهم وأسماكهم كانت تأتيهم يوم السبت شُرْعًا، يعني: ظاهرة على الماء، تأتيهم كثيرة متتابعة مصطفة من كل مكان، وتكون قرية منهم فيسهل عليهم اصطيادها، بخلاف يوم لا يسبتون، أي: بخلاف باقي الأيام فإنها لا تأتيهم، وكانوا لا يحصلون عليها إلا بعد تعب شديد ومؤنة وكدٍّ، فكان هذا بلاءً عظيمًا لهم واختبارًا بما اقترفته أيديهم من فسق واعتداء على حرمة الله وتهاون فيما شرع.

- { وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }

لما تحايل أهل هذه القرية على شريعة الله، ولما بدلوا وغيروا، انقسم الناس إلى ثلاث فرق:

⁸² ذهب كثير من أهل التفسير إلى أن هذا البحر هو البحر الأحمر، وأن مكان هذه القرية كان أيلة (العقبة في زماننا).

1- فرقة منهم ارتكبوا المحذور، ومضوا في فعل المنكر والمجاهرة به، وهذه أكثر أهل المعاصي شرًا وسوءًا، فإن وصول العاصي إلى مرحلة المجاهرة علامة على غياب رقابة الله من قلبه، وذهاب تعظيمه وخشيته، وانتقال صاحب المعصية لأن يكون مفتاحًا للفسق ونشر الرذيلة والمنكر.

ولذلك أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " كل أمتي معافي إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه ".

وفي التحذير من التحايل على الدين والتلاعب بأحكام الشريعة أخرج ابن بطّة في كتابه " إبطال الحيل " حديثاً جود إسناده وحسنه غير واحد من أهل العلم، جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل ".

2- فرقة من علمائهم وصالحيهم نعت عن هذا المنكر ورفعت صوتها بالإنكار، وقالت لهم: كيف تأخذونها وقد حرمها الله عليكم؟! واعتزلت أهل الحرام واجتنبتهم، مع مداومتها على الوعظ والتذكير والإرشاد. قال الله تعالى مرشدًا نبيه صلى الله عليه وسلم ومعلمًا له في التعامل مع أهل النفاق وأصحاب القلوب الفاسدة: " أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا " [النساء: 63].

3- فرقة اللائمين للواعظين، وهي فرقة آثرت السلامة من شرّ العصاة ولم تُنكر منكراً، ولم تأمر بالخير، وهذه الفرقة التي جاءت الآية هنا في بيان ما قالت، وقد وجّهت سؤالها للآمرين بالمعروف المربطين على ثغور الدعوة، وقالت مُنكرة عليهم: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أن استجابتهم إليكم مستحيلة، وأنه لا فائدة من دعوتهم وإسماعهم كلام الدين والإيمان، وأن عذاب الله وبأسه قريب منهم، وأنهم استحقوا عقوبة الله ؟

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الفرقة كانت من الدعاة أولاً، ولكنها يئست بعد ذلك، وأيقنت أنه لا يمكن لهؤلاء أن يستجيبوا، وأنه لا فائدة من دعوتهم، وأن عذاب الله بات قريباً منهم بعد إصرارهم على العتوّ والطغيان، فقالت ما قالت.

{ قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } أجاب الذين يحفظ الله بهم الأمة من الاستئصال والاستبدال، أجاب المنكرون الصادقون العالمون، أجابوا وقالوا: إنما نفعل ذلك لفائدتين اثنتين عظيمتين، هما:

1- إعداراً إلى الله تعالى، واستجابة لأمره إلينا وإسقاطاً للواجب عنا، ولئلا يؤاخذنا بتقصيرنا في دعوة الخلق ورحمتهم، ولئلا يهلكنا إذا قدر عليهم الهلاك، فإن من أهداف الدعوة إلى الله أن تُعذر إليه في إقامة الحجة على الناس وتذكيرهم.

وهنا فائدة نفيسة في تعاملنا مع المنكرات التي كثرت وانتشرت في زماننا، والتي يجاهر بها أصحابها صباح مساء، لا يستحيون من الله ولا من الخلق، وهي أن الواجب علينا أن نذكرهم بالله وبمشهد الإقبال عليه والوقوف بين يديه، وأن نبذل لهم النصيحة بعد النصيحة، نرجو بذلك إبراء ذمتنا مما يجب علينا من الأمر والنهي، ومعلوم لديكم أن أمرنا بالمعروف ونهيها عن المنكر هو الأمر الذي جعله الله سبباً لكوننا خير أمة. قال الله تعالى: " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " [آل عمران: 110].

ولقائل أن يقول: وما هي غايات الدعوة إلى الله ؟

والجواب أن أول غاية هي تبليغ دين الله للعالمين، والسعي في هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهي المقصودة بقول الله تعالى: " الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " [إبراهيم: 1].

وأما الغاية الثانية فهي الإعدار إلى الله تعالى التي جاءت في الآية التي معنا.

وأما الغاية الثالثة فهي إعلان هيمنة هذا الدين ورفع راية هذه الشريعة، ومدافعة الباطل وأهله والتضييق عليهم. قال الله تعالى: " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ " [التوبة: 33].

2- تأملوا ختام ما أجاب به المصلحون على المنكرين عليهم، أجابوا إجابة تدل على عمق فهمهم وفقهم لدينهم، فهم يعلمون أن القلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء، ويعلمون أن الله تعالى قد يأذن

بهداية أحدهم من كلمة أو ابتسامة أو هدية أو حُسن معاملة أو صبر على سوء خلقه، بل قد يأذن بهداية أحدهم من تخويفه بالنار وترغيبه بالجنة.

وكأنهم يقولون: لن نياس من دعوة القوم، ولن نترك طريقاً نصل فيه إلى قلوبهم إلا سلكتناه، ولن نملّ من تكرار كلام الخير والهدى، فإنك لا تدري متى يأذن الله بالهداية والفرج.

ما أجمل قولهم: { وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }، وكأنه يحمل رجاءً بأن تصنع الكلمة فيهم شيئاً فيتركوا ما هم عليه ولو بعد حين، ورجاءً بأن يتوبوا فيتوب الله عليهم وينعمون بواسع رحمته، وهذا يُذكرنا بحالنا ونحن ماضون في طاعتنا ودعوتنا، كيف أن الواحد منا نفعه كلام شيخ أو أستاذ أو مبلغ عن الله وإن كان بعد زمن، فله درُّ الكلمة الطيبة ما أعظمها وما أبلغها في الوصول إلى قلوب الناس. قال الله تعالى: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ " [إبراهيم: 24].

- { فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَجْنَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } -

القائمون على المنكرات من بني إسرائيل لم ينتفعوا بموعظة الواعظين، ولم تتحرك قلوبهم لإنكار المنكرين، ولم ينفكوا عن حبس الحيتان في سبتهم، بل تهادوا في باطلهم ونسوا كلام الواعظين الدعاة نسيان إهمال وإعراض، فأخذهم الله بعذاب بئيس، أي: شديد مُؤْجَع مؤلم بسبب فسقهم وتمردهم وعتوّهم.

يا أهل الدعوة إلى الله الباذلين أوقاتهم وأعمارهم وأموالهم من أجل هداية الناس، ومن أجل حفظ الدين، ومن أجل مدافعة الباطل وأهله، إليكم هذه الآية التي تربط على قلوبكم، وتخبركم أنكم من أهل النجاة وإن نزلت بكم الخطوب، وإن تكالبت عليكم الأمم وخذلكم القريب والبعيد.

نجّى الله أهل الدعوة والإنكار فيهم، ولم يمسه السوء ولا العذاب، فضلاً عما ينتظرهم غداً من كراماتٍ في أرض المحشر، وما ينتظرهم من السرور والخبور في جنات النعيم.

ولقائل أن يقول: وماذا حصل مع الساكتين عن جرم هذه الطائفة من بني إسرائيل، الذين أنكروا على الدعاة وعظهم وإرشادهم، هل كانوا من المعذبين أم من الناجين ؟

والجواب أنه قال بعض أهل العلم: كما أنهم سكتوا عن إنكار المنكر فقد سكتت الآيات عنهم ولم تخبر عن حالهم، لأن الجزء من جنس العمل، ولأنهم لا يستحقون مدحاً، واستحقاقهم للذم متوقف على بيان عذرهم في السكوت، ومن هنا تكلم أهل التفسير في مصيرهم واختلفوا، هل كانوا من الهالكين أم من الناجين؟ والقولان موجودان، والأكثر على أنهم نجوا ولم يكونوا من الهالكين لأن كراهة فعل قومهم ظهرت في كلامهم لما قالوا: { لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ }، وكذلك لأنه جاء في الآية أن الذين أخذهم الله بعذاب بئس هم الذين ظلموا واستحلوا ما حرم الله عليهم، وكذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وقد قام به البعض.

أما العذاب الذي أخذ الظالمين المجرمين فسيأتي في الآية التالية، وإن قال بعض أهل التفسير: إن مسحهم إلى قردة وخنازير كان بعد أن حلَّ بهم هذا العذاب البئس، وهو غير معلوم على هذا القول.

ومزيداً في البيان حول السكوت عن المنكرات في زماننا وفي حق أمتنا، وبيان الأعذار التي قد تكون مقبولة في هذا السكوت، أقول: الأصل أن سبب خيرية هذه الأمة هو أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر كما في الآية المعروفة، والأصل أن الشرع أمر بإنكار المنكرات باليد وباللسان وبالقلب بحسب الحال، والأصل أن ترك الجميع للنهي عن المنكرات، وأن تركها لتفشو في المجتمع، يُعدُّ من الكبائر، ومن أسباب تعريض هذه الأمة للعقوبة الإلهية. أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه قال: "أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) [المائدة: 105]، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهُم الله بعقاب منه".

وأخرج أحمد وغيره بسند حسن، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم".

والأصل كذلك أن كثرة المنكرات وفشورها في الناس تتطلب من جميع الغيورين على دين الله أن يجتهدوا في إنكارها، ويستفروا وسعهم في بيان خطورتها، وأن تتحد كلمتهم وجهودهم من أجل تغييرها. قال الله تعالى: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة: 71].

قال أهل العلم: قد يصعب على المسلم أن ينكر جميع المنكرات إذا كثرت وشق ذلك عليه، فيسدد ويقارب ما استطاع فإنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وقالوا: يسقط وجوب إنكار المنكر إذا خاف المسلم أذى معتبراً كضرب أو حبس، أو خشي لحوق الأذى بالأهل والعرض، ويسقط كذلك إذا كان المدعوى من الفسقة الذين إذا قيل لواحد منهم اتق الله أخذته العزة بالإثم، وازداد فُسُوقاً إلى فُسُوقه، وفُجُوراً إلى فُجُوره.

ولكننا قد نرى صنفاً من الناس يمنعهم الحياء من إنكار المنكرات، ونرى صنفاً آخر يمنعه الخوف المتوهم من ذلك، أو التواضع الوهمي، وبعضهم يمنعه خشية كلام الناس وسخريتهم، وهذه مسوغاتٌ غيرُ معتبرة في السكوت عن المنكرات، وينبغي للمؤمن أن ينتصر عليها، وأن يعلم أنَّ طريق الدعوة إلى الله ليس مفروضاً بالورود، وأن فيه تحدّيات يمكنه أن ينتصر عليها، بل يجب. أخرج أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقّن الله عبداً حُجَّتَه، قال: يا رب رجوتك، وفَرَقْتَ من الناس⁸³".

ما أصعبها يوم يكون أهل الدين والإيمان والتقوى ساكتين عن الإثم والعدوان، ولا ينكرون على أقوامهم مصانعة لهم ومداهنة، ولكم أن تنظروا في حال أمة قصّر علماؤها وعابدها في التربية والتوجيه والوعظ والإرشاد، وفي إنكار المنكرات، هل سينزل العذاب بالظالمين منهم فقط؟ الجواب جاء في قول الله تعالى: "وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" [الأنفال: 25]. أقول أخيراً: انظروا عناية شريعتنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجعلوا هذه الشعيرة هواءكم وماءكم، لعل الله تعالى يجري الخير على أيدينا، ويجعلنا من مفاتيحه في الأرض، ويهدي بنا أقواماً، ولعل الله يكرمنا بأن نكون سبباً لنجاة أمتنا وحفظها وتمكينها.

- { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ }

هذا من تمام عذاب المجرمين المعتدين على حرّمات الله، ومن تمام العذاب البئيس الذي أخذهم، وذلك بعد أن عَتَوْا وقسوا ولم يلينوا، وبعد أن تجاوزوا الحد في الكِبَر والصدود وتَجَبَّرُوا، فقد كان من سوء منقلبهم جزائهم أَنَّ الله تعالى أبعدهم من رحمته، ومسحهم قردة وخنازير خاسئين، أي: ذليلين مهانين ليكونوا عبرة لمن رآهم ولمن جاء بعدهم ممن علم حالهم. قال الله تعالى: "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي

⁸³ يعني: خاف منهم.

السَّبَبِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ " [البقرة: 65-66].

أخرج مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وقد سُئِلَ صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير الموجودة في كل زمان ومكان بعد هؤلاء، هل هي من نسل القردة والخنازير التي مُسِخَ إليها اليهود ؟ فأجاب صلى الله عليه وسلم بقوله: " إن الله لم يجعل لمسخٍ نَسْلاً ولا عَقَباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك ".

فالقردة والخنازير ليست من نسلهم، وإنما هي من نسل القردة والخنازير التي أوجدها الله قبلهم، أما هم فقد مُسِخُوا على هيئتها ثم أماتهم الله.

وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: " فَمَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً بَمَعْصِيَتِهِمْ، إِذْ لَا يَحْيُونَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، قَالَ: وَلَمْ يَعِشْ مَسْخٌ قَطُّ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ وَلَمْ يَنْسَلْ ".

- { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُوٌّ رَحِيمٌ }

ومن عقوبة الله لهم أنه توعدهم وكتب عليهم الذلة والمهانة إلى يوم القيامة، ومن علامات هذه الذلة أن يُسَلِّطَ عليهم من أعدائهم من يقهرهم ويكسر شوكتهم في أوقات مختلفة، ويجعلهم يدفعون الجزية والخراج بسبب عصيانهم ودوامهم على الكفر، وذلك إلى يوم القيامة. قال الله تعالى: " وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ " [البقرة: 61]، وقال سبحانه: " ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ " [آل عمران: 112].

والمتتبع لأحوال اليهود الذين هم من بقية بني إسرائيل يجد أنهم كانوا تحت قهر الأمم من حولهم عبر التاريخ، من اليونانيين والكلدانيين والنصارى، حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم برسالة التوحيد

والهدى، وقهر طوائفهم التي كانت في المدينة وفي خيبر، عن طريق قتل بعضها وإخراج بعضها، وضرب الجزية والخراج على بعضها.

ولا زالوا كذلك حتى جاء زماننا الذي نعيشه، والذي جعل الله فيه غُلُوهم علامة من علامات قرب الساعة، وجعله يسيراً لا يُقَارَن بأزمان ذلتهم ومهانتهم وهوانهم في تاريخ الأمم والملوك، ثم إن الله تعالى بَشَّرَ المؤمنين من أمة الإسلام في آخر الزمان بأنهم سيقهرون اليهود ويُذلونهم وَيُتَبَرِّون ما عُلُوًّا تَبِيرًا، وكذلك سيكون المؤمنون مع المسيح ابن مريم عليهما السلام يوم يُسَلِّطُهم الله على الدجال وأعوانه الذين يكون أكثرهم من اليهود، أخزاهم الله وكسر شوكتهم.

ومن علامات ذلتهم ومهانتهم أَنْ تُبْغِضَهم كل شعوب الأرض في كل زمان ومكان، وهو ما نراه ونعيشه. ومن علاماتها أنهم من أشدَّ الناس حرصًا على هذه الحياة وتعلُّقًا بها، وإن كانت هذه الحياة ذميمةً دنيئةً عَفْنَةً قائمة على الاستعباد والتسلط. قال الله تعالى: " وَلَتَجِدَنَّهم أَّخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ " [البقرة: 96].

ومن علاماتها كذلك أنهم فقدوا البأس والشجاعة، ولا يقاتلون أولياء الله إلا من وراء جُدُر. قال الله تعالى: " لَا يُقَاتِلُونَكُم جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ " [الحشر: 14].

{ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } لا يغرنكم تقلب أهل الكفر واليهود في البلاد فإن الله تعالى يمهلهم ويؤملي لهم، ثم يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون، وهكذا حال كلِّ من استخفَّ بنظر الله إليه، وخالف أوامره واستهان بشرعه.

أما من تاب منهم وأناب وصدق، فهؤلاء أقرب ما يكونون إلى رحمة الله ورضوانه، والنجاة من عقوبته، ومثلهم لا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمته، فإنه من كرم الله وجوده أنه يُثْقِلُ العثرة ويغفر الذنب ويستزله.

والمقصود: لا تصروا على التحايل على شرع الله واللعب به فإن الله سريع العقاب، واعلموا أن باب التوبة مفتوح لكم ما دامت أرواحكم تجري في أبدانكم، وربكم غفور يستر الذنب، وهو رحيم بكم، وقد أعد لكم ما يسرّكم في الدار الآخرة إذا تركتم طريق الكفر وكبائر الذنوب، فأقبلوا.

- { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } -

كان بنو إسرائيل مجتمعين في بلاد واحدة، وكانوا أمة واحدة على قلب رجل واحد بالجملة، ثم إن الله تعالى جعلهم يتفرقون في أقطار الأرض أممًا وشعوبًا وقبائل. قال الله تعالى: " وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا " [الإسراء: 104].

ذهب كثير من أهل العلم إلى أن هذا التفريق كان عقوبة أخرى لهم على ما فعلوا، وكان بداية إذلالهم في الأرض وشتات حالهم.

وذهب بعضهم إلى أنه كان نعمة من نعم الله عليهم، وبيان ذلك أن هذا التقطيع إنما كان في الأرض المقدسة ليملئوها ويعمروها، فقد كانوا أممًا كثيرة ممتدة.

{ مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ } ستجدون منهم الصالحين الذي آمنوا بجميع الأنبياء، والذين صدّقوا واتّقوا وتمسّكوا بشريعة نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام، والذين قاموا بحقوق الله وحقوق عباده، وستجدون منهم من لم يكن صالحًا ممن كذّب وأعرض وكفر وقتل الأنبياء، أو ممن آمن ولكنه انغمس في المعاصي والذنوب.

{ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } أي: اختبارناهم بالرخاء وبالشدّة، وبالعافية وبالبلاء، وباليسر وبالعسر، وببسط العيش وبتضييقه؛ كل ذلك لعلهم يرجعون إلى الدين الحق والصراط المستقيم، ويتوبون من مصائبهم.

عامل ربنا بني إسرائيل برحمته وواسع فضله أحياناً، وعاملهم بالعقوبة والجزاء على نقضهم للعهد ونسيان أوامر الله أحياناً أخرى، فظهر منهم كيف يتعاملون مع ما يسوؤهم ومع ما يسرهم، كيف يصبرون ويشكرون، أو كيف يجزعون ويكفرون.

- { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }

كان هناك عدد من أهل الصلاح والإصلاح والتذكير والإنكار في بني إسرائيل كما بينت الآيات السابقة، وإن كان كثير منهم فاسقين مجرمين، ولكن هذا الحال لم يستمر إلى الأجيال التي جاءت بعدهم، بل جاء بعدهم من ذرياتهم من لا خير فيه ممن ورثوا الكتاب، أي: ممن توارثوا التوراة ووصلتهم من أنبيائهم ورسلمهم، وممن ورثها الله إليهم وعهد إليهم فيها أن يقوموا بما فيها، ولكنهم حرّفوا وبدّلوا، ولم يؤمنوا بما أمَرَهُم به التوراة من الإيمان بالرسول والكتب من بعد موسى عليه الصلاة والسلام، فكانوا أسوأ خَلَفَ.

والمقصود بهم عند كثير من أهل التفسير أولئك اليهود الذين عاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وخيبر، ودعاهم إلى الإيمان وأقام عليهم الحجة، ولكنهم كفروا به عناداً وحسداً، فقد كانوا يعلمون نبوته لأنهم ورثوا الكتاب الذي يصفه ويشرهم به.

{ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا } أي: يُقبلون على الدنيا وشهواتها وملذاتها ولا يسألون عن حرام أو حلال، وهذه المعاصي والشهوات المحرمة في الدنيا هي الأدنى، وهي عَرَضٌ في حياتنا وحطامٌ حقير، يعني: تزول ولا تدوم، وتغنى لذتها وتبقى حسرتها.

ثم إنهم يُمْنُونُ أنفسهم بالتوبة والرجعة، وَيَعِدُونَهَا بالتوبة والأوبة، ويتمنون على الله الأمانِيَّ، ويصرون على الذنب، ويقولون لمن يُنكر عليهم أو ينصحهم: سَيَغْفِرَ اللهُ لنا كلما رجعنا إليه، ولن يؤاخذَنَا بما فعلنا، فلا هم يندمون ولا هم يتوبون بصدق ولا يقلعون عن الحرام.

وكلامهم هذا ليس من حسن الظن بالله، وليس دافعاً لهم ليكونوا من الصادقين في التوبة، ولكنه من الأمانِي والأوهام والغرور في الدين، ومن أسباب بلادة إحساسهم بالذنب وأثره على الدين والدنيا. قال الله تعالى: " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " [آل عمران: 24].

قال أهل التفسير: كان كثير منهم يتعاملون بالرشوة، ويأكلون المال بالحرام، ويتلبسون بمختلف الذنوب، وكان من سوء ما فعلوا أنهم تصرفوا في التوراة بأهوائهم، وبدّلوا وغيّروا وحرفوا من أجل المال، وحكموا في كثير من أمور شريعتهم بغير ما أنزل الله، وكانوا من أهل الاتجار بالدين والمحابة في الحكم والفتوى. قال الله تعالى: " فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قليلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ " [البقرة: 79]، وقال سبحانه: " سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ " [المائدة: 42].

{ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ } ومن علامات فساد قلوبهم وعدم صدقهم فيما يقولون، أن الذين يتظاهرون بأنهم ينصحون وينكرون المنكرات ويقولون: سيُغْفَرُ لنا، أنهم يرجعون إلى أكل الحرام وسماعه ومجالسة أهله، وإلى الفسق والفجور، ويقعون فيه ويتساهلون بفعله كلما عَرَضَ لهم ولا ح.

وهذا يُذكرنا بحال صنف من أبناء أمتنا ممن لا تتجاوز توبتهم أن يقولوا: أستغفر الله، ثم لا هم يندمون على ما فعلوا، ولا يُغلقون أبواب الحرام والشور، ولا يعاهدون الله على الاستقامة، ولا يهجرهم رفقة السوء، ولا يتخلصون من مشاهد المنكرات التي فعلوها وانغمسوا فيها، بل يمضون في كل ذلك ويغرمهم بالله الغرور.

{ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ } إنكار من الله عليهم لسوء صنيعهم، وتوبيخ لهم على رِقَّة دينهم وخِفَّة، وتذكير لهم بالعهد الذي أخذه عليهم بأن يعملوا بما في التوراة، وأن يبينوا الحق الذي فيها ولا يكتموا فقد درسوها وعلموا ما فيها، وأن يجتنبوا ما يسخط الله عليهم، وأن يكونوا من التَّوَّابِينَ إلى الله بصدق. قال الله تعالى: " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ " [آل عمران: 187].

أخبر يا محمد صلى الله عليه وسلم من عندك من اليهود أن الله تعالى أخذ عليهم وعلى من سبقهم العهود والمواثيق، فليحذروا من نقضها، وليعلموا أن حجة الله عليهم أقيمت، وأن وَعْدَ الله ووَعِيدِهِ قد بلغهم.

أخبرهم عن عظم ما يفعلون، فإنهم درسوا ما في التوراة وعلموا ما فيها كما ذُكِرَت الآية، وهذا يدل على أنهم يكفرون ويعصون عن علم لا عن جهل، وعن تعصُّبٍ للباطل لا عن غفلة، وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا هو المعنى الذي استحقوا بسببه لقب (المغضوب عليهم) كما شاع عند أهل العلم في تفسير سورة الفاتحة.

{ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } نداء من الله لهم وإن فعلوا ما فعلوا، نداءً يحمل ترغيباً لهم ليُصلحوا أنفسهم ويرجعوا إلى عقولهم، نداءً يُذكِّرهم بتقوى الله التي تنفعهم في آخرتهم، في الدار التي هي مستقرهم ومكان خلودهم.

يا من يسمع هذا النداء من بني إسرائيل: اتقوا المحارم، واتركوا هوى النفس، وأقبلوا على طاعة الكريم ليكرمكم، أطيعوه كما أمر وأرشد تسعدوا.

كيف تتركون نعيمًا باقياً في جنات عدن، من أجل اتباع أهوائكم وتحصيل مصالح في الدنيا لن تنفعكم شيئاً؟! أين عقولكم مما ينفعكم وما يضركم؟! أين نظركم في عواقب ما تفعلون؟!

أقول: وكأن الآيات تريد منا أن نُعمل عقولنا فيها، وأن نحفظ قرآننا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم من اللعب والتحريف والزيغ والضلال، وهو ما نرى شيئاً من مظاهره في زماننا على يد حفنة من الناس لبسوا زي العلماء والدعاة، وأفسدوا على الناس دينهم وتلاعبوا بشريعتهم؛ فعلوا كل ذلك وقد ملأت الدنيا ومناصبها وأموالها قلوبهم وعقولهم، وتمنوا على الله الأمانى واغتروا، فعموا وصموا، وضلوا وأضلوا. قال الله تعالى: " لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا " [النساء: 123-124].

- { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } -

ثناء عظيم من ربِّ عظيم، على من تمسك بما في التوراة وقاده ذلك إلى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته، وقاده إلى الإيمان بالقرآن والسنة، واعتصم بهما، وأقبل على صلاته بخشوعها وأداء أركانها وواجباتها.

هؤلاء يبشرهم ربهم بأنه لا يضيع أجرهم ما داموا من أهل العمل الصالح والدعوة إلى الدين الحق.

تعالوا إلى التمسك بالقرآن علماً وعملاً، تعالوا إلى رفع رايته في الأرض، وتحكيمه في المسلمين وغيرهم، احفظوه وافهموه وتدبروه وبلغوه، وصدُّوا عنه حيل المغرضين أصحاب القلوب المريضة، وابدلوا أوقاتكم وأعماركم وأموالكم من أجله لعلكم تكونون من المصلحين لأنفسهم وغيرهم، الذين لن يضيع ربي أجرهم وإحسانهم.

تعالوا إلى صلاتنا لنقيمها في أنفسنا وفيمن حولنا، نحافظ عليها في وقتها، ونعيش مع النداء إليها مرددين ومتدللين، نعيش مع وضوئها مستحضرين فضله وثوابه، سائرين إلى المساجد نعرها ونحضر مجالس الخير فيها، نقوم بين يدي العظيم خاشعين منيبين مستكينين، نذكر الله فيها وندعوه من قلب صادق، نعر بيوتنا بقيام الليل وتربية عيالنا على شعيرة الصلاة التي هي ركن الإسلام وعموده.

هنا منهج حياتنا وقوامها الذي لا نستغني عنه، هنا التمسك بالكتاب لا مجرد إمساكه، بل تمسك فيه الحرص والرغبة والشغف والمحبة، وفيه ترك الأعذار عن القيام بحقه وتبليغه ونصرته، وفيه ترك التحايل عليه وعلى ما فيه، وفيه التذكير بأن الإصلاح في الأرض لا يكون بدون قرآن نأخذه بقوة، ولا يكون بدون صلاة نقيمها بصدق، ولا يكون إلا على أيدي المصلحين المتوضعين المجاهدين.

- { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } -

لم يأخذ بنو إسرائيل الأوامر والنواهي التي جاءتهم في التوراة على محمل الجد، وتناقلوا من فرائضها وحدودها ولم يسارعوا في الاستجابة لها، وذلك بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق بأن يأخذوها بقوة، كما قال الله تعالى عنهم: " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا " [البقرة: 93]، فرفع الله فوق رؤوسهم جبلاً يرونه ويعلمونه، وجعله فوق رؤوسهم كالغمامة والسحابة التي تظلمهم ليروا شيئاً من عظمتة فيطيعوه ويعملوا بما في الكتاب بجِد واجتهاد، ويأخذوه بقوة وعزيمة ويمتثلوا.

ثم قَرَّبَ الجبل منهم وخَوَّفَهُمْ حتى ظنوا أنه سيقع على رؤوسهم، فلما نظروا إليه وقع في قلوبهم الرعب، وخَرُّوا سُجَّدًا وهم ينظرون إليه خوفاً من أن يغشاهم ويسقط عليهم⁸⁴. قال الله تعالى: " وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْيَاقَهُمْ وَقُلْنَا هُمْ اذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا " [النساء: 154].

وعبارة (نَتَقْنَا الْجَبَلَ)، أي: فصلناه من مكانه وقلعناه. والجبل هو جبل الطور كما قال عدد من أهل التفسير. والظُّلَّة هي السحابة والغمامة.

ورَفَعُ الجبل على رؤوسهم آية من آيات الله التي رآها بنو إسرائيل بأعينهم، ومعجزة من المعجزات التي تُظهر صدق نبيهم عليه الصلاة والسلام، لعلمهم يصدقون في أخذهم للتوراة، والعمل بما فيها، وتبليغها

⁸⁴ كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه الحاكم في المستدرک.

لقومهم، ولعلمهم يبلغون درجة الخائفين من عقوبة الله وغضبه، ولعلمهم يصلون إلى درجة المتقين لربهم بامثال أوامره واجتناب نواهيه بلا تقصير أو تهاون.

هذه آخر آية من قصة بني إسرائيل في السورة، ولعلمكم رأيتم كيف طال الحديث عنهم، ولعلمكم عرفتم كثيراً من خصائصهم التي لا تكاد تنفك عنهم حتى في زماننا، ولعلمكم فقهتم عن الله مراده من بيان أحوالهم ومعالم تاريخهم، وكأن ربنا ينادي علينا ويقول لنا: احذروا أفعال هؤلاء القوم وصفاتهم، وأبلغوهم كلام الله بعد أن تأخذوه بقوة، وأقيموا عليهم حجته التي تظهر كالشمس في رابعة النهار، واشكروا الله على نعمة الإسلام والتوحيد، ونعمة أن شرح صدوركم لما يحب ويرضى، والزموا طريق الاستقامة، واسألوا الله الثبات حتى الممات.

- { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }

سورة الأعراف سورة مكية، نزلت لغايات تسليية النبي صلى الله عليه وسلم، وتشبيهاً لأصحابه، ونزلت لم حاجة المشركين من العرب الذين جاءتهم كل هذه القصص لتنذريهم العقاب، وتزعمهم في مرضاة الله وحسن الثواب، ولذلك رجع السياق القرآني لتذكيرهم بعهد الله وميثاقه الذي أخذه على البشر جميعاً وهم منهم، ولتنادي عليهم بما استقر في فطرتهم من وحدانية الله وتعظيمه وإجلاله.

أخذ الله تعالى العهد على جميع الناس بأن يطيعوه وحده، وأن يصرفوا عبادتهم له ولا يشركوا معه شيئاً، أخذه وهم في صلب أبيهم آدم عليه السلام قبل أن يُخلقوا، بعد أن استخرج من ذريته كل من سيكون إلى يوم القيامة على صورة الدّر⁸⁵، ثم أشهدهم بأنه ربهم ومالكهم ومدبر أمرهم، وأنه الواحد الأحد، وقال: { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ }، فأقر كل فرد من أفراد الذرية على نفسه بأنه عَرَفَ خالقه، وشهدوا على ذلك، وأعطوا العهود والمواثيق على أن يعبدوه وحده لا يشركون معه شيئاً، ثم لما خلقهم وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه ليذكّرهم بعهد وميثاقه، آمن مَنْ آمن منهم ووفى بعهد الله، وكفر من كفر منهم ونقض العهد من بعد الميثاق.

⁸⁵ كما جاء في عدد من الآثار، والدّر هي صغار النمل.

ربنا جل جلاله وتقدست أسمائه استخرج ذُرِّيَّةَ آدَمَ من صلبه، وميَّزَ أهل الجنة من أهل النار، وهو تمييز يدل على أنه سبحانه العليم الخبير، الذي كتب مقادير الخلق وعلم منهم ما هو كائن إلى يوم القيامة. أخرج أحمد وأبو داود والترمذي بسند صحَّحه بعض أهل العلم وضعَّفه غيرهم، عن مسلم بن يسار الجُهَنِيِّ رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سُئِلَ عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ؟ فقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله خلق آدم ثم مَسَحَ ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة فيُدْخَلَه به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل النار، فيُدْخَلَه به النار ".

وقد تقدم معنا مزيد بيان واستطراد في بيان عظمة الله فيما كتبه من مقادير في تفسير قول الله تعالى : " كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ " [الأعراف: 29-30].

أخذ الله عليهم العهد بأن لا يتبعوا خطوات الشيطان، وأن يحذروه فإنه عدوهم، كما قال ربنا: " أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " [يس: 60-61]، ولكن كثيرًا من الناس ضلوا ونسوا عهد الله إليهم، وغرَّتهم الحياة الدنيا فركنوا إليها، واستبدلوها بالدار الآخرة وجنة الله فيها. قال الله تعالى: " وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ " [الأعراف: 102].

ومعلوم لديكم أن كل مولود يولد على الفطرة الطيبة النقية الصافية، الفطرة التي تقوده إلى التوحيد وتعظيم من خلق، أي: إن الله تعالى أودع فيه غريزة الإيمان، وفطرة الإسلام، ولكن بيئته التي ترعرع فيها قد تودي به إلى المهالك، وتصرفه عن الجادة والطريق المستقيم، أو قد يستحوذ عليه الشيطان فيضلّه ضلالًا بعيدًا. قال الله تعالى: " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " [الروم: 30]، وأخرج مسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم، حكايةً عن الله تعالى أنه قال: " وإني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإني أتهم الشياطين

فاجتالّتهم⁸⁶ عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أخلكت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً " الحديث.

وهذا حال صنف من الناس لا يخفى عليكم، يكون في غفلة عن آخرته، وفي ركون إلى الدنيا ولذائذها، ولا يطيع الله كما أمره، مع أن نداء الفطرة حاضرٌ فيه، ومع أن الرسل جاءته ومعها المعجزات والكتب. أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يقول الله تبارك وتعالى لأَهْوَنَ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مُفْتَدِيّاً بها ؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك أهون من هذا وأنت في صُلب آدم، أن لا تشرك ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك ".

{ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا } أي: لما استخرجهم وجعلهم أرواحاً وصوَّرههم، وأشهدهم على وحدانيته واستنطقهم قالوا: شهدنا وأقررنا واعترفنا بأنك ربنا وخالقنا وسيدنا ومولانا.

{ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } وقد قدَّر الله عليهم ذلك، وامتنحنهم قبل خلقهم لإقامة الحجة عليهم، ولئلا يعتذروا ويحتجُّوا ويقولوا يوم القيامة: إنا غفلنا عن هذا، ولا نعلمه، ولم يبلغنا شيء.

لقد أخذ الله عليهم العهد وهم في صلب أبيهم، وخلقهم على الفطرة النقية، وكملها وغدَّاها بإرسال الرسل الذين خاطبوا فيهم تلك البذرة لئلا يحتجوا يوم القيامة بالغفلة والنسيان، فهذا نداء الفطرة في داخلهم، وهذا نداء الرسل يأتيهم ويذكرهم ويحيي فيهم التوحيد والطاعة.

وكأنَّ قول الله هنا يخاطب أهل الشرك من قريش وغيرهم، ويُذَكِّرهم بالعهد الذي يشهدونه في فطرتهم، والذي يجدونه في ذلك النداء الذي هو في أعماقهم أن آمنوا بالله، وأحبُّوه وأطيعوه، ولا تكونوا من الضالين.

⁸⁶ أي: صرَّفْتُهُمْ وَذَهَبْتَ بِهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ وَالْكَفْرِ.

- { أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } -

أو تعتذروا عن عدم إيمانكم واستجابتكم للرسول بأن تقولوا: لقد نشأنا في بيئة كان أهلها مشركين، وكان آباؤنا لا يؤمنون بالله العظيم، فاتَّبَعْنَاهُمْ وَكَرِهْنَا أَنْ نَتْرِكَ دِينَهُمْ، وظننا أنهم على الحق والهدى بشركهم، وهكذا فَعَلْتَ ذُرِّيَّتُنَا وَمِنْ بَعْدِهِمْ، فَإِنَّ شَأْنَ الذرية أَنْ تَتَّبِعَ آبَاءَهَا، فلا تُهْلِكُنَا وَلَا تُعَذِّبُنَا بِمَا فَعَلَ أَهْلُ الْبَاطِلِ مِنْ قَبْلِ فَإِنَّمَا نَحْنُ تَبِعُ لَهُمْ وَلَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ.

وقد تقدم معنا مزيد بيان لهذه الشبهة وهذا الاعتذار الباطل المردود على أصحابه، أقول: تقدم معنا مزيد بيان له وردَّ عليه في تفسير قول الله تعالى: " وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " [الأعراف: 28].

يا أيها المشركون بالله العظيم، إن العلم بوحداية الله قد استقرَّ في أصل فطرتكم يوم أخرجكم ربكم من صلب أبيكم آدم وأشهدكم على ربوبيته، وقد جاءكم الرسل بالحق فأخيت ما في فطرتكم، وقرأت عليكم كلام الله وجاءكم بالمعجزات والآيات الباهرات، فلا تظنوا أن اعتذاركم هذا نافع لكم، أو مخفف عنكم من عذاب الله من شيء.

- { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } -

اسمعوا عن الله هذا البيان الذي فصَّله لكم لترجعوا عن غيِّكم وضلالكم، وتَدَارَكُوا مَا فَاتَكُمْ فَإِنَّ الْعَمَرَ قَصِيرٌ، وإن السفر بعد الموت طويل، وهناك لا ينفعكم ولد ولا والد، ولا قريب ولا بعيد، ولن يغني عنكم أحد من الله شيئاً.

فصَّلَ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَبَيَّنَّهَا أَحْسَنَ بَيَانٍ لِيُعْظِمَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ، وَلَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ عَنْ جَهْلِكُمُ الْفَاحِشِ وَتَقْلِيدِكُمُ الْأَعْمَى، تَرْجِعُونَ إِلَى مَوْطِنِكُمُ الْأَوَّلِ وَدَارِ سَعَادَتِكُمْ وَفَرَحِكُمْ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي لَا زِمَكُمْ فِي مَبْدَأِ الْخَلْقِ وَنَشْأَتِهِ وَأَصْلِهِ.

- { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ } -

هنا قصّة من قصص القرآن العظيم، تحمل وعظاً عجيباً لمن آتاه الله شيئاً من العلم والفهم، مع أنها جاءت في آيات قليلة، ومع أن شخوصها وأسماء من تتكلم عنهم ليست معروفة، قصّة يهتم بها الدعاة كثيراً، ولعل سبب اهتمامهم بها وكثرة حديثهم عنها أنها تحمل فوائد لنا لا نستغني عنها في طريق سيرنا إلى الله فيما نقول ونعمل، كما هو حال القرآن كله، فمن ذلك:

1- إن الذي يطلع على القلوب ويعلم الصحيح منها من السقيم هو الله وحده، وإن الأصل أن لا نغترّ كثيراً بظاهر حال العباد، ولا نغترّ بما يقولونه ويعاهدون الله عليه، فكم من عبدٍ أعرض عن الهدى بعد أن كان يدعو إليه ويعيش في ظلاله ! وكم ممن ظاهره الصلاح نكص على عقبيه بعد أن فُتن في دينه ! أقول: وغالب حال هؤلاء أنهم يسقطون في الدنيا قبل الآخرة، وينكشف عنهم الغطاء ويؤذلهم الله أمام الخلائق، وتظهر منهم أعمال لا تليق بالعلم الذي نالوه وحصلوه، فمنهم من يناصر الظلمة ويدافع عنهم جهاراً نهاراً، ويُسوغ لهم كل ما يفعلونه من قهرٍ للعباد وأكلٍ للحقوق وتضييع للدين، ومنهم من يوالي أهل الكفر ويخفّض جناحه لهم، بخلاف تعامله مع أهل التقوى والعلم والدعوة، فتراه يسارع في التشهير بهم وتتبع زلاتهم، والغلظة عليهم والشدّة في كلامه عنهم.

أخرج البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يُؤْتَى بالرجل يوم القيامة فيُلْقَى في النار فتندلق أفتاب بطنه ⁸⁷، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، ما لك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية "

2- الثبات من عند الله وحده، ولا يليق بمن عرف الله أن يغفل عما خُلق له، ولا يليق به أن يُصاب بالعُجب الذي هو مهلكة الصالحين، فالفضل أولاً وآخرًا فيما نحن فيه لله وحده الذي لولاه لما اهتدى مهتدٍ، ولا ثبت ثابت، ولا جاهد مجاهد.

ولذلك، ينبغي أن يبقى العاملون لهذا الدين، الذين حملوه في قلوبهم ثم خرجوا به للعالمين، أقول ينبغي للواحد منهم أن يبقى على حذر من الرّئغ، وأن يسأل الله دومًا الثبات حتى الممات. أخرج البخاري عن

⁸⁷ أي: فتخرج أمعاؤه وما حواه بطنه.

سهل رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم "

3- تحمل الآية هنا عتابًا وتوبيخًا لكل من ضلَّ بعد هدايته، وارتدَّ بعد إيمانه، وتَنكَّر لدينه وأمته وشريعته بعد أن كان يرفع رأسه بهم، وترك العلم وراء ظهره من أجل الدنيا وحظ النفس، وتحمل تهديدًا لهم ليرجعوا عن غيِّهم قبل أن يفجأهم الموت أو ينزل بهم سخط الله.

أقول بعد هذه المقدمة في تفسير الآية الكريمة: جاء السياق القرآني هنا يطلب من نبينا صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس جميعًا، ويخبر أهل الشرك والضلال خصوصًا عن قصة رجل ممن أنعم الله عليه بالعلم والفهم عن الله، وآتاه قراءة كتب الأنبياء ومعرفة الحق من الباطل، وآتاه دلائل الوجدانية حتى كره الشرك وعبادة الأصنام وشرب الخمر، وأحبَّ التوحيد والعمل الصالح، ولكنه بعد أن كان حريصًا على فهم آيات الله وتبليغها انسلخ منها، أي: أقلع عن العمل بما تطلبه آيات الله منه، وهجر ما كان يعتقد من الحق، وترك ما كان يفعله من الخير، وخلع كل ذلك كما يُخلع اللباس.

ما أصعبها يوم يُحرم العالم من الانتفاع بثمرة علمه، يوم يُكرم الله عبدًا من عباده بالدين والفهم، ويؤتيه من آياته ما ينفعه وينفع من حوله، ثم يتركها بعد ما اعتقدها وفقَّهها، ويصير عدوًّا لها بعد ما كان مؤمنًا بها، ويحاربها ويصدُّ الناس عنها بعدما كان يدعوهم إليها. قلت: وهذا حال كلِّ من لم يصدق الله في عهده ووعدده فخذله الله، ووكله إلى نفسه، وسلب منه ما علَّمه وفقَّهه.

ذهب أهل التفسير إلى أن هذا الرجل كان من بني إسرائيل، وعن بعض علماء السلف أنه كان رجلًا مُجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه من شدة صلاحه.

وقد اختلفوا في اسمه ومكان إقامته، هل كان في اليمن ؟ أم كان من أهل البلقاء في الأردن وكان يذهب ويقيم مع القوم الجبارين في بيت المقدس ؟

ومنهم من قال: إنه كان من علماء بني إسرائيل، وكان سيدنا موسى عليه السلام قد أرسله لدعوة ملك مدين، فعرض عليه ملك مدين أن يترك دعوته ويعطيه أرضًا ومالًا فقبل ذلك وتركها.

ولو حاولنا أن نفهم مجيء الآية هنا بعد الآيات التي بيّنت أخذ العهد على بني آدم وهم في صلب أبيهم آدم عليه السلام، لوجدنا أن جميع الخلق قد عرفوا الله وهم في صلب أبيهم، وكان الواجب عليهم بعد مبعث رُسُل الله إليهم ونزول كتب الله عليهم أن يسارعوا في الاستجابة، ولكن صنفاً منهم بعد أن آتاهم الله آياته انسلخوا منها ولم يلتزموا بالعهد والوعد، فكان مثلهم كمثل الكلب الذي لا يُغيّر حاله ولو تغيّرت الأحوال وتبدّلت.

وفي تفسير هذه الآية يورد أهل العلم قصةً من زمن نبينا صلى الله عليه وسلم تشعُرُ أن الآيات تصف حال صاحبها وإن لم تكن قصته سبباً في نزولها، وهي قصةٌ جاءت في كتب السِّيَر وغيرها من كتب الحديث، وفيها أنه كان قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من ثَقِيف هو أُمَيَّةُ بن أبي الصلت، وكان شاعراً مشهوراً يقول الحكمة ويدعو الناس إلى الخيرات والإيمان بالبعث، وكان عنده علم كثير من شرائع اليهود والنصارى ودينهم ولكنه لم يجد النجاة فيهما، وكان قد رغب عن عبادة الأصنام وتزهد وكان حريصاً على الخير، وكان يخبر الناس أنه أظْلَمَهم زمنُ نبي، فلما خرج رسولنا عليه الصلاة والسلام بدعوته ووصلته آياتُ الله كَفَّرَ به حسداً؛ لأنه كان يرجو أن يكون هو النبي، ونكص على عقبيه وأبى أن يؤمن بنبيٍّ من غير قبيلة ثَقِيف، ولم ينتفع من علمه ومات على الكفر، وكان قد رثى أهل بدر من المشركين بشعرٍ بليغ بعد أن صار إلى موالاتهم ومعاداة المؤمنين.

وقد قال فيه صلى الله عليه وسلم كما أخرج البخاري: "وكاد أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت أن يُسلم"، بل كان صلى الله عليه وسلم يحب سماع شِعْره كما أخرج مسلم في صحيحه عن الشَّريِد بن عمرو رضي الله عنه، قال: "رَدَفْتُ⁸⁸ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: هل معك من شِعْر أُمَيَّة بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم، قال: هيه⁸⁹ ! فأنشدته بيتاً، فقال: هيه ! ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه ! حتى أنشدته مائة بيت".

أخيراً: يا أهل القرآن، أعطوا كتاب الله حقه فقد آتاكم الله ما لم يؤت غيركم، واصطفاكم لأمر عظيم فانتبهوا.

⁸⁸ يعني: جلست خلفه على الدابة.

⁸⁹ أصل هذه الكلمة: (إيه)، وهي كلمة يُؤتى بها للاستزادة من الكلام المعهود، وهي اسم فعل أمر، أي: زدني. والمقصود أن نبينا صلى الله عليه وسلم استحسّن شعره واستزاد من إنشاده؛ لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث.

ويا أهل العلم، لا تبيعوا آخرتكم من أجل أيام قليلة في هذه الدنيا، وانتفعوا من علمكم ما استطعتم، ولا تُهينوه فإنه عزمكم ورفعتمكم في الدنيا والآخرة. أخرج مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها ".

ويا أيها الدعاة والمجاهدون والعابدون المخلصون، امضوا في طريقكم بثبات وعزيمة، واعلموا أن ما تجدونه من تعب وألم إنما هو ثمنٌ لسلعة الله، وإن سلعة الله هي الجنة، وإن سلعة الله غالية.

{ فَاتَّبَعُهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ } سبحانه الله، كيف كان من الراشدين العاقلين، وكيف آتاه الله نعمةً يتمناها كثير من الناس، ولا يؤتيها ربي إلا من قرَّبه وخصَّه بأعالي النعم، ولكنه أطاع الشيطان وامثل له لما أتبعه، أي: لما استحوذ عليه، وغلبه على أمره، وراوده عن دينه وطاعته وعلمه، وتسلب عليه حتى خرج من حصن العلم والذكر واتباع الهدى والآيات، وخرج من حفظ الله وعونه، ووسوس له وتمكَّن منه حتى صرفه عن طريق الجادة، وحتى جعله من الغاوين الحائرين الضالين الذين منتهى أمرهم يكون في الهلاك ودار البوار وأسفل سافلين. قال الله تعالى: " وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ " [الزخرف: 36]، وقال سبحانه: " اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ " [المجادلة: 19].

وأخرج ابن حبان والبخاري في مسنده، بسند جوده بعض أهل العلم وحسنه آخرون، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ؛ حَتَّى إِذَا رُئِيَ بِهِجْتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْءًا لِلْإِسْلَامِ؛ غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، وَانْسَلَخَ مِنْهُ، وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ ⁹⁰. قال: قلت: يا نبي الله ! أيهما أولى بالشرك، المُرَّمِي أم الرَّمَاي ؟ قال: بل الرَّمَاي ".

⁹⁰ يعني: صار يُكْفَرُ الناس ويقول لجاره: أنت كافر.

- { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }
أخلد إلى الأرض، أي: ركن إلى زينة الدنيا، وسكن إلى نعيمها المُنْهَر، ومال إلى لذائذها وشهواتها المحرمة،

وغرّته وحالت بينه وبين أن يرفعه الله بآياته، ويكتب له الذكر الحسن في الدنيا، ثم أعلى الدرجات في الجنات غداً في الآخرة.

تُبَيِّنُ الآية أن الرفعة في الآخرة لا تكون إلا باتباع منهج الله والثبات عليه، وتبين أن اتباع الهوى يحول بين المسلم وبين فعل الخيرات وترك المنكرات، وتبين أن المكذبين بهذا الدين، وأن أعداء الدعوة والإصلاح، وأن الذين مالوا عن الحق إلى الباطل هم الخاسرون الأسفلون وإن رأيناهم في الدنيا في النعيم يتقلبون. قال الله تعالى: " لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسَ الْمِهَادُ " [آل عمران: 197].

إن مخالفة الهوى، والصبر عن المحرمات، والصبر على الطاعات مدعاة إلى الحياة الطيبة والسعادة الأبدية، ومفتاح لأن ترتقي النفس في مراتب الكمال وتُعصم من الشيطان الرجيم، وسبب عظيم من أسباب أن يكتب الله لنا الرفعة عنده، ويذكرنا في الملاء الأعلى، ويجزينا خير الجزاء، فتأملوا. قال الله تعالى: " وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ " [المؤمنون: 71]، وقال سبحانه: " وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى " [النازعات: 40-41].

{ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ } هنا تشبيه عجيب يحمل تنفيراً من حال من نكص على عقبيه، وترك الدين والهدى، وسار في طريق الضلال والحرام، حتى لقي الله على هذا الحال، فمثله كمثل الكلب في خِصَّةِ المنزلَة وانحطاط القدر.

انظروا إلى الكلب كيف يمدُّ لسانه ويلهث، سواء حَمَلَتْ عليه وطارَدَتْه وركضت خلفه، أو تَرَكْتَهُ ولم تحمل عليه، فكَذَلِكَ الْمُنْسَلَخُ من دينه وأحكام شريعته، يبقى على ضلاله بلا مبدأ أو عقيدة راسخة، سواء

دعوته إلى الإيمان ووعظته بكلام التقوى أو تركته. قال الله تعالى: " سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " [البقرة: 6].

جاء هذا التشبيه في حق الذي آتاه الله آياته، وعَلَّمَهُ من عِلْمِهِ حتى عاهد الله على أن يَأْتِمِرَ بأمره ونهيهِ، وأن يتبع النبي الذي اصطفاه الله وأرسله، ثم لما جاءه النبي بالبينات والهدى، وجاءه بالمعجزات التي تُثَبِّتُ صِدْقَهُ لم يؤمن به، وبقي على حالةٍ واحدةٍ من الانغماس في الكفر والحرام والسيئات، فكانت حالته شبيهة بالكلب الذي يبقى على حالة واحدة ويمدُّ لسانه ويلهث ويتسارع نَفْسُهُ، سواء كان يركض ويتعب أو كان جالسًا مستريحًا، وسواء طرده صاحبه وحمل عليه بالضرب، أو تركه في مكانه وادِّعَا آمِنًا؛ ما أقبحها من صورة !

واعلموا أن هذا المثل ليس وحيدًا في كتاب الله في حق من عمي وانتكس ولم ينتفع بالهدى، بل جاء تشبيه صنف من هؤلاء بالحمار الذي لا تنفعه كتب العلم والهدى التي على ظهره. قال الله تعالى: " مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " [الجمعة: 5].

{ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم، أخبر قومك عن حال من يموت على التكذيب بآيات الله وحُججه بعد أن علمها وسمعها، واقصص عليهم قصة هذا الرجل الذي كان في بني إسرائيل وما جاء في وصفه في القرآن الكريم، لعلمهم يتفكرون ويجذرون من أن يكونوا مثله ويشابهوه، ولعلمهم يهتدون ويُقبلون على هذا الدين العظيم.

قل لهم: أما كنتم تتمنون أن يُبعث فيكم رسول لتكونوا أهدى من اليهود ؟ أما كنتم تزعمون أنكم ستسبقون الأمم الأخرى لو أنزل عليكم كتابٌ من الله ؟ فقد جاءكم ما تتمنون، وهذه القصص في القرآن تنوع لتفكروا وتوفوا بعهدكم. قال الله تعالى: " وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا " [فاطر: 42-43].

فيا من نزل فيهم القرآن، ويا من علموا حال نبيهم صلى الله عليه وسلم وصدقته، ويا من اصطفاهم ربهم لتكون الرسالة فيهم، انصروا هذا النبي واتبعوه لعلكم تفلحون.

- { سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ } -

ما أشدَّ شناعته مِنْ مَثَلٍ يَوْمَ شَبَّهَ القرآن من كذب بآيات الله بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل الشهوة والأكلة، وهذا حال كل من ترك العلم والنور والهدى، ثم اتَّبَعَ هواه وأقبل على رفقة السوء وخصالهم وأعمالهم، فظلم نفسه ظلمًا عظيمًا بالكفر الذي اختاره وفضَّله على الإسلام، وكذلك ظلم نفسه بتعريضها لسخط الله وعقوبته وناره.

- { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } -

تأكيدٌ على أن مردَّ الأمر إلى الله، وأنه لا يكون في خلقه إلا ما قَدَّر، وأن العبد الذي اهتدى إنما اهتدى بأمر الله ومشيتته وتوفيقه، وأن العبد الذي أبى الهداية وسارع في الضلال والغواية، وفي طاعة هواه والشيطان، وأعرض عن طاعة الله والإيمان بالرسول والكتب، إنما هو محروم من توفيق الله له، وهو ممن خسر نفسه وأهله وآخرته خسرانًا لا ربح بعده ولا نجاة، ومن يضلل الله فلن تجد له وليًا مرشدًا. ومن تدبَّر هذا المعنى لم يطلب الهداية إلا من الله، ولم يستعن في طريقه إلى الجنة إلا بمن بيده قلوب العباد، مع علمه بأنه لن ينفعه إلا الصدق في ذلك.

إن التردد الذي يعيشه كثير من حولنا سببٌ لشقائهم وحرمانهم التوفيق، إذ كيف تترددون في إثبات البعث ومجيء اليوم الآخر، وفي تعظيم خالقكم ووحدانيته، وفي الإيمان بسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم وما جاء به من القرآن العظيم، أين عقولكم؟! وأين بصيرتكم؟! وأين نداء الفطرة الذي تجدونه في خلوتكم؟! أما أن لكم أن تنقدوا أنفسكم من الشقاء الذي يحاصركم؟! ومن الشقاء الذي ينتظركم؟! قال الله تعالى: " قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ " [الزمر: 15].

- { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }

نرى في حياتنا أصنافاً من الناس أغلقوا عقولهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم عن آيات الله التي تملأ الأنفس والآفاق، تلكم الآيات التي تدل على وحدانية الله وعظمته وحكمته وعلمه، والتي لا يملك واحدنا أمامها إلا أن يذلل للملك العزيز القهار الجبار، ولا يملك أمامها من قصر في جنبه وحقه إلا أن يفزع إلى واسع فضله وعطائه وكرمه وجوده.

هذه الأصناف وصل الحال ببعضها إلى أن تنكر وجود الله، ووصل الحال ببعضها الآخر إلى أن يفزع إلى الأصنام أو إلى البقر، أو إلى النار أو إلى الشمس ليعبدها على هواه ويكفر بالرسول والكتب، ومنها من أوغل في القتل والإجرام والظلم والشر.

هؤلاء جميعاً وغيرهم عرضت عليهم أبواب الهداية وأسبأها، عرضت عليهم في مواطن كثيرة وأزمان ممتدة، ولكنهم اختاروا طريق أهل النار، وعملوا بعمل أهلها حتى كان ذلك آخر عهدهم من الدنيا.

يقول الله هنا: { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ } أي: أنشأنا وبئنا وخلقنا، يعني: خلقنا للنار خلقاً يعملون بعمل أهلها، ويتقلبون في الكفر والشرك، ولا ينتفعون من حواسهم ونعم الله عليهم بشيء، كما أن الله تعالى خلق للجنة خلقاً ليسكنوها ويكونوا من أهلها، وينتفعوا من نعم الله عليهم بأن يصرفوها فيما يحب ويرضى.

خلق الله للنار أهلاً، وسبق علمه فيهم بما هو كائن منهم، وكتب مقاديرهم عنده قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء».

وأخرج مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم".

وانتبهوا إلى أن أهل النار ليسوا من الإنس من ذرية آدم فقط، ولكنهم يكونون كذلك من الجن من ذرية إبليس لعنه الله.

والجن من خَلَقَ الله الذين نؤمن بوجودهم، خلقهم ربنا قبل الإنس وكلّفهم كما كلّفنا، وجعل لهم عقول ومدارك، وجعل لهم قلوبًا وأعينًا وآذانًا وصوتًا، يَرَوْنَ ويسمعون ولهم لُغاب، ويأكلون ويشربون ويضحكون، ويتزاوجون ويتكاثرون، وينامون ويموتون كما دلت على ذلك كله النصوص الشرعية. وقد لقي نبينا عليه الصلاة والسلام الجن ودعاهم إلى الله، فكان منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، ومنهم الطائعون ومنهم العصاة، وهم على مراتب في صلاحهم وفسادهم كما دلت على ذلك سورة الجن والأحقاف وأحاديث متعددة.

والجن أصناف: منهم ريحٌ طيّارةٌ في الهواء، ومنهم من يسكن ويرحل، ومنهم من يتشكل على هيئة بني آدم، أو على هيئة بعض الحيوانات كالحية أو العقرب أو الكلب، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية أيضًا.

والجن لا يأتي بالمعجزات، ولا يتمثل بالرسول صلى الله عليه وسلم في الرؤيا، والمشركون منهم والشياطين ليس لهم سلطان على عباد الله الصالحين المخلصين، بل يخافون من بعض عباد الله ويهربون منهم، فالؤمن يقهر شيطانه ويذله بقوة توحيده وعمله الصالح.

قلت: ما أصعب لفظة (كثيرًا) هنا في الآية، والتي تدل على أن كثيرًا من الجن والإنس هم في النار، وأن الغفلة والجحود والنكران صفة كثير من الناس، وأن السعيد من وفقه الله ورزقه العلم والدين، وشرح صدره للطاعة حتى مات عليها، وجنبه الفتنة في الدين حتى كان من أهل الثبات. قال الله تعالى: "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ" [يوسف: 103].

{ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا }

انظروا وتأملوا كيف كان أهل النار في الدنيا، كيف أعطاهم الله الجوارح التي يقيمون بها حياتهم على أحسن حال، ويتعرفون بها على خالقهم ومكرمهم، ولكنهم عطّلوها إلا في متع أجسامهم ودنياهم، وإلا

فيما يقربهم من سخط الله وعقوبته. قال الله تعالى: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " [الحج: 46]، وقال سبحانه: " وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ " [الأحقاف: 26].

أعطاهم الله عقولاً يعقلون بها مراده من خلقهم، فيطيعونه لو أرادوا، ويتعلمون العلم ويعملون به، ويركون أنفسهم بالتوحيد والتعظيم، ويجتنبون المنكرات التي لا تأتي إلا بالشقاء، ويدركون أسباب التمكين والعزة، ويتفنون منها في التخطيط لهذه الدعوة الربانية والانتصار لها وحفظها من المتربصين بها، ويا ليتهم فعلوا ذلك.

ثم إن الله تعالى أعطاهم السمع ليسمعوا المواعظ ويتذكروا، ولينصتوا لكلام رب العالمين في القرآن العظيم فيسعدوا ويهتدوا، وليحضرُوا مجالس العلم وتحيا قلوبهم بالخير العظيم الذي فيها، ولكنهم عاندوا وكابروا. قال الله تعالى: " وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ " [الأنفال: 23].

ثم إن الله تعالى أعطاهم البصر ليُبصروا حجج الله وآياته وآلائه ويؤمنوا، ولينظروا في آثار الأمم التي سادت وبادت من قبلهم، ولكنهم خالفوا في ذلك كله وجحدوا. قال الله تعالى: " وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " [الأنعام: 25].

وحتى ننتفع من هذه الآية كمسلمين، ونحذر مما أرادت الآية أن تحذرنا منه، لا بد أن نقف مع جوارحنا وقفة محاسبة ومخالفة، محاسبة لما اقترفته ولا زالت تصرُّ عليه دون توبة، ومخالفة لما تبحث عنه من اللذة والنشوة وإن كانت فيما حرم الله.

يا أهل الغناء والمعازف والغيبة، قد أعطاكم الله آذاناً تنتفعون منها وبها، لتكون لكم حجة وذخراً بين يدي خالقها، ولتشهد لكم في الدار الآخرة بما يسرُّكم وينجيكم، فلا تُسكروها بسمع الحرام، ولا تطيعوها في اتباع ما تهوى.

ويا من تطلقون أبصاركم في مشاهد الفحش والرذيلة، والعلاقات الآثمة البغيضة، هل من توبة قبل أن تأتني جوارحنا وتشهد علينا ؟

وقيسوا على ذلك نعمة اللسان والعقل والقلب، كيف ينبغي أن تكون ؟ وما الذي يجدر بنا أن نشغلها به ؟

{ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ } بلغ بهم الحال من شدة غفلتهم، أنهم كانوا هم والأنعام سواءً، فهم يشتركون في عدم انتفاعهم من حواسهم إلا في متع أجسادهم ونزواتها، وفي أنهم لا ينظرون في ملكوت السماوات والأرض وما يُستدلُّ به على الخالق.

بل إن الإبل والبقر والغنم سبقتهم في طاعة الله، فقد خلقها ربنا لنفع الإنسان فأطاعت، والله خلقهم لعبادته فعصوا.

ثم إن الأنعام تُسَبِّح بحمد الله مصداقاً لقول الله تعالى: " وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا غُفُورًا " [الإسراء: 44]، بخلاف أهل الكفر الذين لا يعرفون تسبيحاً ولا تعظيماً.

بل إن الأنعام يكون مآلها إلى أن تصبح تراباً بعد أن يقضي الله بينها يوم القيامة، أما أهل الكفر فهم إلى عذاب سَرْمَدٍ أبديٍّ مُهين. قال الله تعالى: " أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا " [الفرقان: 44].

والأنعام السارحة ينادي عليها صاحبها وينعق بها وهي لا تفقه ما يقول ولا تعقل، ولكنها تسمع صياحه وصوته فقط، وقد تستجيب له، أما أهل الكفر الذين قلّدوا آباءهم واتبعوهم دون أن يفقهوا أو يفهموا، فقد سمعوا نداءات الأنبياء والصالحين والدعاة عليهم أن آمنوا، وعاشوا في الحياة الدنيا التي يدلك كل شيء فيها على الله، فلم يفتحوا قلوبهم ولا عقولهم، ولم يستجيبوا ويطيعوا. قال الله تعالى: " وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " [البقرة: 171].

{ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } هذا هو سبب مساواتهم بالأنعام، بل سبب تفضيل الأنعام عليهم، فإنهم بلغوا حد النهاية في الغفلة عما ينفعهم، وفي استعمال نعم الله عليهم في ضد مقصودها.

- { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } -

بيان من الله تعالى للمؤمنين الذين يحبون ربهم ويشتاقون إلى لقائه، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، بيان يحمل توجيهًا لهم في طريق عبوديتهم وطاعتهم، بيان فيه طريق من طرق مناجاة الله والتقرب إليه، وسبب من أسباب استجابة الدعاء وقبوله، ألا وهو دعاؤه بأسمائه الحسنى.

يجهل كثير من المسلمين أهمية العيش مع أسماء الله وصفاته، ويجهلون أثر فهمها وتدبرها على العبد في تعامله مع الطاعات ومع المعاصي ومع البلاء، بل ربما يغفلون عن علاقتها بخشية الله وحسن مراقبته والاستغناء به عما سواه، وعلاقتها بالشوق إلى لقاء الله وقوة الإيمان والثبات.

ولذلك ذكر غير واحد من أهل العلم أن العلم بأسماء الله وصفاته من أشرف العلوم لأنه متعلق بالرب جل وعلا، ومن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل الله جهل ما سواه. قال الله تعالى: " وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " [الحشر: 19].

ثم تأتي في هذا البيان إشارة لأفطع أحوال من يعملون بعمل أهل النار، الذين يشركون مع الله في ألوهيته ويقدمون فيها، ويجعلونها لغيره من معبوداتهم.

وفي هذا البيان تنبيه للمؤمنين على كيفية معاملة الغافلين عن كنز أسماء الله الحسنى، وما يلزمهم بُجَاه الضالين عن توحيد رب العالمين، الذين جعلوا لأصنامهم حظًا من معاني أسماء الله وجعلوها له نِدًّا، وكانوا يشاغبون في أسمائه سبحانه ويجادلون فيها، ويزعمون أن تعدد الأسماء يدل على تعدد المسمَّى، كما أنكروا اسم الرحمن وكذبوا به.

يا أهل الإيمان والتقوى ومحبة الله، ادعو الله بأسمائه ولا يكن في صدوركم حرج بسبب لغط أهل الشرك، فإنها أسماء سَمَى الله بها نفسه.

هذه الآية فيها مسائل ومواعظ وهدايات، أذكرها في نقاط:

1- كل أسماء الله وصفاته حُسْنَى، أي: هي حسان في غاية الحُسْن فلا أحسن منها، ولا أكمل منها، ولا يقوم غيرها مقامها، وهي تدل على كماله وعظمته سبحانه فلا تجد فيها نقصًا أو خللاً، بل فيها أحسن المعاني وأشرفها وأجلها قَدْرًا وتمجيدًا، فالرحمن يرحم عباده في الدنيا والآخرة، والكريم يكرمهم، والرزاق يرزقهم، وهكذا. قال الله تعالى: " قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى " [الإسراء: 110]، وقال سبحانه: " اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى " [طه: 8].

2- أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة "، ومعنى أحصاها، أي: تَبَعَّها وجمعها، ثم فهم معانيها وتدبرها، ثم حفظها، ثم عمل بمقتضاها، وأثنى على الله ودعاه وسأله بها، وقد جعل غير واحد من العلماء تبليغها في الناس ونشرها ومعانيها من إحصائها؛ كل من فعل ذلك كانت له جنة الله التي هي دار السعادة، ومدار النجاة والفلاح، ومنتهى سؤل المؤمن، ومحط رجائه.

3- لقائل أن يقول: وهل أسماء الله تسعة وتسعون فقط أم يوجد غيرها ؟ والجواب أن أسماء الله ليست تسعة وتسعين فقط، بل هي أكثر من ذلك بكثير، فأسماء ربنا العظيم منها ما عَلِمْنَاهُ مما أنزله في كتابه، أو أوحى به إلى أنبيائه، ومنها ما أظهره لملائكته ومن يشاء من خلقه ولم يُظهره لعباده، ومنها ما استأثر به في الغيب عنده وحجبه عن خلقه مما لا يعلمه مَلَكٌ ولا نبي ولا بشر، لا إله إلا هو ما أعظمه.

وقد دلَّ على ذلك ما أخرجه أحمد والبخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما قال عبدٌ قطُّ إذا أصابه همٌّ وحزنٌ: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكْمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همِّي، إلا أذهب الله عز وجل همَّه، وأبدله مكان حزنه فرحًا "، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟، قال: " أجل، ينبغي لمن سمِعَهُنَّ أن يتعلمهنَّ ".

وأخرج البخاري ومسلم في حديث الشفاعة، واللفظ لمسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعد أن يأتيه الناس في أرض المحشر ليشفع لهم: " أنا لها، قال: فأنتلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يُلْهِمُنِيهِ الله، ثم أخِرُّ له ساجدًا، فيُقال لي: يا محمد، ارفع

رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعطه، واشفع تُشفع ". وهذه المحامد تكون في أسماء الله وصفاته، وعليه، يكون معنى الحديث الذي تقدم أن من أحصى هذه التسعة وتسعين بخصوصها كانت له الجنة، وليس المقصود جميع أسمائه جل جلاله.

4- ولقائل أن يقول: وهل هذه الأسماء معلومة ومعروفة ومنصوص عليها، أم تحتاج لاجتهاد واستفراغ وسع في إحصائها؟

والجواب أنها موجودة في نصوص الشرع من الكتاب والسنة، وقد اتفق أكثر أهل العلم على أكثر هذه الأسماء، واختلفوا في قليل منها، وقد جاء فيها حديث في سنده كلام، يعني: لا يصح عند المحدثين، ونص بعضهم على أن الأسماء التي فيه إنما هي من جمع أحد الرواة وليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك اجتهد جمع من أهل العلم في استخراج هذه الأسماء من النصوص الشرعية.

أما الحديث الذي أتكلم عنه فهو ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة غير واحد، من أحصاها دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور الغفار القهار، الوهاب الرزاق الفتاح العليم، القابض الباسط الخافض الرفع المعز المذل، السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير، الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير، الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم، الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد، الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين، الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت، الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقدر، المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن، الوالي المتعالي البتر التواب المنتقم الغفور الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، المقسط الجامع الغني المغني، المانع الضار النافع النور الهادي البديع، الباقي الوارث الرشيد الصبور ».

ولعلكم لاحظتم أن هذه الأسماء مأخوذة من كتاب الله بالجملة، وأن فيها أسماءً بين أهل العلم أنها ليست من أسماء الله، وإنما جاءت في كلام ربنا في معرض بيان صفات الله وأفعاله.

5- اعلّموا أن الواحد منا مهما أثنى على الله تعالى بأسمائه وصفاته فإنه يبقى مُقَصِّراً، ومهما عظم ربه بلسانه واختلطت هذه العظمة بقلبه فإنه يبقى مفتقراً إلى أن يستغني بالله أكثر وأكثر.

أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: " فَقَدْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً من الفراش فالتَمَسْتُه، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان، وهو يقول: اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ".

يعني: يقول: أنا يا رب لا أحسن ولا أطيق ولا أقدر على تمام شكرك والثناء عليك بما أنت أهله، إلا كما علمتني وهديتني إلى ما أقول، وإلا كما أثنيت أنت على نفسك مما لا أعلمه.

وكما أن الله جل جلاله لا نهاية لصفاته وسلطانه وعظمته ومجده وعزته وجليل أوصافه، ولا نهاية لكمالهِ وصَمَدِيَّتِهِ وَفُتُووسِيَّتِهِ وكبريائه وجبروته، فكذلك لا نهاية للثناء عليه بأسمائه وصفاته، فكل ثناء أُثني عليه به وإن كثر وطال فَقَدَرُهُ تعالى أعظم، وسلطانه أعزُّ، وأوصافه أكبر وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع. قال الله تعالى: " هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " [الحشر: 22-24].

6- المقصود بدعاء الله بها كما أرشد إليه قول الله وعَلَّم، هو النداء على الله بأسمائه التي تدل على صفات كماله، كما تقول: اغفر لي وارحمي إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم، ويا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

أخرج أحمد والترمذي وغيرهما عن بُرَيْدَةَ الأسلمي رضي الله عنه، قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو وهو يقول: « اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »، فقال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى ».

ومن أهل العلم من قال: ومن أنواع دعاء الله بها أن تثني على الله بها، وتعظمه بها، وتذكره بها، كما أشار إلى ذلك الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه، قال: سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " أَلِظُوا يَبْنَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ". أي: أقسموا على الله وأحُوا عليه، وسلوه بهذه العبارة وواظبوا على المسألة بها.

والدعاء بها هو أحد مراتب إحصائها كما تقدم معنا فيمن أحصى تسعة وتسعين اسمًا من أسماء الله تعالى.

7- بيّن أهل العلم أن التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته أحد أنواع ثلاثية من التوسل جاءت الأدلة الشرعية بجوازها، أما الثاني فهو التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح كما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم صخرة وأغلقت عليهم باب كهفهم، فلما أيقنوا بالهلاك جعل كل واحد منهم يتذكر عملاً صالحاً له، كان خالصاً لوجه الله الكريم، ثم يدعو الله به، فكان كلما دعا واحد منهم انفرجت الصخرة حتى خرجوا جميعاً ونجوا.

أما الثالث فهو التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح، وهذا معلوم ومعهود عن الصحابة الذين كانوا إذا احتبس عنهم المطر وأقحطوا، طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم، فيدعو فيُسقون، وكذا فعل سيدنا عمر رضي الله عنه في زمنه لما توسلوا إلى الله تعالى بدعاء العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عن العباس لما احتبس عنهم المطر.

{ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } أول من أُلْحِدَ في أسماء الله مشركو العرب، يوم سَمَّوا أصنامهم بأسماء الله واشتقوا تسمية الأصنام منها، كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا.

والإلحاد في لغة العرب هو الانحراف والميل والعُدول عن وسط الشيء إلى جانبه، وهو ما كان من المشركين لما عدلوا بأسماء الله إلى أوثانهم الباطلة.

ومعلوم لديكم أن إلحادهم هذا يعني أن قلوبهم امتلأت بتعظيم هذه الأصنام، وأنهم نسبوا إليها ما لا ينبغي أن يُنسب إلا إلى الله الواحد الأحد، الخالق القادر المحيي المميت، وأنهم عدلوا بأسماء الله ومعانيها عما يليق بها.

بل وصل الحال بهم إلى أنهم ظنوا أن الله لا يسمع كلامهم جميعاً، ولا يعلم أعمالهم جميعاً، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: اجتمع عند البيت قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيَّ، كثيرةٌ شَحْمٌ بطونهم، قليلةٌ فقهٌ قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر: يسمع إن جَهَرْنَا، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى: " وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ " [فصلت: 22-23].

بل وصل الحال بهم إلى إنكار اسم الرحمن، وإنكار نسبته لله جل وعلا، كما دل على ذلك قول الله: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا " [الفرقان: 60].

ومن الطوائف التي أحدثت في أسماء الله اليهود والنصارى، فاليهود وصفوا الله تعالى بصفات النقص، وأطلقوا عليه ألفاظاً نعوذ بالله منها ومن لوازمها، كما قالوا عن الله بأنه فقير، وأن يده مغلولة، وأنه استراح بعد أن خلق الخلق، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وأما النصارى فقد سمو ربنا وخالقنا أباً، وجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومن الذين ألدوا في أسماء الله أقوام أنكروا معانيها وصرفوها عن دلائلها، وعطلوها عن مراد الله بها كما فعلت بعض فرق الضلال من المسلمين.

أما المسلمون المعظّمون لخالقهم، فقد أثبتوا لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثبتته لنفسه في محكم التنزيل، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم دون زيادة أو نقصان، أثبتوها بمعانيها ودلائلها دون تمثيل أو تعطيل، فالله يرحم ولكن ليس كرحمة المخلوق، ويغضب ولكن ليس كغضب المخلوق، واستوى على عرشه ولكن ليس كاستواء الملوك المخلوقين على عروشهم، فالله ربنا لا نضرب له الأمثال وليس كمثله شيء، سبحانه.

والمسلمون المؤمنون استجابوا لأمر الله في الآية هنا، والذي قال لهم: { وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } ، أي: اتركوهم واهجروهم ولا تقلدوهم، ولا تصغوا لكلامهم الذي يريدون فتنكم به، ولا تكثرُوا من مجادلتهم فهؤلاء ليسوا أهل حق، ولا يطلبونه ولا يحرصون عليه.

{ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ثم جاء بيان سبب الأمر بتركهم والإعراض عنهم، وهو أنه ينتظر كلٌّ من أُلحد في أسماء الله وعيدٌ يوم القيامة، وينتظرهم جزاء يليق باعتدائهم على مقام الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وقد يجزيهم ربحهم بسوء صنيعهم في الدنيا قبل الآخرة. قال الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " [فصلت: 40].

- { وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } -

هنا آية من آيات الثناء على الأمة المحمدية، أمة العلم والعمل، أمة الاستجابة والمصارعة في إقامة دين الله كما أمر، أمة تعظيم الله في أسمائه وصفاته كما يحب ويرضى.

ثناء يأتي بعد بيان ضلال أهل الشرك وعنادهم، وبعد الأمر بالإعراض عنهم، ثناء يحمل بُشرى للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان، ويطمئن قلبهم بأن أهل الخير باقون فيهم، وناصرون لهم، ومرابطون على ثغور الأمة الجهادية والعلمية، فلا تحزنوا من إعراض المعرضين وكيد المجرمين.

يقول الله تعالى هنا: ولقد خلقنا من بين الأمم أمةً قائمة بالحق، تُبَيِّنُهُ وتدلُّ عليه وتدعو إليه، وكذا تعدل به، أي: تقضي بالحق وتعمل به، ولا تجور في الأموال والدماء والحقوق، ولا تتبع الهوى.

ومعلوم لديكم أن الله تعالى وصف طائفة من قوم موسى عليه السلام كانت قائمة بالحق، كما مرَّ معنا في تفسير قول الله تعالى: " وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ " [الأعراف: 159]، وكذا الأمر في قوم عيسى عليه السلام الذين جاء في حقهم قوله سبحانه: " مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ " [المائدة: 66].

أخرج مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم صلى الله

عليه وسلم فيقول أميرهم: تعالَ صَلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعضٍ أمراء، تكرمة الله هذه الأمة «. قال الإمام النووي: " ويُحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين؛ منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض ".

- { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ }

يستدرجهم ربنا من حيث لا يعلمون، أي: يفتح الدنيا على الذين كذبوا بآياته، ويعطيهم من واسع فضله ولا يعجل لهم العقوبة، ويؤتيهم من نعمة المال والولد والعافية والقوة، مع أنهم مجرمون ومعاندون وصادون عن دين الله.

يفتح عليهم أبواب كل شيء لعل تتابع النعم عليهم يُحدث في قلوبهم حياء من المنعم، ولعل نفوسهم تَطْهَر فيحمدوا خالقهم ويوحده في اعتقادهم وعبادتهم.

ولكن هؤلاء المكذبين لا يؤمنون ولا يشكرون غالبًا، بل يصيبهم الفخر والبطر بالنعمة مع نسيان المنعم، ويظنون أنهم قادرون على كل شيء، فينزل بهم بأس الله فجأة وهم مقيمون على الكفر، وتأتيهم عقوبته في الدنيا على حين غفلة، فلا يُنظَرُون ولا يُمْتَلَهُون ليتوبوا أو يرجعوا.

هنا فائدة لا تفوتكم، وهي ما ينبغي أن يكون عليه حال السائرين إلى الله من الحذر، ومن ضرورة الانتفاع من جميع الحوادث المفرحة والمؤلمة، ومن دوام مجاهدة النفس وعدم الاغترار بالنعمة، فالمؤمن إذا رأى رزق الله متتابعًا عليه أقبل على المنعم، وسأله الثبات على طاعته، وحرص على أن يكون في ديوان الصادقين معه الشاكرين لأنعمه.

وكأن الآية تقول لنا: إذا رأيت الله يوسع عليك وأنت مقيم على المعاصي فاحذر أن يكون استدراجًا لسوء خاتمة وغضب من الرب العظيم، وإذا رأيت الله يضيق عليك فاعلم أنه يدعوك إلى التوبة من ذنب، أو يُدَبِّرُ لك، وتدبيره خير من تدبيرك.

أخرج أحمد بسند حسن عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَةٍ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ " [سورة الأنعام: 44].

وهنا فائدة أخرى لا تفوتكم، وهي أنه لا يغرنكم تقلب الذين كفروا في البلاد بما رزقهم الله من جمال ومال وذرية وقوة، ولكن خذوا العبرة كما علمكم ربكم في قوله تعالى: " أَيْخَسِبُونَ أَنَّمَا مُنِّدُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ (55) تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ " [المؤمنون: 55-56]، وقال سبحانه: " فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ " [التوبة: 55].

اغترَّ كفار قريش بقوتهم وكثرتهم مع قلة المؤمنين، وبالغوا في عداوتهم لدعوة الإسلام وحاملها إليهم محمد صلى الله عليه وسلم، فأتاهم الله من حيث لا يحتسبون، ونصر نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم، ومكَّن لهم في الأرض وأورثهم ديارهم، وكُسرت شوكة الضالين المضلين. قال الله تعالى: " فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ هَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ " [القلم: 44-45].

أقول: خذوا العبرة وأعدوا لأعدائكم من أهل الكفر ما استطعتم من قوة، واستعينوا بالله عليهم، واصبروا وصابروا وامضوا في ثباتكم أمام تسلطهم وأذيتهم وشَرِّهم.

- { وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } -

تأملوا كيف يُمَدُّ الله في أعمار الذين يكفرون به وبدينه، والذين يسومون أوليائه سوء العذاب، وتأملوا كيف يُمْلِي لهم، أي: يمهّلهم في الحياة ولا يهلكهم ولا يعاجلهم بالعقوبة، وما ذاك إلا ليزدادوا إثماً إلى آثامهم، وشَرّاً إلى شرورهم لتتضاعف عليهم العقوبة، ثم إذا أخذهم كان أخذه أليماً مُهيناً، وكان انتقامه منهم انتقام عزيز مقتدر، وكان كيده بهم متيناً، أي: قوياً شديداً مُحْكَمًا. قال الله تعالى: " وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا يُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا مُلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ " [آل عمران: 44].

[178]، وأخرج البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته ". قال: ثم قرأ: " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " [هود: 102].

- { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ }

يدعو ربُّنا أهل مكة والعرب لأن يتفكروا ليهتدوا، يتفكروا في آيات الله، ويتفكروا في صاحبهم الذي نشأ فيهم وبينهم، ويعرفون خصاله جيدًا، ويعرفون أنه النبي الأمي الصادق الأمين الذي ما جرَّبوا عليه في حياته كذبًا ولا خيانة.

محمد صلى الله عليه وسلم ليس به حِنَّةٌ، أي: ليس به جنون أو حَبَل، وقد كان أهل الكفر يفترون عليه ويرمون به بأوصاف تُسقط نبوته وما جاء به من عند الله، وتُسقط هيئته بين القبائل والناس، وخابوا وخسئوا، كقولهم: إنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو مجنون لأنه يدَّعي أنه مُرسل من الله. قال الله تعالى: " وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ " [الحجر: 6]، وقال سبحانه: " ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ " [الدخان: 14].

وقد بين لنا القرآن العظيم أن كثيرًا من الأمم السابقة كانت ترمي رسلها بالجنون، كما دل على ذلك قول الله تعالى: " كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ " [الذاريات: 52]، وهذه الفرية سببها بزعمهم أنه لا يمكن أن يخصهم الله بالوحي وهم بشر مثلهم مثل غيرهم، ثم هم يأتون بعجائب لا يقبلها العقل بزعمهم كعقيدة البعث بعد الموت، ورجعة الأرواح إلى الأبدان بعد مفارقتها، وعقيدة التوحيد التي تعني هجران آلهتهم التي اعتادوا عليها وورثوها، وهي التي ستشفع لهم وتقربهم من الله.

انتبهوا يا أهل الكفر ولا تفتروا على نبي الله الكذب، واحذروا استدراج الله لكم وأفيقوا، وانظروا في أخلاق هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وانظروا في صفاته ورجاحة عقله وعلمه وحكمته ورحمته وأمانته وصدقه، وانظروا فيما دعا إليه مما يوافق العقل والفطرة، من الأمر بكل خير والنهي عن كل شر، وانظروا في سيرته الشريفة الزكية الطاهرة التي تعلمون، فأين الجنون وعلاماته إن كنتم تعقلون؟! قال الله تعالى: "

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (69)
 أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ " [المؤمنون: 68-70]، وقال سبحانه: "
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرَقٍ إِنَّا لَنُفِئُكُمْ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفَتَرَى
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ " [سبأ: 7-8].

{ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ } هو رسول الله حقًا وصدقًا لمن كان له قلب يعقل به، وهو منذر ومخوفٌ
 للناس جميعًا من عذاب الله وعقوبته وبطشه، وناصحٌ ومحدِّثٌ لهم من موقفهم بين يدي العظيم للحساب،
 والجنون بعيد عنه بُعد المشرقين مما تعلمونه في قرارة أنفسكم أيها المجرمون، فلا تتظاهروا بالغباوة فيما
 تقولون، ولا تكابروا وتعاقدوا وتوغلوا في طريق الضالين. قال الله تعالى: " قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ
 تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ وَمَا تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ "
 [سبأ: 46]، وقال سبحانه: " وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ " [التكوير: 22].

- { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
 أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ }
 ما أعجب أمر الذين كذبوا بآيات الله وصدوا عنها، وكفروا بالنبي والمعجزات التي جاءهم بها ! ألم يُعملوا

عقولهم وفكرهم في مُلك الله وسلطانه في خَلقه ؟ ألم يتأملوا كيف رفع السماء بلا عمد وجعل النجوم
 فيها ؟ ألم ينظروا في عجائب الأرض وجبالها وسهولها وزرعها وثمرها ؟ ألا يكفي هذا لهدايتهم ؟!

{ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ } يا أهل الكفر، لقد خلق الله في السماوات والأرض أشياء كثيرة لا يسع
 صاحب العقل السليم المتدبر فيها، إلا أن يعتبر ويخضع لمن له الدين الخالص، المنعم القدير الحكيم، وإلا
 أن يُصدِّق ويؤمن ويتبرأ من الأنداد والأصنام والشركاء. قال الله تعالى في وصف حالهم: " وَعَجِبُوا أَنْ

جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ " [ص: 4-5].

{ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ } احذروا أن يكون أجلكم قد اقترب، وأجلهم هو موتهم وهم مقيمون على الكفر، وهذا الأجل يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، وقد يكون عذاباً من عند الله يصيبهم في الدنيا قبل أن يُقبلوا على الدار الآخرة ويعيشوا أهوالها، وقبل أن يخلدوا في النار.

تهديد ووعد لهم بتذكيرهم بأنهم لا يعلمون متى يأتي الموت، أو متى يأتي عذاب الله وينتهي الأجل، فالعاقل لا يستخف بما ينتظره، ولا يتهاون في استعداده، ولا يترك مصيره الأبدي من أجل شهوة عابرة ودنيا فانية.

{ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } الحديث هنا هو ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن من بيان آيات الله وعظمته، ومن التخويف والترهيب، ومن التبشير والترغيب، يقول الله عنهم: إذا لم يصدقوا بكل هذه الآيات والمعجزات الباهرات، فما الذي يحتاجونه ليُصدِّقوا؟! وما الذي صدِّقوه من أحاديث المفترين والدجالين فأذهب عقولهم وغيبها في ظلمات الجهل والتقليد والعناد؟! قال الله تعالى: " تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ " [الجاثية: 6].

قلت: وفي أيامنا أخذت شرائع أهل الكفر عقول أبناء المسلمين والقائمين على أمرهم لتكون دستوراً لهم، واستبدلوها بحكم الله وأمره ونهيه، وزعموا زوراً وبهتاناً أن فيها خيراً كثيراً لأمة الإسلام وأهله.

ومنهم من آمن بمبادئهم ومعالم تفكيرهم التي تقترب من الإلحاد والكفر أحياناً، ثم هو يقلدهم في عاداتهم وهيئاتهم وطريقة حياتهم، ويدافع عنها ويزعم أنها رمز الحضارة والتطور والرفق، لسان حاله: أواليهم ولا أتبرأ منهم.

أيها المسارعون في أهل الكفر تخافونهم وترجونهم، وتحكمون بقوانينهم وتتركون شريعة أحكم الحاكمين، تريدون بذلك رضاهم وتحصيل شيء من رزق الدنيا الذي يُلقونه إليكم على ذلة، هلاً أفقتم من

غفلتكم، وأعملتكم حكم الله في شعوبكم وبلادكم، وأرضيتكم من بيده خزائن السماوات والأرض، فوالله الذي لا إله إلا هو لتأكلن ما وعدكم ربكم به، وليوسعن الله عليكم في أرزاقكم، وليفيضن عليكم من بركات السماء والأرض. قال الله تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " [الأعراف: 96].

- { مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }

هذه قاعدة عظيمة في الخلق، تدل على أنه لا يكون في السماوات ولا في الأرض إلا ما أَرَادَهُ اللهُ وشاء واختاره، وعلى أن إرادة الله تعالى نافذة في خلقه على حسب علمه، فإن الله تعالى له صفات الكمال لا إله إلا هو.

صحيح أن العبد له إرادة واختيار ولكن إرادته لا تكون إلا بإذن الله ومشيئته، هؤلاء الذين اعتدوا على رسل الله وكتبه وما فيها من أحكام، ما كان لهم أن يفعلوا ذلك إلا بإرادة الله وعلمه، ولو أراد أن يمنعهم لمنعهم، ولكنهم اختاروا طريق الفتنة فتركها لهم، واستحبوا العمى على الهدى فزادهم ضلالاً، وتركهم في طغيانهم يعمهون، أي: متحيرين مترددين، لا يخرجون من حيرتهم ولا يبصرون الحق، فلا يحزنكم أمرهم كثيراً، واستعينوا بالله عليهم فإن الغلبة لكم. قال الله تعالى: " قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ " [يونس: 101].

هؤلاء، اطلع الله على فساد قلوبهم، وانعدام الخير فيها، وإصرارهم على الكفر والنفاق والتحريف والصد عن دين الله، فحرمهم هدايته وتوفيقه وفضله في الدنيا، وسيخزيهم بكشف حالهم، وهتك أسرارهم، وبيان كذبهم، وعلو أهل الله عليهم، ثم ينتظرهم في آخرتهم حساب عظيم، وعذاب مؤلم موجه أليم، نسأل الله العافية. قال الله تعالى: " وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ " [المائدة: 41].

- { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }

أفاضت سورة الأعراف بالإشارة إلى آيات الله في الأنفس والآفاق، واستطردت كثيراً بذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم، وحركت العقول والقلوب لعلها تُقبل وتُسرع فيما خلقها الله من أجله، ثم إنها أقامت الحجة بعد الحجة، والبيان بعد البيان للعالمين جميعاً، ثم بعد كل هذا تأتي هذه الآية في أواخر السورة لتخاطب قريشاً وكل من لا يؤمن باليوم الآخر في كل زمان ومكان، تخاطبهم لأن مشهد الإقبال على الله للحساب والجزاء هو الذي ينبغي أن يقض مضاجعهم، ويجعلهم يُعَدُّون عُدَّتَهُم من الإيمان والعمل الصالح.

يسألونك عن الأجل الذي ستنتهي فيه الحياة الدنيا ويموت فيه كل الناس، ثم يبعثون من قبورهم، ويقفون بين يدي العظيم للحساب حتى ينتهوا إلى دار خلودهم في الجنة أو النار، وهو الأجل الذي ينكره كفار قريش ومن حولهم.

كانت قريش تسأل عن اليوم الآخر ومتى يكون، كانت تفعل ذلك استهزاء وتهكماً وانتقاصاً، تفعله استبعاداً لوقوعه وتكذيباً بوجوده، تفعله تعجيزاً للنبي صلى الله عليه وسلم ومحاولَةً لبث الشك في قلب من حوله، تقول: متى مُرْسَاهَا؟ أي: متى تنتهي الدنيا وترسو وتستقر لتبدأ الرحلة إلى الدار الآخرة. قال الله تعالى عنهم: "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ" [النحل: 38]، وقال سبحانه: "وَيُقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ" [سبأ: 29-30].

هذا حال المكذبين بيوم القيامة معها، يُظهرون التحدي ويستعجلون مجيئه ولا يخافونه، بخلاف حال أهل الإيمان مع الدار الآخرة وأهوالها، فإننا نجد أنهم يخافونها ويعملون ليلهم ونهارهم لها، لعل الله أن يُهَوِّنَ عليهم في ذلك اليوم، وأن يرحمهم ويتجاوز عنهم ويدخلهم جنته. قال الله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ" [الشورى: 17-18].

{ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } قل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم للسائلين عن وقت مجيء الساعة: إن علم الساعة مما استأثر الله بعلمه، وقد جعل لهذا اليوم موعدًا مسمًى عنده، أي: لا يعلمه نبي ولا ولي ولا ملك ولا إنس ولا جن، كما قال سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ " [لقمان: 34].

فالله ربي هو الذي يجليها لوقتها، أي: هو الذي يعلم متى تكون على التحديد، وهو القادر على كشف وقتها المحدد عنده يوم يأذن بحصولها. قال الله تعالى: " يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا " [الأحزاب: 63].

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ كلامهم على محمل الجد ويجيبهم، مع أنهم يسألون لمقاصد خبيثة، وما ذاك إلا ليفهموا أنه نذير لهم بين يدي مجيئها وما فيها من أهوال وكفى، ولينقلهم إلى الانشغال بالعمل لها والخوف منها وترقب حصولها.

إن العمل والاستعداد لليوم الآخر هو ما يفقهه أهل الإيمان والتقوى، وهو ما كان صلى الله عليه وسلم يغرسه في نفوس أصحابه، وهو ما لا ينفع غيره، فتأملوا. أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: " بينما أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجين من المسجد، فلقينا رجلاً عند سُدَّةِ المسجد⁹¹ فقال: يا رسول الله متى الساعة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أعددت لها ؟ قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله ما أعددتُ لها كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله قال: فأنت مع من أحببت "

{ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } إذا جاءت الساعة وقامت القيامة، كان مجيئها ثقيلاً وعظيماً وشديداً على أهل السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن لما يرونه من الأهوال والصعاب التي تحيط بهم؛ فالسماوات تنشق، والنجوم تتناثر، والشمس تُكْوَرُ، والأرض تتزلزل، والجبال تُسَيَّرُ، فضلاً عما ينتظرهم بعد ذلك من حساب. قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْهَا

⁹¹ أي: المظلة عند بابه، للوقاية من المطر والشمس. وقيل: الساحة أمامه.

تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " [الحج: 1-2]، وقال سبحانه: " إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا " [الإنسان: 27].

في هذا اليوم: تُسَجَّرُ البحار، ويقبض الله الأرض، وتنشق السماء وتنفطر، ويطويها ربنا جل وعلا، ويَحْشُرُ العبادَ جميعًا إلى أرض المحشر خُفَاءً غُرًّا غُرًّا⁹²، ثم يكسوهم بعد ذلك.

وفي هذا اليوم يَحْشُرُ الله أهل الكفر على وجوههم لا على أرجلهم، ويكونون عميًا وبكمًا وصُمًّا، وتعلوهم الذلة والصغار، وتتعدد حسراتهم، ويسمعون تغيظ النار عليهم وزفيرها.

أما أهل التوحيد الحق والعبودية الصادقة فإنهم لا يفزعون ولا يحزنون، وتربط الملائكة على قلوبهم يوم يخرجون من الأجداث إلى أرض المحشر.

أرض المحشر التي يُحْشَرُ فيها كل صاحب عقيدة أو عمل مع من هو مثله، وتتطاير الصحف، وتُسَعَّرُ النار، وتُقَرَّبُ الجنة وتُخْرَجُ ريحها وتنتشر.

أرض المحشر التي يقف الناس فيها خمسين ألف سنة قبل أن يبدأ الحساب، وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق، ويكون العرق إليهم بحسب ذنوبهم.

هناك وفي تلك اللحظات، تكون أصناف من أهل الإيمان في ظل الله، منهم الإمام العادل، والشاب الذي نشأ في عبادة ربه، والذي تعلق قلبه في المساجد، والمتحابين في الله، وكذا من قَدَّمَ الخوف من الله على الوقوع في الزنا، ومن أخلص لله في صدقته، والباقي في خلوته من خشية الله.

وفيه يلقي النبي صلى الله عليه وسلم أهل الإيمان على حوضه، ويشربون من الحوض شربة ماء لا يظمؤون بعدها أبدًا، ويبدأ الحساب بعد حصول الشفاعة العظمى، والتي ينال شرفها نبينا صلى الله عليه وسلم بعد اعتذار أنبياء الله عنها، ويأتي الله في ظلل من الغمام إلى أرض المحشر للفصل بين العباد وحسابهم، فإلهم سلِّم وأكِّرم واكتب لنا من واسع فضلك ورحمتك.

في هذا اليوم: تشهد الجوارح على صاحبها بسوء فعله، ويسأل الله أهل الرياء عن نياتهم في أعمال الخير.

⁹² أي: غير مختونين.

واعلموا أن من أصناف المؤمنين التي لها عذاب يخصصها في أرض المحشر: من لا يزكي ماله، والمتكبرون، وأكثرهم شُبْعًا في الدنيا⁹³، والغادر، والذي يسرق من الغنيمة والمال العام.

وكذلك غاصب الأرض، وذو الوجهين، والحاكم الذي يحتجب عن رعيته، ومن طلب مال الناس استكثارًا، ومن يبصق اتجاه قبلته، والكاذب في حلمه.

وفي هذا اليوم الثقيل تحدون أصنافًا لا ينظر الله إليها ولا يكلمها ولا يزكيها، ولها عذاب أليم: الذين يكتُمون شرع الله، والمسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان، والمنع لابن السبيل من فضل مائه، ومن بايع إمامًا لدنيا، والشيخ الزاني، والمملك الكذاب، والفقير المستكبر، وكذا العاق لوالديه، والمرأة المتشبهة بالرجال، والديوث، ومن أتى امرأته في دبرها.

ومن أحوال المؤمنين التي تسره في هذا اليوم أن الله تعالى يخص أصنافًا بفضله، منهم: من أعان أخاه المؤمن وسعى في حاجته، أو نفس عنه كَرَبًا أو ستره، وكذا من يسر على معسر فأَنْظَره أو سامحه، وكذا الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، والشهداء والمرابطون، والكاظمون غيظهم، والمعتقون للرقاب.

ومن أصناف المؤمنين الذين يخصصهم الله بفضله يوم القيامة: المؤذنون، ومن شاب في سبيل دينه ودعوته، وأهل الوضوء، ومن كان سببًا في حفظ ولده للقرآن، والمشائون في الظلمات إلى الصلاة.

في هذا اليوم: يأخذ أهل الإيمان كتبهم في أرض المحشر بأيمانهم، ويأخذ أهل الكفر والنفاق كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم، ويأذن الله بقراءة ما في الكتب، ويوقن أصحابها أن الله لم يظلمهم شيئًا بعد سؤالهم.

{ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَعْتَةٌ } تأتي الساعة على حين غفلة من الناس، وهم منشغلون بأحوالهم في الدنيا، وهم يعيشون مع الأمل بالقادم وما يحتاجه مستقبلهم ومستقبل عيالهم وأهليهم، وهم يتكادمون على الدنيا ونعيمها. أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين: " لَا يَنْفَعُ

⁹³ أي: الذي يسرف في الشبع من الطعام والشراب، حتى يفضي ذلك به إلى الكسل والنوم الطويل، وإلى التقصير في الواجبات والتفريط في الصالحات.

نَفْسًا لِّإِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا " [الأنعام: 158]، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقخته⁹⁴ فلا يطعمهما، ولتقومن الساعة وهو يُلِيطُ⁹⁵ حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها ".

وكأن الآية تنادي عليهم وتقول لهم: هل ستبقون على كفركم وشرككم ونفاقكم وعنادكم حتى تفجأكم الساعة؟! هل ستبقون على إنكار البينات والمعجزات وجحد الشريعة الصافية النقية المنجية حتى يأتيكم يوم القيامة في مشهد الفصل بين الأولين والآخرين، في مشهد مجازاة كلِّ بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر؟! هل ستموتون على عقيدتكم الباطلة حتى تلقوا ربكم ويأتيكم ليحاسبكم؟! يوم يكون الأمر قد قُضي، فلا ينفع إيمان ولا ندم، وليس ثمة رجوع إلى الدنيا، وليس ثمة فدية أو شفاعة إلا لمن أذن له العظيم ورضي عنه وعن المشفوع له، فاستقيموا وادخلوا في الإسلام وأقيموا الدين. قال الله تعالى: " هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ " [البقرة: 210]، وقال سبحانه: " كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي " [الفجر: 21-24].

ومن رحمة الله بالعباد أنه جعل لقيام الساعة علامات وأمارات ليزداد استعدادهم لها، وليحذروا من إصرارهم على الكفر والمعاصي، وإن كان قيامها على الناس في آخر الزمان يأتي بغتة وفجأة، كما قال ربنا: " فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا " [محمد: 18].

ومعلوم لديكم أن علامات الساعة متعددة، منها ما مضى، ومنها ما ننتظره، ومنها ما جعله العلماء علامة صغرى، ومنها ما جعلوه علامة كبرى.

ومن العلامات التي دَلَّتْ عليها الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة: بعثة رسولنا صلى الله عليه وسلم ووفاته، وكذا انشقاق القمر، وخروج نار من الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى، وقلة العلم وقبضه، وكثرة الجهل، وكثرة الزلازل، وتقارب الزمان، وخروج دَجَالين يدعون النبوة.

⁹⁴ هي الناقة الحلوب.

⁹⁵ يعني: يصلح ويطين.

ومن علامات الساعة كثرة الزنا، وكثرة شرب الخمر، وكثرة القتل، وقلة الرجال وكثرة النساء، وإسناد الأمر إلى غير أهله، وقلة الأمانة، وولادة الأمة ربّتها، وتطاول الأعراب في البنيان، واستفاضة المال، وتسليم الخاصة⁹⁶، وفشو التجارة، وقطع الأرحام.

ومنها كذلك عودة جزيرة العرب جنّات وأنهارًا، وانحسارُ الفرات عن جبل من ذهب، وخروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، وفتنةُ الأحلاس⁹⁷، وفتنةُ الدّهماء⁹⁸.

وقد جاءت الأدلة كذلك تدل على أن الكعبة ستُهدم وسيُسلب حُلّيها على يد ذي السويقتين من الحبشة، وأن القرآن سيُرفع من الأرض إلى السماء فلا يبقى منه آية في سطر ولا صدر إلا رُفعت، وأن عبادة الأوثان سترجع.

ومن علامات الساعة فتح قسطنطينية، وحصول الملحمة الكبرى، وخروج المهدي، وخروج المسيح الدجال، ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم من السماء إلى الأرض، وخروج يأجوج ومأجوج، وانبعث دخان عظيم من السماء يغطي الناس ويعمهم، وطلوع الشمس من مغربها، وحينها يُغلق باب التوبة.

ومن علاماتها خروج دابة عظيمة تكلم الناس، وحصول ثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، ثم نار عظيمة تخرج من عدن في اليمن فتطرد الناس إلى محشرهم.

{ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا } أي: يأتون إليك ويسألونك كأنّ بينك وبينهم حفاوة، ويريدون منك بسبب هذه الحفاوة والقربة والصدقة والإكرام أن تُسرّ إليهم بموعدها، ويظنون أنك تعلم موعدها وتخفيه.

ومن أهل العلم من قال: يسألونك كأنك مستحف عن السؤال عنها، أي: مستغنٍ وغيرٍ مبال ولا حريص.

⁹⁶ أي: يقتصر في السلام على من يعرف.

⁹⁷ هي فتنة تكون بين الناس يكون فيها كرف في قتال بعضهم، ويكون فيها اعتداء على الأموال.

⁹⁸ وهي فتنة صعبة عظيمة تصيب الناس لا تترك منهم أحدًا، كلما ظن الناس أنها انقضت استمرت واشتدت.

ومن أهل العلم من قال: يسألونك هذا السؤال كأنك حفيٌّ مبالغٌ في سؤال ربك عنها، وكأنك أكثر من السؤال عن وقتها حتى علمته، ولا يدرون أن نبينا صلى الله عليه وسلم ليس كذلك من كمال علمه بالله جل جلاله، ولأنه يعلم أن الله أخفاها لحكمة عظيمة سبحانه وتعالى.

{ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } تأكيد على أن مَرَدَّ علم الساعة إنما هو إلى الله وحده لا إله إلا هو، وأن هذا الجواب لا يوجد غيره، ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون، وبه جاهلون. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان فأجابته، ثم قال له: متى الساعة؟ قال: " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ".

- { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله، وهو خير البشر وسيدهم، وهو الشافع المشفع، وهو القدوة والأسوة، والرحمة المهداة، وهو الذي اصطفاه الله من خلقه ليكون رسولاً للعالمين جميعاً، وليبلغ رسالة الله إلينا، وليدُلَّنَا عليه ويُعلمنا كل ما نحتاجه من أمور شريعتنا.

وهو عليه الصلاة والسلام خليل الله، وصاحب الخلق العظيم الذي زَكَّاه ربنا في محكم التنزيل، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وهو الذي نخبه أكثر من أنفسنا، ونكثر من الصلاة والسلام عليه، ونحب آل بيته وأصحابه، ونُحْيِي سيرته في الناس، ونَتَّبِعْ هديه وسنته كما أمرنا الله ربنا، ونفديه بأرواحنا وأموالنا وأبنائنا، وننصر دينه وشريعته ما حيينا.

أقول ذلك في حبه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، وأذْكُرْ به لأننا رأينا من طوائف المسلمين جفاء في محبته واتباعه، فلا يحرصون على سنته وهديه، بل قد يسخرون من بعضها، ولا ينصرونه أمام من

يسعى للانتقاص من قدره بشكل من الأشكال، بل يغضون الطرف عنه كأنَّ الأمر لا يعنيه، وهو ما رأينا في مواقف عدد من المحسوبين على أمتنا يوم سخرت الآلة الإعلامية من نبينا صلى الله عليه وسلم في عدد من دول الكفر.

وأقول ذلك في حبه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، لأننا رأينا على الطرف الآخر من بعضهم مظاهر للغلو في محبته، وخروجًا عن الفهم الصحيح في اتباعه، حتى وصل الحال ببعضهم إلى الاستغاثة به ودعائه من دون الله، وزعمهم بأنه يخرج من قبره ويقضي الحوائج، وأن النفع والضرر والمنع والعطاء بيده، وحتى نسب بعضهم صفاتٍ له لا ينبغي أن تكون إلا لله، وهذا واحد من مظاهر الافتتان بمن اصطفاهم ربنا لنبوته وولايته. أخرج أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أيها الناس عليكم بتقواكم، لا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبدُ الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ".

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما شاء الله وشئت، فقال: " جعلتني لله عِدلاً؟! بل ما شاء الله وحده ".

وهذا الغلو حدَّرت منه نصوص الشريعة في أكثر من موضع، بل أغلق صلى الله عليه وسلم بابه وهو يعيش بين أصحابه، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لا تُطْرُونِي كما أَطَرَتِ النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله ".

وأخرج أحمد وأبو داود واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قُبُري عيداً، وصلوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم ". وبعد هذه المقدمة أرجع بكم إلى الآية التي معنا، وإلى ما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم، فقد أمره أن يقول لمن يسأل عن الساعة وقيامها، ويسأل عن أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله: أنا لا أملك لنفسي أي نفع أو أي ضُرٍّ، وسيمضي فيَّ ما كتبه الله لي أو عليَّ، وسيمضي ما قدَّره يوم كتب مقادير الخلق، فأنا مثلكم أفوض أمري إليه، وأتوكل عليه وأرجو منه الرحمة والغفران. قال الله تعالى: " وَيَقُولُونَ

مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ " [يونس: 48-49].

قل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقومك، وقولوا أيها المؤمنون إخبارًا عن نبيكم وحببيكم: إن رسول الله لا يستطيع التصرف في هذا العالم، ولا يملك من علم الساعة وما ينفع وما يضر له ولغيره إلا ما علمه ربه، وليس له من الأمر شيء إلا ما أذن الله به وشاء، فلا يجوز ولا يقبل بحال من الأحوال أن يُتوجه إلى غير الله في طلب منفعة أو دفع مضرة. قال الله تعالى: " قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا " [الفتح: 11].

ونبينا صلى الله عليه وسلم عبدٌ لله يدعوه كما ندعوه، ويعلمنا من جوامع الكلم وأسباب الاستجابة ما ينفعنا في دعائنا. قال الله تعالى: " قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا " [الجن: 20-21].

{ وَلَوْ كُنْتُمْ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكُنْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ } واعلموا أنه ليس من خصائص النبوة علم الغيب، فلا تلازم بينهما، وليس للنبوة من خصائص الألوهية أو الربوبية شيء، ولا يطعن ذلك في هذا المقام العظيم الرفيع، فمقام النبوة ليس مثله مقام، وهو مقام تعليم وإرشاد وليس مقام خلق وإيجاد. قال الله تعالى: " قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ " [فصلت: 6]، وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: " ومن زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ " [النمل: 65].

قل لهم: وأنا لا أعلم الغيب إلا ما أذن الله لي به، وإلا ما أطلعني عليه، وأكبر دليل على ذلك أنه قد أصابني الضر والمكروه في حياتي من المرض والفقر كما يصيب كل البشر، بل أصابني أذيتكم وعداوتكم وسوؤكم وشركم، وقد يكون فاتني شيء من الخير والرزق والعلم كما يفوت الناس، ولو أنني أعلم ما في الغيب وأعلم رزقي وأجلي لما حصل كل ذلك معي، فاقدروا قدرتي الذي أعطانيه الله ولا تغلو فيما تطلبونه مني. قال الله تعالى: " قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ

إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ " [الأنعام: 50]، وقال سبحانه: " قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25) عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا (27) لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أُبْلِغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا " [الجن: 25-28].

أخرج البخاري عن الرُّبَيْعِ بنتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ رضي الله عنها، قالت: جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بُني عليّ⁹⁹، فجلس على فراشي كمجلسك مني¹⁰⁰، فجعلت جُويريَّاتٍ لنا يضربن بالدف ويندبن من قُتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غدٍ، فقال: " دعي هذا، وقولي بالذي كنت تقولين ".

{ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } إنما أنا عبد الله ورسوله، وأبلغكم ما أرسلت به إليكم، ورسالتي إليكم محصورة في النِّذَارَةِ والبِشَارَةِ، أي: أنذركم من عذاب الله وعقوبته وسخطه إن عصيتم، وأبين لكم ما حرمه عليكم وكرهه لكم، وأبشركم برضوانه وجنته إن أطعتم، وأبين لكم ما يحبه ويرضاه، وهذا ما لا يفقهه ويرتضيه إلا أهل الإيمان الذين تأملوا في دلائله فسارعوا فيه، والذين عرفوا قدر خالقهم، وعرفوا قدر نبيهم. قال الله تعالى: " فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا " [مريم: 97]، وقال سبحانه: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " [سبأ: 28].

ما أعظم نبينا وما أكرمته على الله ! وكيف لنا أن نفديه حقه وقد انتفعنا منه نفعا فاق نفع آبائنا وأمهاتنا، وإخواننا وخِلائنا، وقد دلنا على الله وصبر صبرا في دعوته تعجز عنه السماوات والأرض والجبال، وقد ابتلي في نفسه وماله وعرضه وأصحابه فما صدَّه ذلك عن هدايتنا إلى مرضاة ربنا، وهو الذي كانت دعوته لنا في الدنيا ودعوته غداً في الآخرة: " أمتي أمتي " ؟ فاللهم صل وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وغفل عنه الغافلون.

⁹⁹ وفي رواية ابن ماجه وغيره: " صبيحة عرسي ".
¹⁰⁰ تقول ذلك لخالد بن ذكوان الراوي عنها، والظاهر أنه كان مملوكا لها أو محرما عليها.

- { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ {

تعالوا أيها المؤمنون، وتعالوا يا أهل الكفر لأخبركم عن شيء من عظمة الله تعالى في خلق أنفسكم وفي وجود كل هؤلاء من البشر مما لا تعلمونه ولا حضرتوه، تعالوا لأذكركم بما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه. قال الله تعالى: " مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا " [الكهف: 51].

ربنا الواحد الأحد الفرد الصمد هو خالق كل شيء، وهو الذي خلق الناس جميعاً من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام، وذلك بعد أن خلق من ضلع¹⁰¹ آدم زوجته حواء عليها السلام. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء ".

ثم إن الله تعالى جعل من آدم وحواء عليهما السلام كل هذا العدد الهائل من البشر إلى زماننا، وإلى ما بعده، وهذه آية من آيات الله في الخلق تدل على عظمة الخالق وعلمه وحكمته، كيف أخرج سبحانه من نفس واحدة كل هذا التنوع والاختلاف بين الناس، فلا إله إلا هو. قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً " [النساء: 1]، وقال سبحانه: " وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ " [الأنعام: 98].

ولعلكم تذكرون في بدايات السورة كيف جاء ذكر قصة الخلق الأولى، وكيف حذرنا ربنا من عدونا الأكبر، وهو الشيطان الذي عصى وتمرد وطغى، وكيف توعدنا ليصرفنا عن توحيد الله ويأمرنا بالشرك وكشف العورات وعموم المحرمات، ثم جاءت الآيات في خواتيم السورة لتذكرنا بذلك، وتبين لنا بعض حيله وطرائقه في الإضلال.

¹⁰¹ أحد عظام الصدر.

خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيديه، وجعل له زوجته ليسكن إليها كما في الآية، أي: لتكون سبباً للألفة والرحمة والمودة والسكن، وليطمئن إليها ولا يجفو قُرْبَهَا.

وكأن الآية تقول لنا: لا ألفة أعظم ولا أجمل ولا أرقى من الألفة بين الزوجين، وليس هناك وطن يسكن الرجل إليه أقرب من وطن زوجته وحلاله.

وكأن الإنسان إذا بلغ السن الذي يحتاج فيه إلى الزواج بدأ يجد في نفسه نوع اضطراب لا يسكن ولا يهدأ إلا بالزواج. قال الله تعالى: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً " [الروم: 21].

قارنوا توجيه كلام الله للأزواج في علاقتهم مع بعضهم، بما تفعله المنظمات الدولية التي رفعت زوراً وبهتاناً شعارات حقوق المرأة وتمكينها وكفالة تطورها، والتي تنطلق من قاعدة العداوة والمنافسة بين الرجل والمرأة عموماً، وبين الزوجين خصوصاً، والتي طالبت بمساواة الرجل بالمرأة مُطلقاً أول الأمر، ثم شَرَّعت من القوانين والأنظمة ما يضمن استقواء المرأة على الرجل، ثم وصل الحال بها أخيراً إلى ترسيخ فكرة استغناء المرأة عن الرجل بالتمام، بل قدّمت الحياة الزوجية لأبنائنا وبناتنا على أنها حلقة صراع وضيق ونكد وتغيص، وساهمت بذلك في عزوفهم عن الحياة الأسرية وتأخير سن الزواج وقلة الإنجاب.

ومن هنا ندرك خطورة العبث بالأسرة والسعي في التفريق بين الزوج وزوجته، ونعلم لماذا يحرص الشيطان على ذلك، بل لماذا يلج السحرة في هذا الباب ويتعلمون فنونه، فالسحرة هم شركاء الشياطين، وهم يدركون خطورة التفريق بين ركني الأسرة وقوامها، وكيف يسهل عليهم بعد التفريق أن ينفثوا سمومهم ويضلوا أفراد الأسرة وأبناءها. قال الله تعالى عن السحرة: " فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ " [البقرة: 102].

وأخرج مسلم عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت ".

{ فَلَمَّا تَعَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ { أي: فلما وطئها وجامعها بعد أن سكن إليها حملت حملاً خفيفاً في أوله، فلا يعدو أن يكون نطفة ثم علقه ثم مضغة.

وقول الله تعالى: { فَمَرَّتْ بِهِ {، أي: فمضى هذا الحمل واستمر في مراحلها دون أن تشعر بثقله وألمه، وقامت وقعدت وتحركت وجنينها معها.

{ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ { ثم لما كبر جنينها وصار ثقيلاً في بطنها ومُتَعَبًا، توجه نبي الله آدم وأما حواء عليهما السلام بشفقة الوالدين إلى الله تعالى بالدعاء بأن يرزقهما ولدًا يكون صالحًا في دينه وسالمًا من أمراض الدنيا وآفاتهما، ونافعًا لهما، ثم أعطيا العهد والميثاق بأن يُحَسِّنَا في شكر الله على هذه النعمة لو حصلت، وأن يُخْلِصَا فيها ويخصَّاهما بشكر عظيم على قدر عظمتها.

- { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ {

أكثر أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت في نبي الله آدم وأما حواء عليهما السلام، وأن الشرك الذي فعلاه إنما كان في تسمية مولودهما الذي عاهدا ربنا أن يشكراه عليه، وذلك بعد أن وسوس لهما الشيطان مرة أخرى في الأرض بعد وسوسته في الجنة وإخراجهما منها.

أسوق إليكم تفصيل ما حصل كما أورده أهل التفسير بأسانيدهم في هذه الآية، وما رواه عن الصحابة والتابعين فيها، فقد نقلوا أن الشيطان طاف بآدم وحواء عليهما السلام لما حملت حملها الأول والثاني، وأنه جاء حواء لما أثقلت وخوفها وقتئذها، وأوهمها بأن جنينها سيولد من فمها أو من أنفها أو من عينها، وأنه سيموت إلا إذا أطاعته في التسمية، وطلب منهما أن يطيعاه ويسميا مولودهما عبد الحارث وإلا مات، والحارث هو اسم الشيطان لما كان في الملأ الأعلى قبل أن يُطرد من ملكوت السماء، فلم يطيعاه لا في الأولى ولا في الثانية، واستعاذ آدم بالله من طاعته وذَكَرَ زوجته بأنه هو من كان سببًا في معصيتهما ومصيبتهما في الجنة.

سمى سيدنا آدم وأُمَّنا حواء عليهما السلام أولادهما عبد الله وعبيد الله، فماتا أول ما وُلدا، ثم جاءهما الشيطان في الحمل الثالث، وأخبرهما أنه هو من قتل مولودهما الأول والثاني، وأنه لا بد لهما من طاعته في التسمية ليبقى الولد صالحًا، أي: سليمًا معافى لا يموت، فأطاعاه فيما أمر وسمياه عبد الحارث، فعاش ولم يمت.

وقد استدلوا على ذلك بحديثٍ أخرجه أحمد والترمذي عن سمرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث، فسمَّته عبد الحارث، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره ". ولكن هذا الحديث حديث ضعيف لا يصح.

ولا يقولن قائل: ولماذا قدَّر الله أن يموت الأول والثاني وأن يعيش الثالث كما قال لهما الشيطان ؟ لأن ما حصل مع نبي الله وزوجه إنما هو نوع بلاء نعيشه في حياتنا كثيرًا، فقد يمنع الله عن عباده شيئًا لئلا يتلهم، فإن صبروا أخذوا أجر الصابرين، وإذا ضعفوا وعلَّقوا قلوبهم بغير الله أثموا وخسروا، وقد يأتيهم الفرج من عند الله موافقًا لما فعله وقاله من علَّقوا قلوبهم به من ساحر أو كاهن، فيظنوا أن نفعهم كان بسبب شُرَكَهم لا أنه وافق القدر، فاللهم لا تجعل توكلنا ولا يقيننا إلا عليك وبك.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن هذه الآية ليست في آدم وحواء عليهما السلام، وإنما هي لأبوين آخرين جاءا في الأزمان بعدهما، وأن أول الكلام كان في آدم وحواء ثم انتقل السياق القرآني للحديث عن صنف من ذريتهما يفعل ذلك، وأن قصتهما المذكورة مع الشيطان إنما أخذت عن بني إسرائيل، فلا نصدقهم فيها لأن فيها قدحًا بالنبوة ونسبة ما لا ينبغي لها.

ويمكن مناقشة هذا القول بأن ما حصل لا يُعدُّ قدحًا في النبوة، ولكنه مما يجري على الإنسان بحكم جهله أو ضعفه، وأن ما حصل معهما إنما هو من دفع شرِّ الشيطان مع كمال اعتقادهما بأن النفع والضرر من عند الله وحده، وقد أدركتهما المخافة على ولدهما من الموت، ومع كل هذا فهو من الزلة والغلطة التي غفرها الله لهما واصطفاهما ورفع ذكرهما، كما غفر لهما بعد أكلهما من شجرة الجنة.

أما وصفهما بأنهما جعللا لله شركاء فيما آتاها، فالمقصود أنهما أطاعاه في الاسم فكان الشرك في التسمية فقط، ولم يكن في النشأة والتربية والعبادة، ولم يكن مع اعتقاد أنه عبد للشيطان وخادم له،

ولذلك لم يرد أنهما شكرا إبليس أو ظنا أن الولد من رزقه وعطائه، فأنبياء الله أجل وأعظم من أن تُعظم قلوبهم غير الله، وهذا بإجماع أهل العلم، وهذا يدل على أن الشيطان يود لو يظفر من المؤمن بأي شيء ولو كان اسمًا.

قلت: صحيح أن هذه الآية جاءت في معرض الحديث عن أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام، وأنها جاءت تبين صورة من صور تخويف الشيطان لهما وطاعتهما له، وذلك لنحذر مما وقعا فيه، ونكون على بصيرة بحيل الشيطان وطرائق إضلاله، ولكن المتأمل للآية يجد أنها تصف أحوال أصناف من أهل الكفر، لا يؤدون حق الشكر على نعمة الولد وغيرها من النعم، وذلك كما فعلت اليهود والنصارى بأولادهم يوم هودهم ونصروهم، وكذا أصحاب الملل الأخرى من غير المسلمين، وكما فعلت قبائل العرب في الجاهلية يوم جعلت أبناءها سدنّة وخدمًا لأهنتهم من الأصنام، ويوم سموا أبناءهم بعبد اللات وعبد العزى، وعبد شمس وعبد مناة.

بل قد تجد في هذه الآية وصفًا لبعض أبناء الإسلام ممن أكرمهم ربنا بالذرية، ولكنهم صرفوها عما خلقت له، ولم يشكروا الله عليها.

وتجد فيها وصفًا لبعض أبناء الإسلام ممن حُرّم الولد أو تأخر إنجابهم ففزع إلى الله بالدعاء، وعاهده على أن يربي ولده على الخير والصلاح، ذكرًا كان أو أنثى، فلما أعطاه الله سُؤله واستجاب له أخلف في العهد، وأهل في تربية عياله على الدين والتقوى، وعلى الصلاة واللباس الشرعي، وعلى مجالس العلم والدعوة والجهاد والعمل الصالح، مع أنه بذل الغالي والنفيس من أجل دنيا ولده.

بل تجدون أقوامًا إذا ما حصل معهم بلاء في أولادهم من مرض أو تأخير زواج أو رزق فزعوا للقبور لدعوة أصحابها، وتوجهوا للأموات ليطلبوا منهم تفريج الكربات، وهرعوا إلى السحرة والكهّان ليفعلوا لهم الأفاعيل ويخبروهم بالغيب ويعينوهم، وقد ينسبون لهم الفضل فيما لو شُفي ولدهم أو فُرج همّهم، وهذا من نزغات الشرك وصوره في العالمين.

{ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } تنزه ربنا عن الشريك والمثيل، وعن أن يكون غيره يملك النفع والضرر للجنين والمولود، وعن أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يريد، وعما يقوله ويفعله المبطلون الضالون؛ تعالى سبحانه عن إشراكهم كله.

- { أَئِشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } -

جاء هذا التوبيخ والإنكار والتعجب من حال مشركي العرب وكل مشرك في كل زمان؛ إذ كيف تقبل عقولهم وتأنس قلوبهم إلى تعظيم المخلوق ونسبة صفات الخالق له، وهو مخلوق؟!

الشمس والنجوم والكواكب والنار والبقر والشيطان وفرعون، كل ذلك مخلوق لله لا حول له ولا قوة، ولا يخلق شيئاً ولو كان حقيراً صغيراً. قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " [الحج: 73-74].

إن أصنام المشركين كلها لو اجتمعت لا تخلق ذباباً، وهو مخلوق صغير حقير، بل لو أخذ الذباب شيئاً كان عليهم وطار به، لا يستطيعون اللحاق به ولا يتحركون من مكانهم لاسترجاع ما سلب منهم، فكيف تتوجهون بدعائكم ورغبتكم ورهبتكم إلى من حاله كذلك، وكيف ترتضون لأنفسكم أن تعظم من صفته كذلك، وكيف تستنصرون وتطلبون الرزق من حاله كذلك؟! إن هذا لعجب عجاب! قال الله تعالى: " قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ " [الصفات: 95-96].

وكل مخلوق من الإنس أو الجن يعتريه من صفات الضعف والنقص ما يعلمه القاصي والداني، فلا تراه يدفع عن نفسه مرضاً ولا فقراً، ولا همّاً ولا غمّاً، بل يفزع بفطرته إلى الله إذا أحاطت به البلايا وظهر عجزه.

أين عقولكم ممن خلقكم من نفس واحدة؟! وأين إخلاصكم في توحيد من جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، فسكنتم إليها حتى حصل الوطء، ثم كانت النطفة والعلقة والمضغة، ثم العظام واللحم، ثم نفخ

الروح وثقل الحُمْل، ثم مولود يكبر يومًا بعد يوم برزق الله وقدره؟! إن ما تفعلونه من الظلم ومن كفران النعمة، ومن الشرك العظيم الذي يخلد صاحبه في النار.

- { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ } -

كانت العرب تستنصر بأصنامها، وتزعم أن لها يدًا في ذلك. قال الله تعالى: " وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا " [مریم: 81-82]، وقال سبحانه: " وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ " [يس: 74-75].

معبوداتكم يا أهل الشرك لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًا، ولا تنتصر لمن عبدها وعظمها واتخذها نداءً مع مالك الملك، فإنها جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، ولا تقدر ولا تطبق فعل أي شيء يُذكر، ولو أرادها أحد بسوء أو اعتداء ما دافعت عن نفسها ولا تحركت، وهذا يعلمه ويدركه كل عاقل في هذه الدنيا، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وقدرتهم.

وهذا المعنى هو الذي أراده سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع قومه، لما كسّر أصنامهم وأهانها إلا كبيرهم، لعل عقولهم تتحرك نحو الحق، وقد فعلت أول الأمر ثم ارتدت إلى الضلال المبين، وازدادت غواية على غواية. قال الله تعالى: " فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ " [الصافات: 91-93]، وقال سبحانه: " قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ " [الأنبياء: 62-65].

وقد حكى ابن كثير وغيره من أهل التفسير أن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما أسلما لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكانا شائئين، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين، يكسرانها ويثلفانها، ويتخذانها حطبًا للأرامل، ليعتبر قومهما.

وكان لعمر بن الجموح - وكان سيداً في قومه - صنمٌ يعبدُه ويُطَيِّبُه، فكانا يجيئان في الليل فيُنَكِّسانه على رأسه، ويُلَطِّخانه بالعدِرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنَّع به، فيغسله ويطيِّبه، ويضع عنده سيفاً، ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة، ففرَّاه مع كلب ميت، ودَلَّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح، ورأى ذلك نظر فعلم أنَّ ما كان عليه من الدين باطلٌ. وقال:

تالله لو كنت إلهًا مُسْتَدَن ... لم تكُ والكلب جميعًا في قرن¹⁰²

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقُتل يوم أحد شهيدًا، رضي الله عنه وأرضاه.

- { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ }

أي: إن هذه الأصنام لا تستجيب لكم إذا ناديتم عليها ودعوتموها إلى الهدى والخير والصلاح، وهي لا تفقه عنكم شيئاً ولا تعقل، ولا تعلم ما في سرِّكم ونجواكم، فكيف تكون مألوها يتعلق القلب به؟! وكيف تهديكم إلى الرشاد وهي لا تهدي؟!

{ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ } تبيِّن من استجابة الأصنام لشيء مما يرجونه، فهذه الأصنام يستوي حالها حال النداء عليها ودعائها، مع حال الصمت عنها والسكوت، فالأمر واحد بالنسبة لهذا المعبود الذي تعظمونه.

- { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

الذي صنع الأصنام عبداً لله، والأصنام تحت سلطان الله وربوبيته، فإن كنتم صادقين في جعلها واسطة بينكم وبين خالقكم فلتعظكم ما سألتهم، ولتنصركم ولتحفظكم من السوء، وأنتي لها ذلك!

¹⁰² مستدن، أي: دليل مستعبد. والقرن: الحبل.

إن عجز الآلهة التي تعبدون لا يخفى على ذي عقل، كما أن عجزكم عن نفع أنفسكم ودفع الضر عنها معلوم ومعهود، فالآلهة وأنتم والناس جميعاً كلكم عبيد مملوكون لله. قال الله تعالى: " إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ " [فاطر: 14].

وكأنَّ الآية تنادي على الذين يرجون النفع والضر من البشر، ويعلقون قلوبهم بهم ويشركونهم في الدعاء، صالحين كانوا أو غير صالحين، أحياء كانوا أو أمواتاً، كأنَّ الآية تذكرهم بتقوى الله وإخراج هذا التعظيم من القلب، وجعله خالصاً لمالك الملك الواحد الأحد الفرد الصمد، فهؤلاء كلهم عباد ضعفاء مخلوقون مثلنا وإن كانوا من الصالحين.

- { أَهْمُ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ هُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ هُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ هُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ }

ليس فيها صفة واحدة من صفات الكمال التي تدل على استحقاقها لشيء من التعظيم، أو تدل على أنها يمكن أن تعطىكم من هذه الدنيا شيئاً أو تنصركم، فهي لا تمشي لقضاء حاجاتكم والسعي في منافعكم، ولا تتحرك أيديها في البطش لكم، ولا في دفع الضر عنكم وحمايتكم وحفظكم من كل شر، ولا تبصر أعينها لتراكم وتراقبكم وتحذركم مما حولكم، ولا تسمع آذانها ما تسرون وما تعلنون؛ وما ترجون وما تخافون، إنما هي صورٌ صورتوها بأيديكم ولا حركة فيها. قال سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه: " إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا " [مريم: 42].

ما أعجب أمركم ! تعاندون رسول الله صلى الله عليه وسلم متعللين بأنه بشر مثلكم، مع أن الله فضله عليكم وعلينا بالعلم والنبوة والحكمة، ثم تفرعون إلى الصنم !

{ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ } قل لهم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تهددوني بهذه الآلهة التي علمتم صفاتها، ولا تخيفوني بها ولا بغيرها من الأنداد والأوثان، واستعينوا بها لتنصروا علي

وتستريحوا مني، وهاتوا ما عندكم من أنواع الضر التي تزعمون، وابذلوا وسعكم في أذيتي فيما لم يكتبه الله لي، ولا تتأخروا في مكركم وكيدكم أيها العاجزون.

تقرأ في الآية طمأنينة عجيبة لنبي الرحمة والهدى صلى الله عليه وسلم، بأن الله سينصره عليهم، وأن هذا الدين سيبليغ، فاجعل ثقتك بالله وحده، واعتمادك عليه وحده، واحفظوا ذلك جيداً أيها الدعاة القابضون على دينهم في كل زمان ومكان، واثبتوا فإنما النصر صبر ساعة.

ارجعوا إلى هذا السياق القرآني المرة بعد المرة، وعيشوا مع آياته التي تَبَثُّ السكينة في القلب وتجعله مطمئناً بالله وقدره، وادفعوا عن هذه النفس كل اضطراب وقلق، وتخلصوا من كل عمل يشغل القلب عن الله، من تعليق تيممة أو الخوف من صوت غراب أو من قط أسود، ولا تخافوا من السحرة، وليشتد حذرکم من المنيجِّم والعَراف والكاهن، ومن يقرأ في الكف والفتنجان، فهؤلاء يَدَّعون علم الغيب، ويعتدون على صفات الرب جل وعلا زوراً وبهتاناً.

وأوصيكم بالأذكار المشروعة في الصباح والمساء، ودوام التوكل على الله واليقين به فهو سبب عظيم لحفظ العبد من الشرور، وعليكم بالرقية الشرعية التي يتعلق القلب فيها بالله وحده لا بغيره، ويكون الكلام فيها مفهوماً لا طلاسماً فيه، وتكون بذكر الله والقرآن والدعاء.

- { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ } -

كيف أخافكم ومعني ربي يحفظني ويسمعني ويصبرني ؟ أما علمتم أن الله يتولى أهل الإيمان والتقوى والعمل الصالح ؟ يتولاهم، أي: يكون حَسْبُهُمْ ونصيرهم وظهيرهم، ويكفيهم شرور أعدائهم.

قل لهم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادعوا شركاءكم لتُلْحَقُوا الضُّرَّ بي وتتخلصوا مني، فإن الله معي وهو وليي، وهو الذي نزل الكتاب الذي فيه الهدى والشفاء، والكتاب هنا هو القرآن الذي يعرفونه جيداً، وسمعوا من آياته ما سمعوا، وعجزوا عن معارضته وعن الإتيان بسورة واحدة منه.

والصالحون أقوام صلحت نياتهم، واستقامت أقوالهم وأعمالهم، وثبتوا على الحق.

والعبد الصالح يثق بربه ووعد، ويستحضر على الدوام معية الله له ولا يكثر إلى استنصار أهل الكفر بشركائهم، والعبد الصالح امتلاً قلبه بالله حُباً ورغبة ورهبة، ويعلم أن الأمة لو اجتمعت على نفعه أو ضره ما استطاعت إلا بإذن الله، ويعلم أن مولاه الحق هو الله وحده لا شريك له. قال الله تعالى: " ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ " [الأنعام: 62].

هل تأملتكم بلاغة وصف الله لذاته بأنه مولى الذين آمنوا، وبأنه المولى الحق ؟ أي: هو المولى الذي لا تنقطع ولايته عمَّن أحبوه وأحبهم، وعمَّن عبدوه وحفظهم، وعمَّن بذلوا له كل ما يستطيعون فرضي عنهم، بخلاف الأضداد والأمثال من أصنام الحجر، ومن اتخذهم أهل الكفر والفسق أولياء من أصنام البشر، لقد انقطعت كل ولاية ظنوها نافعة. قال الله تعالى عن سيدنا هود عليه السلام: " قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " [هود: 54-56].

بل هل تأملتكم كيف جاءت الولاية هنا بالفعل المضارع (يتولى) ؟ والذي يدل على دوام هذا التولي واستمراره لكل عبد صالح في كل زمان ومكان، والحمد لله على هذه البشارة. اللهم لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم إنا نعلم أن جميع خلقك لا حول لهم ولا قوة إلا بك، فلا تدرنا إلى أنفسنا وتولنا فيمن توليت.

ولا تظنوا أن ولايته للمؤمنين إنما هي في الدنيا فقط، ولكنها ولاية ممتدة إلى أرض المحشر في الدار الآخرة، يوم يتبرأ الشيطان وأهل الكفر من أوليائهم وتبقى ولاية الله ومعيته حاضرة في المشهد الأعظم. قال الله تعالى: " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ " [محمد: 11].

كان رؤوس الشر والكفر والظلم والفسق يوهمون أتباعهم في الدنيا بأنهم يملكون من الأمر شيئاً، وأن النفع والضرر بيدهم، وأنهم لن يخذلوا من أطاعهم يوماً ما، فإذا كان يوم القيامة تبرأ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا، وعلت أصواتهم بالحسرات والندم، وعلموا حينها أن الله مولى الذين آمنوا وأنهم لا مولى لهم. قال الله تعالى: " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " [البقرة: 257].

يا من تعبدون غير الله، من سيكون مولاكم إذا لقيتم ربكم وقد أحاطت بكم خطيئة الشرك وتخلي الله عنكم؟ من سينصركم وينجيكم من عذاب الله وسخطه؟

غريبٌ حال أهل الأصنام كيف يمدحونها ويمدونها على العطاء والصفات، وهي لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا تملك تصرفًا ولا علمًا، كما فعل أبو سفيان يوم كان على الشرك، ويوم انتصر المشركون في غزوة أحد، فقد أخرج البخاري أنه بعد انتهاء المعركة وجّه كلامه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر وعمر وغيرهم رضوان الله عليهم قائلًا: "اعْلُ هُبْلُ، اعْلُ هُبْلُ"، وقال: "إن لنا العزى ولا عزى لكم"، ولقد أمرهم صلى الله عليه وسلم بأن يجيبوه بقولهم: "الله أعلى وأجل"، وقولهم: "الله مولانا ولا مولى لكم".

- { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ } -

تأكيد على معاني العقيدة والتوحيد مما نحتاجه كثيرًا في معركتنا مع الباطل وأهله، تأكيد نراه ممتدًا في سور القرآن العظيم وآياته، تأكيد يجعل صلابتنا في الحق أقوى، وهمتتنا في دعوة أهل الكفر أعلى، وصبرنا على أذيتهم أدعى، ويجعلنا مطمئنين بما معنا لا نخاف تهديدهم ولا وعيدهم.

إن أهتكم وما تعلقتم به قلوبكم من أصنام البشر والحجر ليست بشيء، وقدركم وقدرهم إن بقيتم على ذلك لا يعدو أن يكون حطب جهنم التي تنتظركم، فأيقوا! قال الله تعالى: "إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ هَا وَارِدُونَ" [الأنبياء: 98].

- { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } -

جعلوا لأصنامهم أعضاء وأعينًا ليوهموا أنفسهم وأتباعهم أنها تبصرهم وقرية منهم، فجاءت الآية هنا لتثير عقولهم نحو التفكير والتدبر، ولتذكرهم بأن مقابلتكم للأصنام التي لها عيون لا يعني أنها تراكم، فما هي إلا جمادات وأصنام وصور لا تسمع كلام الهدى والرشد ولا تهدي، ولا تدرك ولا تنتفع، ولا ترى شيئًا مما حولها.

قل يا نبي الله لقومك: هل بقي عندكم شك بعد كل هذا فيمن تُعبدونه لرغبتكم ورهبتكم، وفيمن تعبدونه ولا تشركون معه شيئاً؟ وفيمن يستحق أن يكون شرعه مهيمناً على أفكار أهل الأرض ومعتقداتهم؟ أليس الله هو الذي فطر السماوات والأرض وخلقهما من العدم؟ أليس الله هو الذي يطعم الناس ويرزقهم ويحييهم ويميتهم؟ أليس خالقنا هو المتفرد بالألوهية، وهو الذي لا يتخذ ولياً من الذل ولا يحتاج أحداً؟ قولوا: بلى، وتعالوا إلى الصراط المستقيم.

وتعالوا ونحن نعيش مع الآيات نخاطب أنفسنا ومن حولنا لنقول: كيف أتولى غير الله وأتخذ ناصراً ومعيناً وهو الذي له الكمال المطلق وقد استغنى عن جميع خلقه، بل الخلق محتاجون إليه لا يقومون إلا به؟ وهل يليق بي كعبد أن أدعو غير الله وأطلب منه حسنة من حسنات الدنيا والآخرة؟ وهل يليق بقدره وعظمته أن أتقرب بالذبح أو أن أطلب الشفاء والرزق من غيره؟ قال الله تعالى: " قُلْ أَفَعَيِّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ " [الزمر: 64]، وقال سبحانه: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ " [فاطر: 15].

- { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } -

آية عظيمة جمعت فضائل الأخلاق ومعالي الأمور والأحوال، وكل القرآن عظيم.

هنا أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، يقول فيه: خذ العفو في تعاملك مع الناس، ولا تعاملهم كما يعاملونك، واحرص على مقابلة إساءتهم بالإحسان ما استطعت، ولا تحرص على استحضار مواقفهم التي قصروا فيها معك أو آذوك.

ومن أهل العلم من قال: المقصود بالعفو هنا أن يصفح عن المشركين من أهل مكة ويتجاوز عن إساءتهم، ولا يعاملهم إلا بالصبر والإحسان، وأن يحتمل أذاهم حتى يأذن الله له بقتالهم، وينصره عليهم ويستخلفه، وكان ذلك قبل نزول الآيات التي تأمر بجهاد أهل الكفر، والهيمنة والغلبة عليهم.

والإعراض المأمور به هنا إنما هو عن مدافعتهم بالقوة وقتالهم، لا عن دعوتهم إلى الإسلام وإقامة الحجة عليهم، أي: يجب تذكيرهم والسعي في هدايتهم حتى يحكم الله بين المؤمنين وبينهم.

ولعلكم لاحظتم أن سورة الأعراف أقامت كل أنواع الحجج والبراهين على أهل الكفر، ورغبت ورهبت لعلمهم يهتدون، فما ازدادوا إلا كفرًا وعنادًا، فجاء الأمر هنا للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم بالصبر والعفو حتى يقضي الله أمره وتجري حكمته.

ومعلوم لديكم أن العفو عنهم والصفح والإعراض، كان في بداية الدعوة لما كانت شوكة المسلمين ضعيفة، ولم يكونوا يملكون من أسباب القوة المادية ما يُذكر، فلمَّا هاجروا إلى المدينة وقويت شوكتهم، أنزل الله تعالى قوله: " فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ " [التوبة: 5].

ومن أهل العلم من قال: بل المقصود بالعفو هنا الفضل والزيادة المتعلقة بالمال، يعني: إذا جاءك أحدٌ بمال زائد عنده يريد التبرع به وإنفاقه فأقبله، وكان ذلك قبل نزول الآيات التي فيها تفصيل الزكاة وما يجب فيها من مقادير.

وكثير من المفسرين ذهب إلى القول الأول، وأخذ بعموم الأمر الرباني هنا في التعامل مع الناس ممن تصدر منهم إساءات ومواقف متعبة للنفس البشرية، فتحرص على أن تعطي من منعك، وتعفو وتعرض عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتمشي في جنازة من قصر معك، وتقف بالمال مع من حرمك.

قلت: هنئًا لمن كان عندهم حلم واحتمال لأذى الآخرين، وينتصرون على غضبهم ويكتمونه في صدورهم، ولا يبادرون بالانتقام لأنفسهم ولا لرغبتهم، ولا يظهر من ذلك شيء على جوارحهم، بل يكفون ويمسكون، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

ما أجملهم يوم يعفون ويتجاوزون ويسامحون ولا يندمون على ذلك، ولا يلتفتون إلى تحريش الآخرين وتهويلهم، خاصة إذا كان إنفاذ العقوبة سهلاً عليهم، و قدرتهم على ذلك موفورة وموجودة، كما لو كان مديرًا أو عنده خدَم أو كان قويًّا، أو غير ذلك.

يصعب على المرء أن يقابل إساءة الغير بالإحسان وأن يتنازل عن حقه، ويصعب عليه أن يقهر نفسه التي تأمره بالانتقام والتشفي وإظهار الغيظ والحق، فكيف لو كان سبب الإساءة هو الحسد والغيرة؟ وكيف لو حصلت الإساءة عن طريق القتل أو الإبعاد عن الأهل والوطن؟ وكيف لو كانت القرابة أو

الشراكة أو الصداقة مصدر تلك الإساءات ؟ قال الله تعالى في وصف أهل الجنان من أهل الإيمان: " وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ " [الشورى: 37].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ". أي: بالعفو عن الناس يسود المسلم ويعظم في القلوب، ويرتفع قدره ويزداد توقيره واحترامه، فضلاً عما ينتظره من أجر وعفو من الله في الآخرة.

وربنا جل وعلا يعلم أن هذا العفو قد يكون ثقیلاً على النفس، وقد يكون صعباً أمام الغير، ولذلك بينت نصوص القرآن أن هذا الأمر لا يطيقه إلا الذين صبروا، وهم أصحاب الحظ العظيم عند الله تعالى. قال ربنا جل وعلا: " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ " [فصلت: 34-35].

{ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ } العرف هو الأمر المعروف والمألوف بين الناس، وهو كل قول أو فعل تطمئن له النفس ويكون حسناً وجميلاً، من تعليم علم، وحث على خير، وإصلاح بين الناس، ومعاونة على بر وتقوى.

والعرف في شريعتنا نحتكم إليه في مسائل متعددة، قد لا يكون لها حد في الشريعة ولا في اللغة، كما هو الحال في معاشررة الأزواج وبيان حقوقهم وواجباتهم فيما لم تأت به النصوص، وهو المقصود بقول الله تعالى: " وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ " [النساء: 19]، وكذا في أكل الولي الفقير من مال اليتيم، وهو المقصود بقول الله تعالى: " وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ " [النساء: 6]، وكذا في أداء مال دية القتيل إلى أهله وطلبها، وهو المقصود في قول الله تعالى: " فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ " [البقرة: 178]، وغير ذلك من الأحكام الكثيرة في شريعتنا.

ولعلكم تلاحظون في زماننا كيف يحرص أعداء الله على أن تتخلى الأجيال المسلمة عن شريعتها، وأن تتصل من الأعراف والعادات الطيبة التي لا تخالف الدين مما ورثوه عن سبقتهم، ثم كيف يريدون للأعراف الفاسدة التي هي الحرام أن ترتفع كلمتها وتهيمن، وكيف يريدون لأعراف أهل الكفر وعاداتهم أن تصبح واقعة، ولذلك ترون من أبناء الأمة وبناتها من يدافع عن الربا، وعن اللباس الذي لا يرضي الله،

وعن الاختلاط بين الرجال والنساء في أماكن العمل، يدافعون تحت شعار أن كثيراً من الناس يفعلون ذلك ولم يعد منكراً بينهم.

قلت: وهذا ما يجعل الواجب علينا في إحياء ما مات من ديننا ومن أعرافنا الطيبة ضرورة من ضرورات قيام أمتنا، ونجاتنا بين يدي ربنا، فاللهم حفظاً للجيل المسلم، واللهم قوة.

{ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } الجاهل من الناس قد لا يعرف حدود الأدب، ولا يُنزل الآخرين منازلهم، ويجهل عليهم بالكلام والأفعال، فيشتتم ويؤذي ويصخب ويرفع صوته.

الجاهل من الناس يؤذي جيرانه وقربته، ولا يحترم الكبير ولا يعطف على الصغير، ولا تنفع النصيحة فيه غالباً إلا أن يأذن الله بأمر من عنده.

وأعظم الجهل الشرك بالله، فالمشركون قوم وصلت سفاهتهم وخفة عقولهم إلى عبادة الحجر أو البشر أو الشجر ممن لا يختلف عقلا على نقصه وقلة حيلته أو انعدامها. قال الله تعالى: " اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ " [الأنعام: 106].

والإعراض عن الجاهلين يكون بترك جدالهم وخصومتهم، وعدم الاكتراث لأقوالهم، ويكون بالثبات أمام كلماتهم وأذيتهم في حق الدين والدعوة.

ما أحوج الدعوة إلى الله تعالى إلى هذه الآية، فإنها تصرفهم عن الشواغل في طريقهم إلى الله، وتعلمهم أن المطلوب منهم أن يتبعوا شريعتهم في البلاغ عن الله، وألا يدهنوا ولا يتنازلوا عن أوامر خالقهم لإرضاء أهواء الناس وأمزجتهم.

والإعراض عن الجاهلين لا يكون في كل مكان وزمان، ولا مع جميع الناس، فإنه يُستثنى من هذا الأصل أحوال، منها: من جهل واجباً من واجبات ديننا وحقوق ربنا فلا نُعرض عنه بل نعلمه ونوجهه بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، حتى إذا أقمنا عليه الحجة وظهر إعراضه وعناده أعرضنا عنه.

وكذا الحال مع من تجرأ على محارم الله وجهر بها فننكر عليه وننصحه بشروط ذلك وضوابطه، ولا نُعرض عنه إلا إذا ترتب على الإنكار عليه مفسدة أعظم.

تعالوا لتكون هذه الآية مفتاحاً لقلوب الناس، وجسراً نحو دعوتهم وهدايتهم، تعالوا نرتقي في نفوسنا وعقولنا ولا ننزل إلى جهل من حولنا وخفة عقولهم، فما أجمل أن نتهدي بوصايا ربنا جل جلاله لنبيناً الذي كان خلقه القرآن صلى الله عليه وسلم.

أقول: عاملوا بالتي هي أحسن أهل المعاصي وأهل الجهل والمتجاوزين حدودهم، فلعل أحدهم يأتي في يوم من الأيام إلى الهدى وطريق الاستقامة، وإلى جنة الصلاة وحفظ القرآن وفهمه، ولعله ينفع فيه الإحسان فيتوب من سوء الخلق، وقد حصل ذلك مع كثير من الناس.

ولا يفوتني أن أوصي وصية هنا تتعلق بالمحسن من الناس ممن تحلّق بالحلم والرشد، وممن لا يؤذيك ولا يجهل عليك، ولا ينتقص من قدرك ولا يصخب عليك، وهي وصية نادى بها العلماء وذكروا بها، وهي أن مثل هؤلاء ينبغي أن نقابلهم بالإحسان ولا نكلفهم فوق طاقتهم، ولا نطلب منهم ما يوقعهم في الإحراج، وأن نتجاوز عن زلاتهم التي قد تقع عَرَضًا.

- { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

يعلم الشيطان أن من طرق إهلاك بني آدم وإشغاله عن أنواع الخيرات والطاعات أن يوقع بينه وبين الآخرين، وأن يُغري صدره على أهله وقرباته والمسلمين، وأن يشغل عقله بالتفكير بالانتقام وتمني السوء لمن آذاه وظلمه، فتراه يُذكي كل خصومة وإن كانت يسيرة، وتراه ينزع، أي: يُفسد ويُنخس ويوسوس بالغضب والانتقام في غير محلّهما، ويحث على الشر ويمنع من الخير، وقد تكون وسوسته بترك العفو وترك الأمر بالمعروف. قال الله تعالى: " وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا " [الإسراء: 53].

الغضب جندي من جنود إبليس يحرص على توجيهه في القتل والخصومة والعداوة الممتدة، ويحرص على إخراج أسوأ ما في النفس البشرية حال حصوله، وهو مانع من الإعراض عن الجاهلين، وحامل على مجازاتهم والتمادي معهم في إرادة الشر.

هذا التعامل النفيس مع حالة الغضب وكظم الغيظ، إنما يدل على قدرة صاحبه على قيادة نفسه بالعلم والفهم لقهر شهوة النفس، وترويضها لتتقاد، ولئلا تستسلم لنزواتها ورغباتها، يفعل كل ذلك لينال رضا الله. أخرج أحمد وابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما من جرعة أعظم أجراً عند الله، من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله ». ».

واعلموا أن ثمرات كظم الغيظ ومنافعه متعددة، منها: أن صاحبه ينتصر على شيطانه الذي ينفخ فيه ليفعل ويفعل، وأنه ينال محبة الله وأجر من صبر، وأنه يغلق باب شرٍ عظيم لا يدري الواحد منا إلى أين ينتهي، فكثير من جرائم القتل والتشويه والإيذاء البليغ والانتحار قد وقعت بسبب الغضب، وكثير من الحسرات والندامات التي تعيش مع أصحابها سنين طويلة، كان سببها عدم القدرة على إدارة الغضب. انظروا في حال كثير ممن لا يستطيع كظم غيظه كيف يخرج عن الحد المعتدل في أخذ حقه والمطالبة به، وكيف يبغى ويتكلم عن أعراض الآخرين، ويصفهم بصفات السوء ووجدت أم لم توجد، ويطلق شتائم الفحش في الناس فيؤذيهم بدون حق ويؤذي من يستمع، وقد يتساهل بوصف أحدهم بأنه ظالم أو بخيل أو كذاب.

أخرج البخاري عن سليمان بن صُرَدٍ رضي الله عنه، قال: كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان، فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه¹⁰³، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد ". فقالوا له: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تعوذ بالله من الشيطان. فقال: وهل بي جنون؟!

انظروا في ردّ هذا الرجل المغضب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأنه لم يعجبه ما قال، فكان كلامه كلاماً من لم يفقه في دين الله، ولم ينتفع من كلام رسول الله، وقد ظن أن الاستعاذة من الشيطان خاصة بالمجنون، ولم يعلم أن الغضب من لعب الشيطان بالعبد ومن نزغاته ليخرجه عن اعتدال حاله ومقاله وفعاله. قال غير واحد من أهل العلم: ويُحتمل أن يكون هذا القائل من المنافقين، أو من الجفاة أصحاب القلوب الغليظة.

¹⁰³ جمع ودج، وهو عرق يكون على جانب العنق، وانتفاخه كناية عن شدة الغضب ودليل عليه.

ولذلك أرشدت الآية إلى الاستعاذة من الشيطان ومن جنوده ومن عداوته ووسوسته، والاستعاذة فيها لجوء إلى الله تعالى واستجارة به ليصرف شره، ويرد كيده.

فيا لسعادة من يفرع إلى الله ويلتجئ إليه ليعصمه من كيد الشيطان وما يريده، ويا لسعادة من حفظه الله من عدوه وأعانه عليه، فإنه لا منجى من الشيطان إلا بالاستعاذة منه. قال الله تعالى: " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ " [المؤمنون: 96-98].

وفي ختام الآية: الله سميع لنداء عبده ودعائه واستعاذته، وسميع لجهل الجاهل المسيء المعتدي، ولا يخفى عليه شيء من كلامكم، وهو عليم بما يريده الشيطان، وعلیم بالصادق في نية الخير والمعروف.

- { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } -

ما أسعد أهل الإيمان والتقوى والدعوة بهذه الآية، فهي تخبر عنهم وتثني عليهم، وتخبرنا عن درايتهم وعلمهم بجبائل عدوهم الأكبر، وكيف يكون الشيطان حقيراً صغيراً أمامهم، فهو وإن ظفر منهم بطائف بسيط جعلهم يقعون في ذنب ما أو في خطأ ما، ولكنهم سرعان ما يستغفرون ويتوبون ويصلحون ما أفسدوا، فهم أصحاب بصيرة بعدوهم وطرائقه وأسلحته.

من علامات أهل التقوى أن يستدرك العبد ما فاتته من تقصير، وأن تبقى أوامر الله ونواهيه تُصَبَّ عينيه، وأن يُبصر مدخل الشيطان إليه في الذنب الذي فعله، ويسارع في طلب المغفرة وإغلاق هذا المدخل بقوة، ويستعيز بالله منه ومن نَزْغِهِ وَهْمَزِهِ وَلَمَزِهِ وَنَفْثِهِ.

ولقائل أن يقول: ومن هم أهل التقوى الذين يخافهم شيطانهم ولا يظفر منهم إلا بالقليل؟ والجواب أنهم صنف من الناس عرفوا خالقهم بأسمائه وصفاته، وعاشوا معه حُبًّا وخوفًا ورجاءً، وسارعوا في الفرائض والنوافل، وأغلقوا باب الحرام.

هؤلاء القوم لا يسترسلون مع غضبهم، ولا يأنسون إلى أهل الفسق والفجور ولا ينبسطون معهم، وإذا لاحت لهم معصية واقتربت منهم اضطربت قلوبهم بُغْضًا لها وفرُّوا منها، وتذكروا عقاب الله، وتذكروا ما ينتظرهم من ثواب العفة والصبر عن الحرام، فأبصروا واستعاذوا بالله وكانوا من أهل الثبات.

هؤلاء القوم إذا أصابهم لَمَمٌ من الشيطان من غضب أو خطيئة أو غير ذلك، تذكروا وصايا خالقهم لهم، وأبصروا طريق الحق الذي يعلمون، فأقبلوا على الله وتركوا طاعة الشيطان.

يا أهل التقوى والإيمان، ويا أهل الذِّكْر والقرآن، تذكروا هذه الآية كلما اقتربتم من الربا ومن الزنا، ومن أكل أموال الناس بالباطل، وكلما اقتربتم من سماع الأغاني والمعازف، وكلما رأيتم أهل الدنيا منغمسين في شهواتها، تذكروها ولا تغتروا بفرحهم الظاهر واصبروا. قال الله تعالى: " وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ " [الرحمن: 46].

صحيح أن الآية جاءت في الشيطان الأكبر وجنده وأتباعه من الجن، ولكن المتدبر للآية ربما يستحضر شيطان الإنس الذي يطوف بالناس ليقعهم في الحرام، ويغريهم ويمتنيهم بكلامه وإعلامه وصورته وماله، والذي يُذِلُّ عقبات الوقوع في الشهوات والشبهات.

المجرمون من شياطين الإنس يسهلون المعاصي على الناس ويُحسنونها لهم، ويساعدونهم في فعلها، ما بين تاجر خمر، ومشتغل بالطبل والزمر، وحارس للربا ومنظم له، وعاصية لله بلباسها، ومعين للظلمة، وناصر لأهل الكفر وأذنانهم، وغير ذلك ممن يعينون على الضلال.

قلت: ولكن الذين اتقوا ناجون منهم، وثابتون على هدايتهم وتقواهم، ويجاهدون كيدهم، ويتميزون باليقظة لهم، ويدافعونهم.

- { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ }

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود بهم هنا شياطين الجن الذين لا يفتر عن إمداد أوليائهم من الإنس في الشر والحرام والمنكرات، فهذه طبيعتهم التي لا ينفكون عنها. قال الله تعالى: " أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا " [مريم: 83].

أي: الشياطين تمد أوليائها وإخوانها من الإنس في الغي، وهذه الآية تدل على أن هناك صنفاً من الناس لا يتقي، ولا يحذر الشيطان ولا يجتنب الحرام، بل يطيعه وينغمس فيما يريده، بخلاف الذين اتقوا كما في الآية السابقة. قال الله تعالى: " وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ " [الأنعام: 128]، وقال سبحانه: " إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ " [الإسراء: 27].

فالإخوان هنا من الشياطين، فهم إخوة لمن أطاعهم من الإنس من المشركين ومن أكبَّ على الكبائر وصارت شعاره ليله ونهاره.

{ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } لا تسأم شياطين الجن ولا تتوقف عن الإغواء والإضلال، ولا يسأم شياطين الإنس عن طاعتهم وإعانتهم واتباعهم والاستماع إليهم وقبول أوامرهم.

بطريقة أخرى: الشياطين لا تُقَصِّر في إغواء من يطيعها من الإنس، ولا تُمَسِّك عنهم وتتركهم، بل تزيد في ذلك لأنها تسلطت عليهم بقلّة دكرهم لله وضعف خشيتهم منه، وكذلك الإنس لا يُقَصِّرُونَ عن عمل السيئات وفعل الشرّ والفحشاء والمنكرات.

- { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } -

يقول أهل الكفر للنبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يأتيهم بمعجزة طلبوها، أو لم يأتيهم بدليل على نبوته غير القرآن، يقولون له: لولا اجتبيتها، يعني: لولا أتيت بما طلبناه من السماء من عند الله، أو أنشأتها وأحدثتها وأخرجتها لنا من عندك لنها ونؤمن بك وبما جئت به.

كأنهم يقولون له: لا بد أن تُتعب نفسك في إحضار الآيات التي تُثبت لنا أنك نبي وأنك لا تكذب ولا تفتري، وألا تقتصر على ما يعطيكه الله.

يطلبون من نبينا صلى الله عليه وسلم أموراً ليست بمقدوره ليتعبوه ويظهروا عجزه، وليحدثوا في نفسه ونفوس المؤمنين من حوله شيئاً، وكذا ليظهروا أمام قومهم بأنهم أقوى حجة وعلماً، مع أن أدلة الهدى موفورة من حولهم، ولكنهم أهل مكابرة وخصال دنيئة، وقد علم الله من حالهم أنهم لو عاينوا كل الأدلة التي لا شك فيها ولا ريب لأعرضوا وجحدوا، ولأوهمو قومهم وأتباعهم، واعتذروا عن عدم دخولهم في دين الله بأن الذي جاءهم إنما هو سحر. قال الله تعالى: " وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا " [الإسراء: 90-93]،

والناظر في كتاب الله تعالى يجد أن هذا العناد لازم لهم، وأنهم يطلبون الشيء ليؤمنوا ثم يكفرون به، كما في قول الله تعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ " [البقرة: 118]، وقوله سبحانه: " وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ " [الأنعام: 111].

ولا تظنوا أن الآيات والمعجزات لم تنزل على أهل الكفر، بل جاءتهم ورأوها بأعم أعينهم، وعلموها وتناقلوها، كانشق القمر، بل جاءتهم آية واضحة، ومعجزة باهرة هي أعظم معجزة في إرسال الأنبياء جميعاً، جاءتهم معجزة خالدة لهم ولجميع أهل الكفر من بعدهم مما لا يسعهم أمامها إلا أن يقبلوا على الدين ويؤمنوا، وهي معجزة القرآن العظيم، كما قال الله تعالى: " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " [العنكبوت: 51].

{ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي } يظنون أن وظيفة الرسل أن يستجيبوا لكل ما تطلبه أقوامهم، وبتفاصيلهم التي يريدون، وحقيقتهم أنهم غافلون عن وظيفة رسل الله التي اصطفاهم لها، وهي التبليغ

والإنذار والإرشاد على الوجه الذي يأمر به الله. قال الله تعالى: " وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ " [الرعد: 7].

قل لهم يا نبي الله صلى الله عليه وسلم وأجبهم: إذا أعطاني ربي آية من عنده أتيتكم بها، وإذا لم يعطني لم أسأله إلا إذا أذن لي فهو الحكيم الخبير، والأمر إليه أولاً وآخرًا وليس لي، وإنما أنا رسول من عنده سبحانه أنتظر وحيه وأتبع ما يأمرني به وأطيعه.

قل لهم يا نبي الله صلى الله عليه وسلم: أنا لا أفترى على ذي الجبروت والملكوت وأزعم أنني رسول من عنده وهو الذي يصدقني ويؤيدني بالمعجزات التي تعلمونها؟ وكيف يليق بحكمته وقدرته أن يؤيدني بقوته ونصره وحفظه إذا كنت أكذب عليه. قال الله تعالى: " وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ " [الحاقة: 44-46].

قل لهم يا نبي الله صلى الله عليه وسلم: إذا لم تنفعكم الآيات والمعجزات التي جئت بها، ولم ترجعوا عن مكابرتكم وعنادكم فالله شهيد بيني وبينكم، وأمري وأمركم إليه، وحسابي وحسابكم عليه، ولن يحزني كثيرًا صدودكم هذا وإعراضكم، وتكفيني شهادة الله وملائكته عليهم السلام. قال الله تعالى: " لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا " [النساء: 166].

ونحن كمسلمين نعلم تمام العلم أن الله تعالى شهد لنبيه في محكم التنزيل بأنه رسول الله، كما في قوله سبحانه: " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ " [الفتح: 29]، وقوله سبحانه: " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ " [البقرة: 119].

ونحن كمسلمين نشهد أن الله تعالى أَيْدَ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مُعْجَزَةِ الْإِسْلَامِ الْخَالِدَةِ، كما أيده بغيرها من المعجزات. قال الله تعالى: " أَلَمْ (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ " [آل عمران: 1-3].

{ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } إليكم يا أهل الكفر معجزة هي أوضح المعجزات وأقواها، وهي أبين الدلالات وأعظم آيات الله الباهرات، وهي معجزة القرآن التي فيها البصائر والهدايات والمحجج التي تعلمون في قرارة أنفسكم صدقها وصحتها.

القرآن العظيم فيه هدى لكم لتتهتدوا به في ظلمات الدنيا والآخرة، وكل آية فيه تخبركم عن الله وتثبت لكم صدق رسوله عليه الصلاة والسلام.

ما أبلغ صيغة الجمع في لفظة (بصائر)، فإنها تذكرنا كيف تعددت حجج القرآن وتنوعت في إثبات أنه من عند الحكيم الخبير وليس من صنع البشر، ثم كيف كانت آياته بصائر في كل ما نحتاج من أمور العقيدة والأحكام الشرعية والأخلاق، وما نحتاجه في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وما نحتاج من صلاح الدنيا والآخرة.

ثم جاء وصف القرآن في الآية بأنه رحمة، أي: رحمة لنا بتعليمنا ما يحبه ربنا ويرضاه، وبدلالته على الطريق المستقيم، وبالتحذير من الزيغ والضلال المبين، وبكونه سبباً عظيماً من أسباب الثبات.

ثم اعلّموا كما في ختام الآية أن بصائره وهدايته ورحمته لا تبلغ إلا من آمن به وصدق، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: " وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا " [الإسراء: 82].

أما غير المؤمنين فليسوا أهلاً للانتفاع منه، ولا يكون لهم بصائر ولا هدى ولا رحمة. قال الله تعالى: " قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ " [فصلت: 44]، فهلاً آمنتم يا أهل الشرك وصدقتهم؟!

سبحان الله كيف لا يقتنعون بمعجزة القرآن، بل كيف لا يكتفون؟! وسبحان الله كيف وصل بهم التجرؤ على كلام رب العالمين إلى أن يقولوا كما في الآية: " وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءٍ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ " [يونس: 15]؟!

يذكر أهل التفسير أن أهل الشرك كانوا إذا تأخر الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقولون له
ساخرين: هَلَّا أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ مِنْ عِنْدِكَ ؟

وكأن الآيات تريد منا أن نطمئن إلى أن دعوة الإسلام والقرآن ستبقى سائرة في الخلق بِقَدَرِ الله،
وسيصطفى لها من يقوم بقائمتها ولا يحيد عنها، وسيبلغ هذا القرآن ما كتب الله له أن يبلغ، ولن يتوقف
حملته عن استخراج كنوزه في مختلف أبواب العلم والمعرفة والدراية.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نحمد الله على أن بلغنا هذا القرآن بفضله وكرمه، واصطفى له من خلقه
من الصالحين والدعاة والعلماء وغيرهم من عامة الناس من يقوم بقائمته وينصره.

- { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } -

كان كفار قريش يَلْعُونُ في القرآن ويرفعون أصواتهم بالتشويش والغوغاء إذا سمعوا من يتلو، وكانوا يبذلون
كل حيلة من أجل إذهاب رهبته من القلوب وإسقاط هيئته، ومن أجل صرف السامعين له عن الانتفاع
به، ومن أجل تثبيت أهل الكفر على كفرهم، فَبَّهَمَ الله. قال الله تعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا
هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ " [فصلت: 26]، وكأنهم يدركون قوة كلام الله في قَرَعِ قلب سامعه
وتغييره وردة إلى فطرته.

يا أهل الكفر خاصة، ويا أيها الناس، استمعوا لهذا القرآن إذا ثَلِيَ إعْظَامًا له واحترامًا، وأعطوه سمعكم
وقلبكم وجوارحكم ليعطيكم مفاتيح الخير، ولتطمئن قلوبكم به وتسعد، ولتهتدوا إلى فلاحكم وعزكم.
يا أهل الكفر، لا تُعرضوا عن سماع كلام الله، ولا تعاندوا وتصروا في إعراضكم، وتأملوه وعيشوا مع آياته،
فإن فيها بصائر لكم ورحمة، وفيها من راحة القلب وطمأنينته ما يصعب وصفه، وفيها من صلاح
النفوس والأحوال ما الله به عليم.

ويا أيها المؤمنون، خذوا حظكم من الليل من كتاب الله، والزموا أهله وحملته ومُفَسِّرِيهِ من أهل العلم
والدعوة والبيان، وبلغوه للناس جميعًا ولا تُقَصِّروا، ولا تتبعدوا عنه فتفسد قلوبكم وتُحرموا خيرًا كثيرًا، ولا
تتخذوه للتجارة والتكسب ومدح الناس وثنائهم، فهو أعظم وأكبر من الدنيا ومتاعها ولذائذها.

يأتي نداء الله هنا لكل الناس بأن يستمعوا للقرآن وينصتوا، والاستماع هو التدبر ومحاولة الفهم. يعني: اجعلوا قلبكم حاضرًا متدبرًا، واستمعوا استماع من يريد الانتفاع والعمل.

وأما الإنصات فهو الصمت والسكوت وعدم رفع الصوت بالكلام حال قراءته وتلاوته، وترك اللغو وهو الكلام والضحك. يعني: اتركوا حديث الدنيا ولا تشغلوا بما يصرفكم عن روعة ما تستمعون.

وفهم كلام الله وتدبره والانتفاع منه يحتاج إلى قلب عامر بالإيمان، وإلى قَدْر من الفهم والعلم، وإلى حرص من العبد وإقبال، ولذلك ذكر أهل العلم أن من أسباب الوصول إلى حلاوة الاستماع للقرآن وتحصيل أثره، أن يكون الصدر سليمًا من الأمراض، وأن يستشعر التالي والمستمع أنه هو المخاطب بآيات الله، وأن يجاهد نفسه في الخلوة بالقرآن، وتحصيل البيئة النقية لذلك من اجتناب الإصرار على الذنب، وترك فضول العادات، والابتعاد عن مجالسة الغافلين التي لا تأتي بخير، ثم ليقرأ في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والصالحين في تعظيمهم لكلام الله والرضا به حكمًا ودستورًا ومربيًا.

إن رحمة الله تعالى تنزل بمن عاش مع القرآن، وأعطاه وقته وعقله، فهو كلام الله الذي أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو أنيس المؤمنين في ليلهم ونهارهم، وحلّهم وترحالهم، وهو مرشدهم ودليلهم إلى جنات النعيم، فرحمة الله قريبة ممن استمع وأنصت، والمحروم من حُرْمِها.

جاء في دعاء الهم الذي أخرجه أحمد والبخاري في مسنديهما، واللفظ لأحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما قال عبدٌ قطُّ إذا أصابه همٌّ وحَزَنٌ: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمّتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قِضَاؤُكَ، أسألك بكل اسم هو لك سُمِّيَتْ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، إلا أذهب الله عزي وجل همّي، وأبدله مكان حزنه فرحًا "، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟، قال: " أجل، ينبغي لمن سمِعَهُنَّ أن يتعلمهنَّ ".

وفي تفسير هذه الآية يذكر العلماء جملة من المسائل المتعلقة بالإنصات لكتاب الله حال سماعه، أختار منها مسألتين، هما:

1- تشغيل صوت القرآن في البيوت والأسواق والأماكن العامة.

قال أهل العلم: لا حرج بتشغيل القرآن المسجل كسورة البقرة وغيرها إذا لم يكن في البيت أحد، أو كان فيه ولكنه لا يتكلم، بخلاف فتح القرآن مع وجود اللغَط وتبادل الكلام فإنه ليس من تعظيم كلام الله ولا تقديره، وفيه نوع امتهان لا يليق.

ومما قاله أهل العلم: لا ينبغي رفع صوت القرآن في الأسواق مع شدة الغفلة عنه، ومع رفع أصوات البائعين والمشتريين وانشغالهم الكبير، ومدار ذلك على أن تشغيل القرآن ورفع الصوت به يليق بالقرآن أو لا يليق، فأنا أذكر أن عددًا من الناس كان يعتمد الذهاب عند المسجد الحسيني الكبير في العاصمة عَمَّان ليستمع لصوت القراء الكبار وهم يقرؤون القرآن كالشيخ الحصري والمنشاوي وعبد الباسط رحمهم الله جميعًا، وهذا أمر مقبول وفيه تعظيم للقرآن، كما أنه من المقبول أن تكون قراءة الإمام في الصلاة الجهرية على سماعات المسجد الخارجية؛ فإن في ذلك تذكيرًا للناس، وفيه وَعْظًا لا يخفى، وراحة يعلمها كل من أحب القرآن وسمعه من إمام حسن الصوت.

ومما لا ينبغي أن نفعله ولا يليق بالقرآن، أن نرفع صوت القرآن رفعًا يتأذى منه الآخرون، كما يفعل بعض الجيران الذي يرفعون صوت القرآن فيُسمعوا من حولهم من البيوت مع أن جيرانهم لا يناسبهم الاستماع إليه في هذا الوقت وقد يؤذيهم، وكما يرفع بعض من يقرأ القرآن وهو معتكف في المسجد فيشوش على الآخرين، وقيسوا على ذلك.

2- هل نقرأ خلف الإمام في الصلاة أم نستمع إلى تلاوته ؟

أكثر أهل العلم على أن الاستماع للقرآن مستحب ومندوب إلا في الصلاة فإنه يجب. والأصل عند أهل العلم أن ننصت لقراءة الإمام في الصلاة ونستمع ونتدبر، امتثالاً لما أخرجه مسلم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم للمأموم بمتابعة الإمام في التكبير والركوع والسجود في الصلاة، وفيه: " وإذا قرأ فأنصتوا ". وفي رواية أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كَبَّرَ فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا ".

وأخرج أحمد وأصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صَلَّى صلاةً جَهْرَ فيها بالقراءة، ثم أقبل على الناس بعد ما سَلَّمَ، فقال: " هل قرأ منكم أحد معي آنفًا ؟ "

قالوا: نعم يا رسول الله، قال: " إني أقول: مالي أنارُع القرآن؟! " فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يَجْهَرُ به من القراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويُستثنى من ذلك خلاف أهل العلم في قراءة سورة الفاتحة بالنسبة للمأموم، هل تجب عليه قراءتها أم تغني قراءة الإمام لها ؟

أما عند الشافعية فقراءتها ركن في الصلاة، فإذا لم يترك الإمام قَدْرًا لقراءتها فإنه يجب على المأموم أن يقرأها وإن كان الإمام يقرأ من السورة التي بعدها.

وعندهم: تجب قراءتها في الركعات جميعًا، وفي الصلاة الجهرية والسرية، ولا تَسْقُطُ إلا عمن أدرك الإمام وهو راکع فقراءة الإمام تجزئ عنه، وتحسب له ركعة كاملة.

أما عند الجمهور من الحنفية والمالكية والحنابلة فلا تجب قراءة الفاتحة على المأموم وإن كانت الصلاة سرية، وتكفي قراءة الإمام لها، بل عند الحنفية لا يقرأ المأموم مطلقًا وإن كانت الصلاة سرية.

وأنبه هنا إلى أن الخلاف إنما هو في حق المأموم ليستمتع إلى قراءة إمامه، أما الإمام والمنفرد في الصلاة فقراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة في حقهما، ولا تصح الصلاة بدونها، وذلك عند جمهور أهل العلم.

- { وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } {

يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وعباده الصالحين أن يذكروا ربهم في أنفسهم، يعني: سرًّا بينهم وبين الله، بحيث لا يعلمه أحد غيره سبحانه، وَلَا يطلع عليه سواه. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم ".

والحديث يدل على أن ذكر الله في الملأ مطلوب لأن فيه تذكيرًا للناس وَوَعظًا وإرشادًا، وفيه إظهار لشعيرة عظيمة من شعائر الإسلام، فلا يخفى عليكم ذلك يا أهل الإمامة والمواعظ والتذكرة والتعليم.

وأما ذكره في النفس والحرص على الأسرار في ذلك فهو مطلوب كذلك، وهو أدعى للإخلاص والقبول، وأبعد عن الرياء والنفاق وأمراض النفوس، حتى إن بعض العلماء يستدل بهذه الآية وهذا الحديث على جواز ذكر الله في القلب دون تحريك اللسان، وهو قول جَمْعٍ منهم.

{ تَضَرُّعًا } يأمر الله تعالى بذكره والثناء عليه، ودعائه وتمجيده، وتسبيحه وحمده تَضَرُّعًا، والتضرع يكون قائمًا على التذلل والاستكانة وتمام الاستسلام للرب جل وعلا. يعني: يكون في ذكرك الرغبة والرغبة، والخوف والرجاء، والتعظيم والمحبة. وقد تقدم معنا مزيد بيان للتضرع في تفسير قول الله في السورة: " ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " [الأعراف: 55].

{ وَخِيفَةً } ويرشدنا جل وعلا إلى أن نذكره خيفةً، أي: أن نكون حال ذكره خائفين وجليين، والخوف هنا يكون من الله، ومن أن تُرد أعمالنا في وجوهنا ولا تقبل إذا لم نحسن فيها، ومن عقوبة الله لنا على ذنوب تجرأنا فيها. قال الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ " [المؤمنون: 56-61].

{ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } أي: واذكروه ذِكْرًا متوسطًا بين الجهر والإسرار، ولا ترفعوا أصواتكم كثيرًا فإن ربكم سميع قريب مجيب، ولهذا لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَقْرَبُ رَبَّنَا فَنَنَاجِيهِ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله: " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ " [البقرة: 186].

وقد مرَّ معنا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس اربُّعُوا على أنفسكم»¹⁰⁴، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إن الذي تدعون سميع قريب."

نزلت هذه الآية في مكة التي كان فيها معاندون جاحدون، وكان فيها متربصون بمجالس القرآن ليؤذوا أهلها، فكان الآية تأمر نبينا صلى الله عليه وسلم والصحابة أن يداوموا على تلاوته ويُسمِعوا بعضهم، وأن لا يجهروا به أمامهم لئلا ينال القرآن ما لا يليق به من شتم أهل الشرك وسطوة ألسنتهم، ولئلا يسبوه أو يسبوا من أنزله أو من أنزل عليه.

{ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ } أكثر أهل العلم على أن الغدو يكون أول النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وهو خير أوقات أذكار الصباح وأنفعها، فإن قالها بعد طلوع الشمس فإنه يصح إلى وقت زوال الشمس، أي: إلى قريب من صلاة الظهر.

وأما الأصال فيبدأ وقتها من العصر إلى المغرب عند أكثر أهل العلم، وهو خير أوقات أذكار المساء، وله أن يقولها بعد غروب الشمس. ومن أهل العلم من قال: يبدأ وقت ذكر الله في الأصال بعد الظهر.

قال الله تعالى: " فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ " [طه: 130]، وقال سبحانه: " فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ " [ق: 40-39].

{ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } فيه إشارة إلى أهمية كثرة الذكر وعظم شر الغفلة عنه، وفيه إشارة إلى التحذير من هجر القرآن، فلا تغفلوا أيها الناس عن تلاوة القرآن وعن تدبُّره وعن طاعة الله بما أمر فيه، وعن تحكيمة وجعله شريعة للبلاد والعباد.

¹⁰⁴ يعني: ارفقوا بأنفسكم وأخفصوا أصواتكم.

لا تغفلوا عن ذكر الله والإكثار منه، فالذاكرون لله مفلحون غير خاسرين، وقد أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا، والله يذكرهم في الملاء الأعلى ويباهي بهم الملائكة إذا ذكروه.

وذكر الله يجلب للقلب الفرح والسرور، ويبقي العبد من الشيطان ويحفظه، ويحط الخطايا ويذهبها، ومنافعه وفوائده للعبد كثيرة. قال الله تعالى: " أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " [الزمر: 22].

الذاكرون لله هم أولو الأبواب الذين لا ينقطعون في حال من أحوالهم عن هذه الطاعة العظيمة، يذكرونه صباحهم ومساءهم، وفي الصلوات وأعقابها، وعند دخول المسجد، وعند النوم، وعند الانتباه منه، وعند الفزع فيه، وعند تناول الطعام وبعده، وعند ركوب الدابة، وعند السفر، وعند المصيبة، وعند الهم والحزن، قائمين وقاعدين ومستلقين. قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا " [الأحزاب: 41-42]، وقال سبحانه: " فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [الجمعة: 10].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله ؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات ".

وقد وصف الله تعالى المنافقين في كتابه بأنهم قليلو الذكر لله تعالى وغافلون عنه، وذلك في قوله سبحانه: " إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا " [النساء: 142].

- { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } -

لا تحزنوا يا أهل الإيمان من قلة استجابة من حولكم، ومن غفلتهم العجيبة، وامضوا في عبادتكم ودعوتكم، وسبحوا واذكروا الله كثيرًا، واستحضروا أن معكم ملائكة الله في عليائه، لا تستكبر عن عبادة خالقها بل تبادر وتسارع، وتسبح بحمده ليلها ونهارها، وتسجد له سجودًا تعدل لذته الدنيا وما فيها. قال الله تعالى: " وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ "

(49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " [النحل: 49-50]، وقال سبحانه: " وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُتُونَ " [الأنبياء: 19-20].

الذين عند ربك يا رسول الله هم الملائكة العظام، وهم لا يتكبرون على السجود، بل يسارعون ويدعون وينقادون، وتراهم يسبحون الله بالقول والاعتقاد، وينزهونه عن صفات النقص، لا يفترتون عن ذلك أبداً، وتراهم يسجدون لله وحده لا كالمشركين الذين انحطوا في معتقداتهم فسجدوا لغير الله.

أخرج أحمد وابن ماجه والترمذي بسند حسنه غير واحد من العلماء، عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أطَّت¹⁰⁵، وحُقَّ لها أن تَطَّط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَكٌ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُشَات، ولخرجتم إلى الصُّعُدَات تجأرون إلى الله ".

وأخرج البخاري ومسلم في حديث معراج نبينا صلى الله عليه وسلم، ووصلوه إلى السماء السابعة، قَوْلَه: " فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ".

ومعلوم لديكم أن هذا أول موضع في القرآن فيه سجدة تلاوة بحسب ترتيب السور، وهذا السجود مشروع في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: " كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد، حتى ما يجد أحداً مكاناً لموضع جبهته ".

وفي السجود هذا إرغام للشيطان وطرد له، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان بيكي، يقول: يا ويلي؛ أمر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار ".

¹⁰⁵ يعني: اهتزت وتحركت من ثقل ما عليها.

وسجدة التلاوة مندوبة ومستحبة عند جمهور أهل العلم للقارئ والمستمع، داخل الصلاة وخارجها، خلافاً للأحناف الذين يوجبونها.

وعدد سجديات التلاوة في القرآن خمس عشرة سجدة عند جمهور أهل العلم، وفي ثبوت بعضها خلاف، ولكن السجدة التي في سورة الأعراف متفق عليها ولا خلاف فيها.

والطهارة واستقبال القبلة وستر العورة من شروط صحة سجود التلاوة في المعتمد من المذاهب الأربعة، ومن أهل العلم من ذهب إلى أن الطهارة واستقبال القبلة ليست شرطاً إذا كانت السجدة خارج الصلاة.

وفيما نقوله في سجود التلاوة وندعو به، أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجود القرآن بالليل: «سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته». وأخرج الترمذي وابن خزيمة بسند حسن غير واحد من العلماء عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة، فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم سجدة، ثم سجد، فقال ابن عباس: فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.»

ما أجمله من ختام للسورة، ينقلنا من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، وينقلنا من ملكوت الأرض إلى ملكوت السماء الذي إذا طافت فيه الأرواح والعقول ارتاحت واطمأنت، وفقهت عن الله مراده من خلقها.

ما أجمله من ختام نستحضر معه قصة بدء الخلق التي جاءت في أول السورة، ونستحضر أحوال أهل الجنة والنار التي جاءت بعد ذلك، ثم نستذكر قصص أنبياء الله مع أقوامهم والتي أضاءت لنا طريق دعوتنا، ثم الوصايا التي أوصتنا بالقرآن وذكر الله ولزوم طاعته، وكأن هذا الختام يقول لنا: سترجعون أيها المؤمنون القائمون بدين الله إلى جنته، وستجتمعون بالملائكة التي لازمتمكم وأعانتكم في حياتكم، وسترون أنبياء الله الذين كانوا خير قدوة لكم، وعلى رأسهم حبيبكم وقرّة عيونكم محمد صلى الله عليه وعلى إخوانه جميعاً وسلم.

قوموا إلى سجدتكم في هذه الآيات واسألوا الله فيها من واسع فضله، ووطنوا قلوبكم وأعمالكم على أن تسير مع ملكوت السماوات والأرض، ومع خَلْق الله العظيم، وتشبهوا بالملائكة، واتبعوا نبيكم صلى الله عليه وسلم، وغيظوا أهل الشرك، واسجدوا، ولا تخافوا ولا تحزنوا، والموعود الجنة. قال الله تعالى: " إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ " [السجدة: 15].

جعلنا الله جميعاً ممن ائتمر بأمر الله، ومن اجتنب المحارم، ورزقنا الثبات حتى الممات، والحمد لله رب العالمين.

ولا يحضرني في ختام تفسير سورة الأعراف إلا قولُ الله تعالى: " وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " [النساء: 113]، فله الحمدُ أولاً وآخراً، وله الفضل والمنَّةُ، وأسأله سبحانه أن يعينني وإياكم على حمل أمانة تبليغ الدين الذي تعلمناه، والذبِّ عن حياضه، وشكره على ما أنعم به وأكرم، والحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نبي الرحمة والهدى محمدٍ، وعلى إخوانه من الأنبياء والرسل، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن حمل رايتهم وسار على هداهم إلى يوم الدين.